سياسة K A M A L   A T A T U R K

Twitter: @iAbubader
15.11.2013

الرجل الصنم
مصطفى كمال أتاتورك



حياة رجل ودولة



ضابط تركيّ سابق

ترجمة: عبد الله عبد الرحمن



الرجل الصنم

مصطفى كمال أتاتورك

حياة رجل ودولة

ضابط تركيّ سابق



ترجمة: عبد الله عبد الرحمن

الرجل الصنم

مصطفى كمال أتاتورك

حياة رجل ودولة



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،

بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة ، بناية 34

◆

الرجل الصنم

حياة رجل ودولة/ ضابط تركي سابق

تأليف: مصطفى كمال أتاتورك

ترجمة: عبد الله عبد الرحمن

الطبعة الأولى 2013

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب

الصف الضوئي: إيمان زكريا، عمان هاتف: 097/534156

الطباعة: ديمو برس

مقدمة المترجم

إن هذا الكتاب سيكون بالتأكيد مفاجأة كبيرة بالنسبة للكثيرين...

ذلك لأنه يقدم لهم شيئاً لا يتوقعونه...

شيئاً مخالفاً لكل ما قرأوه أو سمعوه فترسخ في أذهانهم كحقيقة لا يشكون في صحتها..

إن المرء لا يملك إلا أن يتذكر الحكمة القائلة من أن الناس مستعدون لتصديق كذبة سمعوها ألف مرة أكثر من استعدادهم لتصديق حقيقة لم يسمعوها إلا مرة واحدة.

ولكنه بالرغم من هذا فإن الحق يستطيع أن يشق طريقه بين ركام الأضاليل، ويستطيع أن يعلو ويظهر.

يستطيع الحق ذلك مستمداً القوة من طبيعة الحقيقة التي يتصف بها، ومن طبيعة الوضوح الذي يلجم مخالفيه ويُفحم معارضيه.

يستطيع الحق أن يفوز في كل صراع يدور مع الباطل... ولكن بشرط واحد...

بشرط أن يتوفر هناك صراع شريف، ويتوفر هناك الجو الذي يستطيع فيه الحق أن يقول كلمته.

إن السبب الكامن وراء كل تزييف للحقيقة هو أن جميع الأبواب والمسالك والطرق تسد في وجه جميع الآراء، وتكمم جميع الأفواه، ولا يبقى سوى رأي واحد يُسمح له بالوجود حيث تفتح أمامه جميع الأبواب وتسخر له جميع الأبواق، ويظل هذا الرأي يتردد ويتردد لسنوات حتى يترسخ في الأذهان كحقيقة لا سبيل إلى نقاشها...

... نوع من أنواع غسيل المخ.

ماذا كنا نقرأ عن ستالين؟

وكيف صوروا لنا ستالين أثناء حياته؟

وكيف قدموه لنا؟

الأب الحنون ستالين وهو يحمل طفلته... بابا ستالين؟ هكذا قدموه إلى مئات الملايين من الناس... داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه طيلة سنوات وسنوات.

ثم ظهر أنه كان سفاحاً وجلاداً، دموي المزاج، ديكتاتوراً لا يسمع رأي أحد، وأن إصراره على رأيه وعناده أودى بحياة أكثر من 5 ملايين من الروس عندما لم يصدق التقارير المتتابعة التي كانت تصله من أجهزة المخابرات الروسية حول نية هتلر في الهجوم على الاتحاد السوفيتي وحول مظاهر هذه النية من الحشود العسكرية الضخمة الألمانية على الحدود الروسية.

وماذا عن الرفيق العظيم بريا؟... ثم كيف كانت نهايته؟

وهذه هي المشكلة نفسها بالنسبة لسيرة حياة مصطفى كمال، قبض على الحكم -بعد سلسلة من المناورات- بيد من حديد وأقام نظاماً ديكتاتورياً تحت لافتة الجمهورية وقدّم نفسه على أنه منقذ تركيا وبانيها، أما القواد الكبار الذين قادوا حركة التحرير فقد تُركوا لزوايا الإهمال...

ومشكلة الكشف عن الهوية الحقيقية لمصطفى كمال أعقد من قضية ستالين...

فالذين جاؤوا بعد ستالين كشفوا حقيقته.

أما الذين جاؤوا بعد مصطفى كمال فقد عملوا على العكس، أصدروا قانوناً لحماية مصطفى كمال من أي انتقاد ولا يزال هذا القانون سارياً حتى اليوم.

قانون غريب في بلد يدّعي أنه يسير على النهج الديمقراطي، قانون يكمم الأفواه، ويمنع مناقشة الحقائق.

وهو دليل العجز... والخوف من انكشاف الحقائق.

تستطيع في تركيا اليوم أن تقدح في ذات الله وفي الرسل والأنبياء والناس أجمعين وبجميع الكتب السماوية وغير السماوية وبكل شيء... ولكنك لن تستطيع أن تقول حرفاً واحداً ضد مصطفى كمال.

لقد جعلوا منه صنماً في حياته وبعد مماته.

وهم يحاولون اليوم أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق.

* * *

والحقيقة أننا نستطيع أن نكتشف في شخصية مصطفى كمال جميع آثار الهزيمة النفسية التي تتبع الهزائم الكبيرة للأمم عادة.

شعور عميق بمركب النقص، واشمئزاز من النفس ومن الماضي ومن جذور الأمة وقيمها الروحية ومن نظرتها إلى الحياة وإلى الوجود وتحميل هذه القيم والأفكار أسباب التأخر والهزيمة دون أي تمحيص أو تدقيق أو محاسبة أو تحليل.

ثم إعجاب لا حدَّ له بكل قيم الحضارة الغربية الغالبة...

كانت قضية واضحة عند مصطفى كمال... وبسيطة كذلك.

إن كل ما نعاني منه هو بسبب القيم والأفكار الإسلامية، وأن طريق الخلاص هو في طرح هذه الأفكار وفي اتباع الغرب...

إذن فالمسألة واضحة... كما أن الوصفة جاهزة.

وصفة سطحية ومبتذلة... وجاهلة كذلك.

وصفة لم يفرزها الفكر والتمحيص... بل أفرزها الشعور بالمذلة والهوان، والشعور بالانذهال تجاه الأمة الغالبة.

يقول المؤرخ المعروف أرنولد توينبي إن هناك نوعين من السلوك تسلكهما الأمة عندما تُغلب أمام أمة أخرى أو عندما تقع في وضع خطر يهدد كيانها:

إما أن تتقوقع على نفسها... وهنا يعطي مثالاً لذلك من الحركة السنوسية في شمال إفريقيا والحركة الوهابية في الجزيرة العربية.

أو أن تقلد الأمة الغالبة... وهنا يعطي مثالاً لذلك من حركة محمد علي باشا في مصر وحركة مصطفى كمال في تركيا.

ومع أن توينبي يفضل السلوك الثاني على الأول، إلا أنه لا يوافق عليه أيضاً، بل يعتبره سلوكاً خطراً ويقول بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف. ذلك لأن التيار سيجرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد.

ثم يضيف قائلاً بأن السلوك الثاني يحمل في طياته خاصيتين سيئتين:

الأولى: أن هذا السلوك يخلو من الإبداع، لأنه مجرد تقليد أعمى، وهو لا يضيف شيئاً جديداً.

الثانية: أنه يبقى منحصراً في طبقة معينة، أي أن محاولة التقليد هذه تبقى منحصرة في فئة صغيرة من مدعي الثقافة ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ولا تنزل إلى صفوف الشعب.

والذي يتمعن في حركة مصطفى كمال يرى العجب في المدى الذي وصل إليه في تقليد الغرب:

غيّر الأحرف التركية إلى الأحرف اللاتينية.

غيّر القيافة إلى القيافة الغربية.

غيّر حتى الأعياد الدينية[1]، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلاً من يوم الجمعة، ومنع الحج.

بل منع حتى من إذاعة الموسيقى التركية والأغاني التركية والموسيقى الشرقية من الإذاعة، وصدرت أوامره بأن تذاع الموسيقى الغربية[2] فقط !!

وعلى أي حال فليس في نيّتنا أن نقوم نحن بتحليل شخصية مصطفى كمال أو تحليل سيرته، فإن هذا الكتاب سيقوم بهذه المهمة، ولكننا نريد أن نشير هنا إلى ناحية مهمة تتعلق بالتاريخ المكتوب حول حياة مصطفى كمال:

لم يكن من الممكن أبداً لا في حياة مصطفى كمال ولا بعد وفاته من القيام بكتابة أي كتاب أو تحليل موضوعي حول مصطفى كمال، لذلك فقد امتلأت المكتبات في تركيا بنوع واحد من الكتب التي تبحث هذا الموضوع، وهو كتب المديح والثناء بدون حساب، وعندما يكون هناك سيف مسلط على الرؤوس في موضوع ما فإن الحقيقة تضيع.

أما في البلدان العربية فلم يُنشر شيء كثير حول مصطفى كمال سوى بعض التراجم عن كُتّاب غربيين، وقد كان من الطبيعي أن يرى هؤلاء في مصطفى كمال «رجلهم

---

(1) ألغيت أعياد الفطر وعيد الأضحى لعدة سنوات، ولكن حكومة إينونو تراجعت فيها بعد وأرجعتها بعد أن رأت تمسك الشعب بهذه الأعياد.

(2) بعد سنوات من هذا المنع أصدر أمره بالسماح بإذاعة الموسيقى والأغاني التركية من الإذاعة... وصدر أمره هذا في جلسة شراب! إذ كان يوماً في مجلس شراب في فندق «بارك» فحنَّ لسماع الأغاني التركية القديمة فاستدعى المطرب التركي المعروف «نور الدين سلجوق» حيث طرب من أغانيه غاية الطرب -ويقال إنه بكى- ومن جلسة الشراب هذه أصدر أمره بإذاعة الأغاني التركية.

المنشود»، فهو الرجل المعجب بالغرب إلى حدِّ الانبهار وهو الرجل الذي هدم الخلافة التي كانت مصدر قلق كبير للغرب.

وهنا نريد أن نقدم وثيقة مذهلة تبين مدى ارتباط مصطفى كمال بالغرب وبالإنكليز بالذات، وهو موضوع ستجدون تفاصيل كثيرة حوله في الكتاب.

إليكم الوثيقة التي ننقلها بنصها الحرفي من جريدة الأهرام التي قامت بنقلها من جريدة «صندي تايمز». في يوم الخميس، 16 ذي القعدة 1387 المصادف لـ 15 فبراير (شباط) 1968 تحت عنوان:

كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية.

نشرت «صنداي تايمز» صفحة من أغرب صفحات أسرار التاريخ الدبلوماسي بعنوان «كيف رفض رجلنا أن يحكم تركيا».

قالت الصحيفة إنه في نوفمبر 1938 كان كمال أتاتورك رئيس تركيا يرقد على فراش الموت، وعلى امتداد 15 سنة حاول أتاتورك بدكتاتورية صارمة أن يجرجر تركيا رغم أنفها ويدخلها إلى القرن العشرين، ومنع لبس الطربوش والحجاب وحطم سلطان الدين وأدخل نظام اللغة التركية بالحروف اللاتينية.

وعندما رقد أتاتورك على فراش الموت كان يخشى ألا يجد شخصاً يخلفه قادراً على استمرار هذا العمل الذي بدأه فاستدعى السفير «بيرسي لورين» السفير البريطاني إلى قصر الرئاسة في اسطنبول. أما ما دارَ بينهما فقد ظل سراً أكثر من ثلاثين عاماً، وها هو اليوم يُكشف النقاب عنه -لأول مرة- على يد «بيرز ديكسون» عن حياة والده «السير بيرسون ديكسون» فقد كان بين أوراق ديكسون برقية بعث بها بيرسي لورين إلى اللورد هاليناكس وزير الخارجية، وربما كانت هذه البرقية أغرب وثيقة تاريخية في التاريخ البريطاني المعاصر على الإطلاق. ففيها يروي لورين تفاصيل مقابلته غير المألوفة مع الدكتاتور المحتضر: «عندما وصلت... وجدت صاحب الفخامة يجلس في فراشه تسنده بعض الوسائد ويحيط به طبيب وممرضتان... وما أن دخلت حتى صرف الرئيس الطبيب والممرضتين قائلاً لهم

إنه سيضرب لهم الجرس إذا احتاج لهم، وعندئذ بدأ فخامته يتحدث ببطء ولكن بعناية شديدة وقال لي إنه أرسل في طلبي لأنه يريد أن يطلب مني طلباً عاجلاً راجياً أن أعطيه جوابي عليه بطريقة قاطعة.

ولقد كانت صداقتي ونصيحتي إليه هي الوحيدة التي كان يحفل بها ويقدرها أكثر من أية نصيحة أخرى لأنها كانت ثابتة لا تتغير، وكان هذا هو السبب الذي جعله يستشيرني في مناسبات متعددة... بحرية تامة كما لو كنت وزيراً في مجلس الوزراء التركي.

وقد كان من سلطاته كرئيس للجمهورية أن يختار خليفة له قبل وفاته. وقد كانت أخلص رغبة له هو أن أخلفه في منصب الرئيس ومن ثم فقد كان يريد أن يعرف رد فعلي لمثل هذا الاقتراح.

وبعد بضع دقائق من التفكير الصامت قلت لفخامته إن جوابي هو أنني عاجز تماماً عن أن أجد الكلمات التي تعبر عن مشاعري بصدق أو بما فيه الكفاية! وبالفعل فقد كانت مشاعري في هذه اللحظة مهزوزة بأعمق مما أستطيع أن أذكر أنني أحسست به من قبل في أي وقت آخر من حياتي.

فبهذا الاقتراح طال فخامته لوناً فريداً من الثناء والمديح لا بشخصي أنا فحسب وإنما للسياسة الخارجية لحكومة صاحب الجلالة... ولكنني كنت أشك تماماً فيما إذا كانت أفضل ملكاتي تتركز في المقدرة الإدارية. كما أن مسؤوليات رئيس الجمهورية التركية تختلف تماماً عن مسؤوليات السفير البريطاني وأضفت أنني أشعر بأن قدراتي وتجربتي تليق أكثر ما تليق باستمراري في صفتي الثانية... وعلى ذلك فإنني لا أجد سوى أن أعتذر آسفاً، ولكن بحزم.

وعندما انتهيت من حديثي ظهرت على الرئيس علامات التأثر الشديد ومالَ بظهره إلى الوسائد ودقّ الجرس للممرضات اللواتي أعطينه دواء، وعندما استعاد فخامته مقدرته على الكلام قال لي إنه يفهم تماماً الأسباب التي دعتني إلى اتخاذ هذا القرار، وقد كان رقيقاً كعادته عندما أضاف أنه بالرغم من خيبة أمله الشديدة فقد كان هذا هو الجواب الذي ينتظره مني ولهذا فقد قرر أن يعيِّن عصمت إينونو بدلاً مني.

وتساند أتاتورك ورفع جسمه على منكبيه وشدّ على يدي وشكرني على ما فعلته في سبيل تدعيم الروابط والصداقة الإنجلو-تركية، ثم غطس مرة أخرى بين وسائده مغشياً عليه وعندئذ أحسست بأن الأفضل هو أن أنسحب».

وختم بيرس لورين برقيته لوزير خارجيته بقوله:

«وأكون شاكراً لكم لو تلقيت منكم يا سيادة اللورد رسالة تتضمن موافقتكم على الموقف الذي اتخذته ورجائي إبلاغ الملك».

لن نعلق بكلمة أخرى على هذه الوثيقة المذهلة...

نترك ذلك للقارئ.

* * *

أما عن مؤلف الكتاب فإننا معذورون عندما لا نستطيع حالياً التصريح باسمه، وذلك لكي نجنبه هو وأفراد عائلته محناً وآلاماً ومضايقات كثيرة.

ولكننا نعد بأن نكشف عن اسمه عندما تتغير الظروف، وذلك خدمةً للحقيقة وللتاريخ.

ونأمل أن لا يكون ذلك بعيداً.

أما لماذا اختار المؤلف عنوان «الرجل الصنم» عنواناً لكتابه، فهو كجواب على كتاب مشهور في تركيا كتبه أحد الكُتّاب المتزلفين بعنوان «الرجل الأوحد».

المترجم
عبدالله عبدالرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

إن مؤلف هذا الكتاب رجل متمسك بالإسلام، لذلك أليس من حقه تناول موضوعه بنظرة إسلامية واعتبار أن الحقيقة لا تتجلى إلا من هذه النظرة ومن هذه الزاوية؟

أجل! إن هذا من حقه... ولكنه لا يريد استعمال هذا الحق الذي يسلِّم به المسلمون، ذلك لأنه يريد أن يدين الشخص موضوع البحث من قِبَل الإنسانية بأجمعها لذلك فهو يرجح استعمال طريقة البحث (المجرد والصافي) عن الحقيقة.

إن الطريقة الموضوعية للحقيقة هي إظهار وإيضاح وتفسير الحوادث بحياد، وقطعية المختبر بالاستناد إلى موازين العقل والحس السليم المشترك بين البشر خارج نطاق جميع أشكال المعتقدات وإلى ما توفره هذه الموازين من أحكام وتقييمات.

إن كل مذهب له الحق في أن يقيس هذه الأحكام والتقييمات حسب نظرته إلى الحياة، وحسب مقاييسه في «الخير» و«الجمال» و«الصواب» وأن يصل في هذا إلى نتيجة معينة.

ومع أننا لا نحاول إخفاء هويتنا الإسلامية فإننا نتناول أكثر القضايا حساسية وإيلاماً، بالنسبة إلى المسلم بأسلوب مقاييس البداهة الإنسانية وندعم هذه القضايا بالبراهين.

وبهذا الأسلوب نعتقد أننا نقدم لقضيتنا أكبر خدمة لأننا لا ندع أي مجال لأحد أن يقول:

- انظروا! إنه يفكر بهذا الأسلوب لكونه مسلماً متعصباً.

ولهذا فسيجد كل قارئ في هذا الكتاب النظرة الإسلامية الخاصة بجانب النظرة الإنسانية العامة في كل بحث وفي كل موضوع وسيجد أننا لم ندع مجالاً للاعتراض من هذه الناحية.

أجل! إن تعصبنا للإسلام وإحساس الحق عندنا هو الذي يأمرنا أن لا نبقى تحت تأثير مشاعرنا ونحن نمسك بالميزان في أيدينا. وهو الذي يأمرنا أن نعطي الوزن الصحيح لكل ما نزنه سواءً أكان لؤلؤة أم رملاً، مؤمناً أم كافراً.

إذا قال لنا مسلم: «إن هذا الصندوق يحتوي على سكر» فإننا نصدقه لكونه مسلماً، ولكن إذا قال لنا الشخص نفسه: «دع الإسلام على جانب. وتفضل بفتح الصندوق لكي ترى بنفسك». فإن الحقيقة التي تظهر بهذا الشكل تتجلى للمسلم وللمسيحي ولعابد الأوثان وللملحد بالشكل نفسه، لأنه لا يشترط هنا وجود بصيرة الإيمان بل يكفي وجود البصر الإنساني.

إذن فإننا عندما نعترف من البداية بكل أمانة بأن غضبنا وتقززنا من عدو الإيمان وعدو الإسلام ينبع من إسلامنا ومن إيماننا فإننا لا نريد أن نعطي حكماً أو تقييماً إلا بعد سرد البديهيات أمام كل عين... وبعد ذلك فقط نستطيع أن ندع للضمائر أن ترى ماذا يعني هذا الحكم والتقييم بالنسبة إلى المسلم. وفي كتابنا هذا سنستعمل ثلاثة عناصر في الاستدلال أو في الإثبات عندما نتناول الوقائع: الوثائق القاطعة، التواتر، قرينة الشك،

وعند تفسير الحوادث والتعليق عليها ستسير النظرة الإسلامية مع المنطق البشري العام السليم جنباً إلى جنب كما قلنا سابقاً.

لكي تظهر القضية بكل نصاعة ووضوح كنتيجة لمعيار فكري ذي صفة علمية وموضوعية ومستند على المشاهدة فإن تشخيصنا عندما ينتهي إلى تقييم لوحات من الفظاعة والشناعة (سواء بالنسبة إلى النظرة الإسلامية أو بالنسبة إلى النظرة البشرية العامة) فإننا سوف لن نقترب إلى أسلوب عاجز وأسلوب فظ من السب والشتم.

إننا في مقام الجراح أمام منضدة التشريح، لذلك فمهما تكن عفونة الأجزاء النتنة التي نفتحها بمبضع التشريح، فإننا لا نرى أن استعمال الكلمات النتنة ملائم لشرف مهنتنا وشرف الفكر الذي نحمله. هذا مع العلم بأننا نؤمن بأن أفضل أسلوب في عرض المعاني والمناظر الملوثة (التي لا يمكن التعبير عنها بأية كلمة من كلمات الاشمئزاز) هو عرضها كما هي أمام الأنظار وتقييمها بأسلوب علمي.

وليقيننا بأن عناصر الشر والتلوث جميعها التي تُستعمل أسماؤها في التعبير عن الفكر ستبقى بالنسبة إلى موضوع بحثنا صافية ونقية كماء المطر، فإننا نخشى أن نحاسب من قِبَلها يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى، إن استعملناها في التعبير عن مثل هذا الشخص.

نحن لا نريد أن نقوم بمجرد سرد لا يتجاوز فن التصوير الفوتوغرافي لقصة حياة، بحيث يبقى هذا السرد بعيداً عن الفكر وعن مركز الشعور كمثل انعكاس صورة غيوم على عيون بقرة ميتة. كما أننا لا نحس بأية ضرورة تلزمنا بتقديم تفاصيل كثيرة عن حياة الشخص الذي نتناوله هنا. لذلك فقد حرصنا على الوقوف على أفضل وأصوب الخطوط -من حياة هذا الشخص- التي تشكل بالنسبة لنا عناصر ومواقف فكرية senters. أما الجوانب الأخرى والتي لا تشكل أهمية معينة فقد ذكرت بخطوط عامة سريعة، ومع هذا فإننا لم نهمل أو نتناسَ أية نقطة قد تظهر أنها مخالفة لوجهة نظرنا بل قدّمنا أرضية واضحة تحيط وتشرح جميع الجوانب.

وفي البناء الفكري الذي أقمناه على هذه الأرضية يوجد كل شيء. وهذا البناء الفكري يريد أن يأخذ على عاتقه هدم بناء الأكذوبة الهائلة التي نشأت على هذه الأرضية وأن يزيحها ليستقر بدلها في مكانها.

أجل! هدم بناء الأكذوبة الأسطورية ذات الطابع الصنمي التي خدعت الأمة التركية البريئة وخدعت العالم الإسلامي البائس الذي تنتمي إليه الأمة التركية بل ربما خدعت الإنسانية كلها... هدمها لإقامة البناء الحقيقي مكانها.

هذا ما نريده.

إن غايتنا هو شق بداية طريق الخلاص لروح الأمة التركية الأسيرة بهدم شخص معين وهدم الهالة التي تحيط به وببعض المعاني والأفكار... ثم وأهم من هذا بيان أخص مقاييس الخلاص الحقيقي لكثير من الشعوب الإسلامية المحكومة بزعماء مزيفين مقلدين لنفس هذا الشخص تقليد القرود.

إن أنجح حركة إمبريالية قام بها العالم الغربي مؤخراً كانت في الضغط على الشرق لإنكار روحه ولتقليد الغرب بدون تدقيق أو مراقبة لكي يمسك الشرق من أعماق روحه لاستغلاله مقابل الاستقلال المادي الكاذب.

ماذا يمكن أن يكون الرد الوحيد والكامل باسم الدين الإسلامي، أمام هذه الحركة الإمبريالية؟

هذا هو السؤال، أما الجواب فهو:

يكون معرفة وفهم ثم هدم هذا الشخص النموذج، (والذي يأخذ هذا الكتاب هذه الوظيفة على عاتقه).. هدم شخصه وتأثيره وآثاره، ويكون بفهم ومعرفة مقلديه الأقزام في العالم الإسلامي.

إذ يجب التنويه بأن كثيراً من زعماء العالم الإسلامي ممن يدعون التقدمية ليسوا سوى نماذج مصغرة لهذا الشخص.

إن هذا الشخص لم يحقق حرب الإنقاذ والتحرير الوطني التركي... ولكننا سنحقق نحن حرب الإنقاذ الحقيقية، وذلك بوضعه هو وكل آثاره داخل دائرة الموت وإماتته موتاً لا بعث بعده.

لتكن عناية الله معنا ولتكن روحانية الرسول مرشدتنا.



الفصل الأول

في طريق سامسون

ماضٍ على الأمواج

سفينة بدون بوصلة:

على رصيف «كالتة»[1] كانت هناك مجموعة تتألف من (8-9) أشخاص بعضهم بلباس القنص وبعضهم بسروال الجولف وبعضهم ببزَّتهم العسكرية... بعضهم بطرابيش وبعضهم بغطاء الرأس المعروف بـ (القلباخ) وحواليهم فئة جاءت للتوديع.

كان واضحاً أن هؤلاء كانوا يتهيأون لسفرة بحرية... وكان سهلاً التمييز بين المسافرين والمودعين، ولكن لم يكن هناك شخص يكون مركز الاهتمام لهذه المجموعة، ومن الواضح من نفاد صبرهم أنهم ينتظرون مثل هذا الشخص.

جاء الشخص المنتظر.

كان رجلاً أشقر يقارب عمره الأربعين عليه سترة رملية اللون وعلى رأسه غطاء.

(1) كالتة: جسر في اسطنبول تبدأ سفريات كثير من البواخر من رصيفه - المترجم.

كان الذي أتى هو مصطفى كمال باشا الذي رقّته الإمبراطورية العثمانية إلى رتبة اللواء.

امتدت الأيدي وتصافحت...

كان مصطفى كمال باشا قد عُيِّن مفتشاً في أحد الجيوش في شرق الأناضول، وكان عليه أن يبحر على ظهر السفينة التي خصصت له مع أعوانه من ضباط قيادته المنتظرين في الرصيف إلى «سامسون» ليبدأ بمهمته.

كان في هيئة قيادته رئيس أركان قيادته العميد «كاظم بك» (أصبح فيما بعد الجنرال كاظم ديريك والي أزمير). وقائد الفرقة العميد رفعت بك (أصبح فيما بعد الجنرال «رفعت بك» الذي كان على رأس القوة الوطنية التي دخلت اسطنبول) والدكتور رفيق بك (أصبح فيما بعد نائباً ثم وزيراً للصحة ثم رئيساً للوزارة) والعميد عارف بك (الذي شُنق أثناء محاولة الاغتيال في أزمير) والمقدم الركن خسرو بك (أصبح فيما بعد نائباً وسفيراً) والدكتور إبراهيم تالي (أصبح فيما بعد نائباً) ثم المرافقون.

سأل مصطفى كمال:

- أليست الباخرة بجانب الرصيف؟

- كلا... بل هي في عرض البحر في الانتظار.

حول مصطفى كمال عينيه الزرقاوين زرقة السماء إلى مياه البسفور جهة قيزقولس[1] حيث تنتظر باخرة قديمة... الباخرة «باندرمة» التي كانت تابعة لإدارة سير السفائن... باخرة صغيرة متحولة إلى أنقاض تقريباً.

- إذن سنركب الزوارق

ركبوا الزوارق وأبحروا.

---

(1) قيزقولسي: فنار في مضيق البسفور - المترجم.

كان رصيف الميناء قد خرج من حالة ركود الحرب العالمية الأولى، إذ أصبح مزدحماً بالبواخر التي تخفق فوق أعمدتها رايات مختلف الدول الأجنبية... وكان أكثر ما يلفت النظر هو انتشار السفن الحربية للعدو اعتباراً من بشكتاش حتى «قيزقولس»... كانت مدافعها كأنها أعلاق أسطورية فاغرة الأفواه متهيئة لمص دماء اسطنبول مبتدئة من جوامعها وقصورها.

في هذا الجو كم كانت «باندرمة» تبدو مسكينة!... كان الدخان الأسود يتصاعد من مدخنتها الصفراء الموجود عليها شعار الهلال والنجمة... إذن فقد كانت هذه الباخرة الصغيرة المسكينة على وشك الإقلاع.

ولكي لا ندع للخيال وللتصوير الأدبي أي مجال فإننا نترك الكلام لمصطفى كمال:

«كانت الباخرة «باندرمة» متهيئة على رصيف «كلتة»... هذا ما أخبرونا به... وقيل بأن أعضاء هيئة قيادتنا سيكونون مجتمعين على الرصيف في ساعة معينة... كانت السيارة أمام البيت وكنت قد انتهيت من التوديع في البيت... في هذه الأثناء جاءني أحد أصدقائي «رؤوف أورباي» حيث نقلني إلى محل عمل وقال بأنه يعتقد حسب الأخبار التي وصلت إليه - أنه إما أنهم سيمانعون في سفري أو أنهم سيغرقون الباخرة في البحر الأسود... أحسست كأن صاعقة نزلت عليّ، ثم جاءني أحد الأشخاص -الذي عمل معي بعد ذلك مدة طويلة كأحد أركان الحرب- وقال لي بأنه سمع الشيء نفسه من أحد أصهار السلطان الذي يعمل في معيَّته. انفردت إلى نفسي لبعض الوقت وفكرت: إنني في يد الأعداء في هذه اللحظة، ألا يستطيعون أن يفعلوا بي ما يشاؤون؟ - هذا ما خطر ببالي في لحظة خاطفة... يستطيعون أن يقبضوا عليَّ ويستطيعون أن ينفوني... ولكن لكي يستطيعوا قتلي فإنهم يحتاجون أن يقبضوا عليَّ وأنا فوق الأمواج الثائرة للبحر الأسود... كان هذا احتمالاً منطقياً. ولكني كنت قد أصبحت في وضع تساوى فيه معي السجن والنفي و الحيلولة دون تحقيق ما أصبو إليه مع الموت. لذلك أعطيت قراري على الفور وركبت السيارة وذهبت إلى رصيف كالتة.

ورأيت أن الباخرة التي حسبتها بجانب الرصيف واقفة على بُعد... فذهبنا إليها بالقوارب، ومع أنني أصدرت أمري إلى القبطان بالإبحار إلا أننا تعرضنا إلى التفتيش قرب «قيزقولس هل كان معنى هذا أن نفراً من الضباط والجنود الأجانب سيقومون بتفتيشنا». والذي ينظر إلى رواحهم ومجيئهم يتساءل هل هناك مخابرات بينهم وبين الموجودين في المدينة؟ إن كانوا يقصدون إلقاء القبض عليَّ فلا حاجة لكل هذا... بدأت أحس بالضجر. قد يكون هناك احتمال التردد أيضاً، وللاستفادة من هذا الاحتمال فقد قلت للقبطان بأن يسرع في التهيؤ للإبحار.

بدأ القبطان العجوز -ذو السبعة والعشرين عاماً من الخبرة- بالتهيؤ للإقلاع، وكنت أنا في محل القبطان... خرج الجنود والضباط... وتحركنا.

وعند خروجنا من مضيق البحر الأسود أخبرت القبطان بالاحتمالات الخطرة فأجاب:

- انظر لسوء الحظ!... فإنني لا أعرف هذا البحر جيداً كما أن بوصلتنا فيها بعض الخلل.

فأوصيته أن يتبع الساحل قدر الإمكان، إذ إن غايتي الوحيدة أصبحت الآن النزول إلى أية قطعة من يابسة الأناضول. وهكذا سرنا بمحاذاة الساحل إلى أن وصلنا إلى «سينوب».

نزلت إلى المدينة حيث تشاورت هناك مع بعضهم وسألت إن كان هناك طريق آمن إلى «سامسون»... لم يكن هناك مع الأسف إذ توقعوا لنا مصاعب كبيرة وانتظار أيام عدة في الطريق. ولا أدري لماذا فقد كنت أستعجل في الوصول إلى «سامسون» بحيث إنني كنت أفضل تحمل المخاطر على خسارة الوقت.

رجعت مرة أخرى إلى الباخرة «باندرمة». وباتباع الطريقة نفسها تابعنا طريقنا إلى أن وصلنا إلى سامسون»[1].

---

(1) مذكرات أتاتورك، فالح رفقي آتاي، ص124-125.

والآن لنقف لحظة أمام بعض الحوادث البسيطة أو غير المهمة والتي أرادوا إلباسها ثوب الحقيقة ولنسقط بلمسة واحدة عن وجهها الديكورات والأصباغ، لأننا نريد أن نشير إلى تشخيص مهم جداً سيكون أساساً في دعوانا فيما بعد:

نفهم من كلام مصطفى كمال بأن ذهابه إلى سامسون كان يغضب الإنكليز... إن الحادثة التي ألبسوها فيما بعد ثوب الأسطورة، والتي بالغوا فيها فيما بعد إلى درجة أنهم صوروا بأن الطوربيدات الإنكليزية طاردت الباخرة «باندرمة» في البحر الأسود.

ولكننا نستطيع أن نحكم -بالاستناد إلى وصفهم هم- بأن الحادثة جرت تحت حماية الإنكليز وليس تحت تهديدهم، وسنبين فيما بعد في موضوع «معاهدة لوزان» بكل وضوح ماذا كانت تعني هذه الحماية الإنكليزية.

لنبرهن أولاً برهاناً قطعياً لا شبهة فيه بأنه لم يكن هناك شيء اسمه التهديد الإنكليزي أو المطاردة الإنكليزية.

إن مصطفى كمال يخبرنا بأنهم قد تعرضوا للتفتيش من قِبَل الضباط الأجانب في عرض البحر قرب «قيزقولس» وأنه كان هناك ذهاب ومجيء لعدة مرات وكأنهم كانوا يخابرون من في مدينة اسطنبول.

ولكنه يقول بأنهم أقلعوا، دون أن يذكر كيف حصل السماح بالسفر في الآونة الأخيرة.

ولا شك أن ضباطاً إنكليز كانوا ضمن الضباط الأجانب الذين صعدوا إلى الباخرة، ذلك لأن الإنكليز كانوا في ذلك الوقت في موقع الرئاسة بالنسبة لقوات الاحتلال.

فهل يُعقل بأنهم لم يعرفوا بأن مصطفى كمال المفتش في الجيش وأركان قيادته هم على ظهر الباخرة «باندرمة» في طريقهم إلى سامسون؟.. إن الرواح والمجيء والاتصال مع الجهات العليا لقوات الاحتلال في المدينة، ثم صدور الإذن بالرحيل يشير إلى أن صغار

الضباط من الأجانب عندما ترددوا جاءهم الأمر أخيراً من فوق بأنه: «يستطيع الذهاب»... أي أن الحادثة لا تدل إلاَّ على السماح والرضا من قِبَل الإنكليز... هذا علماً بأن كتباً عدة وشهادات عدة ذكرت بأن هيئة من الإنكليز كانت ضمن مودعيه على رصيف «كالتة»... فما تفسير هذا؟

ولنفرض أن الإنكليز غفلوا من الوهلة الأولى، ولنفرض أنهم أرسلوا الطوربيدات إلى البحر الأسود كيف لم تستطع هذه الطوربيدات التي كانت سرعتها تتراوح بين 30-35 ميلاً أن تلحق بباخرة عتيقة سرعتها لا تتجاوز 6-7 أميال وأن تلقي القبض عليها... ما هو تفسير وتوضيح هذا؟

كان من الأنسب لهم أن يذكروا هذه الحادثة ولا يقفوا عندها وأن يدعوها تُفسَّر بعدم اهتمام أصحاب السلطة بالأمر، ولكن السبب الذي دعاهم إلى اختراع وجود تهديد ومطاردة إنكليزية هو لنفي وجود حماية سرية من قِبَل الإنكليز، وهو مناورة لإظهار القضية بأنها أثارت العداوة الإنكليزية من بداية الأمر.

وهذا التكتيك يظهر لنا -على الأقل- إحساسهم بوجود معنى خفي تحت الظواهر يحتاج حاجة أكيدة إلى تقديم تفسير له.

وقد شاء الله أن يكون انفضاح أمر صاحبنا بواسطة مناورته وتكتيكه بالذات.

إن التفسير الوحيد الذي يستطيع حل هذا السر هو أن مصطفى كمال كان في نهاية الحرب العالمية الأولى ومنذ توليه قيادة الجيش السابع في سوريا في حالة اتفاق مع الإنكليز.

إن معنى هذا الاتفاق السري والدائم سوف يتضح فيما بعد -كما قلنا سابقاً- بأدلة وقرائن قوية عندما نأتي إلى معاهدة لوزان حيث قطفت فيها ثمار هذا الاتفاق والتعاون.

أما الآن فلنتابع الباخرة «باندرمة» وهي تتابع سيرها إلى سامسون ملازمة الساحل من بعيد في جو عاصف تتقاذفها الأمواج العاتية.

ولتقرأ لـ «شوكت ثريا» -الشيوعي السابق ثم الانتهازي الذي صفق للعهد والذي يظهر كأحد دعاة ومفكري «الكمالية - الكماليوم» والذي ألّف في ثلاثة أجزاء كتاب الرجل الأوحد مصطفى كمال- الأسطر:

«... ولكن المهم لم يكن الأمواج، فالأنظار متجهة نحو الأفق لمعرفة من أين سيأتي الهجوم... أما الأمر الصادر من مصطفى كمال إلى القبطان فهو:

- اتبع خط سير مقارب للساحل على الدوام.

ذلك لكي تقترب الباخرة من الساحل ويصعدوا للبر حالما يظهر الخطر من الأفق. ولكن القبطان المخضرم «إسماعيل حقي دورسن» ذا السبعة والعشرين عاماً من الخبرة ينقصه شيء غير هام، كما أن في الباخرة نقصاً صغيراً... القبطان لا يعرف هذه المياه والباخرة بوصلتها فيها بعض الخلل.

ومن بداية السفرة لزم دوار البحر جميع المسافرين ما عدا مصطفى كمال، انسحب الجميع إلى غرفهم بينما انزوى مصطفى كمال في إحدى الزوايا مستنداً إلى أحد القواطع وهو غارق في التأمل وعيناه تسرحان في الأفق، أما تعيين خط السير فهو على عاتقه تقريباً، لأن القبطان لا يفعل سوى تنفيذ أمره».

يحكي لنا القبطان «إسماعيل حقي دورسن» ذكرياته عن هذه الرحلة بأسلوبه الشيق كما يلي:

- كان الباشا مستنداً على أحد الأركان جالساً وهو في تفكير دائم متصل... هذا التفكير الذي كان أساساً لمتانته الفطرية ولقوة تحمله الخارقة.

وأخيراً يتجاوزون «إنبولي» ثم يصلون إلى ميناء سينوب... وأمام هذه الباخرة... وأمام هذه السرعة... وأمام احتمالات هذه المخاطر يبحثون عن إمكانية مواصلة السفر من «سينوب» بطريق البر، ولكن الجواب الذي يتلقونه في سينوب هو:

- لا يوجد هناك طريق... ولا توجد هناك أية وسيلة.

عند ذلك يقول لهم:

أيها الأصدقاء! ... لم تبق هناك إلاّ ليلة واحدة من الخطر، وسنتحملها.

العودة إلى الباخرة، ومتابعة السفر... تمر الليلة بتوتر وعند فجر اليوم التالي كانت الباخرة «باندرمة» قد وصلت إلى سامسون.

يصف لنا مصطفى كمال هذا الوصول في خطبته الكبيرة:

- في 19 مارس لسنة 1335 (1919) وصلت إلى سامسون[1].

من هذا الرجل؟

من كان هذا الرجل ذو الشعر الأصفر صفرة خيوط الذرة والعينين الزرقاوتين زرقة السماء... ذو الحاجب الذي يتبعثر في نهايته والفم الرقيق كجرح السكين... ذو الوجه الناتئ والجبهة الواسعة والذقن المربع... ذو الرأس الطولاني المتجه إلى الخلف «أي من النوع المسمى: دوليكوسفال»؟ من كان هذا الرجل الذي لا يشبه أي جنس من الأجناس التركية؟

هذا الرجل الذي كان عمره آنذاك 39 سنة كان أحد الباشوات العثمانية، وكان بالرغم من صغر سنِّه عسكرياً قادَ بعض الجيوش في تلك الفترة المملوءة بالآلام من الحرب العالمية الأولى.

كان من سلانيك... أي من الطرف الآخر من الماء... من أتراك روملي الذين يتميزون عن أتراك الأناضول الأصفياء بخطوط مادية ومعنوية... من روملي التي كانت كقدر يغلي فوق تأثيرات خبيثة وخارجية.

---

(1) «الرجل الأوحد» لمؤلفه شوكت ثريا آيدمير، ص339-340.

وماذا عن ذلك؟! لقد كان الموجودون من الطرف الآخر من الماء أتراكاً خالصين بالرغم من كل شيء، بل كانوا في كثير من الأحيان أفضل من أتراك الأناضول... إذن أفلم يكن هذا الرجل منهم؟

أي: ألم يكن هذا الرجل تركياً؟

لا يستطيع أحد ادعاء إثبات العكس... ولكن يمكن القول بكل ثقة وبتشخيص علمي بأنه من المستحيل العثور على مثال آخر تتجمع حول تركيّته الشكوك من ناحية «الأنثروبو-مورفولوجيا» ومن ناحية الخصائص العائلية.

وُلد في سلانيك عام 1880 من امرأة اسمها زبيدة (هناك من يذكر بأنه وُلد سنة 1881 وذلك حسب سجل دفتر النفوس فإن ولادته هي في سنة 1296هـ أي في 1880م).

ونحن معذورون عندما لا نستطيع إعطاء اسم والده على الفور... وعندما يتبين السبب... نعذر عندما لا نستطيع إعطاء اسمه إلى الأبد.

ويقال إن زبيدة كانت آنذاك امرأة جميلة في العشرين من عمرها والمتفحص لصور شيخوختها فحصاً علمياً يدرك بأنها بالرغم من كونها تحمل خطوطاً وسمات مشتركة بينها وبين ابنها إلا أنها لم تكن على الإطلاق شقراء...

بل كانت زبيدة هانم -حسب روايات لم تؤيد ولم تبرهن عليها- من التركمان الذين يدعون بـ «يوروك» والذين هاجروا من قونية أو آيدن إلى «روملي».

أما زوجها علي رضا أفندي الذي يقدمونه ويعرضونه كأب لمصطفى كمال فقد كان متطوعاً -حسبما يُذكر- في صفوف «العساكر الملكية» التي أنشئت سنة 1876 في سلانيك عند إعلان القانون الأساسي الأول برتبة ملازم أول. والذي يتفحص الصورة الوحيدة الموجودة والتي أُخذت له بين منتسبي طابوره العسكري يرى بأن هذا الشخص أيضاً ليس أشقر.. والأهم من هذا أن هذه الصورة عندما عُرضت على مصطفى كمال فيما بعد أنكر أن يكون هذا أباه.

في كتاب (جانكايا، ص17) يقول: «فالح رفقي» (وهو الشخص الذي لازم مصطفى كمال ولم يفارقه والذي دوَّن ذكريات مصطفى كمال في فمه)... يقول -دون أن يفشي وثيقة خطيرة- ما يلي:

«في أغلب الأحيان يظهر هناك من يحاول أن يصطنع ويختلق شجرة نسب أصيلة للزعماء الذين يظهرون في الشرق. على أن مصطفى كمال لم يكن مرتبطاً أو مهتماً بسلفه، ومع أن أحد الضباط الذين تطوعوا ضمن طوابير «العساكر الملية» التي تشكلت في سلانيك عام 1876 في ذكرى إعلان القانون الأساسي في 23 كانون الأول قدم على أنه والد لمصطفى كمال، غير أنه عندما عزلت صورته عن الآخرين، وكُبِّرت وقُدِّمت إلى مصطفى كمال على أمل أنه سيُسر من كون والده مشتركاً في جماعة وطنية كانت غايتها مساعدة أنصار الحرب في اسطنبول... غير أنه ظهر بأنه لم يكن يعتقد بهذا.

بل إنني سمعته بأذني وهو يقول باستهزاء:

- إن هذا ليس بوالدي».

إن هذا المؤلف الذي يخطئ عندما يذكر عبارة «العساكر الملية» بدلاً من «العساكر الملكية» لا يخطئ في بيان أن والد مصطفى كمال كان سراً مجهولاً بالنسبة لابنه وبالنسبة لجميع الناس وإن كان المؤلف لم ينتبه إلى النتيجة التي سيصل إليها بيانه هذا. ويجوز أن مصطفى كمال لم يجد في هذه الصورة ما كان يحتفظ في خياله من شكل والده استنتاجاً إلى وصف والدته له في سني طفولته. ذلك لأن والده المزعوم علي رضا عندما مات نتيجة لأزمة مادية ومعنوية مفجعة كان مصطفى كمال في سن 6-7 سنوات لذلك فهو لم يترك أثراً يذكر في ذاكرته ومن المحتمل أن الوالد الحقيقي له كان حياً في ذلك الوقت ولكنه كان مجهول الإقامة.

وبعد نقلنا لقصة سماع فالح رفقي من مصطفى كمال نفسه قوله: «إن هذا ليس بوالدي» لنقرأ حول الموضوع نفسه من كتاب شوكت ثريا «الرجل الأوحد، الجزء الأول، ص32»:

هناك حادثة غير اعتيادية حدثت لعلي رضا أفندي بعد زواجه من زبيدة بمدة قصيرة وهو اشتراكه كمتطوع في صفوف وحدة عسكرية مساعدة كانت قد تشكلت في سلانيك أثناء الحرب الروسية التركية سنة 1876 وكانت تطلق على هذه الوحدات اسم «العساكر المعاونة» أو اسم «العساكر الملكية».

ففي بداية القرن التاسع عشر (1829) بدأت الاستعانة من حين لآخر بهذه الوحدات العسكرية المساعدة في الحروب بعد القضاء على الانكشارية. والظاهر أن الطابور الذي التحق به علي رضا أفندي كان يطلق عليه اسم «طابور العساكر الملكية» وكان علي رضا أفندي آنذاك يعمل كاتباً في دائرة الأوقاف في سلانيك، وقد توفرت هذه المعلومات عنه عند التدقيق في قضية التطوع هذه.

وعندما التحق بإحدى الوحدات العسكرية المساعدة المشكلة بسبب الحرب فقد عُيِّن برتبة ملازم أول بصورة مؤقتة لكونه يعرف القراءة والكتابة. وإن الصورة الوحيدة الباقية لزوج زبيدة ووالد مصطفى كمال علي رضا أفندي هي صورته المأخوذة له وهو في البزَّة العسكرية برتبة ملازم أول في الطابور العسكري المساعد.

ويظهر أن شوكت ثريا مقتنع تمام الاقتناع بأن صاحب هذه الصورة هو والد مصطفى كمال، لذلك نراه يحاول التفتيش عن الملامح المشتركة بينهما. يقول في (ص33، الجزء الأول) من كتابه «الرجل الأوحد»:

«في هذه الصورة يظهر علي رضا أفندي وعلى رأسه الطربوش الواسع والواطئ المسمى بـ «العزيزية» وبسترته الطويلة ذات الصف الواحد من الأزرار والياقة والكتافية المذهبتان وبحزامه العسكري وهو في وضع الاستعداد العسكري أما بنطلونه فهو بحسب البزَّة السائدة آنذاك بشكل «سروال» يمسك بيده اليسرى غمد سيفه، أما يده اليمنى فهي شاهرة بالسيف في وضع التحية... وهو في وقفته وحاله يظهر كموظف طيب ومؤدب وليس كمحارب أما خطوط وجهه، وخاصة عينيه، فقد نقلها إلى ابنه مصطفى بشبه تدعو إلى الدهشة».

ثم، وفي الصفحة نفسها يشرح لنا كيف أن مصطفى كمال تقبَّل أبوَّة هذا الرجل مخالفاً بذلك ما ذكره فالح رفقي إذ يقول:

«وهكذا يأتي يوم يقص فيه مصطفى كمال من صورة أبيه جزء الطربوش ويكبِّر صورة وجهه ويدقق مواضع الشبه بينه وبين الصورة مع ملاحظة فرق واحد وهو أن سمات علي رضا أفندي وعيونه بينما كانت تمثل موظفاً هادئاً طيباً على قدر حاله فإنه سيأتي يوم تأخذ فيه هذه السمات وهذه العيون عند ابنه مصطفى تلك المعاني العميقة والإرادة القوية التي أسرت العالم بأجمعه».

تأملوا هذا التناقض بين المقالتين...، ثم انظروا إلى التناقض الداخلي في المقالة الثانية التي تذكر أن مصطفى كمال كان يحمل نفس خطوط وجه والده والسمات نفسها، وهذه الخطوط والسمات عند مصطفى كمال تظهر قوة وإرادة آسرة بينما تظهر في الآخر سلوك موظف هادئ طيب.

ونقطة مضحكة أخرى... فقد أدرج «شوكت ثريا» في نهاية المجلد الأول من كتابه المؤَّلف من ثلاثة مجلدات، شجرة نسب ضخمة.

في شجرة النسب هذه يتسلسل جميع من أتوا من نسل زبيدة هانم وعلي رضا أفندي إلى أسفل مكوناً جمعاً ضخماً، أما إلى فوق أي ممن جاءا فلم يستطع أن يظهر إلا بطناً واحداً فقط ثم تنقطع السلسلة.

وينسى هذا المؤلف بأن المهم عندنا ليس من هم أحفاد زبيدة هانم وعلي رضا أفندي، بل المهم من هي زبيدة هانم ومن هو علي رضا أفندي.

أي إن أقل ما يقال بلسان العلم عن هذه المحاولة الغريبة هو أنها محاولة خداع وإيهام.

إن الصورة الوحيدة الباقية لعلي رضا أفندي (الذي لم يقبل به مصطفى كمال أباً له) وقصة موته لتفشي بما لاقاه هذا الرجل المسكين (الذي لم يكن أباً لمصطفى كمال بل زوجاً لزبيدة) من زبيدة من آلام وما تركت في روحه من عُقد.

تزوج من زبيدة عندما كان يعمل حارساً في الجمرك، ثم تقلب في عدة وظائف حتى إنه عمل لفترة في تجارة الأخشاب وبنى في هذه الفترة البيت الوردي المشهور في محلة (حارة) «أحمد سوباشي» في سلانيك (وهو البيت الذي يقال إن مصطفى كمال وُلد فيه). وبعد مدة نراه يدمن على الخمر بسبب كساد تجارته وإفلاسه كما يقال، ويموت من حزنه وكدره.

ونرى أن «فالح رفقي» عبَّر بهذه الحادثة في الصفحة نفسها من كتابه بسرعة واختصار شديد:

كان ربحه في أول الأمر جيداً. وفي هذه الفترة بنى بيته ذا الطوابق الثلاثة في منطقة «إصلاح خانة» ثم عندما ساءت أموره توفي عام 1886 حزناً على خسارته وضيق يده.

أما «شوكت ثريا» فيصف الانهيار النفسي والمعنوي والمادي في صفحة 40-41 من كتابه كما يلي:

«بعد فترة من الأزمة مرَّ بها علي رضا أفندي نراه هذه المرة ضمن إطار عمل أكثر تواضعاً إذ إنه قرر القيام بتجارة الملح. ولكن الظاهر أن الملح بقي متراكماً دون تصريف من متجره أو في مخزنه... بل إن ابنته «مقبولة» -كما تخبر بعد مدة طويلة- تقول بأن الملح ذاب جميعه في المخزن... عند ذلك فقد الثقة بنفسه وفقد الأمل في التجارة. وبدأ من جديد بالبحث عن وظيفة رسمية صغيرة، ولكنه لم يجدها وكان من الطبيعي أن يبدأ بالانهيار، هكذا ترك علي رضا نفسه للخمر بعد أن فقد كل دعائمه... وتبع ذلك المرض إذ أصيب بسل الأمعاء. وبعد ثلاث سنوات قاسى فيها آلام المرض توفي وعمره 47 سنة على الأغلب.

تقول زبيدة عندما تتحدث عن الأيام الأخيرة لزوجها:

كان المرحوم في أيام الأخيرة في غاية الحزن لسوء سير أعماله، لذلك ترك نفسه ليأس ثم بدأ ينحل ويذوب... وبدأ مرض زوجي بالاستفحال... لم يعد هناك أمل في حياته. وعندما أصبحت أرملة كنت شابة بعمر 27 سنة وأجروا لي راتب أرملة مقدار مجيديتين»[1].

(1) مجيدية: عملة فضية كانت قيمتها آنذاك 20 قرشاً - المترجم.

ونعلم من نُقول مختلف الأقلام -حتى من فم مصطفى كمال- شدة المناقشات التي كانت تدور بين علي رضا وبين زوجته زبيدة. ومن الواضح أنه كان يحمل ضد زبيدة عقدة نفسية عميقة أسرعت به إلى الموت. وإذا كان هناك من يشك بأننا نختلق هذا الادعاء للحطّ من شأن أتاتورك، فهل يختلق شوكت ثريا أيضاً وهو الذي لا يحمل غاية سوى تعظيم أتاتورك؟

إليكم الاعتراف الذي اضطر إليه في صفحة 41 من كتابه:

«إن من الأصوب قبول أن علي رضا أفندي ارتحل وهو منهار انهياراً تاماً من الناحية المادية ومن الناحية النفسية والمعنوية كذلك. إذ ليس من الممكن تجاهل العوامل النفسية لأن تأثيرها لم يكن يقل عن تأثير العوامل المادية بحال من الأحوال، ذلك لأن علي رضا أفندي كان شخصاً بسيطاً على قدر حاله، بينما كانت زبيدة أصغر منه سناً بكثير وكانت جميلة جداً. ولكنه لم يستطع أن يسعدها».

ولكن المسألة لم تكن في أنه لم يستطع أن يسعدها بل كون زبيدة لعوبة وكونه لم يستطع تحمل لعوبتها أو قبول الطفل الذي أُريد إلصاقه به، وكونه قد غلبه آخر الأمر هذا الشعور من الحزن.

إن عدم حشمة زبيدة وخفتها ثابتة بشكل متواتر من الجيل الماضي الذي شهد تلك الفترة وتلك البيئة، بل إننا نستطيع أن نستشف هذا من بعض كلمات شوكت ثريا من هذا الكتاب.

يقول شوكت ثريا (ص21) من كتابه السابق:

«كانت زبيدة شأنها شأن النساء الأكثر سناً منها تستعمل البودرة والحمرة ومع أنها لم تكن بحاجة إليها. إلا أن استعمال وسائل الزينة هذه كانت من العادات التي لا يمكن التخلي عنها في ذلك الجو المغلق الذي كانت تعيشه نساء سلانيك -مثلها مثل غيرها من المدن الإسلامية- والذي كانت النساء تتزين بها فقط لأزواجهن».

وفي صفحة 23 من الكتاب نفسه:

«ما إن كانت تقترب ساعة الغروب في حي «أحمد سوباشي» -كغيرها من الأحياء الإسلامية في المدينة الشرقية- حتى كانت تبدأ أغنية النساء المسلمات الشابات في بيوتهن المستورة من كل جانب، أكثر الشواغل إثارة لديهن: التزين... إذ كان التزين يشكل في حياتهن المحافظة أهم ركن يأخذ من وقتهن».

إن سبب وقوفنا المطول على هذا الموضوع الذي لا يشكل تأثيراً مباشراً على بحثنا يعود إلى أنه يوضح ميلاً وعادة عامة ومعنى متناسباً مع أساس بحثنا. ومع عدم وجود وثيقة ثابتة حول هذا الموضوع في أيدينا، إلا أننا نعتقد بأننا لا نخل ولا نحيد عن الطريقة العلمية عندما نحاول جمع القرائن وترتيبها من أجل حل المعالم المجهولة في بحثنا واعتبارها حجة أقوى من حجة الوثيقة.

وهنا سنشير إلى بعض الروايات الخالية من الإنسانية ومن عنصر الحقيقة، سنشير إليها على هذا الاعتبار، على اعتبار أنها روايات وسوف لا نعيرها أية أهمية.

تقول الروايات بأن زبيدة في «لانكايا» -في أطراف سلانيك- حملت من أحد العاملين في مزرعة قريبها حسين آغا.. وتختلف الروايات حول هذا الشخص الأشقر الشديد الشقرة ذي العينين الزرقاوتين -الذي حملت منه- فهو إما بلغاري أو صربي أو روماني ثم أُلصق هذا الطفل بعلي رضا أفندي. ومن البداية لا يأنس «علي رضا» أفندي لهذا الطفل، أما في أواخر حياته فإنه يصبح لا يطيقه على الإطلاق، حتى إنه يراجع دائرة النفوس في سلانيك -ومعه الأعلام من المحكمة الشرعية على الأرجح- لإسقاط قيد الأبوَّة عنه. وتقول بعض الروايات بأنه سجل هذا فعلاً في القيود الرسمية، إلا أن هذه القيود أُزيلت فيما بعد.

ولكون «علي رضا أفندي» لم يطق طوال حياته الزوجية الخلق العابث لزبيدة فقد ساقه هذا إلى الانكباب على الخمر والسُّكْر ليل نهار، ولم يكن طبعه الهادئ يسمح له

بتطليق هذه المرأة التي لم تترك له دوراً سوى كونه ستاراً لفحشها ورذائلها (وإن كانت هناك رواية تقول بأنه طلقها في الأخير فعلاً) لذلك فقد انتهى به الأمر إلى الموت كمداً.

كل هذه الروايات محتملة وتتماشى مع موضوعنا ولكن لا توجد هناك إثباتات وبراهين كافية حولها.

ولهذا فإننا نرى أن الأسطر التي تتناول هذه الناحية في المذكرات القيمة للدكتور «رضا نور»[1] -وهو الشخص الذي كان صديقاً لمصطفى كمال ومتعاوناً معه في سني الكفاح- لا تحتوي إلا على روايات معلقة في الفراغ ومحرومة من كل قيمة من الوجهة العلمية.

يقول الدكتور رضا نور في مذكراته «حياتي وذكرياتي» - المجلد الثالث- صفحة 57:

ويأتي إلى المدرسة الحربية في سلانيك طالبه اسمه مصطفى كمال كان ابناً بالتبني لأحد الحراس العاملين في الجمرك في سلانيك اسمه علي رضا أفندي. وهناك روايات عديدة حول الأب الحقيقي لمصطفى كمال، فهناك من يقول إنه كان صربياً، وآخر أنه

(1) الدكتور رضا نور (1879-1943): طبيب ومؤرخ ورجل سياسة تركي معروف. تخرج في الكلية الطبية العسكرية ثم أصبح أستاذاً فيها. دخل معترك السياسة سنة 1908. توجه إلى الأناضول مشتركاً في حركة الاستقلال. كان رئيساً للوفد التركي الذي عقد معاهدة الصداقة مع روسيا عام 1921. ونائباً لرئيس الوفد التركي المفاوض في محادثات لوزان. انتُخب نائباً في مجلس لنواب في أنقرة وشغل منصب وزير الصحة ومنصب نائب وزير الخارجية في عهد مصطفى كمال. كتب مذكراته تحت اسم «حياتي وذكرياتي» فيما يقارب من 2000 صفحة سرد فيها الكثير من أسرار تلك الفترة من التاريخ التركي. وقد أودع نسخة من هذه المذكرات في فرنسا في Bibliotheque Nationale ونسخة أخرى منها في المتحف البريطاني British Museum. وقد اشترط عدم فتح هذه المذكرات قبل سنة 1960 مبرهناً بذلك بأن الحقد الشخصي أو المنفعة الشخصية لم تكن دافعه عند هجومه أو نقده للكثير من الشخصيات المهمة في ذلك التاريخ. وقد نُشرت هذه المذكرات في تركيا عام 1968 وأحدثت ضجة كبيرة فيها لكونها تسرد الفضائح التي ارتكبها مصطفى كمال آنذاك. وقد صودرت هذه المذكرات في تركيا بأمر من المحكمة، وتعتبر الآن من الكتب المحرَّمة هناك. له عدة مؤلفات طبية وتاريخية أشهرها (التاريخ التركي المفصل والمصور) في 14 جزء - المترجم.

بلغاري. ويزعم أن أمه كانت عشيقته. والنسخة الجديدة من (لاروس[1]: القرن العشرين) تذكر بأن أباه من اليوماك. أما المسنون من أهل «تساليا» فيذكرون ما يلي:

«كانت أم مصطفى كمال تعمل في إحدى المواخير في «سلانيك» وفي أحد الأيام يأتي إلى سلانيك أحد الفتيان المشهورين في مدينة «بني شهر»... واسمه «أبدوش آغا» فيراها ويأخذها معه إلى مدينته وهناك يولد مصطفى كمال كابن حرام وعندما يبلغ مصطفى كمال الخامسة من عمره يموت أبدوش فترجع زبيدة إلى «سلانيك» مع ابنها وعندما يبلغ مصطفى كمال الثانية عشرة من عمره يرجع إلى بلدة أبيه مطالباً بالإرث فيردونه قائلين له إنه ابن حرام. ويدخل مصطفى المدرسة وتتزوج أمه من حارس الجمرك علي رضا.

والغريب أن مصطفى كمال كان يذكر أمه ولكنه لم يكن يذكر أباه أبداً.

والخلاصة أن الروايات كثيرة... فأيها هو الصحيح؟! عندما تكثر الروايات حول شيء فمعنى ذلك أن ذلك الشيء غير معلوم، ولهذا فمتى كثرت النظريات والآراء حول أي موضوع من مواضيع العلم أو الفن أو التاريخ فمعنى ذلك أن ذلك الموضوع غير واضح وغير معلوم.

معنى ذلك أن مصطفى كمال إن لم يكن ابن حرام فإن أباه غير معلوم على الأقل. وحسب تدقيقاتي فإن علي رضا أفندي هو زوج أمه.

وبالإضافة إلى أن مصطفى كمال لم يكن يذكر أباه فإنه كان يعادي كل من يسمعه يتكلم عنه. وهناك عدة شواهد وأمثلة على هذا».

ويذكر الدكتور رضا نور في موضع آخر من كتابه بأن مصطفى كمال قال مرة لأحد حلفائه بأنه: سلافي.

(1) لاروس: اسم دائرة المعارف الفرنسية المشهورة – المترجم.

@iAbubader

وعلى الرغم من كل شيء فالأسطر السابقة توضح عدة أمور مهمة وهي أن مصطفى كمال كان لا يذكر أباه ولا يدع أحداً يذكره وأن الروايات والأقاويل كثيرة حول أبيه وأننا لا نعرف الصحيح منها ولكننا لا نجد هنا دليلاً علمياً على كون علي رضا زوجاً لأمه (أي على عدم كونه أباً له بل زوجاً لأمه) وأخيراً فإن كل ما يمكن أن تؤدي إليه الأسطر السابقة ليست سوى من قبيل أنه لا دخان بدون نار، وليست إلا سرد لروايات للتفسير والتأويل. وبدلاً من إثبات ما يقال تثبت أن هناك ما يقال.

أما طريقنا نحن -بالإضافة إلى المصادر التي تلتزم جانب أتاتورك- فهي الوصول بطريقة علمية إلى استدلال يصعب جداً جرحه وذلك بالاستناد إلى وقائع واضحة لم تعط لها حتى الآن معانيها الصحيحة.

نستطيع تلخيص استدلالاتنا في خمس نقاط:

1- من الناحية الأنتروبولوجية فإن مصطفى كمال بشقرته الشديدة، وبعينيه الزرقاوتين وخاصة بجمجمته التي هي من نوع (دوليكوسفال) هو نمط سلافي وبعيد أكثر ما يكون البُعد من العنصر التركي.

2- لما كان من المستحيل أن ينتج نمط «دوليكوسفال» من أبوين كلاهما من نمط «براكيتفال» فالصور كافية لمعرفة نمط الرأس أو الجمجمة، ولما كانت ناحية الأم معلومة لأنها والدته، فإن انتسابه إلى والده يكون مشكوكاً فيه إلى درجة الاستحالة.

3- إن حياة والده تظهر حرمانه المادي والمعنوي من الهدوء والألفة العائلية. وهي تعلن بأن عدم الاستقرار هذا يعود إلى اضطراره للظهور بمظهر أبٍ لطفل ليس بابنه.

4- وأن حياة والدته وشهرتها تؤيد كل الشكوك.

5- وأخيراً فإن السكوت المشبوه الذي لزمه مصطفى كمال حول والده -لكونه على التأكيد يعلم أموراً ما- يجمع كل الشكوك والشبهات ويؤيدها.

قد لا تكون كل نقطة من هذه النقاط تحمل بمفردها إثباتاً علمياً.

ولكن هذه النقاط عندما تجتمع مع بعضها تغني عن الإثبات المادي الذي يمكن تحسسه باليد أو مشاهدته بالعين.

وتدل على الأصل المشبوه لمصطفى كمال. ويشبه هذا موقف من يرى آثار أقدام على ثلج جديد أمام مغارة فإنه لا بد أن يقتنع بوجود وحش ما داخل المغارة.

إن النتيجة العلمية هي:

إن نسبة احتمال كونه تركياً تقل بكثير عن نسبة الخمسين من مائة، أما نسبة الاحتمال في أنه لم يكن ابناً للرجل الذي يقدمونه كأب له فتتجاوز نسبة التسعين من مائة.

هذا بينما هو يحمل اسم «أتاتورك» أي: أب الأتراك، كما أنه صاحب القول المشهور: «ما أسعد من قال إنني تركي».

والآن إليكم أدق تقييم:

أخيراً ماذا يعني هذا البحث الذي وقفنا عليه بهذا الحرص وما الفائدة منه؟

قبل قليل سجلنا فائدته، ولكن ما الداعي إلى التأكيد على شيء لا يؤثر تأثيراً مباشراً على موضوعنا الأساسي؟ إذن لا بد من إعطاء معنى معين جديد، وإلاّ فهل خلت الدنيا من أبناء حرام تركوا في كل ساحة وفي كل موضوع آثاراً ضخمة؟ وهل يمنع كون إنسان ما «ابن حرام» أن يعطي أثراً على نطاق عالمي أو أن يصل إلى مرتبة إنقاذ الوطن؟ ..

إذن؟

إذن هاكم المعنى الجديد:

إنه تجلي العدالة الإلهية!

إن هذا التناظر المدهش والعادل بين كون مصطفى كمال «ثمرة حرام» من الناحية الروحية وبين كونه «ثمرة حرام» من الناحية المادية، يحمل في طياته معنىً كبيراً في تقييم وإيضاح كيف أن هذه الروح السافلة كانت تستند في عام المادة إلى أساس سافل أيضاً.

وأن هذه السفالة في الروح وفي المادة تأتي في الحقيقة من كون مصطفى كمال عدواً لله وعدواً لرسول الله.

إن الرسول الكريم ﷺ الذي كان مصطفى كمال يحمل اسمه والذي لم تكن له غاية طيلة حياته سوى معاداته - كان خير بني آدم، وكان نسبه يتصل بإبراهيم عليه السلام، ولذلك فإنه كان يحمل اسم «مصطفى» من فعل «اصطفى».

أما هذا فهو بالرغم من حمله لهذا الاسم فإننا لا نعرف إلا حلقة واحدة فقط من نسب أمه الحقيقية وحلقة واحدة فقط من نسب والده المزيف، أما ما عداها فتمتد إلى ظلمات المجهول ولا تسلم إلى الأبد من شبهة الانتساب إلى دم أجنبي كافر.

حتى الحرب العالمية الأولى:

لنعطِ بعض الخطوط السريعة من حياته حتى الحرب العالمية الأولى التي عرفت لدى العوام بـ«سفر برلك»... أي حتى بلوغه سن 34 سنة.

بعد موت علي رضا أفندي ذهب مصطفى كمال مع أمه زبيدة إلى مزرعة في أطراف «لانكة»... أي إلى المكان الذي ربما أُلقي فيه في رحم أمه.

هذه الحياة التي بدأت في لانكة ستنتهي في «جانكايا»[1] فيما بعد.

هناك في المزرعة في حماية خاله حسين آغا -المسؤول عن المزرعة- أمضى مصطفى كمال أولى مراحل طفولته. وقد استخدمه حسين آغا كعامل في المزرعة وكلفه أيضاً بحراسة المزروعات من الطيور.

وفيما بعد عندما كان يتحدث -في عهد رئاسته للجمهورية- عن هذه الذكريات، وتأخذ الدهشة سامعيه حتى لا يستطيع من فرط دهشته سوى التلفظ بكلمات: «العفو يا مولاي! أستغفر الله...» كان يقول:

---

(1) جانكايا (أو جانقايا): اسم قصر رئاسة الجمهورية التركية في أنقرة - المترجم.

«أجل! هو كذلك. لقد ولدت أنا أيضاً كالآخرين وكبرت، وإذا كان هناك من تمايز أو فرق في ولادتي فإنه ينحصر في كوني تركياً».

ما معنى هذا الجواب الذي ننقله حرفياً من صفحة (18) من كتاب «جانكايا» لمؤلفه «فالح رفقي آتاي».

أمام من يرى هذا الشخص! بأن نقطة الخلاف أو التمايز في ولادته هي أنه كان تركياً؟ هل أمام الأتراك الآخرين؟ إذن أي فرق يبقى في هذه الحالة؟ ألم يكن السياق الطبيعي لإظهار تمايز وخلاف مصطفى كما في المحيط الذي عاش فيه هو أن يقول: «إذا كان هناك من فرق أو تمايز في ولادتي فهو كوني غير تركي». أم يعتقد بأنه كان هو فقط تركياً ولم يكن الآخرون حوله أتراكاً؟... صحيح... إن كان هو تركياً فالأتراك ليسوا بأتراك.

أما الذين نقلوا الذكريات عنه فإن معظمهم لم يكونوا ينتبهون -وهم يسجلون أقواله حرفياً- إلى خطورة المعاني التي تحويها بعض الجمل التي كان يتفوه بها أثناء سُكْره، ولعلهم كانوا يرون في نقل هذه الجمل كما هي -أي في نقلها دون مراقبة معانيها- شيئاً ضرورياً لأدب وسلوك العبودية... وطبعاً فإن هذه النصوص تفيدنا في تحاليلنا.

كانت أم مصطفى قد أصرت على إرسال ابنها إلى «كُتّاب الحلة بمراسيم من الأناشيد الدينية»، ثم إلى مدرسة شمي أفندي التي كانت تعتبر آنذاك مدرسة عصرية وذلك نزولاً عند رغبة علي رضا أفندي. ولم يلبث أن توفي علي رضا أفندي فاضطرت زبيدة هانم -التي فقدت معيلها- إلى الالتجاء مع ابنها كمال وابنتها مقبولة - إلى مزرعة خالها أو أخيها الكبير حسين آغا (إذ يرى فالح بأن حسين آغا كان أخاها الكبير بينما يرى شوكت ثريا بأنه كان خالها).

وأخيراً نرى أن خالته تأخذ أمر عنايته على عاتقها فترسله إلى سلانيك لإتمام دراسته.

يدخل إلى المدرسة الملكية ثم إلى الرشيدية العسكرية.

وإلى هنا لا شيء يستحق الذكر.

في مدرسة الرشيدية العسكرية يطلق عليه اسم مصطفى كمال فقد كان يحمل اسم مصطفى فقط، ولكنه في أحد الأيام يخاطبه أستاذ الرياضيات كمال أفندي بقوله:

- إن اسمينا كلينا هو مصطفى... يجب أن يكون هناك تمييز... فلنضف إلى آخر اسمك «كمال»... كن أنت مصطفى كمال.

وهكذا أصبح من ذلك اليوم: مصطفى كمال.

وفي سن الخامسة عشرة أنهى الرشيدية العسكرية.

ومن هناك إلى الإعدادية (الثانوية) العسكرية في «مناستر».

وفي هذه الأثناء تتزوج أمه (التي كانت أرملة ناضجة في الخامسة والثلاثين من عمرها) دون أن تخبر أحداً من أبنائها من أحد الموظفين.

وقد غضب مصطفى كمال من أمه لزواجها هذا وترك البيت، وذهب إلى أخت زوج أمه (أي عند أخت علي رضا أفندي) وأصبحت علاقته بوالدته علاقة ضعيفة وزياراته لها قليلة وعلى فترات متباعدة.

وفي الإعدادية العسكرية يهوى الأدب والشعر، وهذه الهواية تسري إليه من صديقه في المدرسة «عمر ناجي» الذي أصبح فيما بعد من أشهر خطباء الاتحاد والترقي.

يقول مصطفى كمال كما ينقل عنه مؤلف «جانكايا» في صفحة 20:

«هناك عرفت أن هناك شيئاً يدعى الأدب. هويت الشعر، ولو لم يسرع إلي أستاذي «محمد عاصم أفندي» لأصبحت شاعراً فقد استدعاني محمد عاصم أفندي ذات يوم وقال لي: أعرني سمعك جيداً يا بني ! أرى أن تترك الشعر والأدب وأن تهتم بأن تكون عسكرياً جيداً، وهذا رأي أساتذتك الآخرين، لا عليك من ناجي، فهو شخص خيالي وقد يصبح فيما بعد كاتباً أو شاعراً مجيداً، ولكنه لن يستطيع أن يكون عسكرياً. وقد صدق حدس

الأستاذ، فعلى الرغم من رغبته الشديدة فإن عمر ناجي لم يستطع أن يتخرج من هيئة الأركان».

أما هوايته الأساسية فهي الرياضيات والتاريخ.

أما بين أصدقائه فكان يتميز بطبعه المغرور.

ففي صباه عندما كان يلعب في الحارة لعبة «النطّة» مع أصدقائه وأتى دوره للانحناء وقف ولم ينحن، وعندما سئل عن السبب قال:

- إنني لن أنحني! فإذا كنتم تستطيعون القفز وأنا واقف فاقفزوا.

إذا لم تكن هذه الحادثة مخترعة من قِبَل الذين يرمون تعظيم مصطفى كمال وإظهاره بطلاً من صغره، فهي كافية لإظهار مدى غروره وعبادته لنفسه... ولكن أنَّى لهم أن يفهموا.

وفي سن (18-19) يأتي إلى اسطنبول للالتحاق بالمدرسة الحربية (الكلية الحربية) كان قد ترك الأدب، ولكنه استمر في هوايته للخطب.

وفي مدرسة الحربية يشترك في مسابقات الخطب التي كان تقام بين الطلاب... ثم تسري إليه عدوى السياسة التي كانت «موضة» تلك الأيام بين طلاب الحربية والطبية... ففي تلك الفترة كان المثقفون السطحيون يرددون النغمة نفسها أثناء تنافسهم على البروز في التكتلات والأحزاب:

- البلد يسير في طريق الخراب... والدكتاتورية تكتم الأنفاس... الحرية! الثورة!

وفي الكلية لا يستطيع -مثل أصدقائه الطلاب- من النهوض من النوم مع بوق الصباح. ولا ينهض إلا عندما يهز الضابط المكلف بالحراسة سريره. يسألونه:

- لماذا لا تستطيع النهوض صباحاً؟

فيجيب:

- لا أستطيع النوم كل ليلة حتى الصباح... وعندما أبدأ بالغفوة ينفخ بوق النهوض.

والذين برعوا في نسج الخيال واختراع القصص يشيرون إلى هذه المسألة -التي هي مسألة بُنية جسدية وأعصاب- كدليل على أن مصطفى كمال كان لا يستطيع النوم لأنه كان يفكر حتى الصباح بقضايا الوطن، فهو -على زعمهم- كان يتهيأ لإنقاذ الوطن منذ ذلك الحين.

وفي الكلية الحربية وكذلك في كلية الأركان يقال بأنه أصدر مجلة مكتوبة بخط اليد وأنه جعلها تتداول بين أصدقائه.. ولعدم وجود أية نسخة من هذه المجلات بين أيدينا اليوم فلا نعلم بالضبط محتوياتها. ولكننا لا نعتقد بأنها -عدا احتوائها على بعض المحاولات الأدبية والتاريخية والعسكرية في مستوى الهواة - كانت تحتوي على اتجاه سياسي معين أو تحمل قيمة فكرية..

أما صديقه في المدرسة فتحي بك (أوقيار) -الذي استخدمه فيما بعد كسفير لسنوات طويلة ثم كرئيس للوزراء ثم كزعيم شكلي للمعارضة- فإنه نتيجة لفعالياته السياسية استطاع أن يتبوأ مكاناً أرفع من مصطفى كمال لدى جمعية الاتحاد والترقي.

أما صديقه «عاصم كوندوز» الذي شغل فيما بعد لسنوات طويلة منصب الرئيس الثاني لهيئة الأركان العامة في عهد الجمهورية - فيذكر بأن مصطفى كمال عندما كان طالباً في الكلية الحربية بدأ يأخذ دروساً خصوصية في اللغة الفرنسية عند امرأة أجنبية وأنه كان يجلب معه سراً بعض مقالات أنصار الحرية -وهم من الأتراك الموجودين في باريس- وكذلك بعض المطبوعات الفرنسية حيث يقرأها لأصدقائه وكان مفتوناً بإنشاد قصيدة «الحرية» وقصيدة «يا ويلاه!» للشاعر نامق كمال بصوت عالٍ.

أما تعوّده على تناول «العرق» الذي أدمن عليه حتى مماته الذي أصبح فيما بعد يشكل علاقة الحب الوحيد الصادق في حياته، فقد كان كما يلي:

خرج مرة هو وصديقه «علي فؤاد» (الجنرال علي فؤاد جبسوي فيما بعد) إلى «بيوك اده»[1] للنزهة ولعدم وجود نقود لديهما فإنهما لم يستطيعا الجلوس في أحد المطاعم... وينقب علي فؤاد في جيوبه فيجد بعض القروش فيذهب ويشتري زجاجة بيرة وزجاجة من العرق وقليلاً من «الجزر».. ثم يصعدان إلى أحد الأحراش ويجلسان على الأرض ويشربان البيرة أولاً... وبعد الانتهاء منها يسأل مصطفى كمال:

- والآن... ماذا سأعمل الآن؟

وهنا يخرج علي فؤاد من جيبه زجاجة العرق التي كان يخفيها حتى ذلك الحين ويضعها أمامهما:

لنقرأ فالح رفقي (جانكايا صفحة 31):

«في ذلك المساء جرب العرق لأول مرة... أحس بدوار رأسه... كانت الشمس على وشك الغروب... بدأ برسم بعض الرسوم على علبة السجاير ثم قال:

- هل تدري يا فؤاد كم هو جيد هذا الشراب... إنه يدفع الإنسان لكي يكون شاعراً. ومنذ ذلك الحين لم يستطيع التخلص من أسْرِ هذا الشراب اللاذع القوي».

أما عداوته للإسلام فتظهر بشكل قطعي لا يقبل النقاش عند تخرجه من كلية الأركان برتبة رائد عام 1904 .... أي عندما كان عمره 24 عاماً.

إليكم الإثبات:

الإثبات من اعترافه هو... فعندما تخرَّج ضابطاً يخاطب أصدقاءه من الضباط قائلاً لهم:

«- أيها الأصدقاء! سيذهب كل منا الآن إلى رفقة أحد الباشوات العثمانيين وكلهم في غفلة وانخداع لفكرة العالم الإسلامي. علينا أن نجمع كل منابع قوتنا في الأناضول التركي» (جانكايا - ص32).

---

(1) بيوك اده: معناها الجزيرة الكبيرة، وهي أكبر جزر المجون قرب اسطنبول، وهي جزيرة جميلة يُقبل عليها السياح بكثرة - المترجم.

والذي يجب الانتباه إليه هو قوله «الباشوات العثمانيين» بلهجة من يعتبر نفسه خارجاً عن محيط الجيش العثماني... وهذا لا يقوله سوى أجنبي أو مرتد.

ويزعمون بأنه بدأ في اسطنبول في أحد أحياء «بني كايي» بعقد الاجتماعات السرية مع بعض أصدقائه، وعندما تصل التقارير إلى القصر ينفونه إلى الشام، وهذا كذب.

ذلك أنه أرسل إلى الجيش الخامس الذي كان مقره الشام بصفته ضابطاً متخرجاً يجب تعيينه... هذا كل ما في الأمر.

وحتى ذلك اليوم ليس هناك في حياته شيء يستحق الذكر سوى الكلمات التي ذكرناها عن شخصيته.

وفي الشام يعين في لواء الفرسان الثلاثين وذلك لكي يتم ويمر من جميع مراحل التدريب العسكري مرحلة بعد مرحلة.

كان ضابطاً أنيقاً... وقد صحبه هذا الاهتمام بالأناقة من صباه حتى آخر الملابس التي لبسها، وإن كانت قضية أنه كفن أم لا شيئاً مجهولاً[1].

فعندما تخرَّج ضابطاً من اسطنبول قضى أوقاته في أماكن اللهو والمجون في منطقة «بك أوغلو» ولكنه عندما تعين في الشام بحث عن فرص اللهو والمجون ولكنه لم يجدها... إذ كان يقضي وقته بين المعسكر وبين البيت، وفي الليل يسهر حتى ساعة متأخرة على ضوء مصباح نفطي بين الكتابة وتناول الخمر.

وتفيض حاجة نفسه إلى المجون إلى درجة أنه يكاد -لولا سيطرته على نفسه بمشقة- أن يندفع إلى البيوت، من أبوابها أو من نوافذها ليصرخ فيهم «أية حياة هذه التي تعيشونها؟... هلموا إلى الخارج مع الدف والراح ولنقضِ حياتنا في اللهو».

ويستطيع الإنسان أن يتأكد من أن هذا الوصف ليس مبالغاً فيه، بل هو أقل ما يقال من قراءة ما كتبه رفيقه الناطق باسمه «فالح رفقي».

---

(1) لا يعرف أحد إن كان مصطفى كمال كُفِّن أم لا بعد موته - المترجم.

يصف فالح رفقي حياة مصطفى كمال في الشام نقلاً عنه كما يلي في صفحة 42 من كتاب (جانكايا):

«... كان يريد تحريك هذا المجتمع الميت وهزّه وتفجيره، كان يريد إفراغ البيوت من ساكنيها وغمر الشوارع بالأغاني والضحكات واللهو... كان يريد أن يحرر نفسه ويحرر كاهله من ضغط هذا المجتمع المسجون.

وفي إحدى الأمسيات عندما كان عائداً إلى بيته كالعادة وصل إلى سمعه وهو يجتاز إحدى الأزقة صوت موسيقى فتوجه نحو مصدر الصوت... كان هذا مقهى غطيت نوافذه بالورق... فتح بابه قليلاً... كان هناك العُمّال الإيطاليون العاملون في خط سكة حديد الحجاز يعزفون على الماندولين ويغنون ويرقصون مع زوجاتهم وبناتهم ويشربون الخمر... كانوا جميعاً في ملابس العمل... تنهد من أعماقه وهو ينظر إليهم... فالحياة كانت هناك... كانت خلف هذه النوافذ المغطاة بالورق لهذا المقهى، وكانت بين فرحة ونشوة هؤلاء الناس الذين يغمرهم دخان السجاير ودخان الفوانيس حتى إن الإنسان لا يستطيع رؤيتهم إلا بصعوبة.

كان عليه أن يذهب إليهم ويندمج معهم في الحال... ولكنه ألقى نظرة على ملابسه العسكرية ونظرة أخرى عليهم فلم يستطع ذلك.

وفي اليوم التالي اشترى ملابس عمل... وهكذا اعتاد الذهاب إلى هذا المقهى والاشتراك في لهو وغناء هؤلاء بين حين وآخر».

وفي أحد الأيام تمر به حادثة مهمة في هذه البلدة نفسها:

ففي أحد الأيام عندما كان يتجول في السوق مع أحد أصدقائه الضباط لكي يشتري لصديقه هذا ما يصلح هندامه، ويقوده طريقه إلى دكان صغير لبيع الملابس القديمة... وأمام الدكان يرى رجلاً غير مهندم، ينتعل قبقاباً ويتكلم التركية ويدعو هذا وذاك للجلوس على كراسٍ يضعها أمام دكانه... وعندما يقوده الفضول من أسلوب هذا الرجل

إلى الدخول إلى الدكان -الذي كان عبارة عن غرفة واحدة ذات سقف واطئ- يرى على المنضدة هناك كتباً فرنسية حول الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والتوراة. يا للحيرة:

كان الرجل من اسطنبول... إذ كان طالباً في السنة الأخيرة للطب ولكنه فصل لأفكاره المؤيدة للحرية ونُفي إلى الشام... واسمه مصطفى... الدكتور مصطفى (وهو مصطفى جانتشكين النائب الذي سيعينه مصطفى كمال فيما بعد).

ويتم التفاهم بينهما بسرعة... وتبدأ الاجتماعات بالانعقاد في غرفة الدكتور مصطفى الذي كان يعيد ويكرر:

- لا بد من الثورة... ولا بد من الانقلاب... لا علاج آخر هناك.

في هذه الأثناء يؤلفون جمعية «الوطن والحرية» التي تبقى في مستوى النظرية إذ لا تستطيع إثبات وجودها بل تُبتلع -فيما بعد- من قِبَل جمعية الاتحاد والترقي.

ويُكلَّف لواء الفرسان -الذي كان مصطفى كمال يقضي مدة تدريبه فيه- بالتوجه إلى منطقة حوران -حيث يكثر فيها الدروز- لقمع الاضطرابات هناك، ولا يرغب قائد هذا اللواء بإشراك هذا الرائد الشاب -مصطفى كمال- الذي يتدخل في كل الأمور، خاصة وأنه ليس من ضباط اللواء بل يقضي مدة تدريبه فيها. ولكن مصطفى كمال يعاند في الذهاب فلا يُقبل... فيريد مقابلة القائد ولكنه يرفض طلبه فلا يسعه إلا ركوب حصانه والأتراك في اللواء بالرغم منهم، فلا ينبس أحدهم ببنت شفة.

وفي حوران يرتكب الجيش كل أنواع الفضائح من نهب وسلب... فكأن حركة الجيش هذه كانت حركة قنص وصيد ونهب للسكان، ويعطى له نصيبه أيضاً من الذهب الأصفر الرنان... ولكنه يرفض على حد زعمهم... ولكن هل تصدقون؟ فماذا يمكن أن تكون غاية شخص من ملاحقة اللواء وفرض نفسه عليهم إلا أن يأخذ نصيبه من النهب والسلب؟ وهل هناك فائدة كبيرة من وجهة نظر عسكرية في الاشتراك في حملة عسكرية ضد ثلة من العصاة؟

فإذا عرفنا كيف أنه قام بسرقات كبيرة عندما كان مارشالاً وعندما كان رئيس الدولة فإننا لن نستغرب اشتراكه في حملة النهب والسلب -تحت ستار تأمين النظام والاستقرار- من أجل تأمين منافع مادية.

تستطيعون التسليم بهذا المعنى الحقيقي لهذه الحادثة التي ننقل خطوطها الخارجية، ممن كتبوا ذكرياته إذا قستموها بالمقياس الذي سبق وأن ذكرناه... ومع هذا فسيتضح كل شيء في الفصول القادمة.

ولكن هدف مصطفى كمال هو في سلانيك، لأنه يرى أن أنسب جو وأنسب تربة لجمعية «الوطن والحرية» هو في سلانيك... وبما أنه كان قد أنهى مدة تدريب الفروسية فإنه قد عُيِّن في يافا للتدريب في قسم المشاة.

والظاهر أن جيوبه كانت عامرة في هذه الأثناء لأنه يهرب من يافا إلى مصر... نعم يهرب... لأنه يذهب إليها دون إذن أو ترخيص ودون سلام أو كلام.

ويبقى مدة في مصر ثم يبحر منها على ظهر باخرة إلى ميناء «بيرا» ومنها يبحر على ظهر باخرة يونانية إلى سلانيك.

وتعنف الوالدة ابنها الهارب وتتهمه بأنه بعمله هذا يكون قد عصى السلطان فتتلقى منه هذا الجواب:

«لا تحزني يا والدتي، فقد كان من الضروري أن أحضر إلى هنا ولذلك جئت، أما سلطاننا فستعلمين قريباً من هو» (جنكايا صفحة 46).

ويحاول بعض معارفه أن ينقذوه بتدبير بعض التقارير الصحية... ولكن هذا لا يفيد، إذ تسأل وزارة الحربية الجيش في الشام عن مكانه، فتحاول بعض الوساطات أن تُظهره وكأنه في يافا. وهكذا يستطيع أن ينقذ نفسه وذلك نتيجة مساحة «الإدارة المستبدة!».

وفي سلانيك يجمع بعض الضباط ويدعوهم للالتفاف حول جمعية «الوطن والحرية» ويقول لهم حرفياً:

«عندما لا توجد الحرية في مكان ما فإن النتيجة هي الموت والانحطاط، إن التاريخ ينتظر منا... من أبنائها أداء وظيفة معينة... لذلك فإننا سنكافح الديكتاتورية، ولهذا جئت أنا إلى هنا... وأنا أنتظر التضحية منكم كذلك».

ولكن في هذه الأثناء كانت جمعية الاتحاد والترقي تزداد دائرة تأثيرها وانتشارها والتي لم تكن جمعية مصطفى كمال بجانبها إلا ألعوبة أطفال... لذلك فلم يلبث أصدقاؤه أن تحولوا إليها واحداً إثر آخر.

وفي صيف 1907 أنهى مدة تدريبه وأصبح برتبة: «كول آغاس»[1]. وفي خريف السنة نفسها استطاع أن يجد وسيلة لتعيينه في دائرة الأركان للجيش الثالث في سلانيك.

وكما قلنا فإن جمعية «الاتحاد والترقي» ابتلعت جمعية «الوطن والحرية» وضمت إليها أصدقاء مصطفى كمال، أما الادعاء بأن الجمعيتين اندمجتا معاً إثر اتفاق عقد بينهما في 27 أيلول سنة 1907 فهو ادعاء كاذب، وقد لفق لصالح مصطفى كمال، لأنه لو كان هناك مثل هذا الاتفاق لتبوأ مصطفى كمال مكاناً مهماً في جمعية الاتحاد والترقي.

... أجل لا وجود لمثل هذا الاتفاق، فالاتحاديون لم يعيروا مصطفى كمال أية أهمية ولم تعجبهم تصرفاته، لذلك فإن مصطفى كمال حمل حتى النهاية في نفسه حقداً لا يهدأ نحو الاتحاديين الذين كانوا أكثر جرأة وتضحية منه بما لا يقاس، وإن كانت هذه الجرأة والتضحية في سبيل الباطل.

وفي هذه الأثناء كان مصطفى كمال (الذي لم يكن في أعين الاتحاديين سوى شخص يحترق للشهرة والصعود) يقضي أوقاته في كازينوهات سلانيك أمثال «أليميوس بالاس» و«يونيو» و«كريستال» في اللهو وفي إلقاء الخطب على الأشخاص الذين كان يجمعهم حوله.

ويمكن معرفة هذا الحال بوضوح من قراءة كتاب «فالح رفقي» الذي جمع ذكريات أتاتورك (الصفحات 49-51 من كتاب جانكايا).

(1) كول آغاس: هي رتبة بين الرائد والمقدم في السابق - المترجم.

ففي جلسات الخمر والسُّكْر -وليس في الاجتماعات الفكرية- التي كان يشترك فيها فتحي أوكيار وعلي فؤاد جبسوي ونوري جونكر كان مصطفى كمال يوزع المناصب بطريقة «دونكشوتية».

افتحوا صفحة 51:

«وفي إحدى الأمسيات عندما كان يوزع المناصب على مائدة العشاء التفت إلى نوري جونكر قائلاً:

- أما أنت فسأعينك رئيساً للوزارة.

- ... آ... آ... إذا كنت تستطيع تعييني رئيساً للوزراء يا أخي فماذا ستكون أنت؟

- سأكون الرجل الذي يستطيع تعيين رئيس وزراء.

وقد كرر نوري جونكر ذكر هذه الحادثة الطريفة مرتين أو ثلاثة في عهد جمهورية أتاتورك. ولم يكن الخمر والنساء واللهو يشكل في حياة مصطفى كمال إلا ظلاً للرغبة القوية في أن يعمل شيئاً وفي أن تكون في يده من السلطة والقوة ما يحقق بها هذا الشيء. وكانت هذه الرغبة القوية لا تفارق تفكيره ولا قلبه. ولكنهم لم يستمعوا له ولم يجعلوه رئيساً عليهم».

لا يدري هذا الكاتب المتزلف بأن هذه الأسطر التي كتبها لمدح سيده لا تحتوي إلا على معانٍ تخسف بسيده إلى باطن الأرض.

إذ لا يجد أحد عنده الخطوات والحركات الجريئة لنيازي وأنور كالاعتصام بالجبال وقتل شمس باشا وإمطار قصر يلدز بوابل من التلغرافات التهديدية... كلا فهو بعيد من أن يطرق مثل هذه الأبواب الخطرة، وكما سنوضح في الفصول القادمة فإن صفة «المخاطرة والتضحية» التي أُلقيت به في حروب الاستقلال كانت بعيدة عنه بُعد المشرقين، ولكنه أفلح في إظهار نفسه في هذه الصورة طيلة حياته دون أن يكون هو كذلك.

وعندما أعلن الدستور سنة 1908 تحت تأثير سلانيك فإن الاتحاديين بالرغم من كونهم لم يستلموا الحكم بعد إلاّ أنهم سيطروا على معظم الأماكن الحساسة، ولكون الاتحاديين -وخاصة أنور- لا يرتاحون إلى مصطفى كمال فإنهم نفوه إلى طرابلس الغرب بحجة القضاء على ثورة هناك. ولكن ذهابه ورجوعه لم يستغرق سوى شهرين تقريباً، لأنه أرسل في نهاية سنة 1908 ورجع في أوائل سنة 1909 ودخل مركز الجمعية في سلانيك وقال للمجتمعين هناك:

- كما ترون فإني رجعت.

وحسب ادعاء الكاتب المتزلف فإن بعض الأعضاء خفضوا رؤوسهم خجلاً.

وعندماتحرك «جيش الحركة»[1] من سلانيك إلى اسطنبول بعد حادثة 31 مارس -التي كانت في الحقيقة من ترتيب وعمل الاتحاد والترقي ضد السلطان عبدالحميد الثاني- كان مصطفى كمال أحد ضباط الأركان وليس رئيساً للأركان كما يدعون، وباعتراف الكاتب المتزلف فإنه «بقي في الظل».

ثم يعود إلى سلانيك ويقدم إلى «فون دركولج» باشا -الذي أُرسل كخبير عسكري إلى تركيا والذي كان يقوم بزيارة إلى سلانيك- بعض الخطط العسكرية الخيالية. كما يشترك في مؤتمر الاتحاد والترقي كممثل عن بنغازي، ويقوم بالهجوم العنيف على الجمعية بين الجنود الذين كانت الجمعية تسعى إلى جذبهم إلى سياستها، مما يسبب في قلق الجمعية فيقرر الاتحاديون قتله ويكون تنفيذ هذه المهمة إلى «يعقوب قدري» المشهور بجرأته وتهوره -وهو الشخص نفسه الذي قام فيما بعد بالهجوم المشهور على الباب العالي والذي أعدمه أنور باشا فيما بعد- ولكن هذا الشخص القاتل بفطرته لا يقوم بهذه المهمة -كما يقول- لحبه مصطفى كمال، كما أن الآخرين أيضاً لا يقدمون على هذه المهمة إما لحبهم له

(1) جيش الحركة: هو الجيش الذي تحرك من سلانيك إلى اسطنبول والذي قام بعزل السلطان عبدالحميد الثاني - المترجم.

أو لخوفهم منه... ويا له من تلفيق مضحك لجماعة مثل الاتحاديين الذين كان قتل الإنسان عندهم أهون من قتل الذباب، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنهم لم يهتموا أو لم يأخذوا مأخذ الجد.

وفي صفحة 50 من كتاب «فالح رفقي» نراه يضيف نظرة الاتحاديين إلى مصطفى كمال وهو وصف ينطبق بالضبط على حقيقته:

«كان مصطفى كمال بالنسبة للاتحاديين سكيراً لأنه يشرب وانتهازياً؛ لأنه كان دائم النقد بين أصدقائه للأوضاع القائمة، وساقطاً من الناحية الأخلاقية لكونه مغرماً باللهو والمجون، ومع أن له قيمة من الناحية العسكرية إلا أنه شرهه للشهرة لا يشبعه أي شيء».

ثم سيل من التلفيقات لتمجيده: فهو الذي أخمد ثورة الألبانيين «الأرناؤوط» عندما كان في معية وزير الحربية محمود شوكت باشا، وهو الذي وضع الخطط الحربية... ولو لم يستحوا لقالوا بأنه عندما كان طالباً في الإعدادية أدار وخطَّط للجيش العثماني الذي وصل إلى أبواب أثينا تحت قيادة النازي أدهم باشا[1].

وفي سنة 1910 يرسل إلى فرنسا لمشاهدة مناورات «بيكاردي» العسكرية... وهناك لا يتورع من تخطئة الخطة العسكرية الفرنسية، وبعد المناورة يلتقي مع عميد فرنسي على مائدة الطعام حيث يقول له: «إن ما قلته مساء أمس كان أصوب من جميع ما قيل هناك... ولكن... وبعد أن تردد هنيهة في الاستمرار أو عدم الاستمرار في الكلام أشار إلى رأس مصطفى كمال قائلاً:

- ما الداعي إلى وضع هذا الغطاء العجيب على رؤوسكم؟ لا أعتقد أن أحداً سيهتم بها في رؤوسكم طالما وجد هذا على رؤوسكم» (جانكايا، ص64).

(1) حدثت هذه الحرب بين اليونان والدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني في سنة 1897، وقد انتصر فيها العثمانيون ووصلوا قرب أثينا - المترجم.

وهنا نتساءل: هل تسرّب إليه حب القبعة من ذلك الوقت؟ كلا. لا أعتقد هذا... بل بدأ هذا من اليوم الذي بدأ فيه يكره الشعب التركي الذي يحسب أنه ينتمي إليه... بدأ من اليوم الذي بدأ بالتفكير.

ثم يعين كنائب لقائد اللواء الثامن والثلاثين، في سلانيك برتبة: «كول أغاس»... وهذا تعيين غريب، ذلك لأنه يستلم هذه الوظيفة من ضابط برتبة عميد، أما الطوابير التي كانت تحت قيادته فقد كانت بإمرة ضباط من رتبة مقدم.

واصطف اللواء لاستقبال القائد الجديد... ويأتي مصطفى كمال على جواده الأبيض، وبعد أن يتسلم من أقدم آمر للطابور التقرير عن الحضور والموجود يمر من أمام الجنود المصطفين ويحييهم هكذا:

- مرحباً أيها الجنود.

بينما كانت تحية الجنود حتى ذلك الوقت تتم على الطريقة الإسلامية:

- السلام عليكم.

والجواب:

- عليكم السلام.

وهكذا فإنه يعتبر موجِد ومخترع التحية العسكرية الجديدة -منذ ذلك الوقت- والتي تتم بعبارة «مرحباً».

ما معنى هذا؟... تأملوا إلى أين يقود نفوره من الإسلام ومنذ متى بدأ هذا النفور عنده.

وفي سنة 1911 يذهب إلى ليبيا للاشتراك في محاربة الاستيلاء الإيطالي على ليبيا... وهناك في ليبيا نجد كل من يشتهي أن يلمع اسمه... من أنور إلى مصطفى كمال، وباعترافه هو (صفحة 67، جنكايا) فإن هذه المقاومة كانت عبثاً وبدون أمل أو فائدة إلا لفائدة واحدة وهي إيهام الشعب بأن الواجب الوطني يراعى ويوفى بحقه... أي خداع الشعب.

وفي سنة 1912 حرب البلقان... ومعلوم هي عاقبة المدعين الذين وعدوا بأن يصبغوا أحذيتهم في صوفيا... فالهزيمة والتقهقر يستمران حتى «چتالجة»... هزيمة وفوضى شاملة...

وفي المعارك الأولى لا نجد مصطفى كمال، إذ يرجع من مصر إلى اسطنبول عن طريق رومانيا في خريف 1912 حيث يُعيَّن كمدير لدائرة الحركة العسكرية للقوات التي تجمعت في «بولاير» من أجل حماية شبه جزيرة «غاليبولو».

أما صديقه في الدراسة «فتحي أوكيار» فهو في رتبة أعلى إذ هو رئيس الأركان هناك.

وعندما لا يستطيع البلغار - تخطي خط «جاتلجة» يتهيأون لتغيير اتجاههم والهجوم على شبه جزيرة «غاليبولو». فيفكر العثمانيون بقطع طريق رجوع البلغاريين الذين مالوا إلى المضيق وذلك بتوجيه بعض القوة العسكرية إلى شواطئ مرمرة وبذلك يجعلون البلغاريين بين نارين حيث يستطيعون القضاء عليهم وإفنائهم... ماذا كان دور مصطفى كمال في هذه الخطة وماذا عمل؟

لنقرأ مذكرات الدكتور رضا نور (الجزء الثاني، صفحة 407-408):

«في المرحلة الأخيرة لحرب البلقان كان الجيش موجوداً في «تكيرداغ» وحواليها، وقد أرسل جيش من قِبَلنا للدفاع عن شبه جزيرة «غاليبولو»، وقد كان هذا الجيش تحت قيادة «علي فتحي» و«مصطفى كمال». وبحسب الخطة التي وضعها أنور فقد كان على هذا الجيش أيضاً مهاجمة الجيش البلغاري لدحره. وقد تم التفاهم على الخطة... ولكن مصطفى كمال بدأ بالهجوم دون أن ينتظر هجوم أنور باشا فاندحر وهرب، فاضطروا إلى إرسال جيش أنور باشا إلى شبه جزيرة «غاليبولو» خوفاً من هجوم البلغار واستيلائهم عليها. وقد أرسل «الميرلاي صادق صبري» للتحقيق، وما أن وصل إلى هناك حتى التقى مع «علي إحسان باشا» في الميناء حيث أخبره هذا بأن هذه الكارثة حدثت نتيجة خيانة مصطفى كمال. أما دافع مصطفى كمال لاقتراف هذه الخيانة فهو الحيلولة دون حصول أنور على شرف الانتصار والغلبة. ثم ذهب صادق صبري للتحقيق مع ضباط فِرَق

الجيش حول هذه الكارثة حيث كانوا متفقين في أن هناك قصداً أو خيانة في الأمر... وعندما قام صادق صبري باستجواب مصطفى كمال لم يجر هذا جواباً وقد عرفت هذا الأمر من «صادق صبري» نفسه. وقد نشر جمال الغزي[1] رسالة حول هذه القضية حيث ردّ عليها فتحي:

إن أمثال هذه الخيانات تبقى عندنا بدون عقاب... وهذا شيء مؤلم».

وتتعاقب الأحداث... الهجوم على الباب العالي... ثم استرداد مدينة أدرنة نتيجة الخلاف الذي دبّ فيما بين دول البلقان. ولكون أنور على رأس هذه الحوادث والحركات العسكرية ولسلسلة من الترقيات (على اعتبار أن هذه الخدمات تعتبر له كسنوات خدمة إضافية) ترقّى من عقيد إلى عميد ثم إلى باشا (أي لواء) ثم يستقر في مقام وزارة الحربية، يبقى في هذا المقام حتى الهزيمة في الحرب العالمية وهروبه من البلاد، وبالإضافة إلى كونه وزيراً للحربية فإنه كان يحمل لقب نائب لقائد العام للقوات التركية، إذ كان الخليفة هو القائد العام للقوات.

ويمكن تصور مقدار الحسد والحقد الذي كان يكنّه المقدم مصطفى كمال لرجل المغامرات الجريئة أنور باشا الذي كان بنفس سنّه ولكنه كان متقدماً عليه بالرتب إلى درجة لا يمكن تخطيها.

أما «فتحي أوكيار» الذي أصبح سفيراً ورئيساً للوزراء في عهد رئاسته للجمهورية والذي لعب كذلك دور الألعوبة[2] بشكل ماهر ومخلص. فقد كان متقدماً عليه في الرتبة العسكرية وفي السلك المدني كذلك فيما بعد، ولكنه لصداقته لمصطفى كمال -الذي كان مبغوضاً من قِبَل أنور باشا- أصبح من المغضوب عليهم لذلك فإنهم يبعدونه عن الجيش

(1) من سكان غزة - المغرب.

(2) إذ أصبح رئيساً لحزب المعارضة في وقت أتاتورك... والمعارضة كانت طبعاً صورية - المترجم.

وذلك بتعيينه قي مقام الكاتب العام للدائرة العمومية، ثم يرسلونه بعد ذلك إلى «صوفيا» سفيراً كما يرسلون مصطفى كمال إلى هناك كملحق عسكري.

وفي صوفيا يغرق مصطفى كمال في المجون والليالي الحمراء بدلاً من الاهتمام بالحياة الاجتماعية للشعب البلغاري والذي بقي تحت السيطرة التركية لعدة عصور، وبطرق التوجيه والتربية عندهم والاهتمام بالجيش البلغاري الذي ساقَ بالأمس الجيش التركي أمامه حتى اقترب من عاصمته لكي يعرف نقاط الضعف في دولته... بدلاً من هذا فإن هذا الضابط الوسيم أخذ يقضي أوقاته في الفسق والفجور حتى الصباح وعندما يذهب إلى السفارة صباحاً يذهب إليها وهو يترنح من السُّكْر.

وتستطيعون معرفة نوع الحياة التي كان يحياها هناك من قراءة هذه النصوص من كتاب «جنكايا» بقلم رئيس المداحين له:

«كان أنيقاً في ملابسه، يجيد الرقص ويشرب ويلهو، وكان رجلاً وسيماً، ويعرف كيف يلهو، لذلك فإن أصدقاء لهوه كانوا يختلفون عن أصدقاء الفكر عنده، وكانت من عادته التي لا تتغير أن يسيطر هو على جو الاجتماع... لا شك في غروره وحبه للسيطرة، أما عندما كان يشرب ويسكر فإنه كان يصبح قاسياً إلى درجة الفظاظة، وكان لا يعتقد أن هناك من يفهم السياسة والجيش أحسن منه، وكان هذا صحيحاً، إذ كانت الأيام والحوادث تثبت -حتى مجيئه إلى صوفيا- أنه كان محقاً على الدوام. ولم يكن أي تصرف من تصرفاته أو عادة من عاداته من تصرفات أو عادات الاتحاديين.

وفي ذلك العهد كان كل شيء يلذ له كالخمر والنساء واللهو والرقص يعتبر إثماً وكان على من يريد الاقتراب منه أن يفعله سراً ودون أن يراه أحد، بينما كانت طبيعة مصطفى كمال ضد السرية، إذ كان يعتبرها إهانة لكرامته وغروره».

إن هذه السطور لا تلخص لنا فقط حياة مصطفى كمال العابثة في صوفيا بكل رذائلها بل هي تعكس أخلاقه المسمومة بينما كانت محاولة الكاتب هي المدح والثناء.

وأخيراً تنطلق رصاصة من الصرب... وتتبعها المدافع الألمانية ذات عيار 42... أي تندلع الحرب العالمية لأولى... وبعد أن تنكسر سرعة الهجوم الألماني باتجاه «باريس»، وبعد أن يأفل الأمل عند الألمان في الانتصار، بعد هذا كله وبشكل جنوني تشترك الدولة العثمانية إلى جانب الألمان.

ومصطفى كمال - كما يرد في المذكرات التي أملاها على الكاتب السابق الذكر[1]- لا يؤيد اشتراك تركيا في الحرب، وقد يكون هذا صحيحاً. ولكنه يضيف بأنه عندما رأى أن الاشتراك في الحرب أصبح أمراً واقعياً فإنه سرعان ما هبّ لنجدة الوطن، وهذا ليس بصحيح فإنه كان يركض وراء طموحه.

حتى الهدنة :

يرجع من صوفيا إلى اسطنبول بالرغم من رغبة الاتحاديين ببقائه هناك -على زعمه- ويبدأ بملازمة باب أنور باشا والإلحاح عليه طلباً لمهمة في خط النار فيعطونه إلى إمرة القائد الألماني «لايمان فون ساندر» الذي كان على رأس الجيش المكلف بالدفاع عن مضيق «چنه قلعة»، أما الفرقة التي عهدت إليه تحت قيادة الجنرال الألماني والمارشال التركي فهي الفرقة 19.

ولكن تأمل فوضى الفكر والنظام حينذاك! إذ لا يسأل أي مسؤول نفسه عن الفرقة 19 أين هي؟ وما هي؟ وفي أي وضع؟ أهي موجودة فعلاً أم لا؟... لا أحد يدري، وأخيراً يتبين أنها في وضع التشكل في «تكيرداغ» فيذهب مصطفى كمال إلى هناك حيث يستكمل تهيئة وحدته العسكرية ثم يذهب بها إلى شبه جزيرة غاليبولو... أما العدو فإنه لم يقم بالهجوم بعد.

وفي 18 مارس سنة 1915 يبدأ العدو بالهجوم من البحر، وفي 25 نيسان يبدأ بالإنزال البري... هنا تصادفنا نقولات وسيل من المدائح تقول بأن مصطفى كمال أوقف

(1) المقصود هو فالح رفقي والكتاب هو (جانكايا) - المترجم

العدو واضطره إلى لزوم الخنادق، وهذه النقولات كلها هُيِّئت عندما كان رئيساً للجمهورية وصدرت من أشخاص لا يحملون أية مسؤولية، وهي لا تستند على أية وثيقة علمية أو عسكرية ثابتة، وحتى لو فرضنا أن هذه الأقوال صحيحة وممكنة فإنها لا تلقي أية ظلال على دعوانا، والشيء المؤكد الوحيد هو أن الذي حقق الانتصار -في معركة «چنه قلعة»- هو الجندي التركي الذي لم يواجه خطأ في السوق والإدارة، أما الوظيفة التي وقعت على كاهل القواد في هذه المعركة فهي القيام بوظائفهم الاعتيادية وليست التفكير بخطط وقرارات عسكرية، وباستراتيجية خارقة للعادة. إن الحقيقة التي لم تذكر حتى الآن حول الانتصار العظيم في «چنه قلعة» هي ما يلي: إن هذه المعركة لم تكن في إطار الاستراتيجية (سوق الجيش) بل كانت في إطار التعبئة (التكتيك) التي لم يكن هناك خيار فيها ولما كانت القضية قد انحصرت في تعاطي النيران والقتال وجهاً لوجه. فإن القيمة الحقيقية للانتصار تعود إلى الجنود وإلى الرتب الصغيرة من الضباط. أما إنه كان يحمل المسدس في يده كأي ملازم أول ليدفع وحدته إلى الهجوم فليست في أيدينا أية وثيقة أو نص رسمي يؤيده. إن الانتصار الأسطوري الذي أحرزه الأتراك في معركة «چنه قلعة» وكذلك في معارك حرب الاستقلال يعود في نظرنا إلى التضحية الأسطورية للجنود وللضباط الاحتياط وللضباط الصغار الذين ملؤوا الخنادق بأجسادهم.

وفي 1 حزيران لسنة 1915 يرقى إلى رتبة عميد، ولكن الذي يعين على رأس الوحدة العسكرية التي سميت بمجموعة «أنافارتا» لا يكون هو بل العميد فوزي... إذن فلم تكن قيادته شيئاً غير اعتيادي بحيث يكون وجوده ضرورياً هناك.

وفي هذه الأثناء نرى مصطفى كمال في محاولات متصلة للبروز والتقدم إلى الأمام، حتى إنه يتخطى سلسلة المراجع ويخاطب وكيل القائد العام.

استمعوا إلى ما يقوله في صفحة 91 من كتاب «جانكايا»:

«كان قائد الجيش «ليمان فون ساندرز» باشا يبحث عني بالتلفون، وكان رئيس الأركان السيد كاظم ترجماناً بيننا، وكان السؤال الذي سأله هو:

- كيف ترون الوضع؟ وأي تدبير ترونه؟

بينما كنت قد أخبرت جميع المسؤولين عن الوضع كما أراه وعن التدابير التي أرى اتخاذها ولم يرد أي جواب من أحدهم:

قلت له:

- لقد أخبرتكم سابقاً عن الوضع كما أراه، أما الآن فلم يبق سوى تدبير واحد فقط.

- وما هو؟

- أن تعطوا لإمرتي كل الجيوش التي تحت قيادتكم... هذا هو التدبير.

فقال بسخرية:

- أليس ما تطلبه كثيراً؟

- بل هو قليل.

وأقفل خط التلفون».

وهذا مثال الغرور الذي جعله سخرية في عين الجنرال الأجنبي... فهو دائماً شجاع عندما لا يكون هناك خطر عليه أو عندما يستطيع الإفلات منه.

وأخيراً يعين قائداً على مجموعة «آنافارتا» وفي صباح 10 أغسطس يأمر مصطفى كمال بالهجوم الذي يسفر عن منع الأعداء من احتلال «جونك باير» والاستقرار فيه.

وهناك من يقول -تعليقاً على هذا الهجوم- بأن مصطفى كمال أنقذ شبه الجزيرة للمرة الثانية... هذا الوضع مبالغ فيه لأن هناك فرقاً كبيراً بين من يصدر أمراً إلى جنود امتلأوا بالرغبة في القتال وينتظرون الأمر بالقتال بالسلاح الأبيض، وبين من يدفع للقتال جنوداً لا يرغبون فيه.

أما إنه كان في الصف الأول يهاجم الأعداء بنفسه فأسطورة تزلف. فليس هناك جندي واحد قد شاهده في مثل هذا الوضع في أية معركة من المعارك... وليست هناك

شهادة واحدة بهذا الخصوص. هذا علماً بأن الهجوم بالنفس في الصفوف الأولى -عدا حالات نادرة- لا يطلب من القواد الكبار، لأن الفرقة العسكرية التي لا تهاجم إلا عندما ترى قائدها في المقدمة... مثل هذه الفرقة ليست فرقة عسكرية أصلاً وتعتبر غير موجودة أساساً.

إن مثل هذه المناظر الحماسية قد تكون مناسبة كلوحات رسوم تعلق على بعض المقاهي الشعبية أو تذكر في الأساطير إن القائد الكبير مهما كان شجاعاً لا يتصرف هذا التصرف بل يعتبره تصرفاً خاطئاً من الناحية النفسية ومن الناحية العسكرية. القائد الكبير لا يجد حاجة إلى مثل هذه البطولات الرومانتيكية الرخيصة ولا يرضى أن يهبط إليها.

وهكذا فإن كل ما قيل عن مصطفى كمال في معركة «جنه قلعة» من هذا القبيل حتى قضية إهداء الجنرال الألماني ساعته العائلية إليه بعد أن تتحطم ساعة مصطفى كمال بشظية قنبلة.

ولكن مصطفى كامل يعتقد أنه هو الذي عمل كل شيء وأنه هو الذي أنقذ العاصمة، حتى إنه يعتقد أنه هو الذي اكتشف الجندي التركي وهو الذي نفخ فيه الحركة والحيوية.

يقول في إحدى رسائله إلى عشيقته في اسطنبول «مدام كورنيه» التي كان يتراسل معها منذ وجوده في صوفيا:

«لا تستغربي عندما لا تسمعين ذكر اسمي، فإنني وأنا بطل المعارك الكبيرة، أفضل أن أدع هذا الفخر للجندي التركي، وطبعاً فأنت لا تشكين بأن الذي كان يدير المعارك هو حبيبك وأن الذي اكتشف الجندي التركي عشية المعركة كان هو أيضاً».

حب للنفس لا نظير له...

وقبل أن تكون هناك حاجة إلى هجوم جديد من قبل مصطفى كمال أخليت شبه جزيرة غاليبولو من قِبَل الأعداء. هكذا تفشل خطتهم في الاستيلاء على اسطنبول ثم فتح

طريق البحر الأسود للالتقاء مع الروس، وينتقل هذا الدفاع المجيد الرائع أسطورة خالدة في تاريخ الدفاع التركي.

بعد هذا يعين مصطفى كمال قائداً على الفرقة (16) في ديار بكر.

والانتصار الوحيد الذي يحرزه مصطفى كمال يحرزه بواسطة هذه الفرقة ضد الجيوش الروسية الكثيفة التي كانت تطرق أرضروم وحواليها وينقذ «بتليس» و«موش» من أيدي الروس... هذه هي الأكذوبة المكررة والتي تخالف الحقيقة مائة في المائة. فالروس هم الذين انسحبوا بينما كان مصطفى كمال غارقاً حتى ذقنه في حياة داعرة في «ديار بكر». وسنبرهن على هذا فيما بعد تحت عنوان «شهادة من أحدهم».

وفي أوائل سنة 1916 يرقّى إلى رتبة باشا... أي أصبح برتبة لواء وهو شاب بعمر 37 سنة.

وفي أواخر سنة 1917 يعين كنائب لقائد الجيش الثاني الذي كانت فرقته تابعة له، ولعدم وجود الانتصارات فإنه يبدي مهارته الآن في التقهقر، وحسب أدب المديح الذي كان يصوره في المقدمة عند الهجوم فهو يصوره في آخر الصفوف في التراجع... على العكس تماماً... فهو في مقدمة الجيش المتقهقر.

ثم تعيين جديد: «للقوة الجوالة» في الحجاز.

إذ يرسل إلى الحجاز كقائد لاستخلاص المنطقة المقدسة من احتلال الإنكليز.

وصل إلى سوريا ونزل في مقر الجيش الرابع في دمشق حيث كانت تحت قيادة الاتحادي المعروف جمال باشا وزير البحرية وصديقه القديم. وفي هذه الأثناء تتناقل الروايات باحتمال مجيء أنور باشا نائب القائد العام لتفتيش الجيش الرابع.

وجاء فعلاً... فهناك أمر خطير يجب البتّ فيه:

أيقومون بسحب الجيش من الحجاز إلى جهة فلسطين لتكوين خط دفاع قوي في جنوب الوطن الأم وفي منطقة قريبة منه، أم يدافعون ويحافظون على المنطقة المقدسة حتى آخر قطرة دم لآخر جندي تركي؟

كان «جمال باشا» من أنصار سحب الجيش من الحجاز، أما الخليفة فإنه كان يهدد بترك الخلافة والسلطنة إذا تركت «المدينة المنورة» للأعداء. وكان «طلعت باشا» مع رأي الخليفة، أما «أنور باشا» فإنه كان يرى الانسحاب، ولكنه بدّل رأيه بعد ذلك.

أما «علي فؤاد باشا» رئيس أركان الجيش الرابع فإنه كان يعتقد بأن الأمر يتطلب إرسال شخص غير مرتبط بالمشاعر الدينية وبوجوب الدفاع عن المدينة أو عن الروضة الشريفة، ولكنه خبير بفن وسوق الجيوش.

.. وكان يرى أن مصطفى كمال هو الشخص المطلوب وليس غيره.

أما رأي مصطفى كمال فهو معلوم منذ البداية، فهو -دع الأمن والضرورة على جانب- يرى ترك المنطقة المقدسة -حتى في أفضل الظروف- مادياً ومعنوياً، بل يرى تحويل القبلة كذلك ويستحيل على إدراكه فهم المغزى الكبير والانتصار المعنوي الكبير في الدفاع حتى آخر جندي تركي ومهما كانت الظروف.

وبجانب دفاعه عن فكرة الانسحاب فإنه يرفض بخشونة أن يقود حركة الانسحاب هذه قائلاً:

«ليحقق الانسحاب من كان يدافع عن الحجاز حتى الآن».

ويعطي نموذجاً للرياء لا مثل له عندما يكون ضمن اعتراضه (كما جاء في صفحة 97 من جانكايا) بأنهم يريدون الآن تحميله وزر تسليم قبر رسول الله ﷺ للأعداء. بينما يرد في الكتاب نفسه «وقد تسبب عدم ترك المدينة والحجاز وإخلائها عدم القدرة على الدفاع عن فلسطين وتسبب في سقوط القدس».

وفي النتيجة تبقى محاولة تكوين «القوة الجوالة» حلماً من الأحلام إذ لا يمكن المحافظة على الحجاز من الخارج كما لا يمكن الخروج منه... وهكذا يترك الحجاز لحاله كمنطقة معزولة، أما مصطفى كمال فإنه يعين كقائد على الجيش السابع ويكلف بإنقاذ الجبهة الجنوبية.

ويأتي الجنرال الألماني «فالكانهاين» إلى سوريا حيث تناط به مهمة تحقيق خطة مستحيلة -إذا أخذنا ظروف وشروط تلك الأيام بنظر الاعتبار- يضحك منها المجانين:

والخطة هي تشكيل مجموعة جيوش الصاعقة من الجيوش الموجودة في سوريا، تكون سوريا محوراً لها وتقوم تحت قيادة الجنرال الألماني بإنقاذ بغداد أولاً من الإنكليز ثم الانتقال إلى الهجوم في جبهة فلسطين لإنقاذ شبه جزيرة العرب وتطهيرها من الأعداء.

وأمام وضوح الوضع لكل ذي عينين فإن مصطفى كمال يائس من هذه الخطة ويقدم رأيه بتقرير مطول إلى أنور باشا الذي يرد عليه قائلاً:

«عليكم بمراجعة قائد مجموعة الجيوش الجنرال «فالكانهاين» فأنا على ثقة بأنه سيتخذ القرار الصحيح، أو عليك أن تحمل هذه الثقة أيضاً».

أما رد الفعل الذي أظهره مصطفى كمال بعد هذا الجواب فهو رد فعل يكون جزاؤه في أي جيش يحترم النظام -كالجيش الألماني مثلاً- هو الإعدام رمياً بالرصاص، إذ إنه -بتعبيره- يعفي نفسه بنفسه من وظيفة القائد ويعود أدراجه.

«متحملاً جميع العواقب، ومخالفاً لكل الأصول والقواعد وبشكل لا يخلو من العصيان، فقد أعفيت نفسي بنفسي من قيادة الجيش وأنهيت وظيفتي بعد أن عينت وكيلي علي رضا باشا الذي كان من قواد إحدى الفِرَق في مكاني» (مذكرات أتاتورك صفحة 22).

وفي صفحة 21 من الكتاب نفسه يتساءل:

«ماذا كان يحدث لو كان غروري غرور شخص اعتيادي؟».

أي أنه يعد غروره غير الاعتيادي -الذي يفوق في هذا المجال أمير الغرور عند الفرنسيين- فخراً وفضيلة له.

أما أنور باشا الذي كان جريئاً إلى درجة أنه لا يتردد في الهجوم بالسلاح الأبيض بفصيل من الجنود على فرقة كاملة، أي جريئاً إلى درجة جنونية بعكس مصطفى كمال الذي كان ثعلباً جباناً في ثوب أسد (سنبرهن على هذا فيما بعد). والذي يعرف أن

مصطفى كمال يلتهب بالحسد نحوه، فإنه كان مع هذا رقيقاً ليِّناً معه... ولعله نتيجة إحساس بالرحمة وعدم الاهتمام الذي يولده الشعور بالقوة.

وهنا ننقل من مذكرات الجنرال «رؤوف أورباي» الحوار الذي جرى بينه وبين أنور باشا:

- سيد رؤوف!... تابع أنور باشا كلامه.

- لا أدري لماذا لا يكتفي مصطفى كمال باشا بإبداء آرائه المتعلقة بوظيفته، بل يقوم بتحريضات سياسية لا تتماشى مع سلكه العسكري... ولا بد أنك كذلك سمعت بأنه أبرق مرة إلى بعض القواد برقيات تدعوهم وتحرضهم إلى عدم الطاعة وأن يتكاتفوا في هذا، وعندما سمعت، تحدثت معه وقلت له بأنه إذا كان يريد الاشتغال في السياسة فإن عليه أن يستقيل، وأفهمته بأنه من الأفضل أن يعبر عن آرائه في المجلس. أما إذا استمر في محاولته جرَّ الجيش إلى عدم الطاعة مع أنه قائد عسكري، أو استمر في عمل يؤاخذ عليه فإنني سأضطر إلى اتخاذ الإجراءات الضرورية بحقه. وقد أجابني بأنه يأسف لسوء تفسير تصرفاته وأنه لا يفكر في النيابة في المجلس وأنه يفضل أن يبقى في الجيش. لا شك أنه قائد قدير لا يستغني البلد عن خدماته، وأنا أعرف هذا، لذلك فإنني عينته مرة أخرى قائداً في الجيش، ولكني علمت مؤخراً بأنه عاد مرة أخرى إلى التحريض السياسي...

وأنور كان يعرف دقائق نفسية مصطفى كمال كمن يقرأ في كتاب مفتوح، فعندما سئل من قِبَل بعض الاتحاديين عن السبب في تأخر ترقية مصطفى كمال إلى رتبة لواء (باشا) فإنه أجابهم إجابة لا مثيل لها:

«قال أنور: هاكم!... وأخرج من جيبه تذكرة ترقية بطل «جنه قلعة» إلى رتبة جنرال (لواء)... ثم أضاف قائلاً:

- ولكن ليكن في علمكم إنه إذا ترقى إلى رتبة الباشا فإنه يرغب أن يكون سلطاناً وإذا أصبح سلطاناً فإنه يرغب أن يكون إلهاً» (جانكايا صفحة 80).

@iAbubader

وقد كان بمقدور أنور أن يناله بالأذى وأن يمسح به الأرض بإشارة من طرف إصبعه... ولكنه لم يفعل، بل حافظ على الدوام على موقف مزيج من الاستغراب وعدم الثقة والسخرية منه.

ثم عيِّن في الجيش الثاني فلم يقبل بل طلب إجازة فأعطيت له، حيث ذهب واستقر في بيته في «أكارتلر» في منطقة «بشكتاش» في اسطنبول.

في هذه الأثناء نجد أن جيوبه عامرة، إذ لديه 2000 قطعة ذهبية (ليرة ذهبية) من ثمن الخيول العربية الأصيلة التي باعها إلى جمال باشا، ثم عندما يبيع جمال باشا هذه الخيول بـ (5000) ليرة ذهبية ويرسل الفرق بين المبلغين والبالغ (3000) ليرة ذهبية إليه أيضاً حيث يقبله بعد تردد قليل.

ولا يتساءل أحد عن مصدر هذه الخيول الأصيلة التي بيعت حينذاك بـ (5000) قطعة ذهبية (تقدر اليوم بـ 4 ملايين ليرة تركية) ولا من أي رئيس قبيلة عربية أخذها؟ وكيف؟ وبأي أسلوب نهب أو غصب أو تهديد... لا أحد يسأل... ولا أحد يعرف. بينما يحاول الذين كتبوا ذكرياته أن يضفوا عليه صفة زائفة من النزاهة عندما يذكرون أنه لم يكن لديه في رجوعه إلى اسطنبول ثمن تذكرة القطار! ولكنهم لا يفسرون لنا كيف يتجمع لدى قائد (35-40) من الخيول العربية الأصيلة كملك شخصي؟

وهو القائد نفسه الذي يقال إن الجنرال الألماني (فالكانهاين) -كما يزعم مادحوه- يرسل إليه من سوريا عدة صناديق من الذهب بدون أي سند ملكاً شخصياً له... فيرفض قبولها، ومع أنهم يذكرون أن هذا الذهب غير مخصص لاحتياجات الجيش فإنه يرسله إلى رئاسة اللوازم العسكرية ويشكل بذلك أنبل نموذج للتضحية والنزاهة.

هذه القصة الملفقة، والتي لا يوجد من يستمع إليها حتى في مستشفيات المجاذيب، والتي تشكل تحقيراً للإدراك الإنساني، قصة ملفقة من أولها إلى آخرها بدون حياء أو خجل.

أولاً ما معنى: عدة صناديق من ذهب؟ كم هي وكم ألف قطعة تحتويها؟ وما حجم هذه الثروة؟ وهذه الثروة كيف يستطيع إرسالها قائد قوات الصاعقة الألماني إلى قائد تركي

بدون سند أو إمضاء ملكاً شخصياً له إذا علمنا أن علاقته مع هذا القائد سيئة وهو قد ترك الجيش وانصرف لحاله... كيف يستطيع أن يرسل له: ولماذا يرسل له؟ وهذا علماً بأن هذا القائد -مصطفى كمال- هو الشخص نفسه الذي كان شعاره الدائم هو الاستيلاء على المعونات التي كانت ترسل من العالم الإسلامي إلى شعبه والاستيلاء على الهدايا التي كانت تُرسل من الداخل... مثل هذا الشخص كيف يرد الذهب ولا يقبله؟

وبينما كان مصطفى كمال يرتاح في بيته ويتمتع بـ (5000) قطعة من الذهب الأصفر اختار له أنور مهمة تخدم غرضه وتناسب مصطفى كمال وهذه المهمة هي مرافقة ولي عهده وحيد الدين في زيارته إلى ألمانيا رداً لزيارة الإمبراطور الألماني لتركيا.

وليس هناك من يجهل هذه الحكاية التي نقلها مدّاحوه وخلاصتها هي:

إن وحيد الدين في نظر مصطفى كمال رجل سافل ومنحط غائب عن الوعي لا يعرف عن أحوال العالم شيئاً... وعندما يقول شيئاً يغمض عينيه ويفكر طويلاً وكأنه مستغرق في تأمل صوفي، ثم يفتح عينيه ويغمغم ببعض كلمات.

هاكم الانطباع الأول:

«أعترف بأنني أحسست أنني أمام مجنون».

ومن أول وهلة يحاول اتخاذ وضع السيطرة والتحكم عليه حتى إنه يتدخل في الملابس التي يلبسها والتحية التي يلقيها، وكما نعلم من مذكراته لا يدع شيئاً إلا ويحشر نفسه فيه. إذ يبدأ بنقد أسلوب الألمان في سوق الجيش وإدارته في القيادة العليا للجيش الألماني، ويعرض بذلك نفسه إلى سخرية الإمبراطور وسخرية المارشال (هندنبرغ) وامتعاضهما.

ويقال بأنه عندما كان في إحدى الزيارات للجبهة استفهم عن تعبئة الوحدات ثم صعد على شجرة وأخذ في الرصد والمراقبة، ويقال بأنه انتقد الوضع وبأن الضباط الألمان اقتنعوا بنقده.

ويقدم لولي العهد الاقتراح التالي:

– عندما ترجع إلى اسطنبول اطلب حالاً قيادة إحدى الجيوش، وسأكون أنا رئيس أركان حربك.

... ما هذا التواضع؟ .. بما أنه في منصب قائد فكيف يطلب درجة أقل لنفسه وكيف يرضى بهذا؟ ولكن له غاية أخرى في الحقيقة.. إنه يريد التقرب من ولي العهد والسيطرة عليه لكي يكون في المقدمة عندما يتسلم ولي العهد السلطة... أي إن هذا في الحقيقة ليس سوى مناورة من أجل الوصول إلى السلطة والجاه.

أما وحيد الدين الذي كان من أذكى آل عثمان فإنه كان يتفحصه جيداً دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

وعندما أصبح عمره 38 سنة كان قد شرب من العرق والمسكرات في ظرف 20 عاماً ما لا يستطيع إنسان اعتيادي شربه في مئتين من السنين... وكانت النتيجة اعتلال كبده، فذهب إلى «كارلسباد» للعلاج امتثالاً لنصيحة الأطباء. وهناك يسمع بنبأ وفاة السلطان محمد رشاد الخامس وبارتقاء محمد وحيد الدين إلى عرش الخلافة.

يقول مصطفى كمال:

«والظاهر أن انفعالاً غير اعتيادي قد اعتراني عندما تلقيت هذا النبأ لأنني جلبت انتباه ضيوفي... هل كنت آسفاً أم كنت جزلاً؟ ... لا أعرف جيداً. ولكن الحقيقة هي أنني لم آسف على السلطان المتوفى ولم يهمني أن يكون السلطان الجديد طويل العمر أم قصيره.

إذن فهل كان انفعالي مرده أنني لم أكن في أثناء هذا التغير في اسطنبول؟ لا أستطيع أن أقطع بشيء، ولكن المؤكد أنني مررت بنوع من الانفعال» (مذكرات مصطفى كمال صفحة 56).

وهكذا فكل ما يهمه هو طموحه الشخصي... ولا شيء آخر. وقبل أن يتم علاجه يقف راجعاً إلى اسطنبول على أثر ورود برقية إليه من ياوره، وفي اسطنبول نراه في حضرة

الخليفة والسلطان الجديد رفيق سياحته في ألمانيا، وهو يصف هذه المقابلة في مذكراته فيقول:

«قابلني بلطف كبير والحق يقال، وأبدى لي قرباً أكثر من السابق عندما كان ولياً للعهد.

جلس وأراني مكاناً للجلوس أمامه، والتقط من صندوق السكاير على المنضدة التي كانت بيننا سيكارة وقدّمها إليّ، وأخذ هو سيكارة، وبعد أن أشعل سيكارته قدَّم إليّ الكبريت نفسه. وأمام هذه المعاملة الرقيقة تفتحت آمالي، فقدمت له في بادئ الأمر تهاني بصيغة مناسبة ثم ذكرت له بأنه اعتلى العرش العثماني في ظرف خطير، وأضفت قائلاً:

- كنت قد شرحت لكم وجهات نظري بكل صراحة أثناء السياحة معكم. فهل تسمحون لي أن أتكلم بتلك الحرية نفسها.

أجاب: بكل تأكيد، تفضل.

وقد أكدت في كلامي الطويل على ما يلي:

- عليكم أن تأخذوا القيادة العامة في عهدتكم وأن تعينوا لنفسكم رئيساً للأركان، فقبل كل شيء يجب السيطرة على الجيش، وبعد ذلك فقط يمكن التفكير واتخاذ القرارات التي يمكن تطبيقها.

وأمام هذا الاقتراح أغمض وحيد الدين عينيه -تماماً كما فعل عندما رأيته عندما كان ولياً للعهد- وبعد قليل أجاب:

- هل هناك قواد يفكرون مثلك.

- نعم... يوجد.

- سأفكر في الأمر».

وكما هو ظاهر وواضح فإن الشيء الوحيد الذي كان يحرص عليه مصطفى كمال أمام هذا التغير في الخلافة هو شهوة المنصب وليس أي فكر أو إحساس آخر.

ثم يقابل السلطان مرة أخرى، ولكنه لا يستطيع أن يجعله تحت تأثير إيحائه، إذ لا يدع له السلطان أي مجال لهذا؟

وفي المقابلة الثالثة عندما يكرر: «اتخاذ التدبير... التدبير...» يأخذ الجواب التالي ويصل إلى هذا القرار:

«يا باشا! إن علي قبل كل شيء إطعام أهالي اسطنبول، فهم جياع، وقبل تأمين هذا فإن كل تدبير لا يكون في محله».

وعند إتمامه هذه الجملة أغمض عينيه، أما أنا فقد علمت بأسف شديد أنني أمام نموذج من مئات النماذج للطبيعة الماكرة... الطبيعة الماكرة كالثعلب.

ولا يهدأ من الحوم حول وحيد الدين حتى إنه لا يخجل من الظهور بمظهر المنافق عندما يشترك أحياناً في أداء شعائر العبادة للدين الذي كان يحمل بين جوانحه نفوراً شديداً منه.

«كنت أحضر بصفتي أحد قواد الجيش إلى جامع بلوز -الذي بناه السلطان عبدالحميد- لصلاة الجمعة، وفي إحدى الأيام كنت في الصالون مع أنور باشا -نائب القائد العام وعزت باشا وقواد آخرين كانوا قد قادوا حرب البلقان ننتظر وقت الصلاة. وبعد الصلاة أخبرني ناجي باشا بأن صاحب الجلالة يرغب في رؤيتي في الصالون الخاص. فسألته:

- هل هو على انفراد.

أجابني:

- كلا فهناك بعض الجنرالات الألمان معه.

قلت له:

- أرجوك... إنني أرغب أن أراه على انفراد بعد انصراف هؤلاء.

- لقد خمنت هذا أنا أيضاً، لذلك فقد أجبت جلالته عدة مرات أجوبة مناسبة، ولكن الظاهر أنه يريد أن يلقاك أمامهم.

- أرجو أن تحاول مرة أخرى إن كان ممكناً.

وقد بذل ناجي باشا كل ما في وسعه حتى إنه همس في أذن السلطان: إن من الأنسب أن تراه بعد انصراف الجنرالات، ولكنه عندما قال له بأنه يرغب أن يراني أمامهم حسب ناجي باشا أن للسلطان قصداً خاصاً.

دخلت على وحيد الدين... كان السلطان واقفاً أمام الجنرالات ويلقي كلمة. وهنا أخذ يقدمني بعيونه إليهم. ثم جلسنا فقال لي:

- لقد عينتك قائداً على سوريا. فالوضع هناك خطير، لذلك فإن ذهابكم ضروري. والذي أريده منك هو أن لا تدع المنطقة تقع في يد الأعداء. وأنا على ثقة بأنك سوف تنجز هذه المهمة التي أسلمها إليك... عليك بالسفر حالاً».

وهكذا يعين مصطفى كمال من جديد قائداً على الجيش السابع الذي كان قد تركه من قبل دون أن يلوي على شيء.

وبعد هذا التعيين يحصل كل شيء.

هنا نستطيع أن نبدأ بفصل كبير، ولكننا لا نفعل لأننا لا نريد أن تفسد خطوات بحثنا لذلك نكتفي هنا بالإشارة.

أما الآن فإننا نكون قد وصلنا إلى أكثر المواضيع حساسية بالنسبة لبحثنا والتي سيتم توضيحها بشكل أفضل عند تناول معاهدة «لوزان».

كانت الجيوش الإنكليزية قد دفعت الجيوش التركية في سوريا إلى الشمال، ولكنها كانت لا تزال بعيدة عن النتيجة الحاسمة... وهنا يتفق مصطفى كمال مع القائد الإنكليزي الجنرال «اللنبي» سراً وبانسحاب فجائي يحرم الجيش التركي من ذراعي أو

ركني الاستناد ويؤدي بذلك إلى وقوع الجيش بيد الأعداء... أي إن مصطفى كمال ليس إلا بائعاً للوطن.

مهلاً! لا تتعجلوا ولا تستغربوا.

في علم الرياضيات قد يأتي الإثبات أولاً ثم تأتي النتيجة، أو قد توضع النتيجة في المقدمة ثم يأتي الإثبات.

ونحن هنا نضع هذا الادعاء (مهما بدا غريباً) أمام الأنظار ثم نقوم بإثباته.

أما عناصر إثباتنا والتي نعتبرها وثائق مطلعة فهي شهادة الذين أرادوا طمس الحقيقة ومنهم مصطفى كمال نفسه ولكنهم وضعوا الحقيقة أمام الأنظار وهم يحاولون طمسها... وهذا كله من تدبير الله تعالى الذي طمس على إدراكهم.

لنستمع الآن إليه وهو يذكر ما عمله عندما رجع إلى الجيش السابع (مذكرات أتاتورك صفحة 67-68).

«أصدرت أمراً يمكن أن يعتبر جنونياً، وكانت النقاط الأساسية في هذا الأمر هي:

يجب أن تتحرك جميع القوات الموجودة في دمشق والتي كانت تحت قيادة عصمت إينونو[1] الذي عينته هنا: وكذلك يجب أن تتحرك القوات الموجودة حوالي «رياق» والتي كانت تحت قيادة علي فؤاد باشا إلى الشمال.

ولكي أحيط القائد العام لجميع القوات «ليمان فون ساندرز» علماً، فإنني أرسلت إليه نسخة من هذا الأمر... وكانت النتيجة ثورة من الغضب.

- من هذا الشخص؟ وماذا يريد أن يعمل؟

والحقيقة أنني كنت أتوقع هذا، لكنني لما كنت متأكداً من سبب وماهية العمل الذي قمت به فإنني توجهت إلى بعلبك بين نيران السكان بعد أن أحرقت محطة «رياق»، وفي

(1) رئيس الوزراء فيما بعد، ثم خَلِفَ مصطفى كمال في رئاسة الجمهورية - المترجم.

بعلبك كررت للقائد علي فؤاد باشا، الذي كان في انتظاري، بوجوب تنفيذ أمر الترك نحو الشمال. وعندما وصلت إلى حمص بالقطار، حيث كان فيه مقر «ليمان فون ساندرز» كان الوقت ليلاً، وتحدثت مع «ليمان فون ساندرز» بأسلوب صادق شارحاً له بأن هذا القرار هو القرار الصحيح أمام ذلك الوضع، فقال «ليمان فون ساندرز» بكل أدب ورقّة:

- نعم... هذا هو القرار الصحيح، ولكني في نهاية الأمر أجنبي، لذلك فإنني لا أستطيع إعطاء مثل هذا القرار، بل يستطيع إعطاءه أحد أبناء هذا البلد.

فقلت له: إذن سيطبق هذا القرار.

قال: ولكن أرجوك أن تقنع رئيس أركان الحرب عندي كذلك.

كان رئيس أركان الحرب للجنرال «ليمان فون ساندرز» هو كاظم باشا (ديار بكرلي)[1] وكان مريضاً فذهبت مع «ليمان فون ساندرز» إلى الغرفة التي كان ينام فيها طريحاً على الفراش. فأخذت أشرح له ما يجب شرحه، فوافق «كاظم باشا» مع «ليمان فون ساندرز» في الحال على رأيي. أما قراري العملي فكان ما يلي: بقي هناك عتاد الجيش السابع وكثير من الأنقاض الأخرى... كان رأيي أن أجمع هذا كله في حلب في شمال سوريا ثم النظر بعد ذلك في اتخاذ قرار آخر...».

والذي نستطيع أن نستخلصه من هذا الكلام ما يلي:

إن مصطفى كمال بـ «قرار جنوني» يسحب الجيش إلى الشمال ولا يهمل إخبار قائد مجموعة الجيوش الجنرال الألماني (حل الجنرال ليمان فون ساندرز محل الجنرال فالكانهاين)، ويستقبل الجنرال هذا الخبر بذهول وبدهشة، ولكنه عندما يرى بأن كل شيء أصبح أمراً واقعاً لا يرى أمامه سبيلاً إلا الرضوخ والرضا. ولكنه لكونه أجنبياً لا يستطيع تحمل هذه المسؤولية الكبيرة في أمر يعتبر قضية حياة أو ممات، لذلك فإنه يقول بأنه يترك هذا الأمر لأبناء البلد ويدعه في يد مصطفى كمال.

---

(1) ديار بكرلي: أي من أهالي مدينة (ديار بكر) - المترجم.

وهكذا يتم المطلوب.

ويبدأ الجيش بالتحرك.

هل تشخيصنا حتى الآن صحيح ومطلق؟

والآن لنقدم التفسير الوحيد لهذا التشخيص المطلق:

هناك احتمالات ثلاث:

إما أن هذه الخطة خطة عبقرية أخذت في اعتبارها حتى المجازفة بالحياة.

وإما أنها خطة حمقاء تؤدي إلى هلاك الجيش ودماره ولكنها اتخذت بحُسْن نية، أما الاحتمال الثلاث فهو أن هذه الخطة ليست إلا محاولة بيع الوطن إلى الأعداء... وكما تملك الأجسام المادية أبعاداً ثلاثة. فإن الاحتمالات هنا احتمالات ثلاثة وليس هناك احتمال رابع.

أما الاحتمال الأول فيكفي أن نعرف نتيجة الخطة. أما الاحتمال الثاني فتمنعه المعلومات العسكرية التي كان يملكها مصطفى كمال، ولا يملك أحد من محبيه اتهامه بالحمق والغفلة البالغة هذه الدرجة، ولا نستطيع نحن كذلك الاشتراك في مثل هذا الاتهام.

ويبقى الاحتمال الثالث الذي يجب أن ندققه ونتفحصه بكل إمعان بعيداً عن العجلة وعن العاطفة.

لننظر أولاً إلى نتيجة الخطة ونتيجة الحركة «مذكرات أتاتورك صفحة 64-65».

«كنت أتوقع أن يُساء فهم أوامري، لذلك فإنني كنت أراقب بكل دقة تحرك الأعداء للهجوم في الموعد الذي كنت أتوقعه. وفي مساء يوم 19-20 أيلول دعيت قواد الفِرَق عصمت وعلي فؤاد باشا بالتلفون سائلاً إياهم:

- هل اتخذتم التدابير اللازمة لتنفيذ أوامري

فكان الجواب:

- لقد تم تنفيذ أوامرك.

وقبل أن أنهي المخابرة كان الأعداء قد بدأوا بفتح النيران على خطوطنا القتالية، ومضى الليل بالمعركة، وقد استسلم الجيش الذي كان على جناحي الأيمن ومن هذه الجبهة التي خلت استطاعت قطعات فرسان الأعداء من الإغارة على مقر «ليمان فون ساندرز».

لقد اتضحت الحقيقة. ولكن ما الفائدة؟ وبعد صعوبات يطول شرحها وبعد اجتياز أنهار وبرارٍ استطعت إيصال جيشي إلى دمشق».

فإذا وضعنا على جانب الإيحاء -الخالي من الحياء- بأن الكارثة حدثت لعدم تنفيذ أوامره.... إذا وضعنا هذا جانباً فإن كلامه يشير إلى وجود تنظيم تام بين أوامره وبين هجوم الأعداء فمصطفى كمال عندما قام بسحب جيشه بشكل فجائي إنما أمَّن ثغرة نفذت منها القوات الإنكليزية وأحاطت بأجنحة الجيش. أما الجيش الذي يقول بأنه سحبه إلى دمشق فلم يكن إلا بقايا جيشه الذي كان سبب انسحابه المفاجئ كارثة القوات الأخرى والذي يقرأ مذكرات مصطفى كمال يخال بأن الكارثة تنحصر في أسر بضع مئات من الجنود، بينما عدد الأسرى كان يقرب من (100) ألف جندي عدا القتلى برصاص الدروز والأرمن ممن أفلتوا من الأسر.

كيف يمكن أن يكون هذا؟ وما هذا الادعاء الجريء؟

ولكن مهلاً فهذا المقدار من الإثبات لا يكفي.

لو خرج أحدهم قائلاً:

- إن هذا التصرف من مصطفى كمال -بالرغم من ذكائه ودرايته العسكرية- قد يكون خطأً أو جرأة باهظة الثمن. ولكن من قال بأن انسحابه المفاجئ كان نتيجة اتفاقه مع الإنكليز؟ وأين دليلكم على هذا؟

إننا نضع بنفسنا هذا الاعتراض لكي يحيط جوابنا بكل جوانب الحقيقة، ولكي نُظهر موضوعيتنا الفكرية. والآن سنقوم بهدم هذا الاعتراض الذي قدمناه بأيدينا بأقوى الأدلة المنطقية.

من المعلوم في علم الهندسة بأن شروط تطابق شكلية لا يكفي كل منها على حدة، ولكن عندما يجتمع عدد منها فإن التطابق يتم، فمثلاً إن تساوي ضلعين من مثلثين لا يكفي لتطابقهما إلا إذا تساوت الزاوية المحصورة بين الضلعين كذلك.

إن التوافق بين تصرف مصطفى كمال وتصرف الأعداء وانجلاء المعركة عن كارثة ليسا إلا تساوي الضلعين، ولكي يتم التطابق لا بد من تساوي الزاوية المحصورة بين الضلعين، أو تساوي الضلع الثالث.

حسناً !

والآن وبعد أن قدمنا ما في وسعنا من المساعدة لمن يعترض علينا نريد أن نبرهن على دعوانا أي نبرهن على تساوي الزاوية المحصورة بين الضلعين أو تساوي الضلع الثالثة وذلك بالاستناد إلى حادثة.

في أيام الهدنة جاء إلى اسطنبول فاتح سوريا -بفضل مصطفى كمال- الجنرال الإنكليزي «اللنبي» حيث يطلب من الحكومة التركية تعيين مصطفى كمال في الموقع الذي يريده الإنكليز، وهو موقع الجيش السادس الذي كان بالقرب من الموصل حيث النفوذ الإنكليزي وحيث منطقة البترول، والسبيل الوحيد لتوفير حماية الإنكليز وأمنهم هو أن يكون مصطفى كمال على رأس هذا الجيش. فإن لم يكن على رأس الجيش التركي شخص يوثق منه كثقتهم في جنرال إنكليزي فلا أمن للإنكليز ولا اطمئنان.

وهذا أيضاً ادعاء مدهش وجريء أليس كذلك؟

وأين إثباته؟

إذن تفضلوا واستمعوا إلى مصطفى كمال نفسه «مذكرات أتاتورك، ص89-99».

«في تلك الأثناء وصل الجنرال «اللنبي» إلى اسطنبول، وفي أحد الأيام طلب وزير الحربية ومعاونه رئيس الأركان وعندما حضرا إليه أخرج من جيبه دفتراً صغيراً للملاحظات

راغباً في إملاء بعض رغباته، وعندما حاول الوزير ومعاون رئيس الأركان الكلام بادرهم الجنرال قائلاً:

- إنني لم أطلبكما للمفاوضة بل قبلت حضوركما لإخباركما عن بعض رغباتي.

وفي أثناء هذه المقابلة أوصاهما بتعييني قائداً على الجيش السادس، ولما كنت أعلم طبيعة المكانة وطبيعة الوظيفة والظروف التي ستحيط بي فإنني رفضت الطلب فوراً. والظاهر أن رفضي كان هو السبب لمسألة السيارة والمخصصات والياور».

ومسألة السيارة والمخصصات والياور[1] التي يذكرها هي أن حكومة اسطنبول سحبت منه السيارة والياور وقطعت عنه المخصصات فجأة، دون أن يعرف السبب إلى أن علم بحادثة «اللنبي». انظروا إلى أية درجة بلغ الاشمئزاز حتى بالحكومة العاجزة الموجودة في اسطنبول -حكومة عهد الهدنة- من ترشيح الإنكليز لجنرال تركي.

أما رفضه قيادة الجيش السادس فيعود إلى طموحه وكونه يرنو إلى مناصب أعلى، لذلك فلم يقبل العرض الإنكليزي إذ اعتبر العرض أقل من طموحه ولما كانت الوثيقة المطلقة لهذه الخيانة التي طُمست وأُخفيت معالمها -بل نصبت مكانها آيات البطولة القومية- لا تتوفر إلا بالاعتراف الصريح من قِبَل الخائن أو بتشهيره من قِبَل من استعملوه. ولما كان هذا مستحيلاً فليس هناك من استدلال خارجي يكون أقوى من الاستدلال من كلامه وإلزامه بعثرات لسانه وباعترافه غير المقصود.

هذا علماً بأن علاقته مع الإنكليز ستستمر إلى معاهدة لوزان بل حتى عندما وضع في تابوته الرصاص إذ كانت الأعلام الإنكليزية ترفرف حوله[2].

---

(1) الياور: هو المراسل أو المرافق الذي يعين في معية الضباط الكبار - المترجم.

(2) من المعلوم بأن الحكومة الإنكليزية بالغت جداً وأكثر من جميع الدول الأخرى في إظهار الأسى في مراسيم دفن أتاتورك - المترجم.

بل إن هناك وثيقة مدهشة تبين كيف أن مصطفى كمال وهو يتظاهر بالتقرب من البلاشفة -على أساس أن مصلحة وبقاء تركيا كانت تقتضي ذلك- لم يكن في الحقيقة يعمل إلا لصالح الإنكليز، إذ يفشي لنا الجنرال كاظم قره بكر الذي كان مسؤولاً عن القطاع الشرقي للأناضول أثناء حرب الاستقلال أسرار تعليمات سرية بالشيفرة، ويبين كيف أن أول خلاف له مع مصطفى كمال إنما كان بسبب هذه التعليمات، وبالرغم من كل شيء فهو يتناول هذا الموضوع بكل موضوعية وبكل احتياط وجدية بل بكل طيبة قلب وسذاجة في بعض الأحيان، حتى إنه عندما لا يجد مفراً من شعور الشك لا يتصور ولا يفهم كيف أن مصطفى كمال ليس إلا «كونتر سبيوناج» بتعبير الفرنسيين وهو الشخص الذي يعمل لجهة معينة بينما يتظاهر بأنه من الجهة الأخرى المعادية. لذلك فإنه يكتفي بقول: «... لقد تجمدت من الدهشة».

والآن سنتناول هذه الوثيقة لنُظهر الوجه الحقيقي الذي لم يفهمه كاظم قره بكر باشا: «الخلافات السياسية – مطبعة قاندمير 1955».

إليكم نص أقوال الجنرال كاظم قره بكر:

«14 Kânunusani (Ocak) 1920 tarihinde Mustafa Kemal Paşa Hazretleri. Ankarada iken her hangi bir tehlikeye karşı müdafaayı sağlayacak millî bir plân tertip ederek ilgililere tebliğ ettiler. Bunda 12. 14 ve 20 nci Kolordular ve Aydın Cenup Grupu Miralay Refet Bey kumandasındaki müfreze ve milisler ve Şimal Grupu Ondördüncü Kolordu Kumandanı Yusuf İzzet Paşa doğrudan doğruya Mustafa Kemal Paşa Hazretlerine, 3. 13 ve 15 inci Kolordular da bana merbut bulunacaklardır. Mustafa Kemal Paşa Hazretleri ayni zamanda umum Anadolu kumandanı unvanını alacak ve Erkânı Harbiye Riyasetini de Ali Fuat Paşa idare edecektir.

Esasen Erzurum ve Sivasta dahi bu hususta görüşmüştük. yâni Şark'ı ben, Garb'ı da Mustafa Kemal Paşa Hazretleri müdafaa ve temin edecektik.

Ancak bu plânda Şark hareketi bahsi yoktu. Bütün kuvvetlerin dahilde çalışacağı zikrolunuyordu. Şöyle ki; Mustafa Kemal Paşa Hazretleri Garp cephesiyle meşgul iken, Sivastaki Üçüncü Kolordunun dahilî taşkınlıklara ve haric' müstevlilere karşı vazifesi zikredilerek 15 ve 13 üncü Kolordulara da bu Kolordunun vazifesini mümkün olduğu kadar kolaylaştırmağa çalışması bildiriliyordu.

Halbuki; bu plânın tesbiti tarihinden on sekiz gün sonra 3 Subat 1920 de Mustafa Kemal Paşa Hazretlerinin bana gönderdiği şifrede: Diğer cephelerde bir şey yapmak imkânı yok. Gayrı müsait sulh şartlarına karşı silâhlı olarak mukavemet imkânını gösteren bir Kafkas cephesidir Türkiye Kafkasyada Bolşevik istilâsını kolaylaştırmak ve harekâtını onunla tevhid etmekle. Garptan Şarka doğru Anadolu, Suriye, Irak, İran ve Hindistan kapılarını mükemmel bir surette açmış olacaktır. Düşmanlar ise bu açık kapıları kapamak için taarruzi harekât sevkulceyşiyi yapacak kuvvetleri süratle tedarik edemezler diye şu izahta bulunuyorlardı: Düşmanlar; Bolşeviklerle Türkler arasını Kafkas milletleri vasıtasiyle kesmek plânını kurmuşlardır. Azerbaycan, Ermenistan, Gürcistan ve belki Şimalî Kafkas hükûmetlerinin istiklâllerini tasdik ederek, bunları celbederler. Şimdi bunların Bolşeviklerle vuruşmalarını bir emrivaki yapmak için her suretle teşvik ve takviye etmektedirler. Bundan maada bizzat kuvvet sevkine de başlamışlardır ki, bu kuvvet tesiriyle hem Bolşeviklerle musademeyi tesri etmek. hem de Kafkas milletlerinin Türklerle Bolşeviklerin her hangi bir temaslarını men' ve murakabe eylemek

في 14 كانون الثاني لسنة 1920 هيأ سيادة مصطفى كمال باشا -عندما كان في أنقرة- خطة عامة للدفاع ضد أي خطر، وأبلغ هذه الخطة للمسؤولين، وحسب هذه الخطة أصبحت الفرقة الثانية عشرة والرابعة عشرة والعشرون وكذلك القوات العسكرية والقوات الشعبية للمجموعة الجنوبية لمقاطعة «آيدن» والتي كانت تحت إمرة «الأميرالاي رفعت باشا» وكذلك قوات المجموعة الشمالية المؤلفة من الفرقة الرابعة عشرة التي كانت تحت قيادة قائد الفرقة «يوسف عزت باشا» تابعة لسيادة مصطفى كمال باشا، أما الفرقة الثالثة والثالثة عشرة والخامسة عشرة فتكون تابعة لي، وقد أخذ سيادة مصطفى كمال باشا لقب القائد العام للأناضول، وعهد برئاسة الأركان إلى «علي فؤاد باشا». هذا علماً بأن هذا الاتفاق كان قديماً بيننا، إذ تم الاتفاق على هذا في «أرضروم» و«سيواس»، أي يناط دفاع القطاع الشرقي إليَّ ويناط دفاع القطاع الغربي بسيادة مصطفى كمال باشا.

ولم يكن هناك أي ذكر أو إشارة إلى أية حركة عسكرية في الحدود الشرقية، إذ على جميع القوات أن تقوم بواجبها في الداخل وعلى النحو التالي: عندما يكون سيادة مصطفى كمال باشا مشغولاً بالدفاع في الجبهة الغربية فإن على الفرقة الثالثة في «سيواس» أن تقوم بواجبها ضد الاضطرابات الداخلية وضد العدوان الخارجي، على أن تقوم الفرقة الخامسة عشرة والثالثة عشرة بتقديم المساعدة في هذا المجال على قدر الإمكان.

ولكن بعد أن مرّ (18) يوماً على تثبيت هذه الخطة، أي في يوم 3 شباط 1920 تلقيت رسالة بالشيفرة من سيادة مصطفى كمال باشا يقول فيها:

«ليس هناك مجال للمقاومة المسلحة ضد شروط الصلح الفاسدة إلا في جهة القفقاس، أما الجهات الأخرى فليس في الإمكان عمل أي شيء، فإذا ساعدت تركيا البلشفيين في الاستيلاء على قفقاسيا ووحدت جهودها معهم فإن الأناضول من الغرب إلى الشرق وكذلك سوريا والعراق وإيران وأبواب الهند تكون قد فتحت على مصاريعها، أما العدو فإنه لا يستطيع على الفور من تهيئة القوات الضرورية لسد هذه الأبواب».

ثم كان يقدم هذا الإيضاح:

«لقد وضع الأعداء خطة فصل البلاشفة عن الأتراك بواسطة الشعوب القفقاسية وهم على استعداد للاعتراف باستقلال أذربيجان وأرمنستان وكورجستان وحتى حكومات شمالي القفقاس لجلبهم إليهم، وهم يشجعون هؤلاء على حرب البلاشفة ليكون النزاع بينهم أمراً واقعاً، وبالإضافة إلى هذا فقد بدأوا بإرسال القوات كذلك، وهذه القوات تقوم بإسناد النزاع مع البلاشفة وبمراقبة ومنع أي اتصال بين الأتراك وبين البلاشفة بواسطة الشعوب القفقاسية».

وبعد أن يسرد مصطفى كمال أفكاره هذه يحاول أن يظهر نفسه كعدو للإنكليز فهو يقترح الاتصال مع البلاشفة، وذلك لتعريض المستعمرات الإنكليزية ومناطق نفوذهم إلى الخطر، ومن أجل هذه الخطة المضحكة فهو يريد ضرب شعوب القفقاس التركية والمسلمة من الخلف لفتح الطريق أمام الروس. ويتابع آراءه.

هذه هي الخطة التي تنفذ ضدنا الآن، وهذه الخطة ترشدنا إلى ما يجب علينا وإلى التدابير التي علينا أن نتخذها. وهذه التدابير هي ما يلي:

إعلان النفير العام بشكل رسمي أو غير رسمي في الجبهة الشرقية لتكوين الحشد العسكري اللازم لكسر سد قفقاسيا من الخلف، لذلك فإن علينا الاتصال السريع بالحكومات القفقاسية الجديدة وخاصة الحكومات الإسلامية منها مثل حكومة أذربيجان وداغستان لمعرفة موقفهم من خطة الحلفاء، فإذا كان قرار الشعوب القفقاسية هو الاستمرار في وقوفهم كسد أمامنا فما علينا إلا الاتفاق مع البلاشفة لتوحيد الهجوم معهم، وكذلك العمل على توسيع وتقوية التشكيلات الوطنية وإعطائها الأسلحة وذلك لمنع تسليم الأسلحة والذخائر إلى الأعداء، أما أهم ما يجب علينا ملاحظته فهو عدم إفساح المجال أمام الحلفاء لكسب الوقت، وهذا لا تستطيع القيام به إلا حكومة حازمة تزن الأمور بهذا المقياس.

وستظهر الحاجة إلى اتخاذ التدابير اللازمة لإدارة الدولة من الأناضول، وبما أن الصدام سيكون بعد شهرين فإننا نستطيع أن ندخل هذا الصدام في ظروف أفضل وقبل أن يكمل الحلفاء استعداداتهم.

وإذا لم يكن هناك مجال لتأليف مثل هذه الحكومة فإنه لا يوجد مع الأسف أي مبرر للأمل، وعلينا أن نعرف هذه الحقيقة الملموسة من الآن وأن لا ننخدع. والتدبير الذي يمكن أن نتخذه هو سحب أصدقائنا من برلمان اسطنبول والاتصال مع الشعوب القفقاسية ومحاولة القيام بتنفيذ التدابير التي شرحتها أعلاه بشكل غير رسمي.

yaparak. Kafkas seddini arkadan yıkacak tahşidata başlamak, yeni Kafkas hükûmetleri ve bilhassa Azerbaycan ve Dağıstan gibi İslâm hükümetleriyle müstacelen temasa gelerek İtilâf plânına karşı kararlarını ve vaziyetlerini anlamak ve Kafkas milletleri bize sed olmaka karar verdikleri takdirde, taarruz hareketlerimizi tevhid için Bolşeviklerle anlaşmak ve dahilen Milli teşkilâtı son derece tevsi ve takviye ile silâh ve cephane gibi malzememizi vermemek için, silâh istimal etmektir. En mühim vazife ise, itilâfçıların zaman kazanmasına meydan vermemektir. Bunu ancak, vaziyeti bu suretle muhakeme eden kat'i karar sahibi bir hükûmet yapabilir

Hin hacette memleketin Anadoludan idaresini mümkün kılacak hazırlıklara başlanması gerektiği de anlaşılır. Biz bu musademeye iki ay sonra vaki olacağından, daha müsait şartlar dahilinde ve itilâf manzumesinin hazırlığını dahi ikmal etmemiş bulunduğu zaman dahil olacağız.

Eğer böyle bir hükûmet ihdásına imkân yoksa, maatteessüf, ümide düşmeğe sebep de yok demektir. Aldanmıyarak bu vaziyeti şimdiden müşahede ve kabul etmeliyiz. Bunun üzerine ittihaz edeceğimiz tedbir, Heyeti Temsiliye arkadaşlarımızı İstanbuldan çekmek ve derhal Kafkas milletlerine müracaatla, hemen yukarıda bildirilen tedbirlere gayrı resmi, fakat fiilî olarak teşebbüs etmektir.

وبعد أن يورد الجنرال كاظم قره بكر هذه التعليمات المرسلة بالشيفرة من قِبَل مصطفى كمال يتابع قائلاً:

«كان سيادة مصطفى كمال باشا قد وضع ملاحظة «يتبع» في آخر الشيفرة وقد رأيت أن هذه الشيفرة خطيرة (وليست في صالحنا) من ناحيتين مهمتين:

النقطة الأولى: إن «روبنسون» شقيق اللورد «كيرزون» بعد أن تشاور مع رجالات إنكلترا جاءني وأعطاني هذه الإيضاحات نفسها وأخذ يحرضني على الهجوم فوراً.

وبعد هذا يشرح الجنرال كاظم قره بكر كيف شعر بالدهشة والذهول للتوافق العجيب والفجائي بين رغبة مصطفى كمال -الذي يتظاهر بعداوة الإنكليز- وبين رغبة الإنكليز أنفسهم.

ولكن الجنرال كاظم قره بكر لا يقف طويلاً على هذا التوافق العجيب ولا يتعمق فيها وإنما يبدأ بشرح وتحليل كيف أن مثل هذه المحاولة ستكون كارثة على تركيا وعلى الجيش التركي ويصل في الختام إلى النتيجة التالية:

... وفي النتيجة سوف لن يفقد الجيش أسلحته فقط بل سيقبر إلى الأبد أبناءه كذلك، وبعد ذلك، ستفرض معاهدة الصلح -التي لن تكون سوى لائحة موتنا- على مجلس الأمة في اسطنبول تحت أخماص البنادق، أما «راولنستون» فإنه كان يريد تحقيق خطة انتقام رهيبة منا، لذلك فإنه كان يحاول بكل عناية واهتمام إقناعي وتحريضي.

وفي هذه الأثناء ونتيجة لجهلهم بما يجري هنا فقد استلمت الشيفرة المرسلة من مجلس النواب في أنقرة تحت إمضاء مصطفى كمال، وقد تجمدت من الدهشة والذهول أمام هذه الشيفرة، وفي الجواب الذي أرسلته رفضت هذه الأفكار والمقترحات ولأجل تنبيههم فإني رأيت من الضروري أن أسألهم عن أي مصدر استلهموا هذه الخطة».

Neticede ordumun yalnız silâhları degil. insanları da ebediyen gömülecek. ondan sonra da idam fermanımız olan sulh muahedemizi, dipçikler altında. İstanbul Meclisi Mebusanına tasdik ettireceklerdi. (Ravlenson)un bizden müthiş bir intikam almak plânını tatbik ettirmek için. eskisinden daha çok bir itina ile beni teşvik edip durduğu bir sırada. her halde buradaki vaziyeti yakından bilmeyişlerinden dolayı. Ankaradaki Heyeti Temsiliyeden (M. Kemal) imzasiyle gelen şifre karşısında dona kaldım ve verdiğim şu cevapta. ileri sürülen fikirleri reddettikten sonra. kendilerini ikaz için, bu plânın nereden mülhem olduğunu sormak zaruretini de duydum:

إن هذه الوثيقة التي نقلناها من الجنرال كاظم قره بكر الذي كان أحد الأبطال الحقيقيين لحب الاستقلال تدل بلا شك على القصد الحقيقي والخفي لمصطفى كمال وإن لم يدركه الجنرال كاظم حق الإدراك، ونستطيع تلخيص النية الخفية والحقيقية -بدلالة القرائن الأولى واللاحقة- لمصطفى كمال، والوجه الحقيقي للقضية كلها كما يلي:

1- إن الإنكليز كانوا يعتقدون بأن المقاومة التركية لم تكسر ولم تنته بعد، وقد ترك كسر هذه المقاومة وإنهاؤها لليونانيين في الغرب ثم سوق الأتراك إلى حركة انتحارية في الشرق.

2- وإذا أتينا إلى موضوع ضرب مسلمي قفقاسيا من الخلف بواسطة مسلمي الأناضول لفتح الطريق أمام الشيوعيين فلم تكن شروط وظروف تلك الآونة تعني أي تهديد لمصالح الإنكليز على الإطلاق، وذلك لأن الروس الذين كانوا غارقين في مشاكلهم الداخلية وصراعاتهم الداخلية كانوا أبعد من أن يطمحوا أو يفكروا في هذا !

3- وهكذا تكون النتيجة انهيار قوة تركيا التي تمثل الإسلام والتي كانت السياسة الإنكليزية تعتبرهما ألد أعدائها، ويتبوأ الإنكليز بذلك مقعد الصدارة والقوة في السياسة الشرقية وهذا هو السبب في أنهم لم يفتحوا جبهة قتال خاصة بجانب جبهات اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين في تركيا. وبالنسبة لهم فإنهم كانوا يرون أن عليهم الانتظار والتربص لانكشاف الأحداث ومن ثم فإن أمر البلاشفة سهل.

4- ومن يخدم هذه السياسة الإنكليزية ويكون خادمها غير مصطفى كمال الذي هدم الجبهة السورية في الحرب العالمية وسلّمها إلى الإنكليز.

5- أرسل اللورد كيرزون وهو من أبرز الدبلوماسيين الإنكليز -والذي أيّد في مؤتمر لوزان استقلال تركيا على شرط انسلاخها من الإسلام -أخاه العميد «لاورانسون» إلى الجنرال كاظم قره بكر لهذا الغرض ليحرضه على فتح جبهة قتال في قفقاسيا اعتماداً على التعليمات التي أرسلها مصطفى كمال إليه بالشيفرة. ولا شك أن مصطفى كمال كان قد تلقى هذه التعليمات نفسها من قبل.

6- وفي إطار هذا الترتيب يتظاهر مصطفى كمال لكي يحصل على صداقة البلاشفة بعداوة الإنكليز وبالتقرب إلى البلاشفة مترقباً الأحداث بحثاً عن طريق لا ليخدم وطنه بل ليشبع أنانيته وهوى نفسه، فإذا أصبح وطنه من أقصاه إلى أقصاه مستعمرة إنكليزية -فإنه سيأتي ليجلس على رأس تركيا كمهراجا هندي. أما إذا سنحت الفرصة وأنقذه الاستقلال بمعونة الإنكليز، فإنه أيضاً سيتزعم تركيا على أساس أنها استقلت وأنقذت - كما حدث بالفعل حيث سيستطيع أن يتجبر ويتسلط كجبروت فرعون ونمرود. أما إذا لم يبقَ هناك أمل فإنه يستطيع الفرار إلى روسيا.

7- ومهما كانت النتيجة فإن جميع احتمالات هذه اللعبة المزدوجة -التي كانت تستهدف الميل نحو الجانب الذي يأتي منه التأييد ومعاداة الجانب الآخر- كانت تؤدي إلى الفرص نفسها، وهو خدمة مصلحة مصطفى كمال في تأليه نفسه وفي ضرب الإسلام.

وهو يسجل في مذكراته (ص79-80) أفكاره ومشاريعه عندما كان في حلب:

«كنت موقناً بضرورة إسقاط هذه الوزارة وبتشكيل وزارة أخرى تشترك فيها وتستطيع أن تعمل، على أن تعطى قيادة الجيش بكامله إليّ. ولتأزم الوضع واستدعائه حلاً جدياً وسريعاً فإني شرحت وجهة نظري هذه في برقية بعثتها للسلطان وحيد الدين. وقد رشحت فيها عزت باشا لصدارة هذه الوزارة الجديدة، كما رشحت فيها أسماء بعض الأصدقاء كوزراء، كما طلبت في البرقية نفسها وببساطة إسناد وزارة الحربية إليّ. كما أرسلت إلى الأشخاص الذين رشحتهم للوزارة رسائل شرحت فيها التماسي من السلطان».

وبعد فترة قصيرة استقالت وزارة طلعت باشا، وتشكلت وزارة أخرى برئاسة «عزت باشا»، ولا أستطيع أن أقرر الآن مدى العلاقة بين تشكيل هذه الوزارة وبين برقيتي غير أن قسماً كبيراً من الأصدقاء الذين ذكرتهم في البرقية دخلوا إلى الوزارة. وبعد تشكيل الوزارة بوقت قصير استلمت رسالة من رئيس الوزراء «عزت باشا» وكانت هذه البرقية -على ما أذكر- تنتهي بهذه الجملة:

«... وبعد الصلح فإن رفقتكم[1] مأمولة من ألطاف السلطان».

وقد حاولت أن أشرح له -في برقية الجواب التي أرسلتها إليه- ما يلي:

«إنني أعتقد بأن الصلح ليس بقريب وأن طلبي لوزارة الحربية لم يكن إلا لاعتقادي بأن البلد سيمر بأزمات عنيفة قبل الوصول إلى الصلح، وإنني كنت أعتقد بأنني أستطيع تقديم خدمات جديدة لوطني في هذه الظروف الحرجة».

وفي أدنة يستلم قيادة «مجموعة جيوش الصاعقة» من الجنرال «ليمان» ولكن هذه القيادة اسمية فقط ولا تفيد شيئاً سوى كونها عنواناً فخماً، ذلك لأن هذه الجيوش لم تكن سوى فضلات الحرب وبقاياها التي لا تفيد شيئاً، فقوتها أقل من قوة لواء تام التجهيز.

... وأخيراً الهدنة في اسطنبول.

اسطنبول الأسيرة:

من الأسوار نفسها التي اخترقها محمد الفاتح وهو على جواده الأبيض داخلاً إلى اسطنبول... من هذه الأسوار نفسها دخل القائد الفرنسي -قائد جيش سلانيك- اسطنبول ممتطياً جواداً أبيض، تمشي وراءه ثلة من الأرمن واليهود والروم تصفق وتهتف له، من «غلطة»[2] إلى (بك أغلو) [3] ومنه إلى «الجادة الكبيرة»... معلناً سقوط عاصمة الأتراك في الأسر بعد 465 سنة من فتح اسطنبول.

وتظهر العلامات الأولى للأسر وذلك قبل إعلان الأسر رسمياً... إذ تظهر في الميناء السفن الحربية يرفرف عليها مختلف الأعلام لدول الحلفاء.

الديكور نفسه الذي كان في يوم توجه مصطفى كمال إلى «سامسون».

---

(1) يعني اشتراككم في الوزارة - المترجم.

(2) جسر في اسطنبول.

(3) شارع رئيسي في اسطنبول.

وفي هذه الأثناء استقالت وزارة «عزت باشا» وتشكلت وزارة «توفيق باشا» ولكن «عزت باشا» كان قد أخبر مصطفى كمال -وذلك قبل استقالته- بأن من الأنسب له الحضور إلى اسطنبول.

ونرى أن أول عمل يحاول القيام به في اسطنبول هو محاولة إعادة صديقه عزت باشا إلى الصدارة لكي يستطيع الحصول منه على وزارة الحربية، لذلك نراه يحاول تحريض مجلس النواب على عدم إعطاء الثقة إلى الوزارة الجديدة. ولهذا نراه يبذل قصارى جهده خلف الكواليس وفي غرف مجلس النواب وفي أروقته، ولكنه لا يفلح في هذا -بالرغم من حصوله على وعد بذلك من الكثيرين- وتأخذ وزارة توفيق باشا الثقة بأكثرية ساحقة.

وكما يقول في مذكراته فإنه يترك «هذه المجموعة الغريبة بأحاسيسها وأفكارها» وينسحب إلى بيته في «أكارتلر»[1] حيث يخابر القصر طالباً موعداً للقاء السلطان. ويكون جواب السلطان هو «ليحضر إلى صلاة الجمعة لكي يرانا».

مراسيم صلاة الجمعة... يقف في الصلاة لا إيماناً بالله ولكن رياءً للناس... ثم لقاء مع السلطان يستمر لأكثر من ساعة... ولكن دون نتيجة، فالسلطان يطلب منه ضماناً لإخلاص الجيش للسلطنة، ويتجاهل جميع مطالبه. فوحيد الدين محصن أمام جميع إيحاءات مصطفى كمال.

وبينما كان الوطن يبكي دماً، وبينما كان هنا وهناك بعض المحاولات وبعض التململات نرى أن مصطفى كمال بعيد عن كل مشاركة عاطفية وبعيد عن كل شعور بالألم، إذ نراه يحاول استثمار أمواله في تجارة مربحة أمينة، ولكنه يقع في فخ للنصب والاحتيال حيث يفقد أمواله.

ثم يحاول إصدار جريدة مع بعض المغامرين، ولكن الجريدة سرعان ما تضطر لسد أبوابها نتيجة لإفلاسها وعدم رواجها. وفي هذه المحاولة أيضاً تضيع أمواله.

---

(1) منطقة في اسطنبول - المترجم.

ولكنه سيقول في المستقبل مفتخراً: «لقد عملت في الصحافة كذلك».

ويحاول جاهداً أن يعمل شيئاً، أو بالأصح أن يحصل على شيء ما وأن يكون شيئاً، لذا نراه يتصل بكل الأطراف... يتصل مع فضلات الاتحاديين ويتصل مع الحلفاء ويتصل مع الإنكليز ومع الإيطاليين... مع الكل... ويتصل حتى مع القس المشهور «فرد» الذي كان رئيساً للاستخبارات الإنكليزية في تركيا.

وفي هذه الأثناء يخرج من بيته في «بشكتاش»[1] ويعيش بمفرده في البيت الذي أصبح اليوم متحفاً في «شيشلي»[2].

لم يملك مصطفى كمال في أي يوم من الأيام أية علاقة عائلية، فلم يستطع أن يحمل هوية رب عائلة أو هوية ابن إذ إن القدر الإلهي جعله في وحدة موحشة من هذه الناحية.

تأمل ما يقول (مذكرات أتاتورك، ص32-33):

«منذ صغري وأنا أحمل طبعاً معيناً، ففي البيت الذي كنت أسكنه لم أكن أرتاح للوجود مع أمي أو مع أختي أو مع أي صديق، فإنني منذ صغري كنت أرجح الاستقلال والوحدة دائماً وقد عشت كذلك على الدوام، وكان عندي طبع غريب آخر وهو أنني لم أكن أطيق من أحد لا من الأم (أما أبي فقد مات مبكراً) ولا من الأخ ولا من أقرب الأقرباء أي توجيه أو نصيحة أو إرشاد حسب ما يرونه مناسباً بالنسبة لتفكيرهم. والذين يعيشون في جو عائلي لا يتخلصون أبداً من النصائح المخلصة التي تأتيهم من ذات اليمين وذات الشمال».

والكذب الذي يتفق مداحوه على التطبيل والتزمير له هو أن مصطفى كمال بدأ في هذا البيت بالتفكير والتخطيط لحركة الاستقلال القومية.

كذب... وأيُّ كذب !!

---

(1) (2) أسماء مناطق في اسطنبول - المترجم.

ذلك لأنه -حتى يوم سفره إلى سامسون- لم يكن له هم إلا شهوة المنصب وإلا تأمين الوصول إلى شيء ما والحصول على شيء ما من أي مصدر أو من أية جهة كانت... ثم هو في عالم السُّكر والملذات.

ففي فترة الهدنة لا يكاد يخرج من «باره بالاس» الذي كان مرتعاً للطبقة الراقية المنحلّة، وعندما يدعوه الإنكليز مرة إلى منضدتهم يرد عليهم بقوله: «بل ليتفضلوا هم إلى منضدتي... ذلك لأنهم ضيوف في هذا البلد». وفي «شيشلي» يلازم الدونمة وفي «بك أوغلو» يلازم الأجانب. أما بيته في شيشلي فقد أصبح مقراً للدسائس السياسية ومركزاً لعالم الملذات، ويمكن لأي عين فاحصة لمذكراته ولسيرته التي كُتبت من قِبَل مدّاحيه أن تكشف ذلك.

نعم... فترة بحثه عن الشهرة والمنصب... حتى إنه يحاول التقرب من حزب الأنصار «الحرية والائتلاف»[1] من أجل الحصول على منصب... وعندما يفشل في محاولته يحاول أن يتظاهر بأنه كان يفعل ذلك لتضليلهم عن هدفه الأصلي وهو الذهاب إلى الأناضول.

وتصل به الغفلة إلى أن يسجل رأي «زين العابدين أفندي» وهو من كبار رجال حزب «أنصار الحرية والائتلاف» فيه دون أن يدري بأن مثل هذا الوصف لم يكن ليطلَق عليه لولا تهالكه عليهم.

تأمل كيف يقدم المحرر الانتهازي في كتابه «جانكايا، ص164» هذه الوثيقة:

«كان من الواضح أن تقرب مصطفى كمال إلى أنصار الحرية والائتلاف كان بهدف تأمين خروجه من اسطنبول. ولعبة التقرب هذه كانت ذات فائدة كبيرة كي يخرج بأمان إلى الأناضول. ولكن كان هناك بين حزب أنصار الحرية والائتلاف من لا يرى من

(1) حزب «الحرية والائتلاف»: هو الحزب الذي جاء بعد تشتت حزب الاتحاد والترقي -نتيجة لهزيمتهم في الحرب العالمية الأولى- وقد تعاون مع السلطات المحتلة لاسطنبول - المترجم.

الصواب الاعتماد عليه، وكان الشيخ زين العابدين أفندي من بين هؤلاء، وفي أحد الأيام يقول هذا الشخص: «هل تأملتم عينيه ذات اللون السمائي؟... لو وجد الفرصة السانحة فإنه لا يدع لا سلطاناً ولا خليفة!»

كان الرأس الكبير المظلم محقاً... ولحسن الحظ فإنهم لم يصدقوه».

وفي هذه الفترة من البحث عن الإقبال والشهرة يحاول مصطفى كمال أن يخطب بنت السلطان «صبيحة».

والمؤلف «شوكت ثريا آيدمير» يقول في كتابه «الرجل الأوحد» (ص348-349) ويريد أن يصوِّر الحادثة وكأن الرغبة في خطبة الأميرة كانت صادرة من السلطان وحيد الدين وليس من مصطفى كمال وذلك لكي يرفع خجل الرفض الذي قوبل به الباشا الذي يدّعي المؤلف بأن نساء القصر كن يلقبنه بـ «الأشقر الوسيم».

والحقيقة أن الأميرة صبيحة كانت تهوى من أفراد العائلة السلطانية الأمير فاروق والذي تزوجته فعلاً، أما محاولة مصطفى كمال فقد جوبهت بالرفض من أول خطوة.

وهنا... ولبيان كيف أن مصطفى كمال كان دائماً في حماية الإنكليز وكيف كان على الدوام شخصاً يعلق عليه الإنكليز كثيراً من الأمل... هنا يأتي على البال استفهام كبير:

إذ بينما كان الإنكليز يقبضون في وقت الهدنة على كل من كان له نصيب -ولو ضئيل- في محاربتهم بقلمه أو بسيفه، وينفونه إلى مالطة، فلماذا لم يتعرضوا أبداً إلى مصطفى كمال وهو القائد المشهور الذي «دحرهم!» في فلسطين !! والذي رماهم في البحر إلى «جنه قلعة» ؟!!

لنقرأ أولاً من صفحة 357 لكتاب «الرجل الأوحد» هذه الأسطر:

«... فمثلاً قائد الجيش السادس «علي إحسان باشا» الذي حارب الإنكليز في جبهة العراق - الموصل، إذ إنه عندما انتهت مهمته ورجع إلى اسطنبول بأمر من الحكومة لم يجد فرصة لمصافحة أصدقائه وأقربائه عند نزوله من محطة «حيدر باشا» في اسطنبول، إذ قبض

عليه جنود الإنكليز واقتادوه إلى السفارة الإنكليزية فوراً. هذا بينما كان على الإنكليز وعلى الفرنسيين أن يصفُّوا حسابهم مع «مصطفى كمال» قبل تصفية حسابهم مع علي إحسان باشا».

بعد هذه الأسطر لا شك أن الاستفهام يقوى... أجل ما دام الأمر كذلك فكيف تُرك لحاله حراً طليقاً ؟

والسؤال نفسه يرد لخاطر مؤلف المذكرات «فالح رفقي» (مذكرات أتاتورك، ص10) وهو يدع الجواب إلى مصطفى كمال:

«مع أن مصطفى كمال كان معروفاً بعدائه لأنور باشا وبكونه لم يحرز ثقة «أنصار الحرية والائتلاف»... إلاّ أن الاستفهام حول سبب عدم القبض عليه من قِبَل الإنكليز وعدم حبسه يبقى وارداً. لنستمع إلى جواب هذا السؤال من مذكراته».

- «من فترة الهدنة كان الانطباع السائد عني -على ما أعتقد- بعد وزارة عزت باشا عند الذين كانوا يتعاقبون على الوزارات التي كانت تتبدل من يوم لآخر - هو كوني معارضاً لطلعت باشا ولأنور باشا بل معارضاً للاتحاد والترقي بوجه عام. ولهذا السبب فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسبي إلى جانبهم وأنهم يستطيعون الاستفادة من خدماتي لهم».

هل هذا جواب؟ ... أم هذا اعتراف صريح بأنه كان شخصاً يأمل الإنكليز في كسبه إلى جانبهم؟

ولماذا يُعدّ هكذا؟

لأنه كانت توجد هناك تجربة سورية.

بالإضافة إلى هذا، فهنا تأويل يناقض قول فالح رفقي بأن مصطفى كمال كان شخصاً بعيداً عن ثقة «أنصار الحرية والائتلاف».

إذن فهذا دليل آخر على كون مصطفى كمال في خدمة الإنكليز أو على الأقل على كونه شخصاً عنده الاستعداد لخدمتهم.

وعلى أي حال فإن جميع هذه الأمور ستتضح عندما نصل إلى «معاهدة لوزان».

التوجه نحو الأناضول:

وفي هذه الأثناء كان القصر والباب العالي والصدر الأعظم «فريد باشا» بالذات لا يحملون ضد «مصطفى كمال» أية نظرة سيئة عدا انطباعهم عنه بأنه شخص خشن وأن أنظاره متعلقة بالمناصب العليا... فهؤلاء المساكين كانوا دائماً ينظرون إلى مصطفى كمال بحُسْن نية -بل نظرة فيها بلاهة- وكانوا يعتقدون على الدوام بأن بالإمكان تكليفه بمهام خطيرة، ولكن هذه النظرة كانت ذات شعبتين متضادتين، تتعلق إحداهما بالسلطان والأخرى بالصدر الأعظم.

فالسلطان كان يرى -كما سنرى بعد قليل- تكليف مصطفى كمال بمهمة الإنقاذ الشامل للوطن. أما «فريد باشا» فكان يرى أن إخراج مصطفى كمال من اسطنبول سوف يساعد على تصفية بعض القلاقل الصغيرة في اسطنبول، وكان من البديهي أن فريد باشا كان يعلم بنية السلطان الذي كان إنساناً كتوماً كسلفه الأسبق السلطان عبدالحميد الثاني.

وهنا جوهر القضية.

إذ يعين مصطفى كمال كمفتش للجيش الثالث في شرق الأناضول، ويُستقبل أولاً من قِبَل «فريد باشا»... (مذكرات أتاتورك، ص112).

«استقبلني في مقام الصدارة «الداماد[1] فريد باشا» بنظارته الذهبية وبعيونه اللامعة من الفرح، وقد أظهر لي قرباً ولطفاً زائدين، وأخبرني كيف أن ثقته كبيرة فيّ وكيف أنه ينتظر مني الكثير، وقد أجبته إجابات مطمئنة، وأومأ في كلامه بأنه قد أعطاني صلاحيات مطلقة، وعندما ودعته قال لي: تستطيع أن تكتب لي مباشرة كل طلب من طلباتك ولك أن تتأكد من تحقيقه، فقلت له: إن هذا سيكون ذا فائدة كبيرة وكررت له عميق امتناني ثم خرجت من مقام الصدارة».

(1) الداماد: معناه الصهر، وكان «اللقب يطلق على صهر السلطان» - المترجم.

وفي المحادثة التي جرت في منزل الصدر الأعظم بعد تناول الطعام (مذكرات أتاتورك، ص117):

«كان الداماد باشا كمن انزاح عنه حمل ثقيل.

- متى موعد السفر؟

- أنا في انتظار أمركم... فأنا مستعد ومتهيئ... إذا رغبتم ففي الغد أو بعد غد.

- هل زرتم الذات الشاهانية؟

- كلا سيدي.

- وهل تسافر قبل أن تزوره؟

- لم تصدر إرادة شاهانية في هذا الموضوع.

- إني أبلغك الإرادة السنيّة، إذ عليكم زيارته غداً.

- أجل سيدي.

وبعد مغادرة قصر الصدر الأعظم مشيت مع «جواد باشا» في الظلام يداً بيد في شارع «نيشان طاشي» متوجهين إلى «تشويقيه»[1] بخطوات سريعة، وبنبرة مخلصة سألني جواد باشا:

- هل في نيتك عمل شيء يا كمال؟

- نعم يا باشا... سأعمل شيئاً.

- ليوفقك الله.

- بكل تأكيد سنوفق.

ثم فارق أحدنا الآخر...» .

(1) منطقة في اسطنبول - المترجم.

إن عبارات: نعم يا باشا... سأعمل شيئاً و«بكل تأكيد سنوفق» تكون مستحيلة الصدور عن شخص لم يعرف بعد ظروف المكان الذي أرسل إليه ولم يعرف بعد الأسباب السرية في إرساله ولم يكن لديه تصور أولي للموضوع، لذلك فإنه من الواضح أن هذه العبارات اختُلقت فيما بعد.

فالسر كله، والمعنى كله... والغاية وكل شيء إنما هو في لقائه مع وحيد الدين.

لنقرأ ما قاله بفمه كلمة فكلمة... (مذكرات أتاتورك ص 122-124):

«جلسنا -وحيد الدين وأنا- متقاربين جداً في صالون صغير في قصر يلدز، وعلى يمينه -حيث كان متكئاً عليها- كانت توجد منضدة عليها كتاب... وعبر نوافذ الصالة المطلة على البوسفور كان المنظر الثاني أمام ناظرينا: السفن الحربية للأعداء تربض على شكل خطوط متوازية، ومدافعها كأنها موجهة إلى قصر يلدز... ولم يكن يتطلب منا -ونحن جلوس في مكاننا- سوى الالتفات يميناً ويساراً للإحاطة بهذا المنظر. وبدأ وحيد الدين كلامه معي بهذه الجملة التي لا أنساها أبداً... يا باشا!... لقد خدمت الدولة حتى الآن خدمات جليلة... وهذه الخدمات انتقلت إلى هذا الكتاب» ووضع يده على الكتاب الذي سبق ذكره، ثم أضاف «... لقد انتقلتْ إلى التاريخ». عند ذلك علمت بأن ذلك الكتاب كان كتاباً حول التاريخ. كنت أنصت بهدوء وبانتباه «... انسَ هذا» قال لي «ذلك لأن الخدمة التي ستؤديها الآن ستكون أخطر من تلك وأهم... يا باشا... يا باشا إنك تستطيع أن تنقذ الدولة!»... ذُهلت من جملته الأخيرة... هل كان وحيد الدين يعني حقاً ما يقول؟... وحيد الدين الذي كان يفتش عن طريق لإنقاذ دولته وسلطنته حتى عند أوطأ عملاء الدولة الأجنبية... هل كان نادماً على فعلته؟ هل أدرك أنه خُدع؟ ولكن كنت أعلم أن طَرق مواضيع أخرى تحت هذا التخمين والظن سوف لن يخلو من خطورة، لذلك فقد أجبته إجابات بسيطة، قلت له: «إني شاكر جداً على الثقة التي أحطتني بها، ولكم أن تثقوا بأنني سوف أبذل قصارى جهدي»... في الوقت نفسه كنت أحاول في ذهني أن أصل إلى حل لهذا اللغز... إذ كيف لي أن أتوقع من وحيد الدين الذي كنت

أعرفه وهو ولي العهد وأعرفه وهو سلطان... أعرف كل أحاسيسه وأفكاره وميوله... كيف لي أن أتوقع من هذا الرجل بادرة نبيلة وسامية؟... يجب أن ينقذ البلد... وأنا أستطيع أن أنقذ هذا البلد !! كيف !!

ثم وصلت إلى حكم معين: إن وحيد الدين كان يريد أن يقول إنه لعدم وجود أية قوة لدينا فإن سندنا الوحيد هو اتباع سياسة المحتلين لاسطنبول، أما مهمتي فهي إزالة كل ما يسوءهم، فإذا استطعت إرضاءهم وإقناع الشعب والبلد بصواب هذه السياسة واستطعت ترويض من يخالفون هذه السياسة من الأتراك، أكون قد حققت رغبات وحيد الدين.

أجبته «أرجو أن تطمئن من هذه الناحية يا مولاي... لقد فهمت وجهة نظر جلالتكم... وإذا رأت إرادتكم السنيّة فإنني مستعد للرحيل حالاً ولسوف لن أنسى لحظة واحدة أوامركم». وبعد أن نلت الدعاء من جلالته بالتوفيق خرجت من عنده حيث قابلني على الفور ياور السلطان ناجي باشا الذي كان أستاذي أيضاً حيث سلمني شيئاً داخل محفظة صغيرة قائلاً لي: «إنها تذكار صغير من لدن الذات الشاهانية» نظرت إليها فإذا هي ساعة صغيرة حُفر على غطائها شارة وحيد الدين قلت «حسناً وشكراً».

ثم سرنا باحتياط شديد وابتعدنا من القصر ونحن نحاذر أن يصدر صوت من خطونا وكأننا نخشى أن يعلم أحد بخروجنا من القصر وبنية سفرنا».

إن هذه الكلمات التي يصرح بها مصطفى كمال بنفسه تدل دلالة قاطعة على أن وحيد الدين أرسله إلى الأناضول من أجل «إنقاذ الدولة» وكما حدث سابقاً فإن الله يجعل هذا الرجل الذي يريد أن يعطي للحادث وجهاً آخر... يجعله ينطق بهذا.

والآن لنحلل:

1- كيف يمكن لسلطان كبير أن يقول لشخص يرسله إلى الأناضول من أجل القضاء على قلاقل بسيطة... أن يقول له «يا باشا... يا باشا إنك تستطيع أن تنقذ الدولة»؟

إذ كيف يمكن أن يتخيل بأن الوطن الذي وقع بأكمله فريسة للاستعمار يمكن أن يُنقَذ بمجرد القضاء على بعض الفدائيين الأتراك الذين كانوا يهاجمون الروم؟

2- إن مصطفى كمال عندما يعترف بأنه ذُهل أمام هذه الدعوة لإنقاذ الوطن إنما يعترف بالمعنى الذي تجاوز المظهر الخارجي والظاهري لمهمته، ولذلك فهو يعترف بأنه كان أمام لغز لا يستطيع حله... ولكنه بعد هنيهة كيف يستطيع أن يفرغ القضية في قالب بسيط ويجعلها قضية عادية لا تتجاوز تسكين بعض القلاقل الصغيرة للوصول إلى أخبار الأجانب؟ وكيف يستطيع أن يحكم بأن قضية إنقاذ الوطن في نظر وحيد الدين كانت عبارة عن حركة استتباب الأمن التي يستطيع أن تقوم بها شرذمة من العساكر؟

كلا... أبداً.

إن وحيد الدين الذي كان يزن كل كلمة تخرج من فمه -بشهادة مصطفى كمال نفسه- لا يمكن أن يطلق كلمة إنقاذ الوطن ولا يمكن أن يعتبر جميع خدمات مصطفى كمال حتى ذلك اليوم شيئاً لا يُذكر أمام المهمة الجديدة إلا من أجل غاية أعلى وأسمى... وأن معنى هذه الغاية التي قَبِلها مصطفى كمال أول الأمر نراه يعكسها ويقلبها بعد ذلك.

إن الحقيقة هي أن السلطان -وإن كنا نجهل ما قاله نصاً- قدم الاقتراح التالي لمصطفى كمال وقال له ما معناه:

- إنني الآن كخليفة للمسلمين وكحاكم على الأتراك وعلى رأس دولة مغلوبة، لذلك فإنني لا أستطيع الانتقال إلى الأناضول لقيادة حركة المقاومة والتحرير، إذ لو حاولت هذا فإن دولة الحلفاء وعلى رأسها إنكلترا سوف يحملون علينا حملة واحدة وسوف يستعمرون البلد من أقصاه إلى أقصاه. ذلك لأن أية حركة يقودها الخليفة سوف يجعل الإنكليز يقاومونها بكل قوتهم ويجهضونها، لذلك فإنه من الأفضل عدم إثارتهم، ومن أجل كسب أكثر وقت ممكن فإنه من الضروري إظهار الحركة وكأنها تفجرت من صميم الأناضول وأن الذي يقودها هو شخص عسكري معارض للحكومة وللسلطان، كما أن من الضروري إظهار أن حكومة اسطنبول ضد هذه الحركة وهي تحاول جاهدة القضاء

عليها... وأن هذا السر سوف يبقى منحصراً بيني وبينك فقط، حتى إن أي فرد من حكومتي سوف لن يعلم به، وإنني أعطيك ما تحتاج إليه من النقود ذهباً... اذهب والله يوفقك.

إن كل هذه الكلمات والأقوال نتيجة خيال... إذ نسجنا من خيالنا الكلمات والعبارات المحتملة لهذا التكليف، ولكن الذي نعلمه حق العلم هو أن فكرة المقاومة والتحرير الوطني لم يكن لها أي مكان في مخيلة مصطفى كمال وأن وحيد الدين هو الذي كلفه بهذه المهمة.

ويمكن إضافة أقوال شيخ الإسلام في ذلك الوقت مصطفى صبري أفندي -الذي كان صديقاً حميماً لوحيد الدين- إلى أقوال مصطفى كمال التي بدرت منه -دون تدبر- لإثبات هذا الأمر. ذلك أن مصطفى صبري أفندي الذي قضى بقية عمره في مصر والذي توفي فيها أبرز في كتابه المؤلَّف بالعربية «ملاحظة أنقرة» هذه الناحية وذكر فيه أن وحيد الدين قد أمدّ مصطفى كمال بمقدار كبير من المال ليعينه في المهمة التي أناطها به لإنقاذ الوطن، كما أنه كان يذكر هذا في مجالسه الخاصة مع جلسائه الخلص، ونحن لا نملك معلومات يقينية حول مقدار هذا المبلغ ولكن هناك روايات تذكر بأنها كانت 40 ألف قطعة ذهبية أي ما يعادل اليوم 10-12 مليون ليرة تركية.

إننا في هذه الحالات التي لا نملك فيها براهين مطلقة -مثل كون مصطفى كمال ابن حرام- نقدم من القرائن ما تكفي للاستدلال بشكل كافٍ.

إن السلطان الذي يقول:

«يا باشا... يا باشا... إنك تستطيع أن تنقذ الدولة».

لا يمكن أن يقول هذا إلا عندما يريد إناطة مهمة بهذا المقياس وبهذا الحجم، ومن الطبيعي. أن يقوم بإمداده بالمال اللازم لإنجاز هذه المهمة.

ولم يكن وحيد الدين يعلم بعلاقة مصطفى كمال بالإنكليز منذ قضية سوريا، ولذلك فإن السلطان كان معذوراً في عدم توقعه أن تُستغل قضية محاولة إنقاذ البلاد من قِبَل الإنكليز.

وفي سنة 1968 نشرت إحدى الجرائد اليومية التركية في اسطنبول مقالات متسلسلة جُمعت فيما بعد في كتاب، وقد صودر هذا الكتاب من السوق بأمر من المحكمة... في هذا الكتاب نُشرت صورة فوتوغرافية للرسالة الخطية التي كتبها خادم مصطفى كمال الذي قضى في خدمته عدة سنوات، ولكون هذا «الشخص بعيداً عن كل حقد سياسي فإن هذه الرسالة تعتبر وثيقة أمينة».

يذكر في هذه الرسالة بأن مصطفى كمال عندما كان مخموراً في إحدى الأمسيات قال على مسمع من جلسائه: «... إن وحيد الدين هو الذي أرسلني إلى الأناضول»[1].

وهذه الحقيقة سجلتها فيما بعد وقائع جلسات أول مجلس للنواب.

إن التاريخ سيظهر في يوم من الأيام بأنه لولا وحيد الدين لما كانت هناك حركة الاستقلال التركية. ولما أصبح مصطفى كمال في أفضل تقدير إلا وزير حربية لجيش مشلول في دولة مقيدة بأغلال معاهدة «سيفر». أي أن توجهه إلى الأناضول بقصد سابق وبنيّة صافية ومخلصة لإنقاذ الوطن إنما هو رواية كاذبة ومختلَقة.

كان هذا هو الماضي الذي يحمله هذا الرجل الأشقر ذو العينين السماويتين وهو يتوجه إلى سامسون على ظهر الباخرة القديمة «باندرمة» وهي تعلو وتهبط فوق الأمواج وبدون بوصلة.

هذا الرجل !

هذا الرجل الذي أوهم بأنه رفع من شأن الوطن من الناحية المادية بعد أن تدهور نتيجة لخطة محسوبة استغرقت أربعة قرون... هذا الرجل هبط بالوطن من الناحية المعنوية ومن الناحية الروحية إلى أسفل سافلين.



(1) «وحيد الدين: صديق الوطن وليس خائن الوطن»، نجيب فاضل قيصه كورك، ص203-206.

الفصل الثاني

سيواس - أرضروم - أنقرة

(من جامع لاله باشا إلى جامع حاجي بيرام)

الموقف:

كان اليونانيون قد بدأوا باحتلال سواحل بحر إيجة قبل يوم واحد من بدء مصطفى كمال برحلته، وبذلك فقد وضح هدف أية حركة أو مقاومة شعبية.

لنطرح السؤال التالي:

لو لم يحتل اليونانيون مدينة «أزمير» فَضِدَّ من كانت تتجه حركة المقاومة وكيف؟ ... هل ضد جميع دول الحلفاء؟... أين؟ وكيف؟

إن هذا السؤال من أدق الأسئلة وهو يظهر بأن الاحتلال اليوناني كان نعمة من نِعَم الله لأنه أدى إلى ظهور حركة المقاومة والخلاص وإلى وضوح هدفها... وإلا فإن مقاومة الجيوش الإنكليزية والفرنسية والإيطالية المحيطة بنا من كل جهة كانت مستحيلة... وهذا مثال على قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:216]، والله تعالى لم يشأ لأعدائنا أن يدركوا هذه النقطة الدقيقة، أن جعلهم يستبعدون انبثاق حركة مقاومة من عندنا ضدهم.

يقول مصطفى كمال في كتابه «الخطابة» وهو كتاب عن السياسة ذو مستوى منخفض لكونه كتاباً خالياً من أية إيديولوجية أو نظرة عالمية شاملة، فهو عبارة عن سِباب وشتائم لمعارضيه ومباهاة وتفاخر بشخصه... يقول في هذا الكتاب:

«... وأمام هذا الوضع الوخيم فقد بدأ كثير من الشخصيات والأفراد في كل مكان وفي كل منطقة بالتفكير في سبيل الخلاص، وهذا أدى إلى ظهور عدة منظمات، فمثلاً شكلت جمعية «تراقيا باشا ألي» في أدرنة وحواليها، وفي الشرق -في أرضروم والعزيز- شكلت جمعية «الدفاع عن الحقوق المالية في الولايات الشرقية» وقد كان مركزها العام في اسطنبول، وفي «ترابزون» شكلت جمعية «الدفاع عن الحقوق»، وفي دار السعادة[1] كانت توجد جمعية «الدفاع عن لامركزية ترابزون وحواليها».»[2].

أي أن البلد كان يستيقظ من أقصاه إلى أقصاه وكان ينتظم في جمعيات وفي أزمير اعتصم كثير من الشجعان بالجبال، كما انطلقت أول رصاصة ضد اليونانيين من قِبَل أحد الضباط وهو على رأس وحدته العسكرية لذلك فإن الوضع كان متهيئاً، وكان يحتاج إلى شخص يجمع ويوحد ويدفع ويقود.

إذن فإن القول بأن الجميع كانوا في حالة يأس واسترخاء قد ركنوا إلى الراحة ويئسوا من الخلاص وأن فكرة إنقاذ الوطن بدأت مع مصطفى كمال هو كذب محض، فإن قواداً بارزين مثل كاظم قره بكر وجعفر الطيار كانوا قد بدأوا بالحركة وبالوقوف أمام اليونانيين.

القرارات:

وصل مصطفى كمال إلى سامسون وبدأ بتدقيق الوضع، وهناك وصل إلى هذا القرار[3]:

(1) يقصد مدينة اسطنبول - المترجم.

(2) الخطابة، ص4، من الطبعة القديمة بالحروف العربية.

(3) الخطابة، ص9.

«إن كرامة وعزة نفس الشعب التركي كبيرة وعالية وأَوْلى بهذا الشعب أن يموت من أن يقع في الأسر، إذن فإن شعار الذين يرومون الاستقلال الحقيقي يجب أن يكون إما الاستقلال أو الموت. ولنفرض احتمال الخيبة لهذا القرار... فماذا يكون؟ الأسر أليس كذلك؟ أليس هذا هو النتيجة نفسها عندما تخضع للقرارات الأخرى؟».

إن الزلاّت التي يجعل الله تعالى هذا الأنموذج النادر من الكفر يقع فيها هي من أدق الأمور، فهو لا يجعل التهم التي تدينه تأتيه من الخارج بل يجعله ينطق بها بفمه.

تأملوا!

ماذا يكون عندما لا يتحقق النجاح؟... سيكون هناك أسر... ستؤسر الأمة التركية... ولكنها أسيرة فعلاً... إذن فليس هناك من خسارة... أي لا خطورة في الأمر...

أما أن تركيا ستكون أسيرة من أقصاها إلى أقصاها، أما أن الأمة التركية ستُجبر على سقي وادٍ، أما أنهم سيستخدمونها في الأعمال البدائية -كما سيستخدمون الآن عُمّال تركيا في ألمانيا- فهذه أمور لم تدخل في الحساب. ولكن الناحية التي يتورط مصطفى كمال باعترافه هي مزاجه البعيد عن تحمل أية خطورة.

وعندما يقول مصطفى كمال «إما الاستقلال أو الموت» فهو لا يقصد نفسه لأنه كان شخصاً يحسب حساب أي أذى صغير يمكن أن يلحق به فضلاً عن تعريض نفسه للموت، وكان يدقق شروط الأمان أيما تدقيق، فهو إن أثار وأنهض الأمة وبلغ النجاح -كما حصل بالفعل- وأخذ بمقاليد الأمور اتفق مع الإنكليز في آخر الأمر وألغى الخلافة والسلطنة وأعطى مناطق البترول إليهم مقابل الحصول على استقلال شكلي في وطن انحصر في مساحة من الأرض معظمها جرداء، وألّه نفسه وغرق في الملذات واعتبر الوطن كله والأعراض كلها ملكاً شخصياً له، أما إذا لم ينجح في هذا فيستطيع وهو يملك أكياس الذهب أن ينسحب شرقاً ويلتجئ إلى روسيا ومنها يستطيع الانتقال إلى أوروبا لكي يعيش هناك وحده على هواه لأنه لم يذق في حياته كلها طعم العيش في جو عائلي.

أي إن شعار مصطفى كمال كان إما الظهور بمظهر المنقذ للأمة التركية وجني ثمار هذا الدور، وإما إنقاذ نفسه في أسوأ الأحوال.

إن هذه الحقيقة التي أظهرناها الآن بأدلة بسيطة سوف تتضح فيما بعد كالشمس في رابعة النهار.

كان في قرارة نفسه قد أعطى قراره: عليه أن يحول علاقة التفاهم السابقة وغير التامة مع الإنكليز إلى علاقة تامة بعد النجاح في حركته ضدهم، وبعد أن يقدم لهم تنازلات كبيرة يأخذ في مقابلها استقلالاً يشمل الأناضول تقريباً وبذلك يقف على رأس الوطن المباع.

وإما أن يطأ سامسون حتى يسجل رأيه في السلطان الذي فتح الطريق أمامه لحركة الاستقلال[1].

(يجب دفع الأمة بكاملها ودفع الجيش إلى رفع راية العصيان ضد الحكومة العثمانية والسلطان العثماني وخليفة المسلمين).

وهو يقول: «خليفة المسلمين» بلهجة من يقول: «رئيس المتوحشين» ويُبقي نفسه خارج المسلمين ولا يستطيع أن يخفي أن العصيان إنما كان موجهاً ضد المسلمين أي ضد الإسلام.

فهل استطاع هذا؟ أي هل استطاع في سبيل هدف واضح دفع الشعب والجيش إلى العصيان ضد السلطان وضد خليفة المسلمين؟ أم أنه تظاهر حتى النهاية بأنه يسعى إلى إنقاذ الخليفة -رمز الدين- وإنقاذ السلطان -رمز الأمة- ؟!

أما الشعب التركي المسكين فهو لم يكن يرى في انتفاضته إلا أنه يؤدي واجبه من أجل الدين والأمة، وأن إسناد مثل هذه التهمة للأمة كذب لا يقل في درجته عن كذب

(1) الخطابة، ص10.

الشعار الموجود في مجلس الأمة من أن «السلطة للشعب» ويشاء الله أن يُظهر على لسانه زيف هذا الادعاء إذ يقول[1]:

«إن الأمة والجيش كانت تهتم بسلامة مقام الخلافة العالي والسلطنة أكثر من اهتمامها بسلامتها. ولم تكن تستطيع أن تتصور الخلاص والسلامة من دون السلطنة والخلافة، أما من يبدي فكراً معارضاً ومخالفاً لهذا فالويل له... إذ كان يُعتبرَ في الحال خائناً وكافراً ومرتداً».

وهو يطلق هنا...

وهو يعترف بأن مثل هذه الأمة لا يمكن أن ترفع راية العصيان ضد الخليفة، أي أنه يعترف باللعبة التي لعبها عليها.

وعندما يصل إلى «سامسون» يلقي نظرة فاحصة على القوات الموجودة تحت إمرته كان رفعت بك (ثم باشا بعد ذلك) الذي صحبه معه قائداً للفرقة الثالثة في سيواس، وكاظم قره بكر باشا قائداً للفرقة الخامسة عشرة في أرضروم، وكانت جميع هذه الفِرَق العسكرية عبارة عن وحدات غير متكاملة جمعت من هنا وهناك دون تجهيزات أو أسلحة بحيث أنها بمجموعها ما كانت لتصل إلى قوة وحدة حربية واحدة تامة التجهيز... وكانت ألوية هذه الفِرَق مبعثرة بين أماكن متعددة أمثال «سامسون» و«أماسيا» و«ترابزون».

وإضافة إلى هذه الوحدات التي كانت تحت الإمرة المباشرة لمصطفى كمال فقد كانت له صلاحية إصدار التعليمات إلى الوحدات العسكرية وإلى الموظفين المدنيين الإداريين، ولكونه يحمل في جيبه فرماناً سلطانياً بهذا الخصوص (وهو الفرمان الذي حصل عليه من السلطان بدعوى حاجة المهمة الخطيرة التي سيقوم بها إلى مثل هذه الصلاحية الاستثنائية).

فإنه أصبح يتصل برقياً مع جميع الجهات.

(1) الخطابة، ص8.

وهذه الصلاحيات الاستثنائية تشكل في الحقيقة دليلاً آخر على أن السلطان هو الذي أرسله لإنجاز تلك المهمة.

في البرقيات التي أرسلها إلى الجهات الرسمية أظهر ألمه الشديد من الوضع العام وطلب منها توحيد الفكر والجهد، وطلب من علي فؤاد باشا الذي كان قائداً على الفرقة العشرين في أنقرة موافاته كل يوم بتقرير عن الوضع في أزمير ولم يهمل «تراقية»، إذ نراه يتصل مع جعفر طيار بك (ثم باشا بعد ذلك) قائد الفرقة الأولى في «أدرنة» ويعطيه التعليمات اللازمة.

يقول في صفحة 13 من «الخطابة»:

«إن تسليم مقدرات الأمة إلى مثل هذه الحكومة إنما يقود إلى الفناء».

وفي الوقت نفسه بدأ يدعو المنظمات الشعبية في «تراقيا» والأناضول إلى الاتحاد في مؤتمر عام يُعقد في «سيواس» ويدعو جميع الأطراف إلى عقد الاجتماعات والمظاهرات وإلى خلق جو من الحماس القومي.

وبعد أن يمارس لفترة من الوقت هذا النوع من النشاط في «سامسون» وحواليها نجده يصل إلى القرار التالي:

يجب عقد مؤتمر عام في «سيواس» الذي يعتبر مركزاً للأناضول، وعلى كل ولاية أن ترسل ممثلها إلى هذا المؤتمر ويجب أن يبقى هذا القرار سراً قومياً، لذلك فإن قدوم الممثلين إلى سيواس يجب أن يكون فرادى وبشكل سري.

ويعقد هذا المؤتمر العام بعد عقد المؤتمر المحلي في أرضروم في 10 تموز.

وبعد أن أملى هذه الاقتراحات على ياوره عممها على جميع الولايات.

ويقنع مصطفى بعض أصدقائه في وضع إمضائهم على نص القرار، ولكن رؤوف بك وقائد الفرقة رفعت بك اللذين حضرا في تلك الأثناء إلى «سامسون» ترددا في هذا...

ولكن بعد الإلحاح يضع رؤوف بك إمضاءه، أما رفعت بك فيضع على القرار بدلاً من إمضائه إشارة غامضة لا تُفهم ولا تُقرأ. أي أن هذين الشخصين اللذين أصبحا فيما بعد من أكبر معارضي مصطفى كمال كانا ينظران إليه بعين الشك منذ البداية.

وفي 24 حزيران -أي بعد مرور 36 يوماً على وصوله إلى «سامسون»- يسافر إلى أرضروم عن طريق توقات - سيواس.

ومن آثار نشاطه نقمة وزارة الداخلية في اسطنبول -التي لم تكن على علم بالاتفاق السري بينه وبين السلطان- لذلك فقد أرسل وزير الداخلية علي كمال تعميماً إلى جميع الولايات يدعو إلى الوقوف ضد إيحاءات مصطفى كمال.

وبعد أن يتخلص مصطفى كمال من فخ نُصب له من قِبَل بعض الأشخاص الرسميين في «سيواس» يتجه إلى أرضروم.

أرضروم:

وعلى أبواب أرضروم يسلمه كاظم قره بكر برقية مرسلة من قِبَل رفعت بك يقول فيها بأن اسطنبول أصبحت تشك تمام الشك في مصطفى كمال، وأنها قد اتخذت بعض القرارات بخصوصه وهي وجوب تركه الجندية والبقاء في «أرضروم» وعدم الذهاب إلى «سيواس».

إذن فقد تبين بشكل واضح أنه يدعو الأمة إلى المقاومة، وبينما كان السلطان يخفي فرحه فإن الباب العالي اضطر بضغط من المحتلين إلى إقالة مصطفى كمال من الجيش.

ويأتي طرد الباب العالي مصطفى كمال من الجيش في الوقت نفسه الذي قدم هو استقالته من الجيش وكان قد اجتمع قبل ذلك مع ابن أخ اللورد كرزون -وزير خارجية إنكلترا- العقيد «راولنسون» الذي كان في انتظاره في أرضروم... اجتمع معه في بيت في أرضروم اجتماعاً غاية في السرية والأهمية دام حتى الصباح... وهنا أضيفوا علامة استفهام كبيرة واكتبوا في دفتر علاقة مصطفى كمال مع الإنكليز سطراً آخر.

وفي بناية مدرسة مبنية من الحجر المنحوت في «أرضروم» انعقد مؤتمر أرضروم في 23 تموز سنة 1919... صالون كبير... منصة للرئيس ... وأمام المنضدة كراسي التلاميذ وحواليها فُرشت الأرض بالسجاجيد لجلوس الضيوف وممثلي الولايات.

ويأتي مصطفى كمال إلى الاجتماع ببزّته العسكرية المزخرفة التي تلمع عليها الأشرطة الياورية (لأنه كان ياوراً فخرياً للسلطان ويحمل رتبة الباشا) وذلك بحجة أنه لم يتلق بعد الجواب على طلبه الاستقالة. ولكن ألم يكن من المفروض عليه أن يترك هذه البزَّة العسكرية بإرادته لكونه طلب الاستقالة بإرادته؟... كلا... لا يمكن... والسبب أنه سيتحول إلى فرد يأخذ قوته من فكرته ومن إخلاصه لدعواه دون الحاجة إلى الاستناد إلى قوة مصطنعة أخرى... وهذا شيء لا يستطيعه فأطواره تشي للجميع بتصنعه وبُعده عن الإخلاص.

ولذلك فما أن وقف على منصة الرئاسة حتى هتفوا به:

- انزع رتبة الباشا... وكن مثلنا[1].

وهذا الهتاف الذي قوبل به (والذي نقلناه بنصه من صفحة 189 - جانكايا) مصطفى كمال الغارق بين نياشينه -بالرغم من استقالته من الجيش- يظهر كيف أن أهالي أرضروم المتحمسين والمخلصين توجسوا منه خيفة من أول لقاء وهكذا فإن صاحبنا الذي صعد على منصة الرئاسة ببزة الباشوية قوبل بالامتعاض والاستهجان وظهر -أمام بصيرة هؤلاء الناس البسطاء- كشخص بعيد عن الحقيقة وقريب من المظاهر.

في بداية المؤتمر كان مصطفى كمال بعيداً عن الرئاسة ولكنه -كعادته على الدوام- لم يزل يوهم أن هذا المرشح للرئاسة اتحادي[2] فلا يجوز انتخابه، وذاك المرشح بأنه ائتلافي[3] فلا يجوز انتخابه... ثم فجأة يقدم نفسه للترشيح وبين أصوات الموافقة يصعد إلى المنصة.

---

(1) جانكايا، ص189.

(2) أي من حزب «الاتحاد والترقي» - المترجم.

(3) أي حزب «الحرية والائتلاف» - المترجم.

وبما أن الغاية تمت إذن فلم تعد هناك حاجة إلى البزَّة العسكرية... لذلك فقد جلب له طقم «ردنجوت» من والي أرضروم الذي عُزل في تلك الأثناء وألبسوه إياه... وهكذا ظهر مصطفى كمال على المسرح كمجاهد بملابس مدنية.

دام المؤتمر 14 يوماً اتخذت فيها القرارات التالية:

1- إن البلد -ضمن الحدود القومية- وحدة واحدة.

2- في حال سقوط الحكومة العثمانية فإن الشعب سيدافع عن نفسه ضد أي نوع من أنواع الاحتلال الأجنبي.

3- إذا لم تستطع الحكومة الدفاع عن الوطن واستقلاله أو لم تهتم به فيجب تشكيل حكومة مؤقتة تُنتخَب في مؤتمر قومي عام. وإذا لم تكن هذه الحكومة في حالة اجتماع فإن على «الهيئة التمثيلية» أن تقوم بهذه المهمة.

4- يجب بناء القوة الوطنية، كما يجب جعل إرادة الأمة هي المهيمنة على كل شيء.

5- لا يمكن قبول الوصاية أو الحماية الأجنبية.

6- يجب ضمان تشكيل واجتماع مجلس الأمة ويجب وضع الحكومة تحت مراقبته.

يلاحَظ أن القاعدة الفكرية لحركة التحرر الشعبية التي انبثقت من أرضروم سليمة من جميع النواحي، كل مادة من مقرراتها فعالة وذات طابع حركي وهي تحصر حق الإرادة والحركة في الأمة وحدها، كما أنها تعطي «الهيئة التمثيلية» ماهية وطابع الدولة والحكومة.

إن هذه المواد التي كانت تترجم وتعكس آمال وأفكار مثقفي الأناضول الأنقياء كانت ملائمة جداً لمصطفى كمال أيضاً، فلو انتُخب رئيساً للهيئة التمثيلية لتمّ له كل ما أراد.

وقد انتُخب فعلاً للرئاسة وفتح كفيه الكافرتين مشتركاً في الدعاء.

لا يمكن أن يوجد على وجه البسيطة مثال للشناعة يبلغ درجة شناعة رياء هذا الرجل في هذا الدعاء وهو الذي خرج لهدم الدين والخلافة.

جانكايا، صفحة 190:

«ندعو الله المتعالي واجب الوجود -بحرمة الحبيب الأكرم- أن يحفظ أمتنا النجيبة المدافعة عن الوطن المبارك، والحارسة الأمينة للدين الأحمدي الجليل إلى يوم القيامة، وأن يحفظ مقام السلطنة والخلافة الكبرى وأن يحفظ هيئتنا الملقاة على عاتقها الحفاظ على مقدساتنا... آمين».

إن الكاتب الانتهازي[1] الذي يورد الدعاء بنصه يعطي العذر لمصطفى كمال لتصرفه بهذا الشكل وذلك نظراً للجو الموجود في تلك الأيام ولكننا نقول -وبمقياس إنساني عام- بأنه من الصعب جداً أن يوجد هناك أي إنسان -حتى وإن كان وثنياً أو ملحداً- لا يخجل من إنسانيته أمام هذا النفاق وأمام هذا الرياء.

سيواس:

والآن مؤتمر سيواس... حيث سيكون أشمل وأعم من مؤتمر أرضروم... إذ سيعم وسيشمل الوطن كله.

ولكن هناك من يعارض هذا التوسع وعلى رأسهم كاظم قره بكر، فهم يرون أنه ليس من الصواب إثارة الطرف الآخر إلى هذه الدرجة وإجباره على القيام بعمل مضاد... أي يرون أن الأفضل الاكتفاء بمؤتمر أرضروم وترتيب شروط الصلح وعدم القيام بأعمال قد تعرض الحركة إلى المخاطر.

أما حكومة اسطنبول فهي متفقة مع القوات المحتلة على ضرورة فسخ المؤتمر واعتقال أعضائه، حتى إن نقيباً في الجيش الفرنسي يزور والي «سيواس» ويخبره بأن الفرنسيين سوف يقومون باحتلال «سيواس» في حالة انعقاد المؤتمر. فيكتب الوالي إلى مصطفى كمال قائلاً:

---

(1) يقصد مؤلف كتاب (جانكايا) - المترجم.

- أرى أن تلغوا هذا المؤتمر الثاني... أو على الأقل انتخبوا «أرزنجان» مكاناً للانعقاد.

فيكون جواب مصطفى كمال:

- إن هذه التهديدات هي للتخويف... لا يمكن أن يعملوا شيئاً.

ولا يستطيع الحضور إلى المؤتمر إلا خمسة أعضاء من «الهيئة التمثيلية» من أصل تسعة أعضاء.

وفي هذا المؤتمر تثار أيضاً مسألة الرئاسة... جلبة... وضوضاء... وأخيراً تم انتخاب مصطفى كمال.

(جانكايا، صفحة 197).

«مضت الأيام الثلاثة الأولى من مؤتمر «سيواس» بدون عمل مثمر تقريباً: إذ انهمك الأعضاء في إعداد صيغة اليمين على أنهم ليسوا من الاتحاديين وبكتابة عريضة إلى السلطان وبالرد على البرقيات الواردة للمؤتمر وبمناقشة هل سيتدخل المؤتمر في السياسة أم لا؟

أما اليوم الرابع فقد كان يوماً مهماً إذ غيروا اسم الجمعية من «جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول» إلى «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروملي» وغيروا المادة التي نصها: (إن الهيئة التمثيلية تمثل الهيئة العامة لشرقي الأناضول) إلى (أن الهيئة التمثلية تمثل الهيئة العامة للوطن)».

وانقضى المؤتمر في 11 أيلول سنة 1919 بعد أن انتخب «هيئة تمثيلية» أكثر عدداً من المؤتمر السابق. ولكن الأعضاء بقوا في «سيواس» بعد انتهاء المؤتمر ولم يضيع مصطفى كمال وقته عبثاً... إذ أسرع إلى محاولة جني أولى ثمار المؤتمر.

(جانكايا، صفحة 197):

«لقد استقر رأيه على قطع جميع الصلات بين الأناضول واسطنبول لذلك فقد أخبر جميع الدوائر والمراجع الرسمية، عسكرية كانت أم مدنية بأنهم مرتبطون بالهيئة التمثيلية الموجودة في «سيواس» إلى أن تزول هذه الحكومة الخائنة التي أصبحت سداً بين السلطان وبين الأمة».

أما موقف الإنكليز في ذلك الحين فهو ما يلي:

«من رسالة القوميسور العالي الأميرال روبك إلى وزير خارجية إنكلترا».

«قابلت الصدر الأعظم فريد باشا فرأيته يولي لحركة مصطفى كمال اهتماماً متزايداً، وهو يرى أن هناك ما لا يقل عن 500 ضابط مشترك في هذه الحركة في ولايات أنقرة وسيواس وأرضروم وقد رأيته يقول: «إما أن نرسل قوة عثمانية لتشتيتهم، فإن لم يكن هذا مقبولاً من قِبَل الحلفاء فإن عليهم أن يرسلوا قوات لاحتلال المراكز الحساسة والمهمة» وقد أجبته: «إن ذهبت قوة تركيا فستحدث حرب أهلية. أما الحلفاء فقد تعبوا من الحرب ولا يريدون إراقة الدماء».

وفريد باشا يرى أن الناس يعتقدون بأن الحلفاء أقوياء جداً، لذلك فهم مهيؤون لقبول قرارات الصلح، وقد أشرت عليه أن يحاول الاجتماع بمصطفى كمال فقال لي: «لقد فات الأوان لهذا لاجتماع».

وحسب تقرير بتاريخ 17 أيلول فإن الحركة الملية في الأناضول تشير نحو إقامة جمهورية مستقلة وهذا الاتجاه يلقى دعماً من اسطنبول وخاصة من وزارة الحربية، وأن مصطفى كمال يعتبر الآن معبِّراً للرأي العام أكثر من الداماد فريد باشا».

إن هذا اللين من قِبَل الإنكليز وهذه المرونة ضد حركة الأناضول -مع أن المفروض أن يكونوا هم من أشد الساخطين عليها- إنما يعود إلى كونهم يأملون من صديقهم القديم مصطفى كمال أشياء معينة لذلك فلا يريدون أن يقفوا في الحال تجاهه، ومع أن حركة الأناضول ضدهم فإنهم يفضلون الحيطة.

(جانكايا صفحة 199):

«كان وزير الخارجية اللورد كيرزون يقول: «لا يمكن لأي فرد تركي بعد هذا الاحتلال المنحوس لأزمير إلا أن يتعاطف بعمق مع القضية الوطنية التي يمثلها الآن مصطفى كمال»، أما رئيس الأركان سير هنري ولسون فقد قال: «ليس أمام الدبلوماسية الإنكليزية إلا أن تعقد الصداقة مع مصطفى كمال». أما القائد الجديد لاسطنبول «سير جارلس هاركنتون» فيقول في رسالته إلى سير هنري ولسون «إن أفضل شيء نستطيع عمله هو مغادرة اسطنبول وعقد الصداقة مع الأتراك»».

ما رأيكم في هذا؟

إن من المحتمل -ولا نجزم بشيء- أن الإنكليز كانوا يعلمون بنية مصطفى كمال منذ البداية في هدم الدين والخلافة في تركيا أو كانوا يحدسون بهذا. وفي هذه الحالة فإن قيمة ما كان الإنكليز يكسبونه لوجود عشرات الملايين من المسلمين تحت ظل الإمبراطورية الإنكليزية - كانت تعادل أضعاف خسارتهم لسوريا والأناضول...

لنقرأ... (جانكايا، صفحة 201):

«توجه مصطفى كمال إلى غرب تركيا لمقابلة النواب الذين سيذهبون إلى اسطنبول لإعطاء التوجيهات إليهم. في 18 كانون الأول غادر سيواس إلى أنقرة وكالعادة فلم يكن يملك أجرة السفر، ولم يكن يريد الاستقراض من البنوك فاستدانوا من أحدهم، كما استدانوا عجلة السيارة من مدير المدرسة الأمريكية وفي الخطبة التي ألقاها في أنقرة ذكر لأول مرة بأن القضية لم تنتهِ بالوصول إلى النصر، إن وظيفتنا الآن هي تخليص الوطن من التمزق وتخليص الأمة من الأسْر، ولكن وظيفتنا لم تنته بهذا، إذ إن علينا أن نبرهن على كوننا عنصراً فعالاً بين الأمم المتمدنة».

وكما يحاول بعض المأجورين إخفاء ما يأخذونه من مبالغ بتمثيل دور المحتاج إلى 5 ليرات أمام كل من يقابلونهم مع أن جيوبهم عامرة بالثروات، فكذلك نرى مصطفى كمال

يلعب دور المحتاج مع أن جيوبه عامرة بذهب السلطان ولا يهمل في خطبته في أنقرة إظهار طرف من إصلاحاته !! التي لم تكن في الحقيقة سوى هدم روح الأمة التركية، أما ما يقصده من «تكوين عنصر فعال بين الأمم المتمدنة» فهو ضرب الإسلام وهدمه وبعد أرضروم وسيواس ها هي قلعته على ذروة إحدى الجبال في أنقرة.

وبعد جامع «لاله باشا» سيشهد جامع «حاجي بيرام» مشاهد كثيرة من خداع ورياء هذا الرجل، وسيشهد في الأخير كيف تُطفَأ جميع القناديل الروحية والمعنوية وكيف يبقى في آخر الأمر في ظلام دامس.

أنقـرة:

دخل المدينة وسط جمع حاشد من الجماهير التي خرجت لاستقباله.

وفي المنشور الذي عمَّمه في كل ناحية في 27 كانون الأول لسنة 1919:

«إن الهيئة التمثيلية التي توجهت من «سيواس» إلى أنقرة عن طريق (قيصري) لقيت من أبناء الشعب الكرام كل مظاهر الحب الصادق على طول الطريق وفي أنقرة أيضاً. إن مظاهر الوحدة والعزم الذي أبدته أمتنا تقوي إيماننا بشكل لا يتزعزع بمستقبل هذه الأمة. وإن المركز الحالي للهيئة التمثيلية هو في أنقرة. مع تقديم احتراماتنا» والسبب في اختياره أنقرة كمقر يعود إلى كونها في المركز وكونها على طريق اسطنبول حيث يستطيع إما إقامة العراقيل أمام أعضاء مجلس النواب الجديد الذين بدأوا بالتوجه إلى اسطنبول، أو يحاول اجتذابهم إلى أنقرة.

وقد حاول بكل جهده أن يمنع النواب من التجمع في اسطنبول وأن يؤمن جذبهم إلى أنقرة ولكنه لم يُفلح فإن السلطان واسطنبول كانا أكثر جاذبية منه، وفي 12 كانون الثاني لسنة 1920 افتتح المجلس النيابي في اسطنبول.

وقد حاول -بعد أسبوعين من وصوله إلى أنقرة- إعطاء المجلس النيابي في اسطنبول صبغة من حركة الأناضول فأوعز إلى النواب فكرة تأليف جناح باسم «جمعية

الدفاع عن الحقوق» ولكن لم يتبنَّ أحد هذا الاسم هناك بل ظهر جناح تحت اسم «فلاح الوطن» وهكذا فقد ظهر أنهم غير مستعدين للتحرك وفق التوجيهات التي يرسلها مصطفى كمال من بعيد وبما أنهم خالفوا مصطفى كمال إذن فالويل لهم !

ففي كتابه المشهور (الخطابة، ص224) يرسل سيلاً من الشتائم لهؤلاء النواب الذين لم يحافظوا على وعودهم -عندما كانوا في أنقرة- بتشكيل جناح «الدفاع عن الحقوق».

«إن هؤلاء السادة الذين كان في وسعهم إدراك أن تشكيل هذا الجناح هو وظيفة وجدانية ووظيفة وطنية... هؤلاء السادة كانوا بدون عقيدة وكانوا جبناء وكانوا جهلاء».

ولحسبانه أن اسم «فلاح الوطن» ذو علاقة بالعروبة فهو يلفظ هذا الاسم بشكل «فلاّح» لإظهار نفوره وكرهه لهذه الأمة النجسة.

وكان من ثمرة هذا المجلس «الميثاق الملي» الذي كان الأساس لحركة الاستقلال ولا شك أن تقليص الإمبراطورية السابقة إلى حدود يشمل الأناضول وقسماً من تراقيه لا يشكل رغبة تذعر دول الحلفاء.

ويدّعي مصطفى كمال بأنه كتب «الميثاق الملي» بنفسه في أنقرة... ولنفرض أن هذا صحيح فماذا يعني؟... ماذا يعني تسجيل الرضا بشيء قليل على الورق؟ هل هذا نوع من «وجدتها»[1]؟!

ولا يكتفي مصطفى كمال بمحاولة إدارة وتوجيه مجلس النواب «مجلس المبعوثان» من بعيد بل يحاول الظفر برئاسة هذا المجلس مع أنه لا يستطيع دخول اسطنبول والسبب يعود إلى أنه يحتاج إلى هذا العنوان لجمع المبعوثين في أنقرة عندما يُعلن مجلس المبعوثان (وهو سيغلق بدون شك). وقد أمن ترشيح نفسه من أنقرة. ثم يمطر كل الشخصيات البارزة في اسطنبول وكل مرجع بالبرقيات.

---

(1) المعروف أن أرخميدس صاح في الحمام عندما وجد قانون انغمار الأجسام في السوائل «وجدتها» - المترجم.

وفي البرقية التي أرسلها إلى الصدر الأعظم علي رضا باشا يقول:

«إذا قطعت وسائل الاتصال والمخابرة مع اسطنبول من قِبَل الإنكليز فسنقوم نحن بإعلان الجهاد القومي والجهاد الديني».

وندع تفسير عبارة «إعلان الجهاد الديني» !

وفي 16 مارس 1920 يتم الاحتلال الكامل لاسطنبول من قِبَل الإنكليز... تنظيم «الكبسات» والتفتيش لجميع الأمكنة... انفضاض المجلس بذعر... وهكذا تسير الحوادث في صالح مصطفى كمال الذي بدأ بإرسال البلاغات إلى جميع الولاة والمتصرفين وقوات الجيش.

«لقد احتلت اسطنبول بشكل رسمي، وانفرط عقد مجلس المبعوثان وسيجتمع المجلس الجديد الذي سيشكل مع انخراط المبعوثين الآتيين من اسطنبول كذلك، وحتى يتم النصاب فيبدأ الانتخابات قريباً».

وبعد خمسة أسابيع من انفضاض المجلس في اسطنبول أي في 23 نسيان 1920 يجتمع في أنقرة مجلس الأمة التركي.



الفصل الثالث

مجلس الأمة التركي

الافتتاح:

أصبح مصطفى كمال يعتبر نفسه الآن رئيس الدولة والحكومة، لذلك فقد أخذ يوزع منهج افتتاح جلسة مجلس الأمة التركي على كل ولاية ومستحق ورئيس بلدية وعلى كل الوحدات العسكرية وعلى مراكز هيئات «الدفاع عن الحقوق».

إن هذا المنهج المؤلف من 6 مواد (انظر الخطابة، صفحة 273) بشكل وثيقة.

من زاوية بيانها النقطة التي انطلقت منها حركة الاستقلال والأساس الذي استندت عليها في البداية... حركة الاستقلال هذه التي نعرف نهايتها ونعرف النتائج التي جعلت سلماً إليها.

إليكم هذه المواد بعد تبسيط[1] لغتها:

(1) اللغة التي استُعملت في صياغة هذه المواد لغة تكثر فيها استعمال الكلمات العربية والفارسية وكذلك فهي غير مفهومة الآن من الشباب التركي، لذلك اضطر الكاتب إلى تبسيطها إلى لغة مفهومة من قِبَلهم - المترجم.

«1- سيفتتح -بعون الله ولطفه- في يوم 23 نيسان لعام 1336هـ/ 1920م مجلس الأمة بعد صلاة الجمعة.

2- إن جعل افتتاح مجلس الأمة -الذي سيضطلع بمهمات في أقصى درجات الأهمية- كإنقاذ استقلال الوطن وإنقاذ مقام السلطة والخلافة السامية - في يوم الجمعة هو من أجل الاستفادة من بركة هذا اليوم. وباشتراك جميع النواب في صلاة الجمعة في جامع «حاجي بيرام» سيؤخذ الفيض من نور القرآن والصلوات على الرسول وبعد الصلاة سيقصد إلى المزار مع السنجق[1] الشريف ولحية[2] الرسول المباركة. وقبل الدخول إليه ستُقرأ الأدعية وتُذبح الذبائح، وعلى طول الطريق من الجامع حتى المزار سيصطف الجنود وتؤخذ الترتيبات اللازمة.

3- لتأييد قدسية ذلك اليوم سيبدأ من الآن في مركز الولاية[3] بترتيب من قبل جناب السيد الوالي بقراءة القرآن الكريم وقراءة البخاري الشريف.

وسيختتم الجزء الأخير من القرآن في (المزار) بعد انتهاء صلاة الجمعة.

4- سيبدأ من الآن في جميع أرجاء الوطن المقدس والجريح بقراءة القرآن والبخاري الشريف وستتلى الصلوات من فوق المنابر في يوم الجمعة بعد الآن. وعندما تتلى الأسماء السلطانية لمولانا وسلطاننا وخليفتنا فستتلى الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته ووصولهم إلى السعادة في أقرب فرصة. وبعد صلاة الجمعة يتم ختم القرآن وتعطى المواعظ حول ضرورة إيفاء كل فرد للواجبات الوطنية التي سيكلَّف بها من قِبَل مجلس الأمة وحول أهمية وقدسية كفاح أمتنا في سبيل إنقاذ المقام العالي للسلطنة والخلافة وإنقاذ الوطن المجزأ. ثم يتوجه بعد ذلك بالدعاء من أجل خلاص وسلامة خليفتنا وسلطاننا ومن أجل خلاص وسلامة ديننا

---

(1) السنجق عَلَم ذو حواشٍ مطرزة يسيرون به في المناسبات الدينية - المترجم.

(2) الظاهر أنهم يحتفظون هناك بشعرات من لحية الرسول ﷺ - المترجم.

(3) يقصد ولاية أنقرة.

ودولتنا، ومن أجل خلاص وسلامة واستقلال وطننا وأمتنا، وبعد انتهاء هذه المراسيم الدينية والوطنية والخروج من الجوامع يتوجه في كل بلدة عثمانية إلى مقام الحكومة لتبادل التهاني بمناسبة افتتاح مجلس الأمة. كما أن المناقب النبوية ستُقرأ قبل صلاة الجمعة في كل مكان.

5- ستتخذ كافة الإجراءات اللازمة لنشر هذا البلاغ، ويجب تأمين وصوله إلى أصغر قرية وإلى أصغر وحدة عسكرية وإلى جميع المؤسسات والتشكيلات، كما يعلق هذا البلاغ على شكل لوحات كبيرة في جميع الأماكن ويطبع كلما أمكن ذلك ويوزَّع مجاناً.

6- نرجو من الله تعالى النجاح التام».

لقد أدرجنا النص بكامله -باستثناء إخراج بعض كلمات التوقير والتبجيل المعتادة في تلك الفترة، ويمكن القول بأن إخراج هذه الكلمات قد خفف من درجة الرياء والنفاق الموجودة ولكن هل يمكن هذا؟ وهل يمكن تخفيف الكفر؟

إن عدم إيرادنا أصل البلاغ يعود إلى رغبتنا في جعل هذا البلاغ مفهوماً من قِبَل الجميع وخاصة من قِبَل الجيل الجديد. ويستطيع من يرغب أن يلقي نظره على صفحة 273 من «الخطابة» الطبعة بالأحرف القديمة وأن يقارن الأصل مع الشكل المبسط الذي قدمناه هنا.

والآن نقدم لكم قسماً من الخطبة الأولى التي ألقاها مصطفى كمال في مجلس الأمة «انظر جريدة الشرق الوسط» (Ortadogu) الصادرة في اسطنبول 29 نيسان 1974.

«لكون مقام السلطة مقام الخلافة في الوقت نفسه فإن سلطاننا هو رئيس لجمهور المسلمين. إن الغاية الأولى لجهادنا لا تستهدف الفصل بين مقام السلطة ومقام الخلافة بل تستهدف الإعلان للأعداء بأن إرادة الأمة ضد هذا الفصل وتستهدف تخليص هذه المقامات المقدسة من الأسر الأجنبي لإنقاذ صلاحيات أولي الأمر من ضغط الأعداء».

والآن فنحن نسأل:

هل تقشعرُّ أبدانكم من درجة هذا النفاق؟

رويدكم... فهناك المزيد.

لمعرفة الماهية الحقيقية لهذا الشخص الذي كتب هذا البلاغ بيديه والذي لا يمكن أن يوجد في العالم كله من يدعي الإصلاح ويقبل لنفسه أن ينزل إلى هذا الدرك من النفاق يكفي ملاحظة سلوكه وتصرفه بعد هذا النفاق والرياء مباشرة.

يسرد وزير العدلية السابق محمود أسعد بوزقورت -الذي وصف القرآن مرة بأنه شريعة الصحراء- بعض ذكرياته عن مصطفى في جريدة «طان» في 10/ 11/ 1940 فيقول:

«ذهبنا مرة إلى جامع «حاجي بيرام» وكان مصطفى كمال بيننا وكنت آنذاك وزيراً للاقتصاد. خرجنا من الجامع مع أصوات التكبير، وأتينا إلى المجلس وجاء المؤذن كذلك حيث أذّن هناك. وبينما كنا نهم بدخول المجلس اعترض طريق أتاتورك إمامٌ في ملابس موشاة، فسأله أتاتورك عما يريد فرفع الإمام يديه قائلاً:

- لا يسمح بالدخول قبل الدعاء.

فدفعه أتاتورك بيده قائلاً:

- إن هذا الوطن أُنقذ وإن المجلس تشكل بسلاح الجندي التركي وبجهده وليس بدعائك. ودخل المجلس حيث عاتب رئيس المجلس قائلاً له:

- لماذا وضعتم هذا الإمام بدلاً من الجندي التركي على الباب؟».

أي مع أنه يذهب إلى الجامع فإنه لا يستطيع كتم نفوره -المستتر في تلك الفترة- من الدين.

ولا يمكن لقائل أن يقول:

- إن اتباع مثل هذه السياسة من قِبَله كان ضرورياً آنذاك.

ذلك أن أبطال النهضة الأوروبية وأبطال الثورة الفرنسية الملحدين والثوار الشيوعيين لم يوقدوا الشموع في الكنائس من أجل إنجاح دعاويهم.

ونحن نضع هذا المقياس بشكل عام ونقول إنه يجب حتى للذين يعذرون أتاتورك في عدائه للدين وعدائه للإسلام ويرونه شيئاً طبيعياً أن يوقنوا بعدم كون مصطفى كمال رجلاً مخلصاً في دعوته متفانياً في سبيلها.

أما للمسلمين فنحن نقول لهم:

- إن التاريخ شهد أمثلة كثيرة على الانحطاط، ولكنه لم يرد رجلاً في مستوى هذا الرجل من ناحية الرياء والزيف.

الأعضاء والـ «قالباخ»[1]**:**

كان المجلس مؤلفاً من 380 مبعوثاً. منهم:

115 موظفاً، 61 رجل دين، 51 عسكرياً، 46 مزارعاً، 37 تاجراً، 29 محامياً، 15 طبيباً، 8 شيوخ، 6 صحفيين، 5 آغات، 5 رؤساء عشائر، ومهندسان.

وهناك خلاف بسيط (عدد واحد أو عددان) بين بعض المصادر حول هذه الأرقام. من بين هذا الجمع من الأعضاء لم يكن يوجد ولا فرد واحد يملك نظرة عميقة وشاملة للأزمة الكبيرة التي كان العالم الشرقي يمر بها ولكنهم كانوا جمعاً تغلب عليهم صفة الإخلاص والنقاء وعشق الوطن، ويمكن القول بأن عدد الذين كانوا يرضون بالتضحية بجذور وروح الأمة التركية للعالم الغربي لقاء استقلال شكلي ومادي ما كانوا يزيدون على عدد أصابع مصطفى كمال، وحتى هؤلاء لم يكونوا إلا من النوع الذين يكونون عبيداً للشخص الذي يسيرون وراءه وآلات بأيديهم ولو كان مصطفى كمال بجانب الإسلام

(1) القالباخ: غطاء للرأس معمول من جلد الحيوان أو من قماش يشبه الجلد، يَعْرَضُ كلما اتجه إلى أعلى -المترجم.

لرأيت هؤلاء المنافقين والانتهازيين لا يخرجون من الجامع ويتسابقون في التظاهر بالتمسك بالإسلام.

أما مصطفى كمال فقد كان بعينيه الزرقاوتين المصوبتين نحو نواب الأمة ذئباً بدور راعي قطيع الأغنام، يحد أسنانه في انتظار يوم الافتراس.

قلنا: غطاء الرأس الصوفي «القالباخ»:

في بداية الحركة نرى كيف أن هؤلاء بدأوا بتقليد الزي المدني لمصطفى كمال متميزين ومفترقين بذلك عن زي المثقفين العثمانيين في المراكز الثقافية وخاصة في اسطنبول... إن حاجتهم إلى هذا التمايز يحمل في طياته معاني كثيرة.

لا نقول هذا لوجود أي اعتراض لدينا على الـ «قالباخ»... ولا لوجود أي حب عندنا للطربوش ولكننا نسجل هذه الملاحظة لإظهار كيف تنعكس الاتجاهات والميول النفسية على المستوى المادي ولإظهار النيات غير الظاهرة عندهم ونقول إن غطاء الرأس هذا والذي كان رمزاً لأنقرة آنذاك إنما كان يمثل النفور من الطربوش لا غير، ولم يكن ضمن هذا النفور أي عامل جمالي (Aesthetic). بل لكون الطربوش المسكين رمزاً دينياً ومعنوياً رغماً عنه، إن الطربوش الذي يخالف كل مقياس للجمال هو من أصل يوناني دخل إلى تركيا بعد «القاووخ» بعيد التنظيمات... هذا الطربوش يجب أن يُرمى بعيداً لأنه -في ظنهم- يمثل رمز الإسلام الذي يشمئزون منه في داخل سرائرهم، ولكونهم يريدون الابتعاد عن الهوية الإسلامية فإنهم ابتعدوا عن الطربوش الذي اعتبروه رمزاً لهذه الهوية، وقد اعتادوا أن يروا منذ أكثر من عصر أن كل نموذج للخيبة والجمود من رجال السياسة أو الجيش أو الإدارة كان يلبس الطربوش.

إذن فإن السبب لهذه الحالة -حسب تفكيرهم السطحي- يعود إلى الحالة الروحية أي إلى الإسلام الذي وجد رمزه في الطربوش!... أي كان هذا بنتيجة اعتبارهم الإسلام همجية واعتبار الطربوش هو الإسلام، والذين كانوا يحسون بهذا الشعور الباطني أو لا

ينتبهون إليه كانوا يعتقدون -نتيجة الحاجة الأزلية والأبدية إلى التجديد- بأنهم عندما يلبسون غطاء الرأس هذا فإنهم يصلون إلى جو ومناخ جديد للفكر والشعور.

إن الوصول إلى كثير من الحالات النفسية عن طريق «القيافة» طريقة علمية ومثمرة إلى حد بعيد... خذ مثلاً لذلك «قيافة» «الشقاوات» وقيافة «الهيبيز».

وعملية «التغارب»[1] العمياء التي بدأت في تركيا كانت ترجمة أخف المشاعر والحالات النفسية بواسطة «القيافة» أسهل طريق، ولقد كانت أولى علامات تيار الانفصال عن الذات وعن فكرتها وعقيدتها قيافة أنصار تركيا الفتاة «جون تروك» في عهد المشروطية بطرابيشهم الصفراء ونظاراتهم الأحادية «مونوكول Monocle» وفي الحرب العالمية الأولى ظهرت «الأنورية»[2]. ثم «الجمالية»[3] التي كانت ببروزها الآخذ في الاتساع أول خطوة نحو القبعة.

وهكذا فإن «القلباخ» كان مظهراً من مظاهر الانفصال عن الذات، ولكن التصريح بهذا علناً كان غير ممكن في ذلك الوقت، والشخص الوحيد الذي استطاع حدس هذا المعنى -ولو بشكل ناقص- هو «رؤوف أورباي»[4] الذي حافظ على الطربوش، ولم يلتفت إلى «القلباخ» مظهراً بذلك أول نموذج لتحدي مصطفى في مجال الهندام. وكان

---

(1) التغارب: الاتجاه نحو الغرب وتقليد الغرب - المترجم.

(2) الأنورية: غطاء للرأس كان يلبسه أنور باشا ثم أصبح (موضة) في ذلك الوقت - المترجم.

(3) الجمالية: غطاء للرأس كان يلبسه جمال باشا (السفاح) - المترجم.

(4) رؤوف أورباي (1881-1964): عسكري ورجل دولة معروف اشترك في حروب طرابلس وحروب البلقان، وأبدى فيها بطولة كبيرة وعندما احتل الإنكليز اسطنبول سنة 1920 نفوه إلى جزيرة مالطة. بعد رجوعه اشترك في حركة الاستقلال في الأناضول وأصبح عضواً في المجلس النيابي في أنقرة وانحاز إلى معارضي أتاتورك. وفي أعقاب محاولة اغتيال أتاتورك سنة 1926 نُفي إلى خارج الوطن. بعد رجوعه من النفي أصبح سفيراً لتركيا في إنكلترا لبعض الوقت. وقد نشر مذكراته في أواخر حياته - المترجم.

مثله كمثل طفل يمتنع عن الأكل لكي يظهر معارضته للكبار، أي أن معارضته كانت سلبية، ولعدم تكامل شخصيته فإن جميع تحدياته ومعارضته بقيت سلبية وغير مؤثرة.

وبما أن مصطفى كمال كان عازماً على القضاء على المسيرة العاجزة لعهد «التنظيمات» والتي كانت مترددة بين الروح الإسلامية وبين الروح الأوروبية المتصفة بالسيطرة على العالم المادي، وذلك بالانحياز والاستسلام التام للغرب فإنه اعتبر الطربوش -الذي أتى به عهد التنظيمات- نوعاً من عدم الانفصال عن الإسلام، لذلك فإن أول رد فعله كان في ترك الطربوش وليس في الدعوة إلى القبعة. وكما سنرى بعد ذلك فإنه لم يرَ حاجة إلى اتخاذ خطوات أو تدابير معينة تدريجية في الدعوة إلى القبعة إذ إنه ما أن يعتقد بأن الظرف ملائم حتى يرمي «القلباخ» ويلبس القبعة.

أي أن القبعة كانت عنده هي «الدعوى[1] Thesis» ولم يكن القلباخ إلا «نقيض الدعوى Anti-Thesis» للطربوش. أما رأينا في القبعة فسيأتي عندما يحين موضعها ووقتها.

الحوادث:

بدأ مصطفى كمال خطبته الأولى في المجلس بإعلان خضوعه وعبوديته للسلطان، وبالتلميح بأن السلطان هو الذي أرسله ليبدأ حركة الإنقاذ. إذ يقول بأنه توجه للأناضول حسب «الرغبة السامية للسلطان» (من ملف وقائع الجلسة الأولى للمجلس بالأحرف العربية القديمة).

---

(1) حسب المفهوم الجدلي (الديالكتيكي) فإن كل فكرة هي (دعوى Thesis) وهذه الفكرة ستجد أمامها نقيضها Anti-Thesis ومن تصارع هاتين الفكرتين ستتولد فكرة ثالثة هي (جامع الدعوى Syn-Thesis) التي تأخذ من كلا الفكرتين وتكون متقدمة عليهما ولكنها تصبح هي بعد ذلك (دعوى) وتمر بنفس المراحل السابقة... وهكذا يستمر التطور، وكان الفيلسوف الألماني (هيجل) أول من استعمل هذه المصطلحات، ولكنه طبقها على (الفكر) بينما أخذ ماركس هذه المصطلحات وطبقها على (المادة) - المترجم.

إن هذا الاعتراف بأن خروجه إلى الأناضول كان برضا السلطان ورغبته كان يعطي انطباعاً بأنه قد قَبِلَ استجابة لضغط الظروف السياسية الموجودة آنذاك، وعندما نقلت وقائع جلسات المجلس من الحروف العربية إلى الأحرف اللاتينية فإنه لم يستسغ هذه العبارة فأمر بحذفها، وهذا مثال على كيفية تحريف الوقائع إلى درجة حذف ما كان وكأنه لم يكن !!

هذا إثبات آخر بأن وحيد الدين هو الذي أناط به مهمة بدء حركة الاستقلال الملية.

مرت السنة الأولى مشحونة بحوادث أعمال العصابات وباندلاع العصيان في أجزاء متفرقة من الأناضول ضد كل الجهات، فأعمال وحركات عصابات «جركس أدهم» و«دميرجي أفه» و«يوروك علي» و«توبال عثمان»[1] بدأت قبل مجلس الأمة وقبل مصطفى كمال، ويعترف فالح رفقي في كتابه «جانكايا، ص235» بهذا السبق للعصابات في البطولة والدفاع عن الوطن.

«كانت العصابات في الطرف الغربي على رأس أبطال القوات الملية[2]، حتى إنه كان هناك في فترة من الفترات من يقدم «جركس أدهم» على مصطفى كمال».

ولكن هذه العصابات بالرغم من أخذهم محاربة اليونان على عاتقهم فإنهم كانوا يقتلون وينهبون من لا يخضع لقوانينهم وأوامرهم من الأهالي بكل وحشية. فبينما كان «توبال عثمان» يحرق الرجال في مراجل السفن، كان «جركس عثمان» يجر وراءه «محكمة عسكرية» ويحاكم من يريد ويعدمه ثم يعلقه على أغصان الأشجار... وهكذا كانت العصابات ضد اليونانيين وضد الأهالي -بظلمهم إياهم- في الوقت نفسه ولا تقيم أي وزن لا للدولة ولا للحكومة ولا للجيش ولا للنظام.

---

(1) أي: عثمان الأعرج - المترجم.

(2) القوات الملية: هي القوات التي حاربت المستعمرين -قبل افتتاح المجلس الوطني- وكان خليطاً من الجنود ومن الأهالي المدنيين. (صفحة 696، الأنكلوبيديا المختصرة) - المترجم.

إن السياسة التي اتبعها مصطفى كمال في دور الضعف ثم في دور بداية قوته ثم في دور قوته التامة كانت مختلفة تجاه هذه العصابات، فقد كان في حالة اتفاق معها في البداية يوزع على رؤسائها الرتب والدرجات الرفيعة، فمثلاً يكلف «جركس أدهم» بمهزلة إنشاء «الجيش الأخضر» -تقليداً لـ «الجيش الأحمر»- حاملاً الهويتين: هوية الإسلام وهوية الشيوعية !! كما يعينه عنده في معيته.

أما «توبال عثمان» فقد كان يقوم بحراسة مصطفى كمال في فترة من الفترات.

ثم استخدم هؤلاء في القضاء على بعض العصاة الذين ظهروا هنا وهناك من الذين فقدوا الثقة في مصطفى كمال، وقد قام رؤساء العصابات بتصفية هذه العصيانات بكل إخلاص غافلين عن اليوم الذي يأتي ويتم فيه تصفيتهم أنفسهم.

إن الدفاع البطولي الذي تم ضد الفرنسيين والأرمن في «ماراش» و«عينتاب» و«أروفة» و«أدنة» كانت حركات جماهيرية وشعبية ولم تكن لمصطفى كمال أدنى علاقة بها، ولكن ما أن تنجح هذه الحركات حتى نراه يمد يديه لقطف ثمارها ونسبتها إلى نفسه وجعلها الأساس في ادعائه بأنه أنقذ الأمة وأحياها وأوجدها من لا شيء.

في أثناء فترة الهدنة طرح السؤال التالي: من يستطيع إنقاذ الوطن؟

وذلك في اجتماع ضم رفعت بك (باشا فيما بعد) ورؤوف بك، وطال النقاش وطرحت أسماء مختلفة... وأخيراً قال رؤوف بك:

«لقد وصلتم إلى نصف الحل... ولكن عندي حل كامل مائة بالمائة... إنه يستطيع أن ينقذنا، ولكن لا أدري كيف سننقذ أنفسنا بعد ذلك؟

- من هو؟ ... الأفضل أن نقع تحت يديه بدلاً من الوقوع في أيدي الكفار.

- إنه مصطفى كمال» (جانكايا، ص243).

ولو استثنينا ظنه بأن مصطفى كمال يستطيع الإنقاذ فلا نجد خطأ في كلام رؤوف بك، ولكن قوله «كيف سننقذ أنفسنا منه» حدس دقيق بل كشف يقرب من كرامة

الأولياء. أما الذين فضلوا أن يقعوا تحت يديه بدلاً من الوقوع تحت أيدي الكفار، فإنهم لم يكونوا يعرفون آنذاك بأنه لو اجتمع كفار العالم كله لما استطاعوا أن يسيئوا إلى هذه الأمة بمقدار إساءته إليها.

وهكذا فإن مصطفى كمال منذ الأيام الأولى لكثير من الأشخاص كشخص متسلط يجب التفكير في كيفية الخلاص منه مع الخلاص من الأعداء في الوقت نفسه.

أما عصمت إينونو[1] والمارشال فوزي[2] جقماق فبعد التحقاهما بالحركة قفلا راجعين وأخذا يبديان انتقاداتهما للحركة قبل وبعد رجوعهما إلى اسطنبول، ثم رجعا مرة أخرى والتحقا بالحركة حيث نالا الحظوة عند سيدهما مصطفى كمال الماسك لمقاليد الأمور بعد أن أذابا وضحَّيا بشكل نهائي وتام بكامل شخصيتهما أمامه.

أما عصمت إينونو فقد كان نموذجاً مصغراً لسيده في العداء للإسلام وفي التجبر ولكن السؤال يرد بخصوص المارشال فوزي الذي عُرف بتمسكه بالإسلام، إذ كيف أمكن لمثل هذا الشخص أن يتبع مصطفى كمال حتى النهاية؟ ...

والجواب يتلخص في أن المارشال لم يكن سوى ألعوبة عاجزة، إذ احتفظ بالإسلام في قلبه ولكنه سلَّم نفسه إلى الكفر واستسلم له دون أن ينبس ببنت شفة أمامه. استعمل «جركس أدهم» لمواجهة قوات «أنزاقور» المرسلة من قِبَل اسطنبول وقد استطاع هذا تشتيت هذه القوات فعلاً.

كان الوضع دقيقاً والصورة -كما يرسمها كتاب «جانكايا، ص229»- كانت كما يلي:

«... في هذه الأثناء دعا رئيس الأركان الأميرالاي عصمت إينونو بك أدهم، - للتخاطب معه- إلى جهاز اللاسلكي، وبعد أن هنأه على انتصاره قال له:

---

(1) عصمت إينونو: عسكري ورجل دولة. حارب مع مصطفى كمال ثم خلفه في رئاسة الجمهورية - المترجم.

(2) فوزي جقماق (1876-1950). من أبرز قواد حرب الاستقلال التركي. أصبح وزيراً للحربية سنة 1920. رقي إلى رتبة (مستر) بعد الانتصار في معركة (صفاريا)، عُرف بتدينه - المترجم.

«إن الوضع العام ليس على ما يرام، إن مصطفى كمال باشا وأخاك رشيد بك (كان قد انتُخب نائباً) بجانبي قرب جهاز الإرسال وسأخبرك أخباراً مؤلمة... ليست لدينا أية قوات في المركز... هاجموا قوات الأميرالاي محمود بك في «هندك بوغازي» وقد قتل محمود بك، أما قوات القائمقام عارف بك الذي أرسلناه إلى منطقة العصيان في الشمال الغربي لأنقرة فقد اندحرت، وأثناء رجوعه ذهب ضحية للاغتيال، أما جنوده فقد التحقوا بالعصاة كما أن موقف علي باشا قائد اللواء الثاني والعشرين الذي كلف بالدفاع عن قنال «گيفه» يحف به الخطر، عليكم أن تسرعوا لنجدة علي باشا بسلوك أقصر طريق بعد أن تخلفوا أميرالاي كاظم في مكانكم»».

أما قوات السلطان التي كانوا يعنونها والتي كانت تدعى «بالقوات الانضباطية» فقد كانت قوات شكلية بعيدة عن الجدية ومكلفة بالتقهقر والانهزام... وعندما نجح أدهم في التغلب عليها أيضاً دعي إلى أنقرة بصفة الشخص الذي أنقذ الحركة الملية من خطر الموت... وبعد دلال طويل يقبل الذهاب حيث يستقبله مصطفى كمال في المحطة ويعانقه بحرارة ثم يدعوه إلى سيارته حيث يتوجهون إلى مدرسة الزراعة (مقر مصطفى كمال ومحل سكناه) تحف به مظاهر الفاتحين وهناك يجتمع به مصطفى كمال وعصمت إينونو والمارشال فوزي چاقماق، وبعد أن يعاملهم أدهم معاملة الجاويش للجنود تناط به مهمة القضاء على العصيان المعروف في «يوزكات».

ويؤخذ أدهم إلى مجلس الأمة كذلك حيث يستقبل هناك استقبال البطل القومي إذ يصفق له النواب طويلاً وهم وقوف... أما مصطفى كمال فهو يصر على أسنانه. ذهب أدهم إلى «يوزكات» حيث قضى على العصيان وأعدم 12 شخصاً.

ثم دار يميناً، ودار شمالاً فقضى على كل العقبات التي ظهرت أمام مصطفى كمال إذ هزم اليونان في ناحية «دميرجي» واستولى على القصبة حيث يستلم فيها البرقية التالية من مصطفى كمال:

«لم تكن لدينا قوات في تلك الناحية لكي تقف أمام اليونانيين، كان أملنا معقوداً على أمثالكم من المقاتلين المتمرسين نهنئكم».

هذا الشخص... أدهم... هو الشخص نفسه الذي ساقوا ضده الجيش إلى درجة كادت جبهة القتال مع اليونان أن تخلو من الوحدات العسكرية وذلك في أواخر سنة 1920 وأوائل سنة 1921، ولما لم يكن أدهم شخصاً ذا سجية عالية فإنه اضطر إلى الالتجاء إلى اليونانيين عندما شعر بحراجة موقفه. وفي كتابه «الخطابة» يقول مصطفى كمال عن أدهم الذي كان في يوم ما بطلاً قومياً ما يلي:

«.. كان شخصاً بدون حياء، لا يعرف حدَّه، مغروراً وبخيلاً بحيث إنه كان على استعداد أن يكون خادماً للعدو وجاسوساً له مقابل إشباع نهمه».

أخمدت حركة العصيان بالنار والدم، وبالصورة نفسها سيخمد عصيان «دليباش» في «قونية» فيما بعد.

وهنا ينتهي الصراع ضد اليونانيين بواسطة الحركات الفدائية، إذ يبدأ الصراع بواسطة الجيوش النظامية.

من جهة أخرى بينما كان أنور باشا الذي كان قد هرب إلى روسيا -قرب الحدود التركية الشرقية- يركض وراء أكثر الآمال خيالاً وبُعداً عن التحقيق فإنه كان يريد في الوقت نفسه الرجوع إلى تركيا وقيادة حركة المقاومة، إلى درجة أنه أرسل برقية يقول فيها راجياً:

- دعوني أشترك معكم ولو كجندي بسيط.

ولكن مصطفى كمال يرفض هذا الرجاء بكل حدة، إذ كيف يسمح لهذا الشخص الذي كان يحسد مظاهر أبهته وفخفخته إلى درجة الموت عندما كان قائداً تحت إمرته... كيف يسمح له أن يجعله منافساً له في الوقت الذي يستطيع الآن شفاء غليله منه.

وقد أرسل أنور باشا الذي كان يعرف مصطفى كمال معرفة جيدة برقية بالشيفرة إلى السلطان وحيد الدين في اسطنبول في أواخر أيامه يقول فيها: «إن إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول سيكون بداية لمصائبنا».

أي أن أنور كان من الذي استشفوا المستقبل[1].

بعد أسبوع واحد من افتتاح المجلس الوطني اتصلت أنقرة بروسيا، وهكذا فبينما كان وفد اسطنبول في باريس في محادثات شروط السلام كان وفد أنقرة في موسكو.

كان الوفد يقول للبلاشفة:

«نحن معكم في الطريق نفسه من حيث صراعنا مع الإمبرياليين، إن ساحة نضالنا مع الإمبرياليين هي في الوقت نفسه خط دفاعكم أنتم. لذلك فنحن نتوقع منكم أن تسندونا وأن تمدونا بالمال والسلاح».

وقد أمدتهم روسيا بما يقارب مليون روبل ذهبي، وبكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر عن طريق البحر وعن طريق البر.

وفي الوقت نفسه كان الروس يرغبون في إعطاء «فان» و«بيتلس» و«موش» وحواليها إلى الأرمن الذين كانوا يطيرون على أجنحة أمل «الأرمنستان الكبيرة» بناءً على الوعد الذي أخذوه في مباحثات «سيڤر».

وكانوا في هذا الوقت يهاجمون قوات كاظم قره بكر، ولكنهم اندحروا حيث استرد الأتراك «صاير قامش» ودخلوا إلى «قارس» ووصلوا حتى إلى «أردهان» و«أرتوين» و«أهيسكا» و«باطوم».

ثم تم الاتفاق مع روسيا على ما يلي:

باستثناء «باطوم» و«أهيسكا» فإن جميع الأراضي الأخرى تبقى لتركيا.

وهكذا يزداد التقارب مع روسيا.

لترسيخ هذا التقارب ما يجب عمله؟

---

(1) انظر مأساة آل عثمان، لقادر مصر أوغلي، ص82.

يجب تأسيس تنظيم شيوعي.

وهكذا أعطى مصطفى كمال أوامره إلى أتباعه من الدمى فوضعوا أشرطة حمراء على «القلباخ» ولبسوا أربطة عنق حمراء.

(جانكايا، ص260):

«في أحد الأيام دعا السيد ناظم -نائب ولاية توقات- بعض الأشخاص إلى نادٍ جديد، كانوا قد افتتحوه قبل أيام. وفي باب النادي كان الشيخ ثروت بين المستقبلين وكان يقول: يجب أن نشكل جناحاً في المجلس، إن البلد في حاجة إلى هذا. إن الشيوعية موافقة للإسلام، فأبو بكر كان شيوعياً، لأنه فرق كل أمواله على الفقراء بعد إسلامه».

وأخيراً يصدر قانون «الخيانة الوطنية» وتتشكل محاكم الاستقلال التي لم تكن -كما سنرى فيما بعد- إلا صندوق لعب لا يحوي إلا دمى في ملابس القضاة يلعب بها كما يهوى.

وبعد أن تشكل «الحزب الشيوعي» وسالت الروبلات والأسلحة من روسيا، لم يجد مصطفى كمال بأساً من الرجوع عن كلامه ووعود الصداقة التي قطعها لهم، فأمر بغلق جميع المنظمات الشيوعية، ثم قدم الشيوعيين على محكمة الاستقلال باستثناء بعض أتباعه ممن دخلوا الحزب بأمره. كما صدرت أحكام الإعدام الغيابية بحق «جركس أدهم» وأشقائه.

إن مصطفى كمال، لكي يشبع رغبات نفسه التي لا تعرف الشبع لا يتوانى لحظة واحدة أن يشيح بوجهه عن الجهة التي اتجه إليها أولاً، أو أن يصفع من مد يده إليه، أو أن يغمد الخنجر في ظهر من كان يركع سابقاً أمامه...، وليست هناك أية فكرة أو مذهب أو أية جهة تستثنى عنده من هذه المعاملة.

كان «حقي بهيج» الذي أسس «لحزب الشيوعي التركي» بإيعاز من مصطفى كمال قد أرسل إلى قواد الجيش بياناً شيوعياً صرفاً بعنوان «أيها الرفيق» بتوقيع مصطفى كمال

نفسه، وبعد ذلك أرسل مصطفى كمال بياناً آخر إلى نفس القواد يشرح فيه مراميه الحقيقية.

وإليكم هذا البيان[1]:

«لقد استقر الرأي على تشكيل الحزب الشيوعي التركي -ضمن رقابة الحكومة- من بعض الأصدقاء والموثوقين وذلك كتدبير طبيعي ومعقول وبهذا يمكن إرجاع كل التيارات المتعلقة بهذه الأفكار إلى مرجع واحد. وقد رأيت من المناسب أن يدخل سراً إلى جماعة المؤسسين للحزب وإلى الهيئة المركزية المؤلفة من 30 عضواً بعض رفاقنا الموثوقين مثل فوزي باشا، علي فؤاد باشا، كاظم باشا، رفعت وأنور بك، وهكذا يكون أصدقاؤنا هؤلاء الذين هم أبطال أهدافنا القومية وساندوا الأمة - داخل هذه المنظمة، وستكون جهودهم وأفكارهم فوق تيارات جميع المحاولات، وقد قدمت إلى الأصدقاء بشكل تحريري وبشكل شفرات الرسالة الأولى التي كتبها وزير الداخلية السابق «حقي بهيج» الذي انتخب سكرتيراً عاماً للحزب.

وسيظهر بمرور الوقت رد فعل الأمة وتقييمها لمنهاج الحزب الشيوعي التركي حيث يتضح مدى إمكانية تطبيق وقبول الشيوعي التركي حيث يتضح مدى إمكانية تطبيق وقبول الأفكار والمبادئ الاشتراكية والشيوعية.

ويجب الانتباه إلى أننا نحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى وجود جيش منضبط تمام الانضباط تحت إدارة القواد، لذلك فيجب أن ينحصر الفكر الشيوعي في القيادات العليا فقط من الجيش. مع تقديم احتراماتنا».

أي إنه يريد أن يقول: إننا نحن الذين أسسنا الحزب الشيوعي وإنا تسللنا في داخله لكي نجعله تحت رقابتنا، والظروف هي التي ستقرر ما إذا كنا نبقى فيه أو نحطم رأسه.

---

(1) مذكرات الكفاح القومي، علي فؤاد جبسوي، ص511. وعلي فؤاد جبسوي أحد القواد البارزين الذين اشتركوا في حرب الاستقلال بجانب مصطفى كمال.

إن هذا الأسلوب في التعامل، أسلوب تلعنه كل المعتقدات مهما كانت أشكالها، هو أسلوب المفتقِر إلى أية فكرة.

ثم انظر إلى ما يقوله الكاتب اليساري ثريا آيدمير[1]:

«والخلاصة أنه في إحدى فترات الكفاح القومي وحرب الاستقلال جاء وقت غمض فيه اتجاه وهدف الكفاح ومراميه، وغاب الوضوح وسادت الفوضى، بل كادت الضوابط أن تفلت من اليد، حتى إننا نستطيع أن نقول عن هذه الفترة بأنها كانت اتجاهاً سريعاً إلى الفراغ وإلى العدم».

إذن أين كان الزعيم الذي يوحِّد ويجمع الجميع في بوتقة واحدة من أجل إنقاذ الوطن؟

إن القِبلة الوحيدة لمصطفى كمال كانت هي نفسه فقط، أما ما وراء ذلك من الأمور كالوطن والأمة والإصلاحات والمدنية... فكلها حجج وستار تختفي وراءها أهواء نفسه.

المعارضة:

- بدأ المجلس يشعر بأن الشيء الذي يجب الخلاص منه قبل الأعداء هو مصطفى كمال بالذات.

والذي كان يمثل هذا الشعور والاتجاه في المجلس كان متألفاً من رجال الدين، ومن النواب المتدينين من المهن والوظائف الأخرى، وكان على رأس هذا الجناح من المعارضة السيد «علي شكري» الذي كان ضابط ركن في البحرية ونائباً من ولاية «ترابزون» وكذلك الشاعر «محمد عاكف»، وكانت أغلبية نواب «أرضروم» في جانبهم كذلك.

---

(1) الرجل الأوحد، ص403.

وكان هذا الجناح هو الذي عارض بشدة مشروع القانون الذي قُدِّم إلى المجلس بمنع الطربوش وإحلال «القلباخ» مكانه. كما أنه هو الذي قدم إلى المجلس، باسم السيد علي شكري قانون «منع المسكرات» وقد كان هذا القانون ضد مصطفى كمال -الذي كان يسبح في حوض من المسكرات- ولو من الناحية النظرية، إذ من كان يستطيع أن يمنعه من تعاطي الخمر؟

وكان هناك، بالإضافة إلى النواب المتدينين بعض النواب من ذوي التفكير والحدس السليم من يقف أيضاً مع هذا الجناح، فمثلاً كان التصريح الذي أطلقه كاظم قره بكر ينتقل بين أفواه النواب (إن سلطة الإدارة تسير في اتجاه التجمع في يد واحدة).

ومع أن المجلس انقسم في البداية إلى مجموعات صغيرة شتى، إلا أنها سرعان ما ذابت واختفت لكونها لا تملك أساساً فكرياً يعتد به مخلفة وراءها مجموعتين أو جناحين فقط، جناح مصطفى كمال وأنصاره تحت اسم «الدفاع عن الحقوق» الذين كانوا يرون أن الاستقلال لا يتم إلا مع تغيير بنية تركيا، والجناح الآخر هو الجناح المحافظ الذي كان يرى الوصول إلى الاستقلال عن طريق تقوية الروابط الدينية.

ويمكن القول بأن هذا الجناح الثاني، الذي كان نواب الأرضروم يشكلون مركز الثقل فيه، كان رد فعل (Anti-Thesis) لجناح مصطفى كمال.

إن هذا الجناح الثاني الذي استكمل كيانه بشكل كامل وعملي بعد مرور سنة ونصف السنة على افتتاح المجلس، كان يضم ثلث عدد الأعضاء أي (120) شخصاً.

ولكن كون هذا الجناح جاهلاً بأصول وتكتيك فن الثورة وتغيير النظام، ولعدم إدراكه ضرورة التستر، انحصر نشاطه في المعارضة الشديدة ولكن بالكلام فقط. وهكذا لم يستطع هذا الجناح المخلص والنقي الاستمرار إلا إلى نهاية المجلس الوطني الأول.

ولكن ما أن بدأ المجلس الوطني الثاني الذي أمسك فيه مصطفى كمال بجميع مقاليد الأمور، حتى ذاب هذا الجناح كما يذوب كل شيء قائم على الكلام فقط، ولم يبقَ منه أي أثر سوى مشاعر مستترة في بعض القلوب.

أما «علي شكري» زعيم هذا الجناح الذي كان دوماً في المقدمة من ناحية الشجاعة والجرأة، فقد اغتاله مصطفى كمال بكل نذالة، إذ دعاه بواسطة رئيس الحرس الشعبي «توبال عثمان» حيث خنقه وألقى بجسد هذا الشهيد داخل (شوال) في إحدى الحفر.

أما «توبال عثمان» الذي كان مثال الحمق والجهل، والذي كان يدعي التدين أيضاً فإنه أخذ مكافأته بعد فترة قصيرة، على جريمته هذه، وعلى غفلته وعلى مساعدته الظالم وذلك على شكل رصاصات اخترقت جسده من الخلف في حديقة سيده، ومن قِبَل الحراس الرسميين هذه المرة.

وهكذا كان «علي شكري» أول شهيد في سبيل الله وفي سبيل دينه، في الفترة الأولى والنقية من فترات الكفاح.

وبعد هذا الجناح الثاني المعارض الذي كان مفتقراً إلى أساس فكري وإلى نشاط إيجابي ظهر جناحان وهما «الجماعة الجمهورية التقدمية» و«الجماعة الحرة».

كان أولهما جماعة من الهواة البسطاء، وكان الثاني لا يتعدى المظاهر الشكلية كما سنشير إلى ذلك في حينه، وبذلك فإن جناح «علي شكري» يعتبر أول وآخر جناح للمعارضة ضد مصطفى كمال.

وقد استطاع مصطفى كمال في فترة وجيزة أن يحول المجلس الوطني المنعقد تحت شعار «السلطة بيد الأمة» إلى معتقل للأسرى. أما أبلغ وثيقة تبين كيف أن مصطفى كمال أصبح يرى نفسه فوق المجلس ويعتبر نفسه الكل في الكل، فندرجها هنا[1]:

«عندما حصلت مرة غمغمة في المجلس الوطني الأول وارتفعت الأصوات تقول: لا نستطيع أن نسمح بالتجاوز على سلطة المجلس، ... يجب أن تُحترم سلطة المجلس... يجب أن تُحترم سلطة المجلس... اذكر جيداً كيف صاح بهم وقد انتفخت لبدته الصفراء:

---

(1) راجع كتاب: من أجل أتاتورك، إسماعيل جيب سه ووك، ص60.

- أنا الذي جمعت هذا المجلس، وأنا الذي صنعته... من الذي لا يرغب أن يرى صنع يديه كاملاً؟ أنتم تحترمون فقط المجلس أما أنا فإنني علاوة على ذلك أحترم أثري وصنع يدي».

أي يريد أن يقول: إنني أنا الذي صنعتكم، وأن المصنوع يتبع إرادة الصانع.

أجل... إن التاريخ شهد من أطلق على المجلس الوطني اسم «حديقة الحيوانات» ولكنه لم يشهد من خاطب أعضاء المجلس بأنه هو الذي صنعهم وخلقهم.

وفي عهد رئاسته للجمهورية قيل له، بأن أحد الأجانب الذي كان في زيارة أنقرة تساءل: لِمَ لا توجد في أنقرة حديقة للحيوانات؟ قال: لماذا لم تصحبوه إلى المجلس؟

ولكن هذه الإجابة لا تبلغ في شناعتها ادعاءه بأنه هو الذي خلق إرادة الأمة.

البناية فوق التل:

بناء حجري من طابقين، بنيت على أحد التلول على طريق «كچي أوزن» في أنقرة.

كانت هذه البناية قد بنيت قبل مدة طويلة كمدرسة للزراعة، في الطابق الأسفل، كانت هناك غرف متقابلة بتصميم هندسي بسيط، وأما الطابق الثاني فيشبه الطابق الأول.

كانت النوافذ ذات المصاريع الخشبية الكئيبة تطل على السهول الممتدة على امتداد البصر، ويظهر من خلالها منظر الغروب الرائع الذي تشتهر به أنقرة والذي يستمر دقائق عديدة...

كانت هذه الشبابيك تطل على الظلام كعيون أعمى. أما مصطفى كمال الذي جاء إلى أنقرة لينظف الوطن من رجس الأعداء والذي أصبح هو نفسه لطخة لا تزول، فقد اتخذ هذه البناية مسكناً له ومقراً لأعماله.

كان مدير القلم الخاص يحتل إحدى غرف الطابق الأرضي وفيها فراشه ومنضدته، مع بعض الكراسي القديمة المتضعضعة، وبجانب هذه الغرفة نرى غرفة الشيفرة، حيث

وضعت علامة منع الدخول على بابها على شكل هلالين باللون الأحمر... أما الغرف الأخرى للطابق الأرضي فتستخدم لخدمات التلغراف.

في الطابق العلوي، كانت الغرفة الكبيرة الواقعة على بداية الممر والمطلة على أنقرة هي غرفة مصطفى كمال حيث اتخذها غرفة استقبال وغرفة عمل، وهذه الغرفة الأولى للرئاسة غرفة بسيطة تخلو من عناصر التغليف والديكور (إكسسوار) وتحتوي على كنبة بسيطة.

ولكن غرفته في «جانكايا» ستغلف فيما بعد بالأطلس الذي جلب من قصور اسطنبول.

وفي الطابق العلوي نفسه كان يقيم السيدان رجب بكر والدكتور رفيق صيدام. وكانا يقومان بأعمال السكرتارية الخاصة، وياوران اثنان وهما جواد عباس ومظفر.

قضى مصطفى كمال أيامه الأولى في أنقرة في هذه البناية، ثم انتقل إلى «بافيون». المحطة، ومنها انتقل إلى قصر جانكايا. ثم إلى البناية التي بناها في الساحة نفسها.

إن نوع الحياة التي قضاها في هذه البناية، ثم في بناية المحطة ثم في قصر جانكايا في الأيام الأولى والأيام النقية من أيام الكفاح من أجل الاستقلال كان مرآة تعكس مستواه النفسي الهابط وتدعم نظرتنا وفكرتنا حوله.

أما حياته فيما بعد في قصر «دولمة بافچة» فسيأتي الحديث عنها فيما بعد.

ويقدم لنا رضا نور أبلغ الوثائق في هذا الموضوع، وهو الشخص الذي جاء إلى أنقرة ضمن الوفد المرسل من اسطنبول والذي أبقاه مصطفى كمال في أنقرة وجعله وزيراً للمعارف.

يتناول رضا نور في كتابه «حياتي وذكرياتي»[1] (والذي يعتبر في قسم منه عاطفياً وانفعالياً وفي قسم منه موضوعياً ومستنداً على مشاهداته ومعاصرته الشخصية) حياة مصطفى كمال منذ أن كان قائد لواء في ديار بكر فيقول:

---

(1) حياتي وذكرياتي، المجلد الثالث، ص563.

@iAbubader

«... في هذه الأثناء كان منغمساً في الخمر والفحش بكل أنواعه وصوره... نعم إن الكثيرين يمرون بمرحلة النزق والجري وراء النساء... ولكن هذه تكون في مرحلة من مراحل الشباب ثم يقفون ويرعوون... ولكن هذا لا يريد أن يقف أو يرعوي، ثم إنه كان يقترف الموبقات بشكل مخجل.

كان جواد عباس ياوراً له، وقد جعله فيما بعد رئيساً لجمعية الطيران حيث سرق من هناك (50) ألف ليرة دفعة واحدة وقد قام مصطفى كمال بإغلاق القضية وحفظها. كان جواد عباس هذا يقوم بوظيفة سمسار النساء له، وقد سرد لي الموبقات التي اقترفها عندما كان في حلب وكأنه يسرد لي مفخرة من مفاخره».

إن هذه الناحية التي سبق أن أشرنا إليها ستتضح بشكل كامل في الوثيق المهمة التي سنقدمها فيما بعد بعنوان «شهادة».

كان «رضا نور» صديق مصطفى كمال ورفيقه في الفكر والنضال في البداية، ولكنه ما لبث أن اختلف معه نتيجة مزاجهما وطبعهما وأصبح عدواً له، وكما أشرنا قبل قليل فإن مذكراته وإن بدت في جزء منها في شكل عاطفي وانفعالي وخالٍ من الفكر، إلا أن القسم الآخر منها يفوح برائحة الصدق والموضوعية والبساطة وعدم التكلف ويستند على المشاهدة الشخصية والمعاصرة للحوادث لذلك فإن هذه المذكرات تشكل وثيقة تاريخية.

في هذا الكتاب إيماء فقط لعلاقة أتاتورك مع خالدة أديب[1]... إيماء من ناحية علاقتها مع أتاتورك، وأما فحشها داخل الجند فصريح... فإذا أضفنا إلى هذا الإيماء ما نعرفه نحن عن هذه المرأة الشبقة نعلم أنها كانت من أولى عشيقات مصطفى كمال.

(1) خالدة أديب (1884-1964): روائية تركية معروفة، من أهم رواياتها (قميص من نار) و(رضا القلب) و(ابن زينو) - المترجم.

كانت خالدة أديب وزوجها «عدنان أديوار» من أوائل من انتقلوا إلى الأناضول، وكانت هذه المرأة -بحجة الفن والفكر- بمستوى العاهرات المشهورات في التاريخ مثل «مسالينا»[1] و«أسپاسيا»[2] أنثى مجنونة بالجنس.

وكما يسجل «رضا نور»[3] فإنها وزوجها كانا من أشد أنصار الاتحاد والترقي، ومن ألد أعداء الشريعة، وعندما كانا يهربان بالباخرة على أثر حوادث 31 مارس صادفها على ظهر الباخرة رجل معمم، فلم تملك نفسها من أن تصرخ في وجهه! «أيها الرجعي القذر! إنني أترك وطني وأهرب بسببكم أنتم، ألا تدعونني هنا أيضاً؟» وقد كانت مغرمة بصداقة العظماء والمؤرخين من الرجال، حيث كانت صديقة حميمة «أي عشيقة» لحسين جاهد[4]. وفي الحرب العالمية الأولى ذهبت إلى سوريا ودخلت إلى حماية «أي فراش» جمال باشا، فإذا أضفت إلى هذه القائمة ضياء كوك آلب[5] الذي كتبت من أجله كتابها «الطوران الجديد» وإضافة إلى عشاقها المجهولين فإننا نضطر إلى استعمال إشارة اللانهاية المستعملة في الرياضيات.

سكنت خالدة أديب مع زوجها في بيت من طابق واحد في الحقل الملحق بمدرسة الزراعة التي كان يسكنها مصطفى كمال. وهذا البيت كان محل اللقاءات العديدة بين «البطل القومي!» وبين العاهرة المشهورة.

---

(1) فاليرا سالينا: كانت زوجة لإمبراطور روما (كلاوديوس). اشتهرت بشبقها الجنسي. قتلها زوجها بعد أن علم بخيانتها له أثناء غيابه عن روما - المترجم.

(2) أسباسيا: عاشت في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت ضمن تلاميذ سقراط وكانت الزوجة الثانية لرجل الدولة الأثيني (بركليس). اشتهرت بجمالها وذكائها وبمغامرتها الجنسية بين أفراد الطبقة الأرستقراطية لمجتمع أثينا - المترجم.

(3) حياتي وذكرياتي، ص515-516.

(4) حسين جاهد يالجيش (1874-1957): صحفي وكاتب تركي معروف، له ما يقارب (50) كتاب تأليفاً وترجمة.

(5) ضياء كوك آلب (1875-1924): كاتب ومفكر تركي معروف. دافع عن فكرة القومية التركية وتبنى أفكار الفيلسوف الفرنسي دركهايم - المترجم.

وكانت خالدة أديب كثيراً ما تذهب إلى بيت مصطفى كمال مع زوجها، حيث تشترك هناك في مجلس الرجال في المناقشات وفي طرح الأفكار وذلك في انتظار حلول ساعات الشهوة حيث تنتقل القضية من جهاز الدماغ والفكر إلى جهاز آخر.

وفي الكتاب الذي نشره بنك العمل التركي باسم «ذكريات حول أتاتورك» نرى الاقتباس التالي من كتاب اللورد كينروس «أتاتورك»[1] والذي ينقل فيه على لسان خالدة أديب الذكرى التالية عن أتاتورك «الذكرى رقم 1».

«في إحدى أمسيات تلك الأيام جاء مصطفى كمال باشا إلى بيت الحقل، وتحدثنا كثيراً ولكني لم أفهم قصده جيداً فسألني:

- أليس كذلك يا هانم !

- لم أفهم ما قلته جيداً.

- إذن فتعالي إلى جانبي لكي أشرح لك.

جئت إليه وجلست على كرسي بجانبه، حيث بدأ يشرح لي قصده بكل وضوح ثم قال:

- أريد أن أقول بأن على الجميع أن ينفذوا أوامري.

- ولكن ألم يكن هذا هو ما فعلوه بالضبط من أجل حياة وسلامة تركيا.

- إنني لا أريد أي نقد ولا أريد أي توجيه.... أريد فقط تنفيذ أوامري.

- وهل تريد هذا مني أيضاً يا باشا؟

- نعم منك أيضاً.

فأجبته بشكل واضح:

- سأطيعك ما دمت تخدم غاية الأمة!

---

(1) أتاتورك، مولد أمة، ص364-365.

- بل ستطيعينني على الدوام.

فأجبته بوضوح أيضاً:

- هل هذا تهديد يا باشا؟

فغير أسلوبه فجأة.

- آسف... إنني لا أهددك في أي وقت من الأوقات».

إن بنك العمل التركي الذي قام بنشر هذا الحوار لا يدري أنه بهذا -وما أكثر أمثاله- يكشف حقيقة مؤسسه ورئيسه[1].

لنقف لحظة أمام هذه الخاطرة التي تشير إلى ما تخبئها من فضيحة. ماذا يمكن أن يكون الكلام الذي لم تفهمه خالدة أديب؟ وماذا كان مراد أتاتورك منها والذي أوضحه لها بكل جلاء، عندما أجلسها بجانبه وهمس في أذنها؟ ماذا يمكن أن يكون؟ ولماذا تخفي خالدة أديب هذا التكليف الذي هو أساس المسألة، والذي يعطي إحساساً بأنه كان من الإحراج بمكان بحيث أنه دفعها إلى محاولة مقاومة أتاتورك؟ وإلى أي سبب يرجع ذلك الإنذار بالإطاعة العمياء وحب النفس الذي لم نرَ له مثيلاً حتى عند الفراعنة؟

ألا تتجمع المسألة كلها في هذه النقطة؟ ولكن هذه النقطة مجهولة إذن فلا بد من التسليم بأنه كان هناك تكليف في غاية الإحراج بحيث إنه دفع حتى امرأة من طراز خالدة أديب إلى عدم الاستجابة. ولما كان من المستحيل أن يكون التكليف بالنسبة إلى خالدة أديب من نوع «عليك بتجرع غالون من العرق[2] دفعة واحدة» أو «عليك بالطيران فوق أنقرة» لأن التكليف كان مقترناً بشرط التنفيذ، فلا بد أنه كان مستهجناً جداً إلى درجة يتجاوز التصور.

---

(1) يعتبر مصطفى كمال مؤسِّساً لبنك العمل التركي - المترجم.

(2) العرق: نوع محلي وقوي من المسكرات - المترجم.

ولكن لكي نقبل هذا الاستنتاج تلزمنا وثيقة تبرهن بوجود علاقة جنسية بين خالدة أديب ومصطفى كمال؟

إليكم الوثيقة التالية وبلسان خالدة من كتابها «امتحان الأتراك بالنار، ص291» والتي تبين كل شيء وبكل جلاء وتوضح المنظر الذي يكمن وراء الكلمات التي كانت تهمس في أذن الكاتبة الروائية وهي متمددة على جلد ماعز والتي كانت تثير وتداعب غيرتها:

«كانت عيناي تتمنى منظر البحر... ولكني كنت في بيت ريفي في ضاحية أنقرة. وكانت ألسنة اللهب تتصاعد من الحطب في المدفأة دون توقف... أمامي جلد ماعز رمادي وأنا متمددة فوقها.

كان مصطفى كمال مرحاً جداً في ذلك المساء، فقد تعرف بشابة صغيرة اسمها «لطيفة هانم»[1] همس بأذني:

- إن هذه الشابة الصغيرة عندما تتكلم عنك تقول: أستاذتي خالدة هانم.. وتقول إنها بقيت سنة في المعهد، وقد علمت بأنها راجعة الآن من فرنسا التي تتابع فيها دراسة القانون.

ثم همس مصطفى كمال باشا في أذني:

- إنها تحتفظ بصورتي في إطار صغير في عنقها.

ثم أخذ يضحك بنشوة، فقد دعته هذه الشابة إلى بيتها، وكان يخيل للباشا بأنها وقعت في غرامه. ومع أن كل نساء أزمير كن يحملن فوق صدورهم صورة مصطفى كمال في ذلك الوقت، فإنني اغتبطت لمشاعر النشوة التي ثارت عنده لكونها مفيدة له».

---

(1) لطيفة هانم هي الزوجة الوحيدة التي تزوجها مصطفى كمال، ودام زواجها سنة ثم طلقها، ولا تزال على قيد الحياة - المترجم.

ولنلق نظرة على الديكور من كتاب يونس نادي[1]:

«في ذلك المساء -والأغلب أنه كان يوم 4 أو 5 نيسان- كان على مائدة العشاء حسب ما أتذكر خالدة أديب هانم وعدنان وجامي بك بالإضافة إليّ، وكان هؤلاء الأصدقاء قد استقروا أسفل بناية حقل مدرسة الزراعة. ولكنهم لم يكونوا قد رتبوا بعد لوازم وحوائج البيت. لذلك فإنهم كانوا يأتون للعشاء إلى المقر في أكثر الأحيان».

في مثل هذا البيت... وبينما المدفأة تشتعل على الدوام... والمرأة متمددة على جلد ماعز -من يدري بأي وضع وبأي ملابس- يهمس في أذنها مصطفى كمال «إذن فلا بد أنه متمدد معها كذلك» ما يهمس.

إذن فهل بقي هناك مجال للشك والتردد في ماهية هذه المرأة وفي المهمة التي كانت تؤديها مع مصطفى كمال؟

ولكن قد يتساءل أحدهم عن السبب الذي يجعلنا نصرف كل هذا الجهد لإثبات هذه المسألة التي تعتبر هينة جداً بالنسبة لحوادث ومناظر الفحش التي سيأتي ذكرها فيما بعد والتي تفوقها ألف مرة.

ونقول لهؤلاء بأننا إنما فعلنا ذلك لكي نبين طريقتنا العلمية في الاستدلال والاستنباط.

وفي كتاب «دامار إيرك أوغلو»[2] الذي كان نائباً في المجلس الوطني نرى وصفاً لفلسفة أتاتورك في الحياة.

«في أحد الأيام ونحن على المائدة شرح معنى الحياة قائلاً:

---

(1) كتاب: في أوائل أيام أنقرة، ص93.

(2) ذكرياتي، 3/ 349.

- قرأت في هذا المجال عدة كتب لعدد من العلماء، فرأيت أن الجميع يُعرِّفون الحياة هكذا: «نأتي إلى الحياة ونحن نبكي، ونغادر الحياة ونحن نبكي والمرحلة بين المجيء والوفاة مرحلة مملوءة بالآلام» فكنت أقول دائماً في نفسي: إذن فإن الحياة لا معنى لها، ولا قيمة لها ثم قرأت كتاباً لعالم آخر فرأيت أنه يعرِّف الحياة بالتعريف السابق نفسه ولكنه يضيف قائلاً: «ولكن السعيد من يستطيع تأمين أوقات مرحة بجانب الآلام الموجودة في الحياة» وقد أعجبتني هذه الفكرة كثيراً. لذلك على الفرد وعلى الأمة أن لا تدع النشوة والمرح تفلت من يديها. إن المرح ينبوع الطاقة، وإن الأمة التي لا تملك المرح لا تستحق الحياة. وهكذا فإن الأمسيات التي أجمع فيها على المائدة أصدقائي هي الأوقات السعيدة لدي، وأنا أريد بهذا أن أكون قدوة لأمتي».

وعليكم أن تقدروا مدى سفالة هذه الفلسفة التي تربط معنى الحياة بنشوة الخمر.

وقد أصبحت البناية فوق التل مسرحاً لمناظر السكر والفحش وبينما كانت الأمة جميعها والملتفة حول المجلس الوطني تتقيأ دماً من أجل الاستقلال، كان مصطفى كمال يملأ البناية فوق التل بقيء السكارى مادة ومعنى.

يصور لنا رضا نور بأسلوبه السهل الممتع الخاص به، هذه الناحية فيقول[1]:

«كان يشرب باستمرار، وحتى الصباح حتى يسقط من السُّكْر، تعرفت به، صادقته لمدة شهر، فاستطعت أن أنفذ إلى داخله. كان بنيانه الجسمي كما يلي: طويل القامة، ذا شعر أشقر غاية في الصفار، وعلى وجنتيه -وخاصة على أنفه- كانت الأوردة الشعرية ظاهرة وكما يشاهد على مدمني الخمر فإن الأوردة الشعرية ظاهرة على وجنتيه وعلى أنفه خاصة، حيث أصبحت هذه المناطق حمراء، أما طرف أنفه فأحمر كالطماطم... وسط جبهته منخفض قليلاً وهذا الحال موجودة على طرفي رأسه، كأن حلقة حديدية قد ضغطت من الجانبين على رأسه. الرأس صغير من المقدمة ومن الجانب، وشكله غير متناسق، حتى إن

(1) حياتي وذكرياتي، 3/ 619.

عصمت باشا انتبه لهذا أيضاً، فقد قال لي في أحد الأيام في لوزان «كم هو غير متناسق رأس الغازي» ثم انتبه الثعلب واستدرك بسرعة «ولكن كم هو ذكي، ترى لماذا؟» وذلك خوفاً من أن أقول ذلك إلى مصطفى كمال في يوم من الأيام. ولا أعلم هل كان يعلم مدى ابتعاد شكل رأسه هو من التناسق؟ أم كان يريد أن يقول: «إن رأسي أيضاً غير متناسق. وأنا ذكي مثله كذلك» وقد دعيت في هذه الأثناء عدة مرات إلى مجالس شربه، فرأيت أنه عندما يشرب أو يغضب يكون أحول. ودرجة حَوَله كانت كبيرة تقرب من 160 درجة، فكانت إحدى عينيه تنظر شرقاً والأخرى غرباً ... T ... إذن ففي هذا الرجل تردٍّ وانحطاط عائلي وانحطاط وراثي.

كان جوّالاً حركاً، يتعقب الأمور والأعمال ولا يدعها... يفهم حالاً كل ما سمعه حتى وإن كان أبعد الأمور عنه، ثم يعود فيشرح ذلك... ولكن جميع أموره مقالب ومؤامرات».

ويقول رضا نور[1]:

«... كان يغضب إلى درجة يكون معه أحْوَل، فإحدى عينيه تحدق يميناً والأخرى يساراً... وكانت هذه علامة غضبه الشديد، كما كان يحدث هذا عندما يكون ثملاً... كنت أستغرب جداً... لماذا يغضب هذا الرجل لهذا الشيء إلى هذه الدرجة. ثم عرفت السبب: إنه حب المنصب... كان هذا هو السبب الذي دعاه إلى إهانة «قره واصف» وإلى سجنه، لكنه لم يستطع إعدامه مع أنه كان يريد هذا ولا أدري ما الذي حالَ بينه وبين إعدامه؟»

ويقول رضا نور أيضاً[2]:

«انتقل مصطفى كمال من مدرسة الزراعة إلى بناية المحطة حيث أصبحت مسكناً له... وفي أنقرة كان هناك شخص اسمه (س) يقال إنه كان ضابطاً مسلماً من رومانيا، وإنه

---

(1) حياتي وذكرياتي، المجلد الثالث، ص581.

(2) حياتي وذكرياتي، 3/ 641-642.

قد التحق بجيشنا الذي كان في «بودابست» في الحرب العالمية. وكان يداوم الحضور على ليالي الطرب والسُّكْر التي أصبحت تقام في بناية المحطة حتى الصباح، حتى إنه أصبح مقيماً مع امرأته مع مصطفى كمال يشربون ويرقصون ويعربدون معاً... أغلقوا النوافذ على الأقل... كلا... فالشبابيك مفتوحة على مصاريعها. أصبح الأهالي يتجمعون في الليل حول البناية، يتفرجون على مناظر العربدة، ويسمعون صرخات وهمسات وضحكات السُّكْر والشهوة.

ولذلك ما لبث أن انتشرت الشائعات بين الجمهور وبين النواب. وقد توجست أنا وبعض النواب الذين كنا نتبادل الهموم، خيفة من الأمر، إذ ليس ببعيد أن يقوم الجمهور بالهجوم علينا وقتلنا، على أساس أنه لا دين لدينا ولا أخلاق. وقد قال لي البعض: قل لهذا الرجل أن يكف عن هذا.

فكرت في الأمر، وقلت في نفسي: «إن عصمت هو الذي يستطيع أن يقنعه، إذن فلأذهب إليه وأقل له بأن ينصحه ويقول له بأن هذا الأمر ضار جداً بقضيتنا القومية، وأن عليه تجنب هذه الأمور حالياً، أو على أقل تقدير أن يستتر عندما يقوم بهذه الأفعال». وفعلاً ذهبت ووجدت عصمت وشكوت إليه الأمر، وشرحت له القضية بكل حُسْن نية، ... ولكني تلقيت منه جواباً غير متوقع على الإطلاق... إذ غضب عصمت وتقلصت عضلات وجهه... حسبته غضب على مصطفى كمال، ولكن تبين لدهشتي أنه غضب عليّ... قال لي: هل أنا حارس...؟! نعم إنه يفعل.... طبعاً يفعل هذا... ماذا جرى للناس؟... في الحقيقة صدمت لهذا الجواب... كنت أظن عصمت ذا نفس صافية، ولكن ظهر لي الآن خبث نفسه وبُعده عن الاستقامة، ذلك لأن موضوع الشكاية كان مهماً جداً ومعقولاً، لذلك فقد كان يتحتم عليه أن يكون في جانبي... وأنا أعتقد بأنه -من أجل التزلف- أسرع إليه وأبلغه عن الحوار الذي جرى بيننا - وأنه لا بد نالَ الحظوة لديه، ولم أكن أتصور أن رئيساً للأركان العامة يقوم بمهمة القيادة غير المباشرة لرئيس الدولة، إذن فالويل لحالنا.

وبعد مرور عدة أيام، فوجئنا بأن (س) قد عُيِّن مستشاراً لوزير الزراعة».

وأخيراً يُعيَّن (س) في القنصلية التركية في «باطوم» حيث يدعو «رضا نور» إلى بيته للعشاء، عندما قام رضا نور بزيارة روسيا مرّ من هناك. وعندما تنسحب زوجة (س) مبكراً، يعتذر زوجها عنها، بأنها متوعكة بالوعكة التي تصيب النساء كل شهر... أي يعتذر إليه لعدم استطاعته تقديمها إليه[1]!!

هؤلاء هم أصدقاء مصطفى كمال !!

إن الأفكار الأنانية التي كان يحملها عندما كان في البناية، فوق التل، والتي كانت مسرحاً للسُّكْر والفحش، كانت مغايرة لكل القواعد العلمية والأسس المقبولة في العالم، فحسب ما نقرأ في «جانكايا»[2] فإن أحد القانونيين يقول له ما يلي معترضاً على الشكل الذي رسمه لإدارة الدولة:

«إن هذا النظام الذي تريدون وضعه لا يوجد في أي كتاب للقانون» فيتلقى الجواب التالي:

– إن النظم ليست إلا أشياء وأموراً تكيَّفت ومرَّت من التجارب... عليّ أن أنفذ ما أريد، وعليكم أن تدرجوا ما أعمل في الكتب.

أي أنه بجانب حياة الفسق التي كان يعيشها في تلك البناية، فوق التل، فإنه كان يرسم خططه لسحق الروح التركية وقتلها، إذ نراه يخاطب عدنان أديوار وزوجته خالدة أديب اللذين كانا يبقيهما على مائدته إلى الساعة الثالثة صباحاً كما يلي[3]:

«في أيام الكفاح القومي، وقبل الهجوم الكبير:

---

(1) انظر تفاصيل هذه الحادثة في كتاب: حياتي وذكرياتي، ص643، المجلد الثالث – المترجم.

(2) ص262 من كتاب (جانكايا).

(3) مجلة الحياة، ذكريات الكفاح القومي، خالدة أديب، الحلقة 14.

كان مصطفى كمال باشا، يتحدث ذلك المساء حتى الساعة الثالثة صباحاً عن حركة «التغرب»[1] التي تنتظر تركيا في الأيام القادمة.

- يا سيد عدنان! ... إنك كنت تقول دائماً بأن السبب في تقدم الكلية الطبية وفي تقدم الجيش يعود إلى أنهما كانا أول من اتجها نحو الغرب... أما الآن فإننا سوف ندفع البلاد جميعها إلى الغرب.

بل إنه كان يتحدث في ذلك حتى عن إمكانية قبول الأحرف اللاتينية وكان يضيف إلى ذلك وجوب اتخاذ تدابير جدية وصارمة لتحقيق ذلك».

إن البناية فوق التل، ثم بناية المحطة ليست إلا إطارين تاريخيين تعكسان الروح الخبيثة لمصطفى كمال...

يقول «رضا نور»:

إنه عندما جاء ذكر الموبقات التي تُرتكب في البناية فوق التل وذلك في أحد الاجتماعات قال أحد النواب:

«... إن هذا الرجل خبيث ونفسيته وضيعة... ومن المؤسف أنه على رأس هذه الحركة»[2].

إذن كان هو مركز القيادة للمجلس الذي كان يمثل الأمة.



(1) حركة التغرب: أي حركة الاتجاه نحو الغرب وأخذ عاداته وتقاليده.

(2) حياتي وذكرياتي، 3/ 620.

الفصل الرابع

مبارك الاستقلال

(أصوات العربات الزراعية)

بين السماء والأرض:

الأناضول الحبيبة... مخزن الدم والأرواح التي أسند الإمبراطورية العثمانية وحده طيلة ما يقارب 625 عاماً... هذه الأناضول أصبحت ساحة للبطولة تملأ أجواءها وطرقها أصوات الصرير المزعج للعربات الزراعية ذات العجلات الضخمة مدة سنتين وثلاثة أشهر (من ربيع 1920 حتى خريف 1922). إن هذه العربات الزراعية وبمشيها الذي يشبه مشية السلحفاة وبصرير عجلاتها الذي لا ينقطع وكأنه نداء للأمهات التركيات اللاتي فقدن أولادهن، كانت رمز التضحية الدينية والملية من أجل الهلال أمام الصليب، ولم يكن الذين اشتركوا في حملة التضحية والفداء هذه يعلمون بأنهم يخدمون عدواً لله، أخذ على عاتقه هدم الوطن من الداخل بعد أن عجز الأعداء عن هدمه من الخارج طيلة ستة قرون.

لنتمعن أولاً في الصورة التي يرسمها رضا نور[1]:

---

(1) حياتي وذكرياتي، المجلد الثالث، ص589.

«كنت عندما أمر بهذه الطريق أصادف العربات الزراعية. كانت كل عربة تستطيع نقل قذيفتين للمدفع... المطر ينهمر ولكن القروي العجوز ينزع معطفه ويغطي به القذيفة... أما هو فمبلل من رأسه إلى أخمص قدميه... هذا التركي الشهم يعتني بالذخيرة أكثر من اعتنائه بحياته هو... وفي «قاسطموني» رووا لي الحادثة التالية: وصلت الذخائر وجُمعت العربات، وكانت هناك امرأة تحمل رضيعها الذي لا يتجاوز عمره عدة أشهر وقد أتت بعربتها كذلك... أشفق الجميع على حالها فقالوا لها: أيتها المرأة، ارجعي إلى قريتك. فبكت المرأة قائلة: «دعوني... إن والد هذا الطفل قُتل في الحرب مع الكفار... دعوني أنقل الذخيرة، ولأمت أنا وهذا الصغير في هذا السبيل».... ترقرقت الدموع من عيني... ما هذه الشهامة الموجودة لدى التركي؟.... هناك آلاف الأمثلة للبطولة في حركة الاستقلال ويا حبذا لو قام أحدهم بجمعها في كتاب... والآن يأتي مصطفى كمال ويدعي بأنه هو الذي فعل كل شيء... في الوحل وفي الثلج كان هؤلاء الأتراك يقطعون هذه الطرق آلاف المرات».

وطيلة حرب الاستقلال، وبينما كانت يد مصطفى كمال ترتفع إلى السماء في الاجتماعات وفي الاحتفالات في وضع الدعاء بكل نفاق، كان صرير العربات التي تئن وكأنها تقول: «الله... الوطن... الله.... الوطن...» تلحن لحن الغربة الأبدية في الوطن والغفلة الكاملة عن المستقبل... فتبتئس لهذه الحالة السماء وترتجف منها الأرض.

لقد كان منظر المرأة التركية بشاباتها وعجائزها أو منظر الشيخ التركي ذي اللحية البيضاء والظهر المنحني، كل منهم يحمل على ظهره قذيفة مدفع وهم يشقون طريقهم بكل صعوبة وراء عرباتهم... لقد كان هذا المنظر أكثر إيلاماً للنفس من منظر عبيد فرعون هم ينقلون الأحجار لبناء الأهرام، ذلك لأن هؤلاء العبيد لم يكونوا يُخدعون، بل كانوا واقعين تحت ظلم واضح، أما هؤلاء فإنهم استنفروا إلى الحركة تحت دعوى الكفاح من أجل الله ومن أجل الوطن وهم لا يعلمون بأنهم إنما ينقلون الأحجار لبناء هرم الكفار ولإزالة اسم الله من القلوب ولتسليم الوطن المسلم إلى الأسر المعنوي للغرب.

هناك في التاريخ أمثلة عديدة ونماذج كثيرة من الخيانة وبيع الأوطان والشعوب إلى أعدائها سهلة رخيصة، ولكن لا يوجد في التاريخ ولا نموذج واحد خُدع فيه الشعب مثل هذه الخدعة وسيقَ إلى القيام بتحقيق عكس ما كان يريده.

إن حرب الاستقلال الذي أوصل الأتراك إلى الانتصار على المستوى الخارجي والمادي كان وسيلة في يد مصطفى كمال -بقوة هذا الانتصار- لإهلاك الشعب التركي داخلياً ومعنوياً بشكل مدروس ومخطط. والجندي التركي هو صاحب الناحية المشرفة في هذه الحرب، أما مصطفى كمال فهو صاحب الخيانة فيها، وليس له الحق من الناحية المشرفة فيها، بل إن دوره كان استغلالاً للإيمان في سبيل الكفر... إن إدراك الأمر بهذه الصورة هو مستوى الإدراك اللائق الذي ينتظر المثقف التركي الجديد، وهناك مؤشرات كثيرة حالياً تبشِّر بأن مثل هذا الإدراك -الذي يعتبر بمثابة ثورة- قد حانَ أوانه.

وبالإضافة إلى إطار هذا التشخيص الرئيسي فسنتناول المراحل الأربعة المهمة لمعركة الاستقلال والتي هي: معركة إينونو الأولى، معركة إينونو الثانية، معركة سقاريا، ثم الهجوم الكبير، بشكل حكايات جذابة نورد أثناءها ما يدعم دعوانا في هذا الخصوص. ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أننا سنقتصر أثناء تناولنا هذه الحكايات على النقاط التي تبين الدور الأناني لمصطفى كمال وكيف كان كفاحه مقتصراً على إعلاء شأنه فقط.

معركة إينونو الأولى:

حدثت هذه المعركة بعد أن تمت تصفية قوات «جركس أدهم» وعلى إثر الهجوم الذي شنَّه اليونانيون في 6 كانون الثاني 1921، وانتهت بالانتصار.

«تشكل الجيش النظامي للمجلس الوطني في ظروف قاسية، وانتهى بذلك دور التشكيلات الفدائية.

في هذه الظروف السياسية والعسكرية القاسية جرت معركة إينونو الأولى، فقسم من قواتنا[1] كان في صفوف اليونانيين، وقد طارد الجيش أدهم حتى 5 كانون الثاني وفي 6

(1) يقصد هنا قوات جركس أدهم الذي التحق باليونانيين بعد خلافه مع حكومة أنقرة - المترجم.

كانون الثاني بدأ اليونانيون هجومهم على جيشنا بكل قوتهم... كان من الضروري الانتصار في هذه المعركة وكان المرحوم عز الدين باشا من القواد الذين يثق بهم أتاتورك ويحبهم، فقد كان عسكرياً شجاعاً ووطنياً مستقيماً، كما كان من محبي مصطفى كمال. وحتى أواخر حياته لم يسامح عز الدين باشا السياسيين الذين ظهروا مؤخراً والذين يحاولون طمس معالم انتصار معركة إينونو الأولى من أجل التهوين من شأن وشهرة عصمت إينونو، وفي مقالته الأخيرة يقول: «إن هذه المعركة كانت انتصاراً كاملاً لنا وقد حاولت بعض الأقلام -مثل اليونانيين- التهوين من هذا الانتصار». وقد استطاع اليونانيون إنقاذ أنفسهم بعد هذه المعركة بالالتجاء إلى الخط الدفاعي القوي «أكسورديمبوز».

ولقد كانت الفرحة الحقيقية هي لدى مصطفى كمال، فبعد أن تم الانتصار في معركة إينونو الأولى قال: «لقد أُنقذ الشيء الكثير في هذه المعركة»، ولكنه ما لبث أن أتمَّ جملته هكذا: «كلا!... بل أنقذ كل شيء».

لقد كان مصطفى كمال يعلم حق العلم ما تمَّ إنقاذه في معركة إينونو الأولى وهو العسكري الذي كان يقدس الفن العسكري إلى درجة أنه لم يكن يتردد من نقد أقرب أصدقائه ولا يتردد في إعطاء حق أبغض الأعداء إليه.

وفي ذكرى هذه المعركة أرسلنا باسم جريدة «آفشام»[1] إلى قائد الجبهة الغربية عصمت باشا برقية تهنئة. وفي الجواب الذي أرسله عصمت باشا -الذي يستحق القراءة حتى اليوم- كان يقول: «إن الذين وقعوا شهداء في معركة إينونو الأولى ضحوا بحياتهم من أجل تأمين النظام في البلد وتأمين الدفاع بواسطة الجيش، ولم يضحِّ أي شهيد في أية معركة أخرى بحياته في ظروف صعبة وغير اعتيادية وبعيداً عن كل المنافع الدنيوية بل حتى الأخروية مثلما ضحى هؤلاء الشهداء بحياتهم».

(1) المؤلف كان رئيس تحرير هذه الجريدة اليومية التي كانت تصدر في اسطنبول - المترجم.

ذلك لأن الفتاوى التي أصدرها السلطان كانت تَحرِم الذين يحاربون اليونانيين بأوامر من حكومة أنقرة من شرف اعتبارهم شهداء»[1].

«بعد أن انتهى دور القوات الشعبية للقوى الملية بمعركة إينونو الأولى، وبعد أن تشكلت سلطة المجلس النيابي وتشكل الجيش قطع مصطفى كمال كل مساومة مع الباب العالي فقد أصبح الآن رئيساً حقيقياً للدولة.

حينذاك كانت توجد وزارة توفيق باشا في اسطنبول، وكانت قوات الحلفاء تعلم أن الأناضول يمكن أن تتقوض بألاعيب وحيد الدين والداماد فريد، وأن معاهدة «سيڤر» لا يمكن أن تمر كما هي. وكانت حكومة اسطنبول تفكر في أنه ما دام اليونانيون قد ضعفوا وما دامت الدول الكبرى ليست في وضع يساعدها على استعمال القوة فماذا يكون لو تخلى مصطفى كمال عن عناده وتفاهمت أنقرة مع اسطنبول حيث يمكن تخفيف شروط اتفاق «سيڤر» إلى أقصى حد ممكن ثم يترك الباقي إلى سير التاريخ؟

وفعلاً ظهرت هذه الفرصة وهذه الإمكانية. فقد قررت الدول الكبرى عقد مؤتمر في لندن للتباحث مع الأتراك واليونانيين معاً، وكانت تشترط وجود ممثلين عن أنقرة أيضاً ضمن الوفد العثماني»[2].

«كان وجود بكر سامي بك على رأس وفد أنقرة المتوجه إلى لندن من سوء الحظ، إذ إنه أعطى -من عند نفسه- لوزيري إنكلترا وفرنسا بعض التنازلات المتعلقة ببعض المسائل وذلك في المحادثات الخاصة التي جرت بينه وبينهما.

وكان من الواضح أن المؤتمر سوف لن يتمخض عن شيء، فالتعديلات المقترحة على الاتفاق كانت تافهة جداً، وكان من الضروري استرجاع كل التنازلات التي بذلها بكر سامي بك الواحد تلو الآخر. وقد ظهر بكر سامي بك في هذه السياحة الثانية له إلى

(1) جانكايا، ص285.

(2) المصدر السابق، ص287.

أوروبا كرجل للباب العالي فقد كان يعتقد هو أيضاً بأن الاستمرار في الحرب ستكون عاقبته الوبال»[1].

ويورد فالح رفقي -دون أن يدري- ملاحظة تكشف عن كل خبايا مصطفى كمال.

«... لم يعد مصطفى كمال يلعب النرد... بل أصبح يلعب الشطرنج، ومجرد التفرج على هذه اللعبة يتعب من لا يعرفها.

لقد استطاع مصطفى كمال جمع شؤون الحرب والسياسة تحت قبضته لمهارته ومعرفته الاستفادة من كل الأوضاع والفرص والشروط، فأمامه جيش مرابط في مكانه على الدوام وخلفه كتل من الجماهير. ولكنه عندما كان يقال له بعد كل مناقشة حامية في المجلس:

- ما هذا المجلس؟ أعطنا الإذن لنغلقه.

فإنه كان يحذر من الذين يقدمون له هذه الاقتراحات من أصحاب العقول الضيقة ويبتعد عنهم. فقد كان زعيماً في القرن العشرين، لا يستطيع تصور العمل من دون مجلس، فهو يقول ما عنده ويحاول أن يقنع، بل يستعمل القوة ويُسكت... ولكنه لا يستطيع العمل دون مجلس»[2].

أي إنه لكي يجبر الآخرين على العبودية له والسجود له وإسكاتهم يستعمل القوة معهم، ولكنه لا يستغني عن المجلس، إذ أي إله مزيف استطاع الاستغناء عمن يظهرون له العبودية؟

وقد استعمل المجلس الأول بحجة الاستناد على إرادة الأمة ولم يلغه بالرغم من المعارضة التي لقيها، لأنه كان يعلم بأنه بإلغاء هذا المجلس سيفقد كل شيء، كما أنه لم يلغِ

---

(1) المصدر السابق، ص289.

(2) جانكايا، ص259.

المجالس الأخرى ولكنه تصرف بشكل أفظع من إلغاء المجلس، إذ جعل هذه المجالس النيابية تنظر إليه نظرتهم إلى إله. وقد عرف كيف يديم هذه المجالس حتى إلى ما بعد موته باثنتي عشرة سنة، إذ وضع طريقة إدامة هذه المجالس، ولا يزال كثير من النواب يحملون بين جنباتهم نفس معنويات نواب أتاتورك. ولا يمكن أن يزول هذا من تركيا ما لم تزل العبودية لأتاتورك في تركيا.

وهكذا فما أن تخلص مصطفى كمال من العصابات، وما أن أوقف التقدم اليوناني وكوَّن الجيش النظامي وربح معركة إينونو الأولى بفضل شجاعة الجندي التركي الغافل عن كل شيء حتى أحس أنه تخلص من أكبر خطر يهدده وأصبح يقول:

«إننا مدينون بكل شيء لهذه المعركة».

ويمكن اعتبار معركة إينونو الأولى الخميرة الأولى لتكوّن وتشكل قوة المقاومة في حركة الأناضول بشكل جيش نظامي.

وبعد الانتصار في إينونو الأولى وتحت شعار «السلطة للأمة» وقبل استقرار رأيه على أي نوع من أنواع نظم وإدارة الدولة، أصدر عن طريق المجلس قانوناً غير تام المعالم تحت اسم «قانون التشكيلات الأساسية» وهذا القانون الذي صدر في 20 كانون الثاني 1921 إنما هو تحقيق للمنهاج الذي قرأه مصطفى كمال على المجلس في 18 أيلول 1920 وكان يخفي في طياته البذور الأولى للجمهورية.

معركة إينونو الثانية:

هذه المعركة المعروفة تفاصيلها العسكرية كانت أصعب من المعركة الأولى ولكنها كانت تعتبر مجرد إضافة أو «علاوة» للمعركة الأولى، ولا تعتبر نتائجها بأهمية نتائج المعركة الأولى.

بدأت الجيوش اليونانية بالهجوم في 22 مارس 1921 وذلك بينما كان مؤتمر لندن -الذي حضره وفدا اسطنبول وأنقرة- منعقداً وذلك من أجل التأثير على مباحثات المؤتمر.

في هذه المعركة تتضعضع صفوفنا أول الأمر ثم تتماسك ثم تتحول إلى الهجوم فالنصر.

«نقل إليّ أحد الوزراء السابقين الذين قضوا الليلة الأخيرة في أنقرة في مدرسة الزراعة بجانب أتاتورك قصة معركة إينونو الثانية فقال:

«كانت هناك منضدة في وسط الغرفة وفوقها خارطة... قال مصطفى كمال:

- أريد أن أشرب قدحاً من أي شراب.

جلسنا... وبعد قليل جاء ضابط ركن وقال:

- الأخبار سيئة... جناحنا الأيمن في تراجع يا سيدي».

وكانت الشائعات الواردة تزعم أن الفرسان اليونانيين قد دخلوا المحطة وأن عصمت بك أعطى أوامره بالتراجع وأنه بدأ بالتوجه إلى «جوقور حصار». ولكن القائد الذي كان قد بقي في محله كان يقول في البرقية التي أرسلها جواباً لبرقية مصطفى كمال باشا:

«إن جناحنا الأيسر الذي يقوده ناظم بك صامد في مكانه، أما جناحنا الأيمن فقد تماسك أما نحن فلا نعرف ماذا نعمل»... وسرعان ما وجد مصطفى كمال عصمت باشا وأخبره بالوضع حيث رجع لقيادة قواته من جديد وهكذا فإن تلك البرقية المشهورة التاريخية التي أرسلها إلى عصمت إينونو كتبت صباح هذه الليلة»[1].

والبرقية التاريخية التي يقصدها فالح رفقي آتاي هي برقية التهنئة التي تنتهي بتلك الجملة المشهورة:

«إنكم لم تتغلبوا فقط على الأعداء هناك، بل تغلبتم على القدر السيئ للأمة»[2].

إن عصمت باشا الذي استحق كل هذا المدح وهذا الثناء هو الرجل نفسه الذي كان قد وجد السلامة في العبودية لمصطفى كمال، وهو الذي سيقول في المستقبل -عندما

(1) جانكايا، ص296.

(2) جانكايا، ص361.

يرى بداية التقهقر- لمصطفى كمال الذي كان يزور الخطوط الخلفية في صوت الطفل الباكي: «ماذا أفعل؟... أنا لا أستطيع شيئاً»، فيتلقى جواب: «بل تستطيع وستفعل».

أي هو مثال الرجل المفتقر إلى الشجاعة وإلى الإرادة.

مباحثات المؤتمر في طريق مسدود:

في هذه الأثناء نرى مباحثات المؤتمر في طريق مسدود.

كما نرى محاولة مصطفى كمال لتجميع أنصاره في المجلس في جناح «الدفاع عن الحقوق» نرى هنا أياً بداية تكوّن الجناح الثاني المعارض وبداية رفع أصواتهم بالمعارضة.

وبينما كانت مقاومة مصطفى كمال تزداد على الجبهة فإنه كان لا يهمل تحقيق خطته في الداخل تدريجياً وتطويع المجلس لإرادته، ولكنه في هذا الأمر لا يدع الخيط يفلت من يديه، ولذلك نراه يرسل هذه البرقية لـ «كاظم قره بكر» جواباً لبعض اعتراضاته:

«لا يوجد في هذا القانون أية إشارة إلى الجمهورية، أما خشية «رائف أفندي» من قلب شكل السلطنة إلى جمهورية فليست هي إلا عبارة عن أوهام»[1].

والقانون المقصود هنا هو قانون «التشكيلات الأساسية» طبعاً.

وفي هذه الأثناء يمنع رجوع وفد اسطنبول الذي جاء إلى أنقرة من أجل التفاهم برئاسة عزت وصالح باشا، حيث يصبحان ضيوفاً، ولكن تحت الحراسة، ولا يُطلق سراحهما حتى يعطيا تعهداً خطياً بأنهما سوف ينسحبان من حكومة اسطنبول.

أما مصطفى كمال فهو مستمر في طراز حياته المعروفة -أو التي ستُعرف فيما بعد- مع أعوانه ورجاله المسلحين.

أما المعركة التي تمثل مصطفى كمال خير تمثيل فهي معركة صفاريا.

---

(1) جانكايا، ص372.

صفاريا:

إن الغاية من هذه المعركة بالنسبة لليونانيين كانت تجميع جميع قواتهم وحشد كل جهودهم للهجوم علينا وردِّنا إلى الوراء وتشتيتنا ثم التراجع وفقد كل ثمار الهجوم ذلك لأن المهمة التي أخذوها على عاتقهم كانت تفوق طاقتهم.

أما بالنسبة لنا ففي أول الأمر نرى تقهقراً وفوضى في صفوفنا، ولكن بعناد وإصرار الضباط -باستثناء مصطفى كمال- وخاصة الضباط الصغار، وبالثبات والصبر المشهورين عن الجندي التركي يتبدل الموقف ويرتخي موقف العدو، ويأتي النصر بعد ذلك بعون الله ولطفه حيث يضع مصطفى كمال يده على هذا النصر بدون وجه حق.

إن الوقائع التي سنوردها هنا باختصار ستكفي في البرهنة على حقيقة وعلمية هذه النظرة وستكون مثالاً جيداً للنقد الذاتي الذي تمارسه أمة أصيلة في حق نفسها.

وسيظهر هنا كيف أن مصطفى كمال كان مغلوباً وأن الجيش التركي كان غالباً في هذه المعركة.

كان قد مضى على معركة إينونو الأولى ستة أشهر وعلى معركة إينونو الثانية ثلاثة أشهر.

كان اليونانيون قد أعلنوا النفير العام وجمعوا كل قواتهم في الجبهة تحت قيادة ملكهم، بينما لم تكن تركيا تملك في الداخل النظام الذي يستطيع أن يوحِّد جميع قواتها كما أنها كانت ضعيفة جداً من الناحية المادية ومن ناحية التجهيز العسكري والعدة العسكرية.

كان تهيؤ العدو للهجوم النهائي الفاصل واضحاً بكل معانيه.

وكانت الخطة المقابلة عندنا هي ما يلي:

بدلاً من مقابلة العدو المتفوق علينا في العدد والعدة بكامل قوتنا والاندحار أمامه فنفقد كل احتمالات المقاومة بعد ذلك، فإن من الأفضل مشاغلة العدو بقوات صغيرة والانسحاب شرقاً وعدم التردد في التضحية حتى بالموقع المهم لتقاطع الطرق لـ «إسكي

شهر» وبذلك نجعل العدو ينتشر على مسافات بعيدة ونجد الوقت الكافي والفرصة المناسبة لتكوين الجيش التركي ولمّ شعثه وتكملة تجهيزه وجعله مستعداً للهجوم المعاكس.

يتم الهجوم اليوناني... اندحار في صفوفنا... والظاهر أن حسابنا لا يتحقق حتى إن الانسحاب المنتظم لا يتحقق.

لنتأمل المنظر أولاً كما يصوره كتاب «جانكايا»:

«في أيام الاندحار كان الجو مكهرباً جداً في المجلس وكانت الشفاه مطبقة فلم يكن أحد ينبس ببنت شفة ومع أن مصطفى كمال كان يبدو محافظاً على هدوئه إلا أنه كان لا ينام في تلك الليالي فلم يكن يفارق الخارطة الموجودة في بناية مدرسة الزراعة، وعندما كان يذهب في الصباح إلى بيته كان يكتفي بالاغتسال فقط ثم يذهب مباشرة إلى المجلس... كان المجلس على نار، وعندما كان مصطفى كمال يدخل المجلس لم تكن الأنظار تستقبله كما كان في السابق، بل كان يُستقبل أحياناً بأصوات الامتعاض ذلك أن قسماً كبيراً من النواب كانوا يحمّلونه مسؤولية الاندحار. وفي غرفته كان يقول لمن يأتيه مستفسراً: «إن هذه مناورة من الجيش وخطة منه».

من مجموع (70) ألف جندي استطاع (30) ألف فقط الانسحاب إلى شرقي صقاريا في حالة يرثى لها. ولكن اليونانيين كانوا -لحُسْن الحظ- قد توقفوا. وفي أحد الأيام طلب رئيس أركان الجيش فوزي باشا عقد جلسة سرية... كان مصفرّ الوجه وغير حليق الذقن وكان من الواضح أنه لم يعرف النوم منذ عدة أيام... قال لنواب المجلس:

«أيها الأصدقاء! .. إننا نعيش الآن لحظات تاريخية... لقد قاتل جنودنا ببسالة ضد هجوم اليونانيين الذين يفوقوننا جداً في القوة. وقد أصبنا بخسائر فادحة. إننا لا نحارب من أجل مدينة أو منطقة بل نحارب من أجل النصر، وسيستمر جيشنا في الحرب في أكثر المواضع الاستراتيجية ملاءمة، وقد قررنا باسم حكومتنا إخلاء مدينة أنقرة في ظرف هذا الأسبوع، ونقل مركز الحكومة إلى مدينة «قيصري» لذلك نرجو التهيؤ منذ الآن».

ما أن قال هذا حتى قامت القيامة واختلط النازل مع الصاعد إلى المنصة، ولكن النواب كانوا متفقين في نقطتين:

1 – أن لا ندع أنقرة بدون حرب.

2 – معاقبة المسؤولين عن الاندحار بشدة.

اضطر فوزي باشا إلى أخذ مسؤولية الاندحار على عاتقه، صعد إلى المنصة حيث خاطبهم:

– إنني بصفتي رئيساً للأركان أتحمل كل الأخطاء الاستراتيجية للقيادة، وإنني أتقبل منذ الآن أية عقوبة تقررونها، إنني لا أخشى الموت وأتقبل الشهادة بكل رحابة صدر في سبيل أمتي.

ثم جلس في مكانه.

قرر المجلس إرسال هيئة تحقيق إلى جبهة القتال، وقد ذهبت الهيئة ثم رجعت، وبُدِئ باتخاذ بعض التدابير كحفر الخنادق في أنقرة وإرسال النواب بصلاحيات واسعة إلى مناطق أخذ الجنود لإرسالهم إلى الجبهة.

في هذه الأثناء خطرت لبعض النواب فكرة جعل مصطفى كمال قائداً عاماً»[1].

بالرغم من أن هذه الأسطر تعترف بالهزيمة فإن المنظر كما يصوره رضا أنور أكثر فجاعة وهو يحمل خطوطاً ومعاني أخرى.

«في كتاب «الخطابة» اعتباراً من صفحة 337، يتكلم عن حرب صقاريا. لقد عاصرت هذه الحرب وكنت في وسط حوادثها. لقد قرأت هذه الصفحات، فرأيت أنه يمر دون ذكر عدة حوادث مهمة، أما النواحي التي ذكرها فإنه صبها في قالب مختلف تماماً. فهذه الصفحات وثائق ونماذج جيدة على تزييف التاريخ، فكلها أكاذيب في أكاذيب،

(1) ص: 297-298.

فهو يدعي بأن الهزيمة كانت عن علم وأن التقهقر كان حسب خطة معينة للجيش... وهذا كذب واضح، إذن فلماذا تغلب في معركة إينونو من أول الأمر؟

والخلاصة أننا هُزمنا في جبهة «إسكي شهر» و«أفيون» هزيمة شنعاء، حتى إنهم لم يجدوا في غمرة الهرب الوقت الكافي لنسف الجسور والسكك الحديدية أو لم يخطر ذلك على بالهم، ولم يسوقوا قطعان الماشية معهم لذلك فإن اليونانيين استفادوا من هذه الجبهة كثيراً وتغذوا بهذه القطعان في حرب صقاريا، ولو لم تكن هذه القطعان لما استطاعوا البقاء في صقاريا أكثر من عشرين يوماً»[1].

كان الهجوم اليوناني قد بدأ من جهة «أفيون» ولاعتقاد عصمت إينونو بأن هذا الهجوم خدعة، وأن الهجوم الأساسي سيكون على خط «إسكي شهر» فإنه لم يرسل قوات إلى هذه الجبهة، مما سبب في انهيار الجناح الجنوبي لقواتنا وإلى تفكك الجيش على طول هذا الخط، وأن مصطفى كمال يشترك مع عصمت إينونو في هذا الخطأ الاستراتيجي الذي كان هو العامل الوحيد للهزيمة.

ولكون رضا نور ضمن هيئة التحقيق للمجلس والتي أرسلت إلى الجبهة، فإننا نستطيع متابعة ما كتبه باطمئنان أكثر.

«قالوا هناك بأن فوزي باشا قال لهما[2] منذ بداية الحرب بأن الهجوم سيقع من جهة «أفيون» ولكنه لم يستطع إقناعهما... كان عليهما أن يقتنعا. ولقد أثبت فوزي باشا ببعض الخدمات التي قدمها بأنه يفوق مصطفى كمال وعصمت إينونو في الفن العسكري، وقد كان فوزي باشا في ذلك الوقت رئيساً لهيئة الوزراء مع بعض المسؤوليات الأخرى المتعددة»[3].

(1) حياتي وذكرياتي، الجزء الثالث، ص822-823.

(2) أي: قال لمصطفى كمال ولعصمت إينونو.

(3) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص825 - المترجم.

لم تعد القضية قضية تراجع منتظم. ويمكننا أن ندرك مدى فجاعة الحال في الجبهة من إلقاء نظرة على الموقف في أنقرة خلف جبهة القتال. حيث يرسم لنا رضا نور بقلمه صورة الوضع فيها بلمسات مؤثرة وواقعية:

«كانت أنقرة كيوم المحشر، فكان أول من هرب إلى «قيصرى» هو حميد الله صبحي وزير المعارف وكذلك يونس نادي... ومع أن بعض النواب الذين لا يتجاوز عددهم الثمانية أو العشرة هربوا أيضاً، إلا أن الآخرين لم يهربوا، لكن أعضاء الحكومة والموظفين والضباط بدأوا يرسلون عوائلهم إلى «قيصرى».

وامتلأت الشوارع بالعربات وبالخيول والحمير والبقر وبالعربات الزراعية... العربات محملة بالحاجيات والنساء جالسات فوقها على يمينهن قفص وعلى يسارهن، وبعضهن قد علقن بضع دجاجات من أرجلهم... الأطفال يبكون في حجر أمهاتهم... لا أحد يدري ما المصير... المجهول يلف الجميع... كل ما يُعرف هو أن الكافر على الأبواب وأن عليهم أن يهربوا وبأسرع وقت... والحكومة تريد هذا الرجل... العربات قليلة والبعض يستولي على العربات بالقوة ليرسل عائلته بواسطتها... القوي يستولي على ما بيد الضعيف.... والحكومة تحرض النواب للرحيل.

الشوارع والأسواق مملوءة بالناس الذين يتراكضون هنا وهناك.... ومعظم التراكض بدون معنى وبدون قصد ونتيجة للحيرة... ويحمل الكثيرون منهم حاجيات للبيع فمنهم من يحمل مرآة كبيرة يتجول بها ويرغب في بيعها ومنهم من يحمل دولاباً على ظهره وهو غارق في عرقه يبحث عمن يشتريه ومنهم من يحمل بيده أو على كتفه سجادة... الأسعار منخفضة جداً ومع ذلك لا يوجد هناك من يشتري، إذ من يرغب في توريط نفسه؟ الكل عاجزون عن حمل أنفسهم يركضون هنا وهناك في حيرة وعجلة»[1].

(1) المصدر السابق، ص829-830، الجزء الثالث.

أما عن مصطفى كمال فنجد في الكتاب[1] نفسه ما يلي:

«... لم يكن النواب في أنقرة يعلمون أي شيء عن الوضع، ولا يجدون عند مصطفى كمال أي خبر يشفي الغليل... أما مصطفى كمال فقد جمع حاجياته وأخذ يرسلها... نظرت إلى حال المجلس فرأيت أن الحيرة مستولية على الجميع، فلا تجد أحداً يعلم ماذا سيكون المصير، ولا تجد عند أحد رأياً أو اقتراحاً حول ما العمل» ويذهب رضا نور مع هيئة تحقيق المجلس النيابي إلى «بولاتلي» ويلتقي هناك مع عصمت إينونو حيث يحتد في محاسبته على إدارته السيئة للجيش.

«انطلقت الكلمات كسيل متتابع من فمي: «إن الجيش بأكمله يقف ضدك. وأفراده يقولون: إننا ما وصلنا إلى هذه الحالة إلا نتيجة لجهل القيادة وإلا ما غُلبنا. ونحن نطلب قيادة حكيمة... أنت تقول بأن المجلس لا يستطيع أن يعمل شيئاً ضدك، وأنا أقول بأن المجلس يستطيع القبض عليك ويعلقك أمام باب المجلس، فأنت المسؤول عن هذا التقهقر». قال لي: «لست أنا وحدي في هذه القضية، لأنني كنت أنفذ أوامر مصطفى كمال باشا». قلت له: سيعدمونه هو أيضاً»[2].

ولوجود فترة من توقف القتال فإن ما يجب عمله يجب أن يتم حالاً. وهنا تظهر قضية تعيين مصطفى كمال قائداً عاماً. فحسب رواية رضا نور فإنه هو الذي حرّض على تعيينه قائداً عاماً للجيش، وأنه هو الذي قدم اقتراح قانون هذا التعيين في المجلس ووقع إمضاءه قبل الجميع وردّ جميع الاعتراضات، أي بكلمة واحدة هو الذي جعله قائداً عاماً، ولما كانت هذه الحادثة مستندة على ملفات المجلس ومسجلة فيها فإننا نتقبل هذه الرواية ونصدقها، ونضطر كذلك إلى تصديق ذيول هذه الحادثة.

---

(1) المصدر السابق، ص831، الجزء الثالث.

(2) المصدر السابق، ص839، الجزء الثالث.

أما مصطفى كمال فلا يرغب في أن يكون قائداً عاماً، ذلك لأنه يرى أن الهزيمة محققة، لذلك فهو يخشى أن تجرفه هذه الهزيمة وأن يضيع معها.

إن الإنسان لا يتمالك نفسه من الذهول وهو يقرأ الأسطر التالية:

«... وهنا قال مصطفى كمال: إنني لن أقبل أن أكون قائداً عاماً. وعاند في هذا، قلنا له: «كلا! لا تعاند وأقبل» قال: «ما الداعي إلى تعييني قائداً عاماً؟ إنني كنت حتى الآن أدير القتال ولم أنفك عن هذا». فقلت: «كلا! عليك أن تكون قائداً عاماً بشكل رسمي ومسؤول عند ذلك ستبذل جهداً أكبر»... كان كل شيء منتهياً ولم يبقَ هناك شيء يمكن أن يطلق عليه اسم الجيش، وكان مصطفى كمال يائساً تمام اليأس لذلك فلم يكن يقبل القيادة العامة للجيش، ذلك لأن الهزيمة كان مؤكدة في نظره، فلو أصبح قائداً عاماً فإنه سينهزم، بينما كان يدير حتى الآن من خلف الستارة (أراجوزين) اسمهما عصمت وفوزي فإن كانت هناك قضية تحمُّل المسؤولية فإنه يحملها عليهما، وإن كانت هناك قضية فيها مجد وشهرة ادعاها لنفسه، لذلك فلم يكن يرغب في القيادة العامة للجيش بشكل رسمي حيث يصبح فيها مسؤولاً بشكل مباشر، وكان المجلس يحنق على هذا التصرف ثم ازداد هذ الحنق عندما رآه يعاند في عدم القبول ولا يسمع أحداً.

اشتد بي الغضب وصحت به: «حسناً! ما الحكمة من وجودك إذن؟ هل وجدك رحمة للعالمين؟ في أي عمل إذن تستطيع تقديم فائدة؟».

... قامت القيامة... إذ بدأ مصطفى كمال يرسل الشتائم من فوق المنصة ويتوعدني بالويل والثبور ثم قال لي: «إن الهزيمة مؤكدة، وأنت تريد أن تجعلني قائداً عاماً لكي تتلوث سمعتي بالعار». وقد أذهلتني هذه الكلمات حتى كدت أن أجن... من أية طينة هذا الرجل؟ هناك أمة كاملة ينتظرها الضياع وهذا الرجل يفكر بسمعته.... من يستطيع أن يفعل هذا؟ إن الإنسان يخجل على الأقل ولا يتفوه بهذا.. أف... ما أوطأ هذا الرجل وأكثر مصيبتنا معه... السمعة! كأنني كنت أنا الذي هُزمت في سوريا... من هذه اللحظة كرهت هذا الرجل وأصبحت أنفر منه... رأيت أنه أصبح كالكلب المسعور... وكل

واحد يقول شيئاً وهو يدخل في جدال مع كل منهم... الظاهر أن نيته سيئة فقد أحضر معه إلى المجلس حراسه الذين أعطاهم له «توبال عثمان» وهو يعتمد عليهم ويهدد بهم المجلس بشكل خفي وكان كثير من هؤلاء الرجال يتجولون في ممرات المجلس.

تم كل شيء وقَبِلَ جميع اقتراحاتي إلا قضية القيادة فلا تزال بدون حل، ولقد مرت ثلاثة أيام ونحن نحاول معه ولكن لا نستطيع إقناعه بالقبول مع العلم بأن الوقت ضيق... وأخيراً رأى أن المجلس مُصرّ على هذا وأنه إذا لم يقبل هذا لا يبقى أي اعتبار له، ثم إن أكثرية المجلس كانت قد أصبحت ضده منذ عدة اشهر... فجاء إلى المجلس وقدم بشكل رسمي اقتراحه «إن أعطاني المجلس جميع صلاحياته التشريعية والتنفيذية فإنني سأقبل منصب القائد العام للجيش»... عندما سمعت هذا أخذت رأسي بكلتا يدي من دون أن أشعر صائحاً: «يا ويلتاه! ماذا يريد هذا الرجل؟ كيف يكون هذا؟ هل من الممكن إعطاؤه هذا؟ كيف يطلب هذا؟»... لم أكن أعي ما أقول وقد أخبرني من كانوا بالقرب مني هذا فيما بعد»[1].

والآن لندع رضا نور لحظة لنلتفت إلى مصادر المتزلفين لنرى كيف يسجلون الاعترافات التي تدينهم.

يعترف «فالح رفقي» بأن مصطفى كمال رفض قبول وظيفة القائد العام لاعتقاده بأنهم يريدون إبعاده عن أنقرة ويحتج بأنه يريد كل شيء من مكانه في أنقرة. ثم يجمع أمره ويأخذ صلاحيات واسعة ثم يذهب إلى الجبهة.

وبعد أن يمر الكاتب المتزلف سريعاً على هذا النقطة الحساسة ينتقل إلى الكلام عن الجبهة.

«ما أن يصل مصطفى كمال إلى الجبهة حتى يبادر إلى تغيير بعض التدابير التي كانت قد اتخذت سابقاً. كان القتال قد جرى تحت ظروف قاسية جداً وكان ضارياً جداً.

---

(1) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص850-851.

وكانت هذه المعركة معركة الضباط. وقد أخبرني «علي تاشكاپلي» النائب السابق لـ «أفيون» ما يلي:

«عندما كنت في المقر الرئيسي كضابط احتياط رأيت في الصباح الباكر في أحد الأيام مصطفى كمال وهو يتجول في أزقة القرية. سألني مصطفى كمال:

- يا سيد علي! لماذا يبلغ عدد الهاربين مقداراً كبيراً؟ وكم يبلغ عددهم في اليوم الواحد؟

- ألف هارب تقريباً يا سيدي.

- وكم عدد الملتحقين يومياً من وراء الجبهة؟

- ثمانمائة تقريباً.

وبعد حساب قصير يقول مصطفى كمال:

ألفان وخمسمائة في خمسة عشر يوماً... لا يهم كثيراً».

وفي أحد الأيام يتصل «يوسف عزت باشا» بعصمت إينونو ويطلب التحدث مع مصطفى كمال،... يعطي التلفون إلى مصطفى كمال حيث يقول:

- كنت قد طلبتني... تفضل!

- لم تخبرونا بأوامركم السرية... أي لم تخبرونا إلى أي اتجاه نتجه عندما نضطر إلى الانسحاب.

غضب مصطفى كمال جداً من هذا القائد الذي يفكر بالهروب قبل الدخول إلى المعركة وقال له:

- يا باشا... إن أوامري السرية هي أن تدفن عظامك هناك.

وفي هذه المحادثة مع «يوسف عزت باشا» أصدر أمره المعروف بأنه «ليس هناك خط دفاع، ولكن هناك سطح دفاع».

وفي أثناء القتال فتح الأعداء ثغرة خطرة في خطوطنا، وكانت هذه الثغرة تتسع، كان من الضروري سد هذه الثغرة ودفع الأعداء إلى الوراء بالسلاح الأبيض. طلب إرسال قواتنا لاحتياطية إلى ذلك الموقع حالاً فقيل له بأنه لم يبقَ عندنا قوات احتياطية، بل توجد فقط فدائيو «كيره سونلي عثمان آغا» وأفرادها لا يملكون السلاح الأبيض... فقال: «إن كانوا لا يملكون الحربة «السنكي» فعندهم سكاكين، عليهم بالهجوم على الأعداء لطردهم إلى مواضعهم السابقة».

وهكذا فإن هؤلاء الأبطال بسكاكينهم المعوجة دفعوا اليونانيين حتى مواضعهم السابقة.

وفي إحدى المرات تساءل عما يفعل فوزي باشا:

- إنه يقرأ القرآن يا سيدي.

- ادعوه.

وعندما حضر قال:

- إن القائد يحارب بقوات الاحتياط لديه يا سيدي، نحن لا نملك من الاحتياط نفراً واحداً، وكل ما نملك من احتياط هو سمعتكم، لذلك فإنني لا أستطيع شيئاً سوى قراء القرآن والدعاء لحفظ هذه السمعة»[1].

من هذه الأسطر -إذا وضعنا جانباً ثوب البطولة الكاذبة التي تنسب إلى مصطفى كمال- نشاهد مدى الاستخفاف بفوزي باشا الذي يومئون بأنه لم يكن يفعل شيئاً سوى قراءة القرآن، أي الاستخفاف بالقرآن. كما سنرى أن معركة صقاريا -التي لم يقبل مصطفى كمال منصب القيادة العامة فيها إلا بعد جهد جهيد- لم تكسب إلا بفضل الله ولطف منه.

---

(1) جانكايا، ص299-300.

وضمن فضل الله توجد أيضاً -بفضل وكرم من الله- حصة كبيرة للعبد.... إنها حصة المارشال فوزي جاقماق... وحول هذه الحصة نرى حصة الضباط الشباب الذين أحسوا بضرورة استعادة شرفهم العسكري المثلوم وحصة الجندي التركي... ولكن الحصة الرئيسية التي كانت تتعلق بها قضية الحياة أو الممات هي حصة فوزي جاقماق.

وإليكم البيان:

عندما بلغ هجوم الجيش اليوناني ذروته ونهايته دون أن يقطفوا ثماره أو دون أن يبذلوا جهداً أخيراً لنيل ثماره يصدر أمره بالتراجع مع كونه في وضع غالب... وفي هذه الأثناء كان مصطفى كمال أيضاً يصدر أمره بالتراجع كنتيجة وكتصديق للهزيمة التي أصبح مؤكداً منها وهنا يقف أمامه المارشال فوزي جاقماق وهو يصيح به:

- ماذا تفعل؟ اسحب أمركم بالتراجع حالاً.... إن الأعداء يتراجعون.

«لم يكن الهجوم الشديد الأخير لليونانيين على جناحنا الأيسر في «جال» إلا لستر انسحابهم وذلك بعد أن يئسوا من تحقيق أي شيء بعد هجوم دام عشرة أيام... كانوا يهجمون من جهة وينقلون معداتهم الثقيلة إلى غرب صقاريا من جهة أخرى، وقد فَطِنَ إلى هذا فوزي وأسرع إلى مصطفى كمال قائلاً له: «إياك والتراجع لأن الأعداء يتراجعون... اسحب أوامرك بالتراجع». وعلى أي حال أوقف مصطفى كمال التراجع، وهكذا أنقذ فوزي موقفاً كان في غاية الخطورة. فلقد كاد أن يذهب سدى كل البطولات التي أبداها الضباط وكل الدماء التي سالت من آلاف الشهداء وكل الجهود والأموال التي بذلت في إعادة تكوين الجيش، ولقد كاد مصطفى كمال أن يفعل هذا ولكن فوزي حال دون ذلك»[1].

إذن فقد وضح كيف أن الجيش التركي كان غالباً في معركة صقاريا وكيف كان مصطفى كمال مغلوباً فيها.

(1) حياتي وذكرياتي، الجزء الثالث، ص864.

ولكن الزعم المنتشر هو أنه ما أن يصل إلى الجبهة حتى يوقف سيل الفوضى ويحول دون وقوع المأساة ثم يحول ذلك السيل من الهرب إلى سيل للهجوم حيث يصطدم بالأعداء ويرجعهم إلى الوراء... أي إنه هو الذي عمل كل شيء

لا شك أن مصطفى كمال كان يملك على الدوام -بمساعدة إلهية- حظاً شيطانياً، فسواء لدى هذا الرجل أن قَبِلَ منصب القائد العام أم لم يقبل، فإن النتائج عندما تكون سلبية فلا يتغير شيء بالنسبة إليه، وقد رجح عنده حساب ما يكسبه إن كانت النتيجة إيجابية على ما يفقده إن كانت النتيجة سلبية. وهكذا وضع مصطفى كمال يده على النصر الذي أصبح الأساس الذي استند إليه في كل شيء في المستقبل.

بعد أن قوي مركزه بعد الانتصار في معركة صقاريا توقع انكسار قوة المعارضة في المجلس ضده، لذلك فقد حاول بكل جهده الهيمنة على المجلس، ولكن سرعان ما تبين أن توقعه لم يكن في محله، ذلك لأن الجناح الثاني تحامل على نفسه ووقف أمام عصابة مصطفى كمال «جناح الدفاع عن الحقوق» في هذه الفترة.

وبالنسبة للكاتب المتزلف فإن «خصوم مصطفى كمال في مجلس الأمة بدؤوا بإثارة المشاكل حالما بردت فرحة انتصار معركة صقاريا».

إذ كيف يمكن الجمع بين رئاسة المجلس ومنصب القائد العام؟ وإلى متى ستستمر هذه الحالة؟

إن معركة صقاريا كانت معركة دفاع ولكن هل يمكن التحول إلى حالة الهجوم؟

إن معركة صقاريا قد ربحت في لحظة كان كل شيء فيها على شفا الضياع، ولو أن اليونانيين صبروا يوماً أو يومين لكانت تخلية أنقرة قد تقررت، إذن أليس من المناسب الاستفادة من هذا الانتصار غير المنتظر وعقد معاهدة مع اليونانيين؟

ففي أحد الأيام كانت حكومات الحلفاء تقترح بواسطة وزراء خارجيتها عقد هدنة.

كان اليونانيون يوافقون على هذا الاقتراح، أما مصطفى كمال فإنه مع كونه لا يرد الاقتراح بشكل مباشر إلا أنه كان يجيب جواباً يستشف منه هذا، وكان مضطراً إلى هذا، ذلك لأنه لو توصل أثناء الهدنة إلى عقد سلام ولو بشكل ناقص لضاعت منه فرصة هدم السلطنة والتبوء على منصة الحكم. فبالأمس كان المجلس قد طرح فكرة استدعاء ولي العهد «مجيد أفندي» لجعله زعيماً لهم، ولكن عندما جاء الأمير «فاروق» إلى الأناضول بدلاً من أبيه، أُرجع بكل احتقار إلى اسطنبول... وقد كانت هذه الحادثة كافية لمصطفى كمال لبلورة هدفه وتوضيحه.

كان مصطفى كمال يحتاج إلى نصر كامل -حتى وإن أهلَكَ وأفسد أمة بكاملها- وذلك لكي يهدم السلطنة ويجمع في يده هو كل القوة والسطوة.

كان قراره هو أن ينسحب إلى الشرق قدر ما يستطيع، لذلك فإن مقولته المشهورة «ليس هناك خط دفاع ولكن هناك سطح دفاع» ليست إلا قناعاً لقصده هذا. وقد فهم رضا نور جيداً نية مصطفى كمال من الانسحاب أمام الأعداء شرقاً حتى الوصول إلى الحدود الروسية ثم الالتجاء إلى روسيا ونفض اليد عن كل شيء عند شعوره بأي حرج في موقفه.

«كان لا يمل من تكرار قوله: «الانسحاب تدريجياً حتى الحدود الروسية»... ومن الطبيعي أنه كان يفكر في الالتجاء إلى روسيا... ففي كل يوم كان يقول: «سننقل الراية من هذه الرابية إلى الرابية الشرقية»... وهذا يظهر كيف أن كلامه في «الخطابة» إنما وضعه بعد ذلك. ذلك لأنه كان يائساً في تلك الأيام»[1].

ولا ينتبه رضا نور إلى الوثيقة التي تؤكد وتؤيد كلامه:

---

(1) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص568.

في الأيام المشحونة بالخطر في سنة 1921 أتى إلى أنقرة الجنرال الروسي «فرانزا» الذي أوحى إلى مصطفى كمال بكل صراحة فكرة الالتجاء إلى روسيا في حالة عدم إحراز النجاح.

«ثم كان يخاطب أصدقاءه في أنقرة قائلاً لهم: لو فقدتم أنقرة فإنكم تستطيعون الانسحاب قدر ما تستطيعون جاعلين روسيا خلف ظهوركم ومستمرين في القتال»[1].

وبقدر ما كانت مقاومة ومعارضة الجناح الثاني -وبخاصة في موضوع الدين ذلك لأن كل أطوار مصطفى كمال كانت توحي بعداوة الإسلام- صريحة ودون خفاء كانت مقابلة مصطفى كمال تتسم بالخبث وعدم إظهار القصد الحقيقي.

«... لو نال مصطفى كمال النصر إذن لاستطاع أن يلتفت إلى الخلف ليضرب بسيفه على رؤوس الرجعيين، ولكنه كان مضطراً إلى التظاهر بأنه يجلّهم، وقد استطاع بعد جهد جهيد وبعد إيراد المعاذير من هنا وهناك من عدم وضع النصوص المدعمة والضامنة لمؤسسة الخلافة في قوانين «التشكيلات الأساسية». وكما كان خصوم مصطفى كمال يفكرون في كيفية الخلاص منه كان رجال الدين يسعون بكل وسيلة إلى وضع وتأسيس نظام قائم على الشريعة وحدها»[2].

الأخلاق... تلك هي القضية الأساسية... إذ بينما كانت عصور أربعة من التاريخ موضوعة على الميزان لمحاسبتها والنظر إلى محصلتها لذلك فإنه على عكس الأخلاق الرفيعة التي من المنتظر أن يتحلى بها الشخص الذي يتصدى لإنقاذ تاريخ بكامله وإنقاذ الوطن وإنقاذ إيمان وروح الأمة خاصة، فإنهم كانوا يرون أمامها سكيراً غارقاً بين النساء والغلمان في أبشع مظاهر الفسق والفجور ويرون أمامهم رمزاً للتسلط والجبروت، لذلك فإن مصير قضية الأمة كان يسير نحو المجهول.

(1) جانكايا، ص302.

(2) المصدر السابق، ص303-304.

إن مظاهر الفحش سرت حتى إلى جبهة القتال بشكل لم يسبق له مثيل في كل جيوش العالم.

«لم تكن الهانم[1] تبقى كثيراً في أنقرة ولم تكن تعيش مع عدنان، فهي بين الضباط في الجيش، إذ أعطاها مصطفى كمال رتبة «أونباشي»... شيء مضحك! مصطفى كمال وخالد أديب يركضان وراء المظاهر والتهريج. وخالدة تنتقل من خيمة إلى خيمة، وهي متعلقة خاصة بـ (س) إذ لا تدعه أبداً. وهذه الحوادث على لسان الجميع في أنقرة، والنواب يتناقلون مختلف الروايات عنها ويدخلون في النقاش، فبعضهم يقول بأنها زوجة عدنان، والبعض الآخر يقول: كلا! «إذ لو كانت زوجته لما كان اسمها خالدة أديب أي لما كانت تحمل اسم أبيها، فكما كان اسمها خالدة صالح في السابق أي حاملة لاسم زوجها السابق لكان من الواجب أن يكون اسمها خالدة عدنان... إنها عشيقته». والبعض يتحدث عن مغامرتها مع (هـ.ج) ويقول بأن عدنان يعرف بها، وبعضهم يقول بأن عائلة عدنان تبرأت منه عندما تزوج من خالدة، وبعضهم يقول بأن والد خالدة كان يهودياً ويروي كيفية قبوله الإسلام... حوادث وروايات مختلفة... ولكن المهم أن النواب كانوا حانقين من تجوالها بين العسكر.

وفي الجلسة السرية المشهورة التي سبقت معركة صقاريا تكلم عدنان بكلام أعوج، قصد منه التزلف فصاحوا به: «بدلاً من الانشغال بمثل هذا الكلام الأعوج لماذا لا تحضر زوجتك من بين العسكر لكي تدع العسكر يحاربون براحة»... أما عدنان فقد تقبَّل هذه الإهانة ولم يتأثر»[2].

والآن سنلتقي بأشنع مظاهر أخلاق هذا الرجل، التي لا يمكن أن تخطر على بال أحد حتى ولو في الكابوس. فإنه ما أن رجع من معركة صقاريا ظافراً -بعد أن كان مغلوباً- حتى طلب من المجلس مع لقب «الغازي» أربعة ملايين ليرة كمكافأة.

---

(1) الكلام هنا عن خالدة أديب - المترجم.

(2) حياتي وذكرياتي، الجزء الثالث، ص873.

«رجع مصطفى كمال إلى أنقرة فاستقبل استقبالاً حافلاً ومرَّ تحت أقواس النصر... ماذا كان يجري في تلك الجلسات المهمة والآن ماذا يجري ؟!... لقد مات الآلاف، والرجل الذي لم يكن يقبل منصب القائد العام والذي كان متهيئاً للهرب، ومُصدِراً أوامره بالتقهقر، نالَ المجد الآن... إنها الدنيا.

وما أن عاد مصطفى كمال حتى طلب من المجلس لقب «الغازي» ومكافأة له بمقدار 4 ملايين ليرة... وهنا ثار النواب وأخيراً نالَ لقب «الغازي» ولكنهم لم يعطوه أي مبلغ... أي وجه صفيق هذا الوجه... إنه يطلب هذا بنفسه وبلسانه، فإذا تسامحنا عن طلبه اللقب فماذا نستطيع أن نقول عن المبلغ؟... ثم إنه مبلغ كبير... 4 ملايين ليرة»[1].

ثم يتنازل في طلبه حتى يطلب مليون ليرة ولكنه لا يفلح في أخذه.

إن هذه الحادثة التي جرت في المجلس والتي لا يمكن أن تكون كذباً تبين مدى شناعة ورداءة هذه السجية والتي ينشق من النفور تجاهها أردأ الضمائر وأخبثها. إن طلب مثل هذا المبلغ لا يكون من قِبَل قائد تلك الأمة بل يمكن أن يطلبها قائد الأعداء إذا سلَّم خططه وأمن هزيمة جيشه.

إن الابن الذي تبلغ به السفالة والوضاعة إلى درجة مطالبة أمه بأجرة الإنقاذ، لكونه سحب وأخرج خنجراً مغروزاً في صدرها، يبقى بالنسبة لمصطفى كمال تماثلاً للفضيلة وللأخلاق ذلك لأن مصطفى كمال هو الشخص السافل الذي يقدم فاتورة الحساب لأمته لكونه باع لها متاعاً زائفاً -في السوق السوداء- للبطولة. وليس هناك في طول تاريخ الإنسانية وعرضها مثال مشابه لمثل هذا التصرف لا من بعيد ولا من قريب.

وتحدث مسألة منصب القيادة العامة أكبر قسط من المعارضة في المجلس.

«... بعد ذلك بقليل حدثت ضجة كبيرة عند اقتراح تجديد قانون القائد العام.

---

(1) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص869.

حدثني «محيي الدين بهاء پارس»:

- كان مصطفى كمال وأصدقاؤه في جانب، وضياء خورشيد وأصدقاؤه في الجانب الآخر، الأيادي في الجيوب على المسدسات. وبينما كان كل فريق يمشي على الفريق الآخر حسبت أنهم سيقتلون مصطفى كمال في ذلك اليوم لا محالة.

كان مصطفى كمال كمن خسر منصبه كقائد عام، وكان يريد أن يفرض على المجلس رأيه في قضيتين. وكانت هذه القضية إحداهما؛ وقد قال مصطفى كمال:

- إن الجيش الآن بدون قائد، وإذا كنت أنا اليوم أقود الجيش فإنني أقوده بشكل غير قانوني. وأنا مضطر للتهيؤ لمجابهة كارثة قد تقع، فالجيش لا يمكن تركه أمام العدو بدون رأس لذلك لم أترك ولن أستطيع أن أترك وسوف لن أترك القيادة العامة.

إن نية مصطفى كمال كانت هي الاستمرار في وظيفته كقائد عام للجيش سواء أَرَضِيَ المجلس أم لم يرضَ»[1].

هل تلاحظون تعبير: سواء أَرَضِيَ المجلس أم لم يرضَ؟ أي أنه سيبقى على رأس الجيش حتى يحقق غايته سواء أرضيت الأمة بذلك أم لم ترضَ.

وتمر 3 أشهر أخرى وتثار قضية منصب القائد العام مرة أخرى أي في 20 تموز 1922 ... قبل الهجوم الكبير بشهر وستة أيام. وهنا نرى أن لهجته مختلفة كل الاختلاف، إذ يصعد على المنصة ويقول:

«لقد وصلت القوة المعنوية والمادية لجيشنا إلى المرتبة التي تستطيع بها تحقيق الآمال القومية بكل اطمئنان، ولذلك فإنني مقتنع بأنه لم تعد هناك حاجة إلى دوام الصلاحيات الاستثنائية».

(1) جانكايا، ص305-306.

وهكذا يدع المجلس أمام تنازل مفاجئ وغير متوقع حيث يصرح بأن أكبر أمله هو أن يعود إلى صف الشعب لكي يعيش بصفة مواطن بسيط حر.

«... والسعادة الثانية بالنسبة لي وهي إمكانية رجوعي إلى الموقع الذي بدأت فيه بقضيتنا المقدسة. إذ هل هناك في الدنيا من سعادة أكبر من سعادة الرجوع -كفرد حرّ- إلى صفوف الشعب؟ إن العارفين بالحقائق والذين لا يعيرون اهتماماً إلا للسعادة المعنوية والقلبية يعرفون بأن المناصب المادية مهما علت فلا أهمية لها عندهم على الإطلاق»[1].

إن الإنسانية منذ أن خُلقت حتى اليوم لم ترَ مثيلاً لهذا الكذب والرياء والخداع الذي يفوق الأساطير. فهذا الرجل الذي يتعهد بأنه سيرجع إلى صف الشعب -بعد الانتصار الذي تحقق- ويعيش كفرد بسيط والذي يصرح بأن المناصب لا تشكل أية أهمية لمن يتذوق حلاوة السعادة المعنوية... هذا الرجل سيبقى على رأس الأمة التركية مفسداً لها وهادِماً لمعنوياتها حتى ساعة موته في قصور السلاطين في اسطنبول.

ولا يستطيع أحد أن يذكره أبداً بهذا العهد التاريخي الذي داسه تحت قدميه. وفي المجلس وأمام هذه المفاجأة غير المتوقعة وبينما الجناح الثاني في ذهول والجناح الأول على أهبة من الأمر يؤخذ القرار التالي بسرعة:

- ستبقى قائداً عاماً بدون مدة محددة... يحيى القائد العام لجيوش مجلس الأمة المشير والغازي مصطفى كمال.

الهجوم الكبير:

سنتناول الهجوم الكبير باختصار شديد ذلك لأنه لم يعد إلا نتيجة طبيعية وهو حركة عسكرية معلومة الحوادث من أولها حتى نهايتها. ولكوننا لا نكتب هنا تاريخاً عسكرياً ولا نتناول كل التفاصيل المتعلقة بسيرة معينة فإن وظيفتنا تنحصر هنا في إعطاء

---

(1) الخطابة، ص407.

ملاحظات معينة حول بعض النواحي المعنوية والنفسية والأخلاقية في إطار وفي أثناء هذا الهجوم الكبير لاستخراج حكم معين لنتيجة الانتصار.

كان الجيش الأول والجيش الثاني هما الجيشين اللذين دفعا الهجوم الكبير إلى النصر. كان قائد الجيش الأول هو القائد المشهور «علي إحسان باشا» الذي كان قادماً لتوه من مالطة، أما قائد الجيش الثاني فقد كان «شوقي باشا»، هذا بالإضافة إلى قائد الجبهة «عصمت باشا» وإلى رئيس الأركان العامة «فوزي باشا».

لنعطِ لمحة مختصرة:

رسمت خطة الهجوم من قِبَل «علي إحسان باشا» و«فوزي باشا» وبعد أن طُرد «علي إحسان باشا» أتى «نور الدين باشا» إلى مكانه ولكن الخطة بقيت كما هي، وعند التنفيذ اقتصر دور عصمت باشا على التفرج ودور مصطفى كمال على التمثيل[1].

وقد خصص مصطفى كمال في كتابه «الخطابة، ص408-411» 90 سطراً طويلاً للهجوم على «علي إحسان باشا» وتحقيره وإهانته والنيل منه. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كي يستطيع رئيس الدولة والقائد العام والبطل القومي -على زعمهم- أن ينزل إلى هذا المستوى وأن يتكلم عن جنرال تحت إمرته بأنه محب للشهرة وأنه حسود وأناني وعديم الأخلاق وسفيه لا يطيع رؤساءه ولا يشفق على مرؤوسيه وأنه جاهل بالفن العسكري يحني رأسه للعدو ولا يملك شجاعة ولا شرفاً... كيف يستطيع أن يتكلم هكذا طيلة عدة صفحات وبأسلوب رخيص لا يليق إلا بأبناء الشوارع ؟!

ألم يكن من الواجب أن يمر بالموضوع بجملة أو بجملتين وبأسلوب علمي وقور ومؤدب؟!

---

(1) باعتبار مصطفى كمال قائداً عاماً ورئيساً لمجلس الأمة فإنه كان يمثل حكومة أنقرة - المترجم.

إن استعمال مصطفى كمال أسلوباً حاقداً عند كلامه على «علي إحسان باشا» يدل على مدى عدم ارتياحه من شخصيته وهويته إذ إن علي إحسان باشا طُرد من الجيش وسيقَ حتى إلى «ديوان الحرب» لكونه ظهر كمنافس لمصطفى كمال.

حتى إن القائد المتدين والملتحي «نور الدين باشا» الذي عيِّن في الجيش الأول مكان «علي إحسان باشا» -بعد أن رفض «علي فؤاد باشا» و«رفعت باشا» ذلك- ما لبث بعد الانتصار أن تعرض إلى سخط وحقد مصطفى كمال ذلك لأن وجود «نور الدين باشا» على رأس أول جيش يدخل إلى أزمير اعتبر من قِبَل مصطفى كمال ذنباً لا يُغتفر لذلك فقد خصص من كتابه «الخطابة» 12 صفحة كاملة للتهجم على «نور الدين باشا» بأقذر أسلوب وأحطِّه.

إن عقدة مصطفى كمال ضد «نور الدين باشا» كانت أعمق من عقدته ضد «علي إحسان باشا» لذلك لم يستطع التخلص من أسلوب امرأة الشوارع التي تتهجم على جارتها ومنافستها في الحارة وتدعي بأن شعرها وحواجبها وأهدابها وأسنانها وكل عضو من أعضائها مزيف. فهو ينفي عن «نور الدين باشا» كل مزية وكل حسنة، إذ ينفي عنه أنه سيد(1) وأنه تركي ويتهجم على أخلاقه وعلى معلوماته العسكرية إلى درجة أن هذا الإنكار لا يفيد شيئاً سوى تصديق ميزات ومؤهلات نور الدين باشا وإعلان أنه محروم هو من هذه الصفات.

وبعد أن يسرد عدة افتراءات على نور الدين باشا وبعد أن ينسب لنفسه المفاخر يقول: «لقد انتهى العهد الذي كان الشعب فيه يُخدع بكلمات هي خاصة بالطبقات الدنيا أمثال: كربلاء... حفيد الرسول... الإيمان... السيف، القدس».

إن رجلاً يحمل صفة المشير والغازي والقائد العام ورئيس المجلس النيابي التركي ثم يحاول إهانة قائد تحت معيَّته وبهذه الصورة القبيحة يدل على صغار في النفس لا يوجد

(1) أي: ينفي عنه أنه من أحفاد الرسول ﷺ - المترجم.

له مثيل في كل تاريخ الحروب في العالم. وهو دليل قاطع -يقدِّمه مصطفى كمال بنفسه- على مدى انحطاط أخلاقه.

أما عن كاظم قره بكر الذي لعب دور المنقذ لمعركة الاستقلال بالقوات التي جلبها معه من الشرق فنجد الأسلوب نفسه من تهوين شأنه[1].

ولا أدري هل يمكن لمن يدخل في نقاشات محمومة مع قواده حول:

«... كلا أنت لم تفعل، بل إنني أنا الذي فعلت» هل يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون بطلاً للأمة؟

وبهذا لا تبقى هناك حاجة للبحث عن وثائق خارجية حول عدم كون مصطفى كمال البطل الذي حقق الانتصار في معارك الاستقلال، ذلك لأن نسبة البطولة إلى شخص ما يجب أن تتسم بالبداهة والوضوح، لذلك فإن محاولته لنسب كل شيء إليه ومحاولته لتقليل والتهوين من أمر من كانوا في معيته ترفع عنه حق البطولة وتدعه إلى مجاهيل التاريخ. ولو أن فوزي وعصمت لم يكونا ألعوبتين في يديه ولو أنهما حاولا نسب أي شيء مهما كان صغيراً لأنفسهما لأصبحا هما أيضاً في قائمة الجهال وعديمي الأخلاق الراكضين وراء الشهرة والأنانيين وعديمي القابلية بل خونة كذلك، ولقُدِّما بهذه الصورة من قبله.

وتأملوا هذه المرتبة الأسطورية من الرياء والتزلف:

«إن هذا الانتصار تحقق من قِبَل القائد العام مصطفى كمال بالرغم من مجلس الأمة وبالرغم عن الحكومة وبالرغم عن قواد الجيش»[2].

---

(1) نزيد فنقول: إن هذين القائدين من الأفذاذ، إذ قادا جبهة العراق في الحرب العالمية الأولى تجاه الإنكليز بمهارة، ولكن ضعف إمكانيات الدولة آنذاك وتدخل الخبراء الألمان أجبرهما على التقهقر من بعد انتصارات رائعة - المصحح.

(2) جانكايا، ص311، سطر: 15، 16.

إن انتصاراً يحققه شخص ما وبالرغم عن مجلس الأمة والحكومة وقواد الجيش الذين عينهم بنفسه ليس انتصاراً بل هو خداع، إن مثل هذا الادعاء لا يشكل مديحاً بل يكون ذماً ذلك لأنه لا يوجد في الدنيا مثال واحد لانتصار يتحقق لرئيس دولة رغماً عن مجلسه النيابي ورغماً عن حكومته ورغماً عن قواده، ذلك لأن وقوع مثل هذا الحادث محال.

إن معركة الاستقلال -التي كان في وسع أي جنرال اعتيادي أن يرسم خططها- إنما ربحها الجندي التركي دفاعاً عن شرفه وعن وطنه وبإطار من الغيرة الدينية. أما ثمرة النصر فإنها قطفت واستغلت من قِبَل مصطفى كمال الذي حرص أشد الحرص على أن لا يدع أحداً غيره يتجرأ في الاقتراب من هذه الثمرة أو ادعاء أي فضل له فيها.

إذن فقد دخل مصطفى كمال إلى العهد الذي أصبح فيه جميع المتزلفين والانتهازيين الذين جمعهم حوله يهتفون جميعاً وبصوت واحد بأنه: «الشخص الخارق الذي استطاع أن يحيي الأمة التركية من العدم».



@iAbubader

الفصل الخامس

عهد الجمهورية

بعد الانتصار:

إن الكُتّاب المتزلفين الذين استعبدت أرواحهم والذين لا تنفع الجمل التي يكتبونها إلا في اتهام صنمهم ومعبودهم، وإلا في نزع أقنعته الزائفة، يقدمون لنا على الدوام أجلّ خدمات المعونة في إثبات دعوانا.

على أثر الانتصار وعلى أمل الحصول على غنيمة من أي نوع كان يسارع الثنائي «يعقوب قدري» و«فالح رفقي» إلى أزمير، حيث يصف فالح رفقي المشهد التالي:

«كان أول شيء فعلناه هو الذهاب إلى فندق «كرامر» حيث استطعنا أن نجد بعد جهد جهيد غرفة في الطابق العلوي وضعنا فيها حوائجنا.

كان الفندق مملوءاً بالمسيحيين المليين والأجانب، وكما قيل لنا فإن مصطفى كمال عندما دخل المدينة زار هذا الفندق، ولكونه لا يحمل رتباً ولا نياشين ولعدم وجود جنرالات وضباط يتراكضون من حوله فإنه ما أن دخل الصالة المملوءة حتى أخبره الجرسون بأنه لا يوجد مكان خالٍ... ولكن أحد الزبائن عرفه وما أن هتف:

- مصطفى كمال... مصطفى كمال.

حتى تداخل الزحام في بعضه... وكان من المحتمل أن ينسحب الجميع لولا أن قال مصطفى كمال بأنه يرجو منهم عدم إقلاق راحته ثم جلس مع مرافقيه حول إحدى المناضد، ويتراكض إليه الجرسونات والمدير ومدير الفندق حيث يطلب منهم كأساً من العرق لكل من جليسيه ثم يسأل:

- هل جاء الملك قسطنطين إلى هذا الفندق وشرب كأساً من العرق؟

- كلا يا سيدنا الباشا !

- إذن فلماذا أراد احتلال أزمير؟

ثم أمضى إحدى ساعاته الهانئة هناك منذ أول دخوله إلى أزمير»[1].

إن هذه الأسطر التي تقطر حمقاً بقدر ما تقطر سفاهة تصور لنا بأن الغاية من الانتصار كانت لقرع كؤوس العرق في أزمير، ولما كان الملك قسطنطين لم يأتِ إلى الفندق نفسه ولم يشرب العرق فإن احتلاله لأزمير ينتقد لكونه بدون داعٍ وبدون سبب.

إننا لا نستطيع إلا أن نبدي حيرتنا وذهولنا أمام تقييم يربط حركة احتلال العدو وحركة التحرير بأكملها -على الأقل من باب الذوق والدافع- بكأس من العرق.

وبعد مدة يسيرة تخصص له لطيفة هانم -التي نكبت فيما بعد بالزواج منه- بيتها في «عشاق زاده» حيث تستقبل ضيفها في الباب دون أن تدري ما يخبئه لها القدر من مصائب.

أزمير تشتعل باللهب.

حرائق في كل مكان، حتى يمكن القول بأنه لم يبقَ هناك مكان لم تسرِ إليه النار.

(1) جانكايا، ص324-325.

بالإضافة إلى إصبع الأرمن في هذه الحرائق فإن نور الدين باشا -الذي يهاجمه مصطفى كمال في كتابه «الخطابة»- يتهم فيها، ذلك لأنه كان قائداً غير مرغوب فيه ويخشى في كل وقت أن يقوم بلعبة وبحركة ضد مصطفى كمال.

وكان طبيعياً أن يتعرض نور الدين باشا إلى هجوم الكاتب المتزلف بعد أن تعرض -كما رأينا- إلى هجوم مصطفى كمال:

«كان شخصاً مغروراً ضيِّق الأفق ميالاً إلى التسلط والظلم».

وفي صفحة (325) من الكتاب نفسه لا يدري الكاتب وهو يستمر في إطلاق سيل كلمات النفور والكراهية... لا يدري بأنه يمدحه دون أن يدري:

«ما إن تم الانتصار في «أزمير» حتى ظهرت هناك مشكلة اسمها مشكلة «نور الدين باشا»، إذ إنه ما أن دخل «أزمير» هذا الشخص (الذي لا يملك إلا أصغر حصة من هذا النصر) حتى طبع البطاقة الشخصية التالية:

«نور الدين باشا: فاتح أزمير، والمنتصر في معارك «أفيون» و«دوملوبنار» ومحاصر الكوت والعمارة».

وكان المفتي أول شخص يقابله بعد دخوله إلى أزمير وقد أودع لديه وصية معينة، إذ أوصاه ببناء جامع وبناء قبر فخم له، فإذا مات الفاتح فإنه سيُدفن هناك. كما كان المفتي ينوي طبع رسالة يقدم فيها هذا الزعيم الرجعي الملتحي والمتكبر إلى جميع الرجعيين في تركيا».

ثم هدنة «سودانيه».

وفي 28 تشرين أول 1922 الدعوة إلى مؤتمر الصلح... والشخص المقترح لرئاسة الوفد المتوجه إلى مؤتمر الصلح هو عصمت باشا، إذن يجب أن يُعيَّن في منصب يناسب هذه الصفة الجيدة، لذلك يعين وزيراً للخارجية.

وفي المجلس يسود جو من الاعتقاد بأن النصر قد تم وأن الأمور قد دخلت إلى دور القضايا السياسة، لذلك فإن من الأفضل العودة إلى الإدارة المدنية، كما يمكن ربط

هذه الإدارة بالباب العالي في اسطنبول. ولكن مصطفى كمال الذي تعهد عند تعيينه الأخير كقائد عام بأنه سيرجع مواطناً عادياً إلى صف الشعب حالما يتحقق النصر عرف كيف يثبت نفسه بشكل لا يمكن لأحد أن يزعزعه من مكانه. وهو لن يكتفي بالبقاء وبالقبض على زمام الأمور بل سيقلب نظام الإدارة الذي دام 600 سنة، هذا النظام الذي وحَّد شمل المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها لكي يجلس هو وحده على الخرائب المعنوية المتبقية.

«كان المعارضون في المجلس قبل 1 تشرين الثاني لسنة 1338هـ/ 1922م يشيعون بأنني سوف أقوم بإلغاء مقام السلطنة».

ثم يقول مصطفى كمال بأنه تباحث مع رؤوف بك ومع رفعت باشا وعلي فؤاد باشا فرآهم يؤيدون الخلافة والسلطنة، وفجأة يصرح ما كان يفكر به في ذلك الوقت.

«وعندما حان الوقت لم أتردد في تنفيذ النقطة الأساسية التي كان واجبي العام يحتمه عليّ، وعندما قررت الفصل بين السلطنة والخلافة والقيام بإلغاء السلطنة كخطوة أولى...»[1].

وقد كانت أول بادرة من مصطفى كمال في طريق إلغاء السلطنة هي رغبته في معاقبة أعضاء حكومة اسطنبول -التي كانت فرحة بالانتصار الذي تم والتي كانت تتوقع تحركاً سياسياً موحداً- بقانون «الخيانة الوطنية»، وحسب التقارير التي قدمها أعوان مصطفى كمال فإن دولة جديدة كانت قد ولدت وأن هذه الدولة ستحكم حسب قانون «التشكيلات الأساسية» أي أن السلطة انتقلت إلى الأمة وهذا يعني إلغاء السلطنة.

وفي هذا التقرير الذي نشاهد فيه 80 توقيعاً كان هناك توقيع واحد يختصر جميع التواقيع: الغازي م. كمال.

---

(1) الخطابة، ص418-419.

«في يوم (1) تشرين الثاني لسنة 1338هـ/ 1922م تعرضت المسألة نفسها في اجتماع المجلس لمناقشات طويلة لذلك رأيت ضرورة إعطاء بيان مفصل في المجلس، إذ برهنت -مستنداً على التاريخ التركي والإسلامي- على إمكانية فصل السلطنة على الخلافة. وبرهنت مستنداً على الوقائع التاريخية على إمكانية فصل الخلافة عن السلطنة وعلى إمكانية تمثيل مجلس الأمة التركي الأعلى لمقام الحاكمية والسلطنة الملية، وقلت بأن الخلافة انتهت فعلياً في الدنيا عندما قام هولاكو بإعدام الخليفة المعتصم، وبينت أنه لولا أن السلطان ياووز -عندما فتح مصر عام 924هـ- أعطى أهمية لشخص لاجئ - يحمل لقب خليفة لما استمر عنوان الخلافة حتى يومنا هذا»[1].

تأمل!

تأمل كيف أنه يبدأ من قضية السلطنة وكيف أنه من الممكن فصلها عن الخلافة، أي كيف أن من الممكن إلغاء السلطنة مع المحافظة على الخلافة... مع أنه يبدأ هكذا إلا أن القصد الحقيقي هو الخلافة، والخلافة فقط. ولما كان من المستحيل إلغاء الخلافة والمحافظة على السلطنة فإن القصد متوجه إلى مقام الدين وهذا هو قصده الوحيد وذلك لجعله موضوع مساومة مع العالم الصليبي ... وهذا ما سنتناوله قريباً.

وأخيراً تحال القضية إلى هيئة مكونة من لجان من «التشكيلات الأساسية والشرعية والعدل» حيث تدافع اللجنة الشرعية عن «أن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها» وحسب تعبير مصطفى كمال: «بالاستناد إلى السفسطة المعهودة» ... أما مصطفى كمال الذي كان قد أخذ للأمر عدته فإنه يطلب من رئيس الهيئة حق الكلام ثم يصعد على إحدى الكراسي ويصرخ:

«إن هذا أمر محتم، إن موضوع بحثنا ليس هو هل ندع الحاكمية والسلطة للأمة أم لا؟ لأن القضية هي في تسجيل أمر واقع، وهذا لا بد أن يكون. إنني أرى أن من

(1) الخطابة، ص42.

المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا وأعضاء المجلس وكل واحد على اعتبار هذه قضية طبيعية، ولكن إذا حدث العكس فإن هذا الأمر سينفذ أيضاً وفي إطار المجرى الطبيعي، ولكن من المحتمل أن بعض الرؤوس ستقطع»[1].

هل رأيتم مستوى تعامله وتصرفه مع ممثلي الأمة ومع واضعي القانون مع أنه يدعي أن: «السلطة للأمة» ؟!! يجمد الجميع لدى سماعهم الجملة الأخيرة.

الخوف على الحياة فكل من غلب حبه للحياة إيمانه أحنى رأسه وأمضى وثيقة الكفر، وهكذا يصدر قرار الهيئة المشتركة على مرام مصطفى كمال.

وإليكم هذا البيان ممن قام بهدم أسس أكبر دولة إسلامية على سطح الأرض.

«... هُيئت لائحة القانون بسرعة، وقُرئت في الجلسة الثانية للمجلس في اليوم نفسه وعندما اقترح وضع اللائحة للتصويت عليها مع بيان الأسماء[2] وقفت على المنصة معترضاً وقائلاً:

«لا حاجة لذلك، ذلك لأنني أعتقد بأن المجلس الموقر سيوافق بالإجماع على الأسس التي سوف تحفظ إلى الأبد استقلال الأمة والوطن».

... ارتفعت الأصوات قائلة: «التصويت»! ... وأخيراً وضع الرئيس اللائحة للتصويت ثم قال: «قبلت اللائحة بالإجماع» ولكن سمع صوت نشاز «إنني أعارض» ولكن هذا الصوت اختفى بين الأصوات القائلة «لا يُسمح بأي كلام!»... وهكذا أيها السادة جرت آخر صفحة من صفحات انهدام وانقراض السلطنة العثمانية»[3].

كان هذا هو ما تلقاه السلطان البائس وحيد الدين من الرجل الذي أرسله إلى الأناضول والذي قال له: «يا باشا! إنك تستطيع إنقاذ الدولة»... وهذا ما أصابه بعد 3

(1) الخطابة، ص422.

(2) أي بيان أسماء الموافقين أو المعترضين عليها – المترجم.

(3) الخطابة، ص422.

سنوات من الانتظار في غرفته الخاصة متابعاً حرب الاستقلال ليل نهار على خارطة مجسمة للأناضول واضعاً عليها إشارات الأعلام وداعياً لها من كل قلبه (كما يشهد بذلك ياوره الصدر الأعظم توفيق باشا زاده نوري بك الذي لا يزال على قيد الحياة)... وهذا هو ما أصاب هذا السلطان الذي نبَّه قواته المتوجهة لحرب جيش «القوات الملية»[1] - والذي ما رضي بهذا إلا لتمويه قوات الحلفاء- بأن لا تبدي أية مقاومة حقيقية وأن تتقهقر من أول ضربة، والذي لم ينحرف أبداً إلى استخدام قوات الأعداء.

أما كون أن قوات الخليفة تلقت أمراً من الخليفة نفسه بأن تندحر أمام مصطفى كمال فهو ثابت من هذه الأسطر من مذكرات «كلج كمال» الذي كان أحد فدائي مصطفى كمال (صفحة 39):

«... بعد الانتصار بوقت طويل سأل مصطفى كمال صبحي باشا قائد قوات الخليفة عندما جاء إلى محطة أنقرة لاستقباله:

- كيف استطعت أن تقبل تلك الوظيفة؟ فتلقى هذا الجواب:

- لكي أندحر أمامك».

وفي هذه الحالة كان من الطبيعي أن يخشى على نفسه العاقبة التي تعرض لها «كنج عثمان» وكذلك قيصر روسيا[2]، لذلك فإنه عندما طلب من الإنكليز حمايته -وهو الذي لم يخدم في أي يوم من الأيام آمال الإنكليز- وترك الوطن فإنه كان مضطراً وإن كنا لا نعذره في هذا.

وفي «الخطابة» يصف مصطفى كمال حالة هذا الاضطرار النتيجة الذي كان هو سبباً فيها، يصفها بـ «الدناءة» ويقول في حق من كان في يوم من الأيام ياوراً له:

---

(1) كان هذا هو اسم الجيش الذي تشكل في الأناضول والذي تزعمه مصطفى كمال - المترجم.

(2) المعروف أن (كنج عثمان) وكلك (قيصر روسيا) قُتلا شرَ قتلة بعد الإطاحة بهما - المترجم.

«كان شخصاً واطئاً وسافلاً ودنيئاً وذليلاً وقد جاء إلى الحكم نتيجة لنظام وراثي سقيم»[1].

ولو كان وحيد الدين موضوعنا هنا لكان من الممكن أن نقف أكثر على موضوع براءته ومظلوميته ولكن لما كان موضوعنا هو مصطفى كمال بشكل مباشر فإننا اكتفينا هنا بتناوله من جهة شناعة سلوكه مع السلطان الضحية وحيد الدين.

ولم يكن تأييد مصطفى كمال للسلطنة ثم للخلافة نتيجة اجتهاد فكري خالص وبنية خالصة، بل كان هذا التصرف منه مثالاً رهيباً للدناءة، لأنه استغل وظيفته -التي رضي بقبولها- كسلاح شهره في وجه سيده وذلك طمعاً في الوصول إلى شرف ومجد ذلك المنصب.

فإذا أضفنا إلى هذا فجيعة أنه ضحّى بالخلافة أثناء مساومته للإنكليز لكان من المحتم علينا إطلاق صفة على مصطفى كمال قد لا توجد حتى في القواميس.

وهذا ما سنتناوله الآن.

لوزان:

بعد شهرين من الانتصار أُلغيت السلطنة، وبعد 20 يوماً من إلغاء السلطنة عُقد مؤتمر الصلح في لوزان في سويسرا. كان رئيس الوفد التركي لهذا المؤتمر والممثل الأول له هو «عصمت باشا»، أما الممثل الثاني فهو الدكتور «رضا نور»... كان الأول وزيراً للخارجية وكان الثاني وزيراً للصحة... ثم هناك ممثل ثالث لم يكن ذا أهمية وهو الخبير المالي «حسن صقا».

إن الغرب لم يكن يهمه إذا كانت السلطنة قد أُلغيت أم لم تُلْغَ... ولكن الذي كان يهم الغرب -أو بالأحرى يهم الإنكليز الذين كانوا يمثلون الغرب ويمثلون كل شيء-

---

(1) الخطابة، ص423-424.

كان شيئاً آخر وإن كان مرتبطاً مع السلطنة... هذا الشيء كان شيئاً حيوياً جداً بالنسبة لهم: الخلافة.

فالقضية الحيوية الأولى بالنسبة للإنكليز كانت تنحصر في هدم مقام الخلافة الإسلامية التي كان لها على الدوام تأثير روحي ومعنوي ملحوظ -بالرغم من الضعف الذي أصاب هذا التأثير من الناحية السياسية- على جميع المسلمين الذين كانوا يمثلون الأكثرية في مستعمرات الإمبراطورية الإنكليزية التي لم تكن الشمس تغيب عنها... وكانت فرصة هذا الهدم والقدرة عليها قد انتقلت إلى يد مصطفى كمال.

وحتى ذلك الحين لم يكن هناك أي اتفاق بين مصطفى كمال وبين الإنكليز حول مسألة الخلافة ولكن كانت هناك مراقبة صامتة -عن بُعد- بينهما، إذ منذ أن أهدى وسلم الممر إلى الجنرال «اللنبي» مما مكنه من ضرب الجيوش التركية في سوريا، أصبح مصطفى كمال في نظر الإنكليز عنصراً يمكن كسبه إلى جانبهم وتوجيهه إلى الهدف المراد في كل وقت. ثم إن بُعده عن الدين وعدم كونه تركياً وكونه من أسبق الناس إلى التقليد الأعمى للغرب -والذي بدأ تياره يقوى منذ عهد التنظيمات- وأكثرهم حرصاً على هذا، وكونه لا يعرف في الحياة معبوداً سوى نفسه... كل هذه الصفات كانت تشكل نقاطاً ممتازة في صالح مصطفى كمال لدى المراقبين السياسيين الإنكليز.

ولكن الإنكليز لم يكونوا على علم بالسياسة ذات الأوجه الثلاثة التي بدأ يلعبها مصطفى كمال (بعد تسلمه الوظيفة من وحيد الدين) مع السراي ومع البلاشفة ومعهم كذلك.

فحتى وصوله إلى مركز القوة فإن سياسته مع السراي كانت على أساس أنه يكافح القوات الاستعمارية الغربية لتخليص الدول ذات التاريخ العريق الممتد على ستة أعصر وأنه يحاول بذلك إنقاذ الدين وإنقاذ الأمة.

أما سياسته من البلاشفة فكانت قائمة على أساس أنه يحاول إقامة سد يستر روسيا ضد الإمبريالية الغربية.

أما سياسته مع الإنكليز فكانت قائمة على أساس أنه صديق قديم لهم وأنه شخص يتوقع منه على الدوام بوادر طيبة، وذلك لتأمين عدم تدخل الإنكليز ضد تحقيق غايته وجعلهم على أمل دائم طيلة مدة المعارك تأميناً لعدم قيامهم بأية حركة ضده، هذا علماً بأن الأمل الذي كان يريد الإيحاء به إلى الإنكليز كان أمله هو نفسه.

ومع هذا فإن الإنكليز لم يكونوا مطمئنين تماماً من جانبه، لذلك فإنهم كانوا يثيرون السراي ضده، ولكن لكونهم لم يفقدوا الأمل بشكل نهائي منه، فإن محاولاتهم ضده لم تكن تتسم بطابع الشدة ولا بطابع ينهي كل شيء وتقتلعه من جذوره وإلا فإنهم كانوا قادرين على إرسال لواء واحد أو لوائين إلى الأناضول من جنود الاحتلال أثناء معركة «صقاريا» لينهي كل شيء دفعة واحدة، هذه النقطة مهمة جداً وتعني أشياء كثيرة، حتى إنها تفتح الباب إلى احتمال كون مصطفى كمال متفاهماً مع الإنكليز ومعطياً تأمينات معينة لهم.

كان الإنكليز يرغبون تصفية مسألتين هامتين مع الأتراك وهما:

1- إلغاء الخلافة وذلك لإنهاء سلطة الخليفة (سواء كانت موجودة آنذاك أم لم توجد، ولكنها تحمل على الدوام احتمال الظهور والوجود) على المسلمين الموجودين في المستعمرات الإنكليزية.

2- بعد اقتطاع البلدان العربية من جسم الإمبراطورية وظهور منابع النفط اقتطاع لواء الموصل ومنابع النفط فيها من تركيا.

كانت المسألة الأولى مسألة معنوية وسياسية أما الثانية فمسألة مادية اقتصادية وكان كل منها يحمل قيمة دولية كبيرة، لذلك فقد كان على الأتراك -لكي يحصلوا على اعتراف باستقلالهم في المؤتمر- أن يضحوا بهاتين النقطتين الحيويتين وإلا فإن الصلح سوف لن يتم ولسوف تدفع بريطانيا العظمى اليونان المثخنة بالجراح إلى جولة أخرى من معركة الثأر ثم تظهر هي بجيوشها وراء اليونان.

إن بلداً خرج مغلوباً من الحرب العالمية بعد أن خسر إمبراطورية كاملة (نتيجة لظروف تمتد إلى عدة عصور) وهو أمام احتمال فقدان وطنه كذلك، لذلك فإن من

الطبيعي أن لا يخطر ببال الإنكليز أن مثل هذا البلد يمكن أن يكون مستحقاً للاستقلال لمجرد أنه تغلب على دولة ضعيفة كاليونان.

كانت هذه هي خطة الإنكليز، وكما يتطابق المفتاح مع القفل فإن هذه الخطة كانت متطابقة ومتوافقة مع خطة مصطفى كمال.

ولكن بيع الوطن بهذا الشكل... بيعه روحياً ومادياً... كيف سيتم؟ هل سيأتي العرض من البائع أم من المشتري؟ وكيف؟

وكما يقترب متبارزان بخطوات متساوية من بعضهما فإن القضية سوف تسوى وتحل بإرشاد بعض كبار اليهود الذين كانت لهم علاقات مشتركة مع الجانبين.

هذا هو الوجه الحقيقي لمؤتمر «لوزان» نسجله مقدماً.

والآن لنأتِ إلى بحث القرائن والأدلة التي إن جمعت مع بعضها فإنها تكتسب قوة الإثبات:

لقد سبق أن قلنا بأن الشخص الثاني في وفد تركيا والذي كان يأتي بعد عصمت باشا كان رضا نور.

وكما هو معلوم فإن رضا نور خصم كبير لمصطفى كمال ولن يستطيع أحد أن يجد أساساً فكرياً لهذه الخصومة، ذلك لأن جذور هذه الخصومة تكمن في كون رضا نور قومياً تركياً. والقومية قد تكون عاطفة psychology ولكنها ليست على الإطلاق فكرة idea ... وبالإضافة إلى هذا فإنه كان ينفر من سفالة أخلاق مصطفى كمال، وهذا أيضاً لا يرقى إلى أصالة العداوة الفكرية بل يبقى ضمن اشمئزاز كاشمئزاز شخص من جيفة، أما حق الاشمئزاز الكامل فيكون لشخص منتسب إلى مذهب ما وبالأخص يعود هذا الحق إلى «المسلم»، أما رضا نور فهو غير المسلم[1]، لأنه يفخر بأنه غير متدين وقد كان في كثير من

(1) المقصود غير ملتزم بالإسلام فكرةً وعملاً وإلا فإن رضا نور مسلم ومن والدين مسلمين - المترجم.

الأمور مع مصطفى كمال، مثلاً في إلغاء السلطنة، إذ إنه أيّد إلغاء السلطنة ولكنه يعود بعد ذلك -وبصورة مضحكة- إلى تأييد فكرة الإبقاء على مقام الخلافة بعد تجريد هذا المقام من قوة تمثيل الدولة ومن كل حول وقوة أي تحويل الخلافة إلى ما يشبه البابوية. والخلاصة أن مثل القائل: «إن الله يسلط الكلب على الخنزير» ينطبق على رضا نور ومصطفى كمال اللذين كانا من طينتين متقاربتين.

ورضا نور هذا بينما ينتقد مصطفى كمال في كل شيء نراه لا ينبس ببنت شفة في موضوع شروط الصلح، وبما أنه يملك امتياز وجوده ضمن الوفد، أي أن من المفروض أنه يعرف كل شيء أكثر من غيره فالظاهر أنه لا يعرف شيئاً عن تفاصيل هذه الخطة أو أنه يتظاهر بهذا وقد يكون فعلاً غير ملم بها وذلك لكون كل شيء يتم حسب المخابرات السرية التي كانت تجري بين مصطفى كمال وعصمت، لذلك إن ما يقدمه لنا رضا نور من عناصر للحقيقة -دون أن يشعر بها- عند تسجيله ما يعلمه من مباحثات مؤتمر الصلح يعتبر في مقام الحجة عندنا، ذلك لأن رضا نور لم يتخذ مباحثات المؤتمر وسيلة هجوم على مصطفى كمال لذلك فإن ما يذكره لا يشوبه حقد أو غضب أو خيال ولهذا نستطيع تتبع صفحات ومراحل المؤتمر من رضا نور بكل طمأنينة نظراً لحتمية صدقها:

نرى في المؤتمر قبل كل شيء ما يؤيد دعوانا من جهة الشك، إذ نجد أن المؤتمر قد مرَّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: كان الطرفان فيها يتصارعان دون أن يدري طرف ميول ونيّة الطرف الآخر، لذلك فإنهما اضطرا إلى قطع المحادثات دون الوصول إلى نتيجة، وهذه المرحلة الأولى التي كانت تدار من قِبَل دماغ السياسة الإنكليزية «اللورد كيرزون» كانت تتسم بالحركة والحيوية وبالصراع الحاد، وكان من الواضح أن الوضع ميؤوس منه، وأنهم لا يفكرون في الاعتراف بانتصار الأتراك وبحقهم في الوجود والاستقلال.

أما في المرحلة الثانية فإن كل شيء، وبشكل فجائي يحل بسرعة البرق وكأن هناك اتفاقاً سرياً قد تمّ، لذلك فإن المحادثات تجري بشكل يخلو من الحركة ومن الحيوية ولا

تتجاوز بعض القضايا التكتيكية والسياسية، ولتأكد اللورد «كيرزون» بأن القضية أصبحت في جيبه فإنه لا يتنازل بالاشتراك في المؤتمر هذه المرة، بل يرسل الوزير «روميولد» لتمثيل إنكلترا، ولتغطية موقف التفاهم أو -وهذا هو الأرجح- لعدم معرفته بأي شيء فإن «روميولد» لا يدع إهانة لم يوجهها إلى ممثلي الوفد التركي تعبيراً عن نفوره من الأتراك، وبالرغم من هذا فإن الوفد التركي يبتلع هذه الإهانات بكل ذلة وينهي مهمته ويرجع إلى بلده وعلى رأسه أكاليل الغار.

وقد يكون في هذا الكفاية لوضع علامات الشك حول مسألة لم تجرِ عليها التحاليل المختبرية بعد، ولم تُفحص بشكل كافٍ.

والآن لنقدم وثائقنا:

لننظر أولاً إلى درجة خضوع مصطفى كمال إلى مطالب الإنكليز وذلك بالنظر إلى التعليمات التي أصدرها في أنقرة إلى ممثلي الوفد التركي للمؤتمر وذلك بعد إحساسه بوجوب ترك الموصل إلى الإنكليز لكي يؤمن الاعتراف بدولته ولكي يحصل على الصلح الذي يطلق حرية حركته في تركيا.

«جذبني مصطفى كمال مع عصمت إلى أحد الأركان حيث قال لنا: «هذه هي أسسنا فإذا رأيتم أنكم لا تستطيعون أخذ «تراقية» وأنهم قد تراجعوا عن وعودهم فلا تصروا بل اتركوها وحققوا الصلح، بل قد يجب التضحية حتى باسطنبول أما حول الموصل فلا تحاولوا شيئاً بخصوصها»... كانت هذه هي التعليمات الشفوية لمصطفى كمال، وقد ذهلت من كلامه، ذلك لأن قضايا اسطنبول وتراقية كانت قضايا قد تمت وفُرغ منها، لا أدري بماذا كان يفكر هذا الشخص؟»[1].

«كانت هناك ثماني دول، وكانت تمثل أكبر شعوب العالم، أما نحن فكنا وحدنا، وكانت هذه الدول تحاول إرغامنا على قبول كل شيء، كما كان من الواضح أن إنكلترا

(1) حياتي وذكرياتي، ج3، ص982

كانت مسيطرة على هذه الدول إذ إن كل شيء كان يتم من قِبَل «اللورد كيرزون» الذي كان يُرغِم الجميع على القبول، أي إن إنكلترا كانت هي المسيطرة الوحيدة على المؤتمر، أما الباقون فلم يكونوا سوى «ديكورات» وممثلين ثانويين حسب إشارة إنكلترا»[1].

ثم هاكم أحد اليهود الذين تمت خطة الاتفاق بدلالتهم:

«... كان هناك شيء يجلب الانتباه حقاً، فقد كان «سالَم salam» مستشاراً للإيطاليين، وقد كان هذا اليهودي مشهوراً تحت اسم «ماتر سالم» المعروف وقد كان من يهود الدولة العثمانية وكان أحد أعضاء إدارة بنك «سلانيك» في اسطنبول، وهو من مدينة «سلانيك». وقد كان يهود هذه المدينة يدخلون في ذلك الوقت في الجنسية الإيطالية، فهم من جهة من رعايانا ومن جهة أخرى هم من رعايا إيطاليا بشكل سري، وقد كان اليهودي المشهور «قره صو» هكذا أيضاً. ثم إن اليهود كانوا يملكون في كل جيب جوازاً. كان «سالم» ذكياً فهو يعرف التركية ويجيد الفرنسية ويملك معلومات واسعة حول القانون أي أنه كان شخصاً قديراً. وقد كان من أقرب أصدقاء «طلعت»[2] وموضع ثقته. وقد كان طلعت يخبره بأهم شؤون الدولة ويطلب رأيه، وهذا هو الرجل نفسه الذي أمامنا في مؤتمر لوزان في صفوف أعدائنا. فكم كان مبلغ جهل وغفلة طلعت والاتحاديين عندما كانوا يدعون أسرار الدولة عند أمثال هؤلاء، لأنه كان ينقل هذه الأسرار حالاً إلى الإيطاليين وحتى إلى الفرنسيين، ذلك لأن «سالم» كان على اتصال وثيق بجميع المحافل المالية في باريس وكان آلة في أيديها، وقد استطاع بفضل هذا أن يجمع ثروة كبيرة، وحتى إذا غضضنا النظر عن الماضي ولكن كيف يسمح لمثل هذا الشخص أن يذهب إلى أنقرة بعد كل هذا؟ إذ إنه ذهب إلى أنقرة حيث أنجز أعمالاً مالية كثيرة مثل تمديد حق امتياز البنك العثماني»[3].

---

(1) المصدر السابق، ص983.

(2) طلعت باشا أحد الأركان الثلاثة لحزب الاتحاد والترقي وهم: أنور باشا، طلعت باشا، جمال باشا – المترجم.

(3) حياتي وذكرياتي، ص1034.

ولما كان من غير الممكن إدراج قضية الخلافة كمادة من مواد التفاوض وبحثها هناك فإن قضية الموصل تبقى هي القضية الوحيدة المستعصية التي يجب التوصل فيها إلى اتفاق.

«... ولنعد ثانية إلى موضوع حديثي مع «كيرزون»:

كنت لا أفتأ أذكر له قضية الموصل، وكان وهو يتكلم يذرع الغرفة متوكئاً على عصاه، وأخيراً اقترب مني وهو يضحك وقال بهمس: «موصل... موصل... ماذا ستفعلون بها؟ بقربكم سوريا... خذوها.. إن ضربة واحدة تكفي». وقد سرني هذا كثيراً، ... إذن فإنه يثق بي إلى درجة أنه يصرح هذا التصريح الخطير، ويقترح عليَّ أن نأخذ سوريا من فرنسا... فرنسا الصديقة الحميمة كما يصفونها دائماً والتي بقيا معاً خمس سنوات في النار والدم!

ولم أعجب لهذا، ذلك لأنني كنت أعرف هذا منذ سنوات الهدنة عندما كنت في مصر إذ إن الإنكليز كانوا قد شكلوا من السوريين جماعات فدائية وكونوا جماعات مسلحة لأنهم كانوا يريدون طرد الفرنسيين من سوريا، ولم تكن الحركات التي قام بها الدروز مؤخراً إلا من ترتيب صريح في هذا الخصوص، فهناك منافسة استعمارية في البحر الأبيض المتوسط بين الإنكليز والفرنسيين تمتد إلى قرن ونصف قرن. حتى إن الإنكليز حاربوا الفرنسيين معنا عندما احتل نابليون مصر وسوريا وانتهى الأمر بطرد الفرنسيين وقد كان نابليون يرغب في التوجه إلى الهند بعد سوريا، لذلك فإن وجود الفرنسيين في سوريا يعني بالنسبة للإنكليز أن الهند في خطر، وها أنا أقول من الآن بأن من المستحيل أن يدع الإنكليز الفرنسيين في سوريا، فمن المؤكد أنهم سيطردونهم منها في يوم من الأيام».

وتطرح قضية الموصل على الدوام لما تحمله من أهمية بترولية وأهمية استراتيجية.

«... كنا نعتقد من البداية بأن الإنكليز إنما يرغبون في الموصل من أجل بترولها وكنا نظن بأننا إن أعطينا امتياز البترول إليهم فإننا نستطيع أخذ الموصل، ولكن كيرزون لم يقبل بهذا أبداً، كنا لا نزال نصر، ثم قال كيرزون بأن قضية الموصل لا علاقة لها بمسألة البترول، وقد كرر الإنكليز هذا الكلام على الدوام، وقد أصر كيرزون خاصة على هذا

الأمر... شيء محير حقاً، فقد كانت هذه هي القناعة العامة، ليست عندنا فقط بل عند الآخرين أيضاً، أما الإنكليز فقد كانوا يدعون العكس... لم أفهم والسلام، والظاهر أن هناك سبباً آخر وهو كون الموصل منطقة استراتيجية فالذي يأخذ الموصل يأخذ بغداد، وذلك لعدم وجود أية جبال أو مواضع يمكن اتخاذها كمواضع دفاع بينهما»[1].

وفي هذه الأثناء تفكر أنقرة وكذلك عصمت في إرسال بعضهم إلى لندن في مهمة حمقاء وهي عرض امتياز النفط للإنكليز للحصول على الموصل... شيء مضحك... ذلك لأن الإنكليز كانوا قد استولوا على الموصل كلها، وهذه الحادثة تسبب في إشعال غضب اللورد كيرزون.

«... لم يستطيع هؤلاء أن يحصلوا على شيء في لندن، بل على العكس فإن كيرزون أرسل لنا رسالة له يقول فيها: «أنتم تريدون أن تتخطوني وتحاولون التفاهم مع مراجع أخرى، إن هذا عمل شائن، ذلك لأنني أنا المكلف بتسوية هذه الأمور، وقد أنيطت بي هذه المهمة، ولا يستطيع غيري عمل أي شيء... أنا أستطيع فقط»... كانت لهجته متعالية، إذ كان واثقاً من نفسه، وقد قلت لعصمت «هل اكتفيت؟»».

... كيف لا أقول هذا وقد كنت قد أصررت كثيراً على عدم إرسال تلك الهيئة. وقد ذكر «كيرزون» هذا في الجلسة العامة كذلك (صفحة 295) [2] وقال: «إن الأتراك قد أرسلوا إلى لندن من يعرض إعطاء امتياز البترول، وقد رجع هؤلاء السادة بسرعة ذلك لأنهم علموا على التو بأنه لا يمكن إنجاز أي عمل بدون علمي» ثم سخر قائلاً: «إن شاء الله سأصحبهم أنا لأريهم متاحف لندن». ذلك لأن عصمت كان قد ذكر في جواب له على رسالته تلك بأن هؤلاء الأشخاص لم يذهبوا إلى لندن من أجل البترول بل من أجل زيارة المتاحف... كان هذا شيئاً صبيانياً ولم تثمر هذه المحاولات إلا في إعطاء كيرزون فرصة للهزء والسخرية.

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1035.

(2) الظاهر أن هذا رقم صفحة ضبط سجلات المؤتمر - المترجم.

والخلاصة أن قضية الموصل لم تنتهِ بالمفاوضات الخصوصية حيث إن كيرزون أودعها إلى اجتماع اللجنة الأولى، وقد حاولنا كما حاول الإنكليز إثبات دعاوينا بذكر الخصائص السكانية والقومية وغيرها لولاية الموصل، وقد ضم الإنكليز عدد الأكراد كما ادعوا بأن التركمان ليسوا أتراكاً لذلك فقد سجلوهم في موضع آخر مستقل (ص280 وما بعدها) وقد قمت بكتابة مذكرة سجلت فيها المعلومات التاريخية حول هذا الموضوع حيث قام عصمت بقراءتها على اللجنة.

وقد اقترح كيرزون حل قضية الموصل بواسطة التحكيم، واقترح عصبة الأمم كحكم، وهددنا لكي نقبل بهذا التحكيم أي إن القضية دخلت في إطار التهديد والقوة، ولما كانت كل الدول الأخرى مثل فرنسا وإيطاليا واليابان... إلخ، ذيولاً لإنكلترا فإنها كانت توافق على جميع مقترحات إنكلترا، وما أن أتم كيرزون كلامه حتى طلب «پومپار» الكلام حيث بدأ بتهديدنا أكثر من كيرزون»[1].

وبينما كان الإنكليز يخفون في صدورهم رغبتهم في إلغاء الخلافة فإنهما كانوا من جهة أخرى يظهرون تعصبهم المسيحي وذلك بإصرارهم على بقاء بطريركية الروم في اسطنبول، وما كانوا ليتأخروا عن التصريح برغبة الكنيسة الإنكليزية في فرض هذا الأمر حيث يقول «نيكلسون» الذي كان مرسَلاً من قِبَل «كيرزون» إلى «رضا نور» ما يلي:

«... قام رئيس أساقفة «كنتبري» بتقديم مذكرة إلى الحكومة في لندن باسم جميع الكنائس في إنكلترا. أي إن القضية لم تعد قضية بطريركية الروم بل أصبحت قضية حزبية وحكومية في إنكلترا. فالكنيسة تقول: «يجب تأمين إبقاء البطريرك في اسطنبول بأي حال من الأحوال، وإذا لم تنجح الحكومة في تحقيق هذا فإننا سوف لن نعطيها أصواتنا في الانتخابات القادمة». وقد كتبت الحكومة إلى كيرزون طالبة منه هذا بصورة حتمية. إن الانتخابات في إنكلترا تكاد تنحصر في يد الكنائس، ولو فشل كيرزون في تحقيق هذا الأمر لسقط هو ولسقط حزبه ولسقطت الحكومة... لهذا فهو يرجو منكم».

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1147-1148.

وهكذا بينما كانت المرحلة الأولى تعيش في هذه الأجواء وتتناول القضايا الثانوية وتبتُّ فيها كانت القضية الأساسية والجوهرية تبقى معلقة على الدوام ويصعب الوصول إلى اتفاق حولها. وأصبح الجو منذراً باحتمال توقف المؤتمر، وأخيراً يقدم «كيرزون» مشروعاً يصفه بأنه نهائي ويعطي مهلة قصيرة للرد عليه... أما أطوار وتصرفات وسلوك وزير خارجية إنكلترا فمتعالية ومتعجرفة.

«أعطونا هذه المهلة، وكان «اللورد كيرزون» يقول: «إنني مضطر للرجوع إلى «لندن» فهناك أعمال ضرورية تنتظرني... لا أستطيع البقاء هنا» فقلنا له: «اذهب وسنحل مع الباقين القضايا المعلقة» وبردٍ حاسم قال لنا: «لا يمكن في غياب الإنكليز وخاصة في غيابي عمل أي شيء». وأخيراً أعطونا مهلة حتى 4 شباط وأضاف كيرزون «وفي هذه الأثناء سأتصل مع الأتراك اتصالات خاصة»... وهكذا انتهت الجلسة.

والحقيقة أن كيرزون كان يلعب بمهارة... كان هذا هو الجزء الرسمي... ومن طرف آخر كان هناك جو وديكور غير رسمي آخر وجو آخر من الألاعيب السياسية... جو مشحون بالشائعات المختلفة وبالتهديدات التي خلاصتها هي أن الحرب ستندلع من جديد إن لم يقبل الأتراك، ومع أن كيرزون قال في خطبته بأنهم ينفرون من الحرب، إلا أنه لم يتوان في التلويح بالحرب سواء في الجلسة أو في خارج المفاوضات. وقد سبق أن لعبوا لعبة التهديد بالحرب بضع مرات، والآن يعيدون اللعبة نفسها.

في هذه الأثناء تكررت بصورة أكثر لقاءات ممثل أميركا «جايلدن» مع عصمت.

انتهت الجلسة ورجعنا إلى الفندق فكان أول ما قاله لي عصمت:

- لنوقع على هذا المشروع يا رضا نور.

اعترضت بشدة. حيث دار بيننا هذا النقاش:

هو: أخشى أن نفسد كل شيء.

أنا: لا تخف... كن شجاعاً... لن يحدث شيء.

هو: أخشى أن نفسد كل شيء... إن من الضروري أن نحصل على السلام بأي حال من الأحوال»[1].

ويتوقف المؤتمر...

يرجع المندوبون إلى بلدانهم، ويرجع الوفد التركي إلى أنقرة دون تحقيق أي شيء حيث يلتفون حول مصطفى كمال... الوضع ينذر بإمكانية الحرب مع إنكلترا، ولكن لا يبدو على مصطفى كمال أي مظهر من مظاهر القلق، فالظاهر أنه كان يدبر شيئاً، فقد كان يريد أولاً أن يقوي وضعه الداخلي وأن يشكل مجلساً نيابياً يتألف من رجاله، فإن نجح في هذا فإن حل بقية الأمور تكون سهلة حسب حساباته.

وقد أثارت الطرق الملتوية التي سارت بها مفاوضات الصلح والعقبات التي اعترضتها غضب المعارضين في المجلس. إذ ظهر بأنه مقابل التضحية بالسلطنة التي ذهبت بلا مقابل فإنه ما من أحد يرغب في الاعتراف بتركيا الجديدة أو في تأييدها، وهكذا بدأ «علي شكري» نائب «طرابزون» -الذي كان من زعماء المعارضة وضابط ركن في البحرية سابقاً- بإرسال الكلمات من فوق منصة المجلس دون أن يخشى ذكر أي شيء.

وفي هذه الأثناء تجري عملية اغتيال «علي شكري» وخنقه من قِبَل «طوبال عثمان» الذي كان أحد فدائيي مصطفى كمال وطوع بنانه دون أن يدري حقيقته ودخيلة نفسه.

تقوم القيامة في المجلس... ففي الجلسة الثالثة من السنة الرابعة لتأسيس المجلس يصعد على المنصة السيد «حسين عوني» من أعضاء الجناح الثاني ويصرخ:

«يا كعبة الأمة!... أإعتداء عليك أيضاً؟ ويا عرض الأمة وشرفها!... أإعتداء عليك أيضاً؟ ويا مقدسات الأمة! أإعتداء عليك أيضاً؟ (أصوات تعلن لعنتها... هذه الأمة لن تموت... الفكر لن يموت... المبادئ لن تموت»...

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1147-1148.

إن لسان النائب وقلمه إنما هو شرف الأمة وعرضها، لتقطع تلك الأيادي التي تمتد بالاعتداء على هذا الشرف (أصوات منددة وساخطة).

... إن هذا شرف الأمة وفضيلتها...

... إن الاعتداء لم يقع فقط على أصدقائنا بل وقع على شرف الأمة.

... أيها السادة ! إن أمثال هؤلاء الخالين من الشرف يجب أن لا يعيشوا، ليسقط أمثال هؤلاء (أصوات: يسقط... يسقط)... يجب أن لا يعيشوا... وأن لا ندعهم يعيشوا... فليسقطوا أيها السادة.

حسين عوني (متابعاً): أيها السادة ! إن السيد علي شكري مفقود منذ يومين...

أيها السادة إن نائباً لأمة عريقة ذات تاريخ مجيد وشرف مصان.. إن نائباً يُفقد ولكن الحكومة لا تستطيع العثور عليه... إنه مفقود منذ يومين، ولكن الحكومة عاجزة عن العثور عليه (أصوات: لا توجد حكومة بهذا الشكل... اللعنة).

كانت هذه أشبه شيء بالصرخات التي أطلقها مجلس الثورة الفرنسي وهو يرسل (روبسبير) إلى الإعدام، وكانت تحدث لأول مرة في تركيا.

ويقع مصطفى كمال في قلق كبير... إذاً ماذا يحدث لو قُبض على «طوبال عثمان» واعترف قائلاً: «لقد قتلته بأمر من الغازي»... وهكذا تتعاون طبيعته التي تميل إلى الغدر مع رغبته في التخلص من شقي مثل «طوبال عثمان» في ترتيب قتله مع (7-8) من رفقائه رمياً بالرصاص في قصر جانكايا، وبهذا يحاول طمس معالم مقتل علي شكري.

ولكن المجلس في غليان... لهذا فإن مصطفى كمال كان يحتاج إلى مجلس مؤلَّف فقط من رجاله الذين كانوا طوع بنانه، وإضافة إلى هذا فإنه كان بحاجة إلى مثل هذا المجلس لإمرار شروط الصلح (صلح لوزان) وإظهاره بأنه مقبول من الأمة.

وبينما كان القاتل الحقيقي وقاتل إرادة الأمة منغمساً في ملذاته في قصر «جانكايا» فإنه كان بمقدوره أن يعمل أي شيء بهذا المجلس المهزوز الذي بلغ مستواه النفسي إلى حد

اتخاذ قرار بتعليق جثة «طوبال عثمان» على أعواد المشنقة[1]... وإذا استثنينا بعض النواب فإن المجلس كان مؤلفاً من الجناح الأول الذي كان عبداً لمصطفى كمال، ومن الجناح الثاني المحروم من الشجاعة والإقدام والمستعد لإعطاء التنازلات... لذلك فإن مصطفى كمال كان يعلم بأنه إن أقدم على حل مثل هذا المجلس وأتى برجاله هو، فإنه يكون قد أنهى كل معارضة وصفى كل شيء بشكل نهائي.

إليكم قصة حل المجلس من رضا نور:

«جاءت مسألة حل المجلس بعد حادثة جريمة قتل «علي شكري». إن مصطفى كمال يقدم سبباً آخر لهذا الحل في كتابه «الخطابة» مع أنني أعلم ظروف هذه المسألة تمام العلم، لأنني كنت المتقدم بهذا الاقتراح في بيته في ذلك المساء... كانت هذه مهمة ثقيلة على نفسي، ولكني تقدمت بهذه الفكرة لوجود قضية الصلح أمامنا التي كانت قضية حياة أو موت، بينما كانت المعارضة في المجلس بشكل غير معقول.

جمع مصطفى كمال مجلس الوزراء في بيت رؤوف حيث فرض عليهم فكرة إلغاء المجلس كما استقدم الهيئة الإدارية للحزب، وقد اعترض هؤلاء ولكنه استطاع في ظرف بضعة أيام من أخذ موافقتهم بعد أن استعمل أسلوب التهديد معهم. ثم استقدم جميع الأعضاء حيث أجبرهم على القبول بشتى الطرق ذلك لأن حل المجلس كان يستلزم صدور قرار من المجلس بهذا الخصوص حسبما كانت تنص عليه قوانين «التشكيلات الأساسية» أما الجناح الثاني فقد كان مصدوماً بشدة بعد «طوبال عثمان» إذ داخلهم الخوف والذهول ورأوا أنهم إن لم يوافقوا فإنه من المحتمل أن يكون مصيرهم كمصير عثمان لذلك فقد وافقوا بكل سهولة، وهكذا حُلَّ المجلس وأُعطيت الأوامر لبدء انتخابات جديدة حيث شكل مصطفى كمال هيئة للانتخاب وعينني أنا كذلك فيها، وكان فيها أيضاً يونس نادي، وقد حضرت اجتماعاً أو اجتماعين للهيئة، ولكني عندما رأيت أن

(1) بعد أن قتل (طوبال عثمان) رمياً بالرصاص علقت جثته على أعواد المشنقة بقرار المجلس النيابي - المترجم.

القضية ليست سوى مهزلة في مهزلة فإنني انقطعت عن الذهاب إليها ولم أقربها بعد ذلك».

وفي الدول الدكتاتورية عندما ينظر الحزب الواحد إلى المرآة فيتهم بأنه يرى أمامه صورة الشعب، لذلك فإنه يرى أن من حقه أن يقيم نفسه نائباً عن الشعب وناطقاً باسمه فإن مصطفى كمال ينشئ «حزب الشعب» بهذه الذهنية نفسها... هذا الحزب الذي استمر طيلة 27 عاماً[1] بؤرة للجبروت والتسلط والكفر.

وهنا يحدث ما يحدث.

وقبل أن يحدث هذا الشيء يخرج مصطفى كمال لجس نبض الشعب حول نوعية الصلح الذي يريده وعما يفكر فيه من ناحية الخلافة، حيث تشمل سياحته المنطقة التي توجد فيه مراكز المدن التالية: أرميت، بورصة، باكك كسير، أزمير، وهو يشرح سبب هذه السياحة في كتابه «الخطابة، صفحة 429».

«... لمعرفة رأيهم في مؤتمر لوزان ونتائجه، وفي سلطة الأمة ومقام الخلافة وأوضاعها وعلاقاتها»..

ما الداعي إلى نبش مسألة الخلافة في وقت توقف فيه المؤتمر، ورجع المندوبون إلى بلدانهم وأصبح التفكير في ماهية العمل الذي يجب القيام به؟.. كأن الصلح كان مرتبطاً بمسألة الخلافة !! (وقد كان كذلك في الواقع).

ما الداعي إلى نبش هذه المسألة في هذا الوقت بالذات؟!

---

(1) استمر حزب الشعب في الحكم حتى سنة 1950 حيث جاء الحزب الديمقراطي إلى الحكم تحت زعامة عدنان مندريس وجلال بايار ولا يزال هذا الحزب موجوداً في تركيا وزعيمه الآن هو «بولند أجويد». والظاهر أن المؤلف يعتبر الأعوام من تشكيل الحزب حتى فشله في الانتخابات عام 1950 هي سنوات تسلطه وتجبره، ذلك لأنه بعد (1950) أصبح أحد الأحزاب الموجودة في تركيا وليس الحزب الوحيد - المترجم.

وفي تلك الأيام قام أحد النواب المسلمين وهو الشيخ شكري بتأليف رسالة بدأ بتوزيعها في كل مكان وعلى أعضاء المجلس النيابي تحت اسم «الخلافة الإسلامية ومجلس الأمة العالي» ويصل هذا الخبر إلى مصطفى كمال أثناء سياحته تلك.

وقد صدق حدس الشيخ شكري وأصدقائه وعرفوا نية مصطفى كمال وما كان يتهيأ له لفتح باب الصلح الذي انغلق بسبب انقطاع محادثات الصلح، لذلك فقد فضلوا أن يسبقوه بالحركة لذلك فقد قاموا بمحاولة لإيضاح كيف أن الخلافة يجب أن لا تمس.

في الرد الذي أورده مصطفى كمال في «الخطابة، صفحة 432» على هذه المحاولة تظهر نيته على حقيقتها في ذلك الظرف الدقيق وكيف أن القضية كانت استعداداً لتقديم تنازلات للخارج أكثر من كونها قضية داخلية إلى درجة قد لا تدع حاجة لى وثيقة أخرى:

«إن الشيخ شكري وأصدقاءه المغرمين بالسياسة بدل أن يظهروا غايتهم السياسية ظهروا وكأنهم يتناولون قضية دينية تهم العالم الإسلامي كله، ولكن هذه المحاولة لم تعطِ نتيجة سوى الإسراع في إنهاء لعبة الخلافة».

ودون أن يدرك كيف أنه يعطي وثيقة خطيرة لكل عين ذكية، فإنه وبحجة تهيئة الشعب في وقت يُبحث فيه عن مفتاح لإعادة فتح أبواب المؤتمر يقول ما يلي مظهراً نيته الحقيقية:

(الصفحة نفسها):

«... ولقد أوضحت للأمة كيف أن دولة تركيا وشعبها القليل النفوس لا تستطيع أن تكون رهن إشارة خليفة يفترض فيه أنه مكلف بتأسيس دولة إسلامية شاملة، وأن الأمة لا يمكن أن ترضى بهذا».

وقبل هذا بقليل كانت هذه الأسطر التالية:

«... ولكي أزيل تردد وقلق الأمة حول مسألة الخلافة فإنني قمت في كل مكان بإعطاء إيضاحات وبيانات كافية، قد قلت بشكل قطعي بأنه سوف لن يسمح لكائن من

كان مهما كان عنوانه بأن يتدخل في مقدرات الدولة الجديدة التي أنشأتها أمتنا أو في صلاتها أو في استقلالها».

لو لم تكن قضية الخلافة مرتبطة بمؤتمر لوزان فلماذا إذن أصبحت قضية يجب إثارتها في تلك الظروف؟ لماذا تأخذ خمس صفحات كاملة من «الخطابة»؟ (من صفحة 429 حتى صفحة 433).

... المجلس يجدد، وينظم حزب الشعب وتلغى السلطنة.

... وبينما الشخص العاجز الحامل لقب الخليفة منزوٍ في ركنه في اسطنبول...

وفجأة تثار قضية الخلافة... ما الداعي إلى إثارة هذه القضية ؟!

إن التفكير في أجوبة هذه الأسئلة يكفي لتحقيق ولتصديق نصف الشكوك ولكننا لن نلقي بالاً إليها ولن نكتفي بها بل سنتمم وجهة نظرنا بتقديم الأدلة للحوادث التي تعاقبت بعد ذلك.

وكما قلنا سابقاً فإن كل ما يحدث يحدث آنذاك... نعم آنذاك. إذ تأتي الشخصية اليهودية المعروفة «حاييم ناعوم» كبير حاخامي اليهود إلى أنقرة من اسطنبول، كما أن «ماتر سالم» الذي ظهر في لوزان كمستشار للإيطاليين -وقد كان في الحقيقة من عملاء الإنكليز- فهو أيضاً في أنقرة، وهو يحاول تمديد امتياز «البنك العثماني» بسرعة، وكما هو معلوم فإن البنك العثماني كان يمثل دور المندوب السامي للرأسماليين الإنكليز والفرنسيين في تركيا.

كان «ماتر سالم» من وراء بنك سلانيك ولكنه كان يأخذ على عاتقه جميع قضايا الاستغلال والامتصاص الاقتصادي للرأسمال الأجنبي في تركيا وكان عليه أن يقوم بإدارة الجو السياسي وتسييره، ولكن الدور الأساسي في موضوع الصلح كان قد أعطي إلى كبير الحاخامين حاييم ناعوم.

يتم الاتصال مع مصطفى كمال على الفور، واستناداً على ميوله المعلومة تقدم له الخطة التالية:

إن إلغاء الخلافة وترك الموصل للإنكليز شرطان ضروريان للاعتراف باستقلال تركيا وحقها في الحياة.

والآن... وبعد أن كانت كل الطرق مقطوعة نرى أن الضباب ينقشع فجأة ويظهر طريق الحل في المرحلة التالية، ولو تتبعنا المرحلة الثانية للمؤتمر في رضا نور بهذه النظرة لشاهدنا بكل دهشة وذهول كيف يتضح كل شيء وكيف يجلس كل شيء في مكانه.

«... وفي هذه الأثناء ظهر على المسرح حاييم ناعوم كبير حاخامي اليهود، وقد قرأنا بياناً له نشره في إحدى الجرائد الباريسية، وكانت خلاصة بيانه هي: «ليس هناك شيء يدعو إلى القلق، إن عصمت صديقي وطوع أمري. سأذهب إلى هناك وسأرتب كل شيء» ثم وصلت برقية منه إلى عصمت يقول فيها: «إنني في الطريق إليكم... لقد رتبت الأمور... عندي لكم أخبار مهمة... حذار أن تقطعوا المحادثات».

... مع العلم أننا كنا قد طردنا اليهودي من لوزان، ولكنه لا يخجل ويكتب هذا.

... طبعاً لا يخجل لأنه يهودي... ضحكت... انظر إلى نفاق هذا اليهودي.

... ماذا يصرح للجريدة ثم ماذا يقول لنا... إذ يظهر للجريدة بأنه يخدم الفرنسيين ثم يتظاهر بالنسبة إلينا بأنه يريد أن يخدمنا... إنه يهودي بحق وحقيق...

وبينما كنا أنا وعصمت منير وآخرون جالسين جاءنا الحارس يقول: «جاء ناعوم أفندي وهو يرغب في رؤيتكم» فصحت أنا بعصمت: «لا تتكلم أنت بشيء. ودع هذا الأمر أنا أعرف كيف أتصرف مع هذا اليهودي الخنزير».

ثم قلت للحارس «دعه يدخل»... دخل الغرفة فقلنا له: «اجلس» فجلس... قلت له: «ماذا عندك من الأخبار؟»... ولكنه يهودي... فالظاهر أنه عندما كان ينتظر في الممر سمع كلامي لذلك فإنه قال «لا شيء! جئت فقط لأزوركم» ولو لم أكن محتداً لاستغرقت في الضحك، ولكني أعجبت بمهارته، وهذا ما أذهب عني حدتي، فاليهود هكذا دائماً مثل المطاط ينسحب أينما تجره»[1].

(1) حياتي وذكرياتي، ص1158.

ثم بدأ سيل إعطاء التسهيلات والمغريات إلى إنكلترا وإلى العالم الغربي وكأنهم يقولون لهم: «لقد تركنا الإسلام ودخلنا إلى طريق التشبه بكم... فاحمونا». وهذا ما قاله رضا نور الذي سبق أن أشرنا إلى أنه كان يشبه مصطفى كمال من ناحية بُعده عن الدين.

«... وبهذه المناسبة أذكر حادثة معينة: لقد كنت أول من تلفظ بهذه الكلمة في جلسات مؤتمر لوزان إذ قلت: «إن تركيا أصبحت علمانية، وقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا ما تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية»...

وكلامي هذا مسجل في محاضر الجلسات. وقد قلت هذا من أجل الدفاع عن مصالحنا في لوزان وقد كانت هذه من أهم نقاط الارتكاز والاستناد التي كنا نستند عليها في لوزان. وقد سبق أن وضعت شرط فصل الدين عن الدولة في التقرير الذي وضعته عن إلغاء السلطنة، وهذا الفصل هو أساس العلمانية»[1].

ومع هذا فإن كل شيء كان يتم بين مصطفى كمال وبين عصمت فقط وبصورة سرية جداً، وبالرغم من هذا فإن رضا نور كان يؤيدهما في موضوع الدين.

«حتى هذا الجزء القليل من المخابرات الذي وجد طريقه للنشر يوضح المخابرات السرية التي كانت تجري بين مصطفى كمال وعصمت حول هذا الشأن ويوضح كيف أن مصطفى كمال يدعو عصمت إلى متابعة هذا الأمر، أي كان يدعوه إلى تجاهل الحكومة الشرعية وعرض المعلومات على سلطان الإدارة الاستبدادية[2]. وكانت الحكومة تغضب من هذا الوضع وقد عبرت عن هذا الغضب ولا شك أنها كانت محقة في هذا الأمر، لذلك فإن تصرف عصمت كان شائناً»[3].

والآن جاء دور أهم الوثائق:

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1188.

(2) يقصد مصطفى كمال – المترجم.

(3) حياتي وذكرياتي، ص1249.

بعد أن أتم «اللورد كيرزون» في لندن طبخ المسألة مع الزعيم اليهودي اعتبر الاشتراك في المؤتمر أمراً لا يليق به، لذلك بعث «رومبولد» بدلاً منه، ومن المحتمل جداً أن «رومبولد» كان لا يعرف هذا السر الخطير للدولة، لذلك فلم يكن عليه سوى تنفيذ الأوامر التي يتلقاها من «كيرزون». ولكن «رومبولد» يتخذ طوراً بعيداً عن هذه المسألة إما لعدم معرفته بها «وهو الأرجح» وإما «وهذا احتمال ضعيف» لإخفائها وسترها، فيبدو وكأنه مكلف بإفشال المؤتمر إذ لا يدع فرصة للإساءة إلى الوفد التركي أو إهانته ومعاملته بكل خشونة إلا فعلها، ولكن بما أن الأمر كان قد سوّي بين لندن وأنقرة، لذلك فإن الوفد التركي يتحمل هذه المعاملات الخشنة والإهانات لكي لا يدع هناك وسيلة أو سبباً لانقطاع المؤتمر. ولكنهم لا يفهمون السبب الذي يدعو هذا الشخص المدعو «رومبولد» لاصطناع كل هذه الصعوبات والمشاكل.

... هل في نيته إفساد الأمر كله؟ من أجل حل هذه العقدة يرسل رضا نور إلى «ريان» -الذي كان أحد المندوبين الإنكليز- شخصاً تركياً كان صديقاً حميماً له وذلك من أجل أن يستدرجه بكل مهارة في الكلام، ويمثل هذا الرجل دوره بكل حذق إذ يبدأ بالتذمر من موقف أنقرة ويحصل من فم «ريان» على هذا الاعتراف:

«لا أنا ولا «رومبولد» نرغب في إتمام الصلح، ومن أجل هذا نفعل كل ما في وسعنا هنا، كما أننا نقول لـ «لندن» بأن الأتراك لا يظهرون أية نية في الاقتراب من الصلح، لذلك فإن عليهم أن يتخلوا عن فكرة الصلح، ولكن ماذا نعمل إذا كانت الحكومة تريد الصلح، كما أن «كيرزون» لا يفتأ يكرر أمره: «عليكم أن تتموا اتفاق الصلح بسرعة»... إن الأمر خارج من أيدينا والصلح سيتم»[1].

ولكن بما أن «كيرزون» كان يفوق «رومبولد» في رغبته بسحق الأتراك وعدم إتمام اتفاق الصلح وكان يفوق «رومبولد» في صلابته وخشونته، فإن دوام إصداره الأوامر إلى

(1) حياتي وذكرياتي، ص1235.

«رومبولد» من بعيد وإصراره على أن يتم الصلح بسرعة... ألا يدل دلالة قاطعة على أن صفقة بيع وشراء «مسألة الخلافة والموصل»، كانت قد تمت بين أنقرة ولندن؟

أما إحناء مندوبي تركيا رؤوسهم بذلة الكلاب أمام «رومبولد» الذي كان يحمل عداوة مسعورة للأتراك إلى درجة أنه يصرح لإحدى الجرائد بأنه «يشمئز من الأتراك»، فهي أيضاً دليل من جهة الأتراك على وقوع هذا التفاهم.

وهكذا يوقع أعداء الوفد التركي على الاتفاق في جو من الذل ويرجعون إلى بلدهم بصفة أبطال لوزان.

«وهكذا انتهت الأعمال... كانت الجلسة هي الجلسة الأخيرة، وكان «رومبولد» فظاً وخشناً أكثر من الأيام السابقة... كان حزيناً وكان وجهه قد ازرقّ، وذلك على الأرجح لعدم استطاعته إفساد وعرقلة الاتفاق، وكان محتداً جداً لاضطراره إلى إمضاء شيء ما كان يرغب فيه، وفي هذه الجلسة أعطيت القرارات النهائية ولم يبقَ هناك شيء، وعيّن تاريخ إمضاء المعاهدة، ثم طلب عصمت إذناً بالكلام، حيث بدأ بالجملة التي سبق الاتفاق[1] عليها: «قبل عدة جلسات قلتم بأننا لصوص مستفيدين من ثقل سمعي». ولكن رومبولد بادر إلى مقاطعته بسرعة وكأنه ماء يغلي على النار: «كلا... ليس كذلك. إن لم تكن قد سمعته آنذاك فاسمعه الآن. لأنني أكرره»... كان على عصمت أن يحتد هو كذلك وأن يعنف في مقابل هذا الكلام. ولكنه سكت... ثم حاول أن يقول شيئاً... ولكنه كان ضعيفاً وقد خرج رومبولد ظافراً، أما نحن فقد نالتنا الإهانة، وانتهت الجلسة وانتهت المسألة، إن الإنكليز قوم مؤدبون، ولكن «رومبولد» كان شخصاً بعيداً عن التربية

(1) كان (رومبولد) قد وصف الأتراك في إحدى الجلسات بأنهم لصوص وقد بلع الوفد التركي هذه الإهانة على أن يردوا عليها في الجلسة الأخيرة وبعد أن يتم حل كل شيء. وقد اتفقوا على الجواب التالي: «قبل عدة جلسات قلتم بأننا لصوص مستفيدين من ثقل سمعي، ولو أنني سمعته لبادرت فوراً بالرد عليكم. وإن هذا ينافي آداب المؤتمر لذلك فإنني أرد هذا الوصف إليكم»، ص1237 - المترجم.

إذ ليس من اللائق أن يعامل مندوباً آخر بهذه المعاملة ولا أن يقول لإحدى الجرائد مهيناً الأمة التي يتفاوض معها بأنه: يشمئز منهم»[1].

إن الإثبات المطلق والبرهان الجازم القاطع لهذا الموضوع لا يمكن أن يكون إلا بإخراج شهوده وفاعليه من القبر ثم دعوتهم إلى الاعتراف. ولكننا نعتقد بأنه لا يوجد برهان أقوى من البرهان الذي يتكون من جمع القرائن والدلالات في إطار واحد يشف عن معانٍ وإشارات صريحة.

إن الدليل الأخير للعبة مؤتمر لوزان هو الاعتراف الذي اعترف به اللورد كيرزون -الذي كان صانع السياسة الإنكليزية وموجهها وصانع هذه الاتفاقية السرية- بأنه هو الذي أقنع رئيس الوزراء (لويد جورج) الذي كان من أنصار الحرب بالاتفاق.

«لم يكن «لويد جورج» ميالاً إلى الاتفاق مع الأتراك وكان يريد الحرب ولكنني أنا الذي أقنعته»[2].

إن معاهدة لوزان ليست إلا عبارة عن رشوة وذلك بإعطاء استقلال صوري لوطن قُلِّمت أظافره وقُصَّت أجنحته مقابل التضحية بالإسلام. وقد وضعت مجلة «بيوك دوغو»[3] في سنة 1950، وكذلك كتاب «معاهدة لوزان... انتصار أم هزيمة؟»[4] في سنة 1958 هذه الحقيقة المرعبة أمام الأنظار.

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1240.

(2) المصدر السابق، ص952.

(3) مجلة «بيوك دوغو» أي الشرق الكبير لصاحبها نجيب فاضل الذي يعتبر أكبر أديب ومفكر في تركيا - المترجم.

(4) هذا الكتاب نُشر عام 1958 من قبل (قادر مصرلي أوغلو) ويحتوي على معلومات تفصيلية ووقائع حول هذا المؤتمر - المترجم.

101 طلقة مدفع:

في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني عام 1923م/ 1339هـ أنَّتْ سماء أنقرة واسطنبول وسماء مدن الأناضول بأصوات طلقات المدافع.

ففي الساعة 8:30 مساءً من اليوم السابق أي في 30 تشرين الأول كان المجلس القومي الأعلى (المجلس النيابي) قد أعلن الجمهورية، وانتُخب مصطفى كمال بالإجماع من قِبَل 158 نائباً اشترك في التصويت.

وعلى حد زعم مصطفى كمال فإنه بينما كان الشعب بأجمعه مبتهجاً فإن بعض أصوات تذمر كان تأتي من اسطنبول، إذ وقفت بعض الجرائد فيها موقفاً معارضاً لهذه الجمهورية التي أُعلنت بهذه الصورة المستعجلة والمرتجلة.

«تعرض قبول المجلس للجمهورية بالتصفيق وإظهار الأهالي ابتهاجهم بإطلاق المدافع للنقد، إذ قيل: إن الجمهورية لا يمكن أن تعيش وتدوم بالتصفيق ولا بالدعاء ولا بترتيب الأفراح والمباهج، وإن الجمهورية ليست طلسماً، وإن سحراً جرى في مجلس الأمة، وإن من الخطأ توقع أن كل شيء سينصلح ذاتياً بعد الآن وإن علاج كل داء سيظهر من تلقاء نفسه»[1].

أما عصمت باشا فهو رئيس الوزراء ويبقى كذلك إلى ما قبل وفاة مصطفى كمال بمدة وجيزة، وأما المجلس النيابي فيملأه رجال من ورق، والوضع ملائم تماماً لتحقق جميع رغباته... والآن يحين الوقت المناسب لإيفاء وعده للإنكليز لذلك فبعد (4) أشهر من انتخابه رئيساً للجمهورية يذهب إلى أزمير بمناسبة لعبة حرب مزعومة، وهناك يجتمع مع رئيس الوزراء عصمت باشا ومع رئيس الأركان العامة فوزي باشا ومع وزير الحربية كاظم باشا حيث يعطي قراره هناك:

---

(1) الخطابة، ص495.

- لقد آن وقت إلغاء الخلافة، وتُلغى معها وزارة الشرعية ووزارة الأوقاف وسنربط المدارس الدينية بالحكومة لكي نوحد التعليم، ولن ندع هناك مدرسة دينية.

ويهز هؤلاء الباشوات -ومن ضمنهم فوزي باشا- رؤوسهم علامة الموافقة، وهكذا تصدر من المجلس في 3 مارس عام 1924 (1340هـ) القوانين المرقمة 429، 430، 431.

تلغى الخلافة كما يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد.

كما تلغى وزارة الأوقاف ووزارة الشرعية.

تربط جميع المؤسسات العلمية والدينية في تركيا بوزارة المعارف أي تُلغى المدارس الدينية.

ولنضف هنا برهانا آخراً -إضافة إلى جميع البراهين السابقة- يبين كيف أن الخلافة أُلغيت بمساومة مع الإنكليز.

يأتون إلى مصطفى كمال ويعرضون عليه الخلافة، ومن الطبيعي أنه يرفضها بكل نفور، ولكن السبب الذي يستند عليه في الرفض يدعو للتأمل حقاً إذ إنه يأتي بمعنى «أن الإنكليز سوف لا يرضون عن هذا».

«عندما ألغى مجلس الأمة الأعلى الخلافة ذهب نائب أنطاليا (راسخ أفندي) الذي كان من العلماء إلى مصر ثم عاد إلى أنقرة وطلب مقابلتي حيث أبلغني بأن المسلمين في البلاد التي زارها يريدون أن أكون خليفة، وأن الهيئات الإسلامية ذات الصلاحية وكلوا «راسخ أفندي» بمهمة تبليغي هذا الخصوص، وقد قلت في جوابي لراسخ أفندي بعد أن أبديت امتناني وشكري للمسلمين للحب والتقدير الذي وجّهوه لي: إن حضرتكم من علماء الدين وتعلمون أن الخليفة هو في الوقت نفسه رئيس دولة فكيف إذن أستطيع قبول الاقتراح والرغبة التي بلغتموني بها من رعية يوجد على رأسها ملوك وأباطرة؟ وعلى فرض أنني قبلت فهل يقبل بهذا مسؤولو هذه الرعية ومتبوعوها؟»[1].

---

(1) الخطابة، ص515.

من غير الإنكليز من المتبوعين -الذين لا يرضون بهذا- الذي تعنيه الجملة الأخيرة؟ ألا يتبين من الجملة الأخيرة أن المقصود من المتبوعين الذين لا يرضون بهذا هم الإنكليز وليس غيرهم؟ ... إنه لا يستطيع قبول الخلافة لأن لعبة لوزان تكون غير مستوفية لشروطها، وعلاوة على هذا فإنه لم يعد من جهة الصلاحية بحاجة إلى مثل هذا المقام، ثم إن حياة الفسق والفجور التي كان يحياها لم تكن تلائم -حتى ولو من باب النفاق- حمل لقب الخلافة.

لقد حصل ما حصل.

فلتنطلق المدافع.

قوانين إقرار السكون:

هيأ مصطفى كمال كل المستلزمات الضرورية لحكمه الاستبدادي المطلق فقد جدد المجلس وألّف الحكومة من أذنابه وغير نظام إدارة الدولة وشكلها بحيث لم يبقَ هناك أي مقام أو جهة منافسة له ولكن بالرغم من انقطاع صوت الجناح الثاني فقد بدأت أصوات أخطر منه تنبعث من داخل المجلس ومن صحف اسطنبول.

وقد لعب لعبة خبيثة في المجلس الجديد، فإنه بالإضافة إلى جعله رجاله المسلحين أذنابه المعلومين نواباً في هذا المجلس، فقد جعل جميع القواد والضباط المعروفين في الجيش نواباً كذلك، وهؤلاء كانوا نواباً في المجلس دون أن يتخلوا عن مواقعهم في قيادة الجيش وذلك ضمن نظام غريب لم يشاهد في أي بلد في العالم. وكانت غايته من هذا جعل هؤلاء القواد تحت يده وتحت مراقبته الدائمة في المجلس وليحول دون قيامهم وهم على رأس وحداتهم بأي حركة ضده.

ولكنه أخطأ في حسابه هذا، ذلك لأن هؤلاء القواد وعلى رأسهم كاظم قره بك يليه علي فؤاد باشا ورفعت باشا يبرقون إلى مصطفى كمال معلنين له أنهم يفضلون أن يؤدوا وظائف في المجال التشريعي كنواب، ولذلك فإنهم يقدمون استقالاتهم من الجيش ومن القيادة.

يصف مصطفى كمال هذه الحركة في «الخطابة» بأنها «مؤامرة». وبينما كان مصطفى كمال يرى أن الخطورة كامنة في وجود هؤلاء الرجال بعيداً وعلى رأس وحداتهم العسكرية، إذا به يذهل أمام رغبتهم في الاستقرار في أنقرة بصفة نواب.

هل كان هؤلاء قد رتبوا كل شيء في الجيش، وهم الآن يريدون دفع الجيش إلى الحركة بعد تأسيس معارضة قوية في المجلس؟

كان «رؤوف أورباي» على رأسهم كما كان القائد «جعفر الطيار» -وهو من الخط الإسلامي- يأتي في أعقابه، وكان من الواضح أنهم يتهيئون لحملة معارضة شديدة في المجلس، كما أن صحف اسطنبول مثل «توحيد الأفكار» و«الوطن» و«الطنين»... إلخ، كانت قد اتخذت موقفاً معارضاً واضحاً ضد إدارة مصطفى كمال الظالمة والاعتباطية وضد «إصلاحاته!» التي لم تكن في الحقيقة إلا جنايات. وكان من المؤكد أن معارضة قوية ستقوم في حماية هذه النيران الكثيفة.

ماذا يفعل؟

يبرق في الحال إلى النواب الذين كانوا طوع أمره من قواد الفرق الأولى والثانية والثالثة والخامسة والسابعة طالباً منهم الاستقالة الفورية من المجلس النيابي والبقاء على رأس وحداتهم.

كان رئيس الأركان العامة المشير فوزي جاقماق -الذي كان محسوباً على الخط الإسلامي- من أوائل من أحنوا رؤوسهم فوراً لهذا الأمر. أما جعفر طيار باشا قائد الفرقة السابعة فإنه أجاب بأنه سيبقى نائباً، منضماً بذلك إلى الفريق الثاني من الباشوات، أما الباقون فقد استجابوا للأمر وقدموا استقالاتهم.

إن هذه الحركة التي وصفها مصطفى كمال مرة بأنها «مؤامرة» ومرة أخرى بأنها «تمويه» أتت أكلها في وقت قصير، فإن هؤلاء الباشوات الذين بقوا في المجلس كونوا مع أصدقائهم المدنيين «الحزب الجمهوري التقدمي» الذي كان أول شعاره هو: «إنه يحترم الأحزاب والأفكار والمعتقدات الدينية».

ويجن مصطفى كمال من هذا الشعار:

- إذن فإنهم ينوون إعادة الخلافة وإدارة الدولة على أسس دينية.

«... ثم ماذا حدث أيها السادة ؟! لقد رأت الحكومة والمجلس ضرورة اتخاذ تدابير غير اعتيادية، فأصدرت قوانين إقرار السكون، ونشطت محاكم الاستقلال وحُصرت جهود الفرقة (8، 9) في التأديب لمدة طويلة وأغلقت التشكيل السياسي الضار المدعو الحزب التقدمي»[1].

أما عصيان الشيخ سعيد فلم يكن سوى حجة وعذر.

وإذا كان مقدار الماء الذي أفاض الكأس عشر قطرات، فإن مصطفى كمال يبدأ باتخاذ التدابير التي تؤدي إلى ردم البئر التي كانت مصدر هذه القطرات من الماء. وتبدأ حملة قاسية شرسة... إذ يقبض على رؤساء التحرير، وتغلق الجرائد وتختم أبواب التكايا والزوايا الدينية بالشمع الأحمر، ويوضع كل شيخ أو مريد معروف تحت الرقابة الشديدة، إلى حد يظهر لكل ذي عينين بأن الغاية لم تكن بعد إلغاء الخلافة إلا مسح الإسلام بحيث لا يبقى له أي أثر.

يقول مصطفى كمال في كتابه «الخطابة، ص541»:

«لقد تم إغلاق ومنع التكايا والزوايا والأضرحة وكل الطرق الصوفية والدروشة ونظام الانتساب إلى الطرق الصوفية والتنجيم والسحر وحراسة المقابر... إلخ، في عهد تشريع قانون إقرار السكون، ويترك لتقديركم كيف أن تطبيق هذه الإجراءات كانت ضرورية جداً من الناحية الاجتماعية لإظهار أننا لسنا أمة بدائية متخلفة».

إن قانون «إقرار السكون» لم يكن إلا قانوناً لإقرار الكفر، ولم يكن إلا السور الأول الكبير الذي وضعه حول قصره هذا الشخص الذي لم يظهر نظيره في الكفر والذي حطم

(1) الخطابة، ص540.

معنويات الأمة وروحها ومثلها العليا بعد الادعاء الكاذب بتخليص الأمة من الناحية المادية.

بدأت مع قانون «إقرار السكون» فترة رهيبة من الإرهاب فاقت فترة الإرهاب التي أعقبت الثورة الفرنسية، ويستغل مصطفى كمال هذه الحوادث إلى درجة يجعل الإنسان يشك بأنه هو الذي حرض الباشوات على تأليف الحزب وهو الذي حرض رؤساء التحرير على الكتابة وهو الذي دفع الشيخ سعيد إلى العصيان، وهكذا يصبح الوطن من أقصاه إلى أقصاه وفي آن واحد تربة خصبة لكل أنواع الإفساد المقبل، إذ أصبح هذا الوطن الكبير ذو التاريخ العريق مسرحاً لمأساة «المنجزات الثورية!» التي كانت تهدف إلى طمس دين الأمة ولغتها وتاريخها وتقاليدها وعرضها وأخلاقها، والسطور التالية توضح هذا الجو ونقتبسها من مجلة «يارن» التي كان يصدرها في بلغاريا السيد عارف أوروج:

«كان من المحقق أن أقصى أمل مصطفى كمال أن يبقى ياوراً خاصاً لوحيد الدين أو أن يشترك في وزارة الداماد فريد باشا بصفة وزير الحربية.

أما الوطنيون الذين اشتركوا في الكفاح القومي بكل صدق فإنهم لم يكونوا يستطيعون إغماض عيونهم عن النظام الديكتاتوري الذي كان يراد تأسيسه بعد الحصول على الانتصار الكبير، وخاصة وقد كانت هناك جماعات قوية في المجلس ولكون مصطفى كمال يعلم هذا حق العلم فإنه وجد الفرصة سانحة لزحزحة كبار القواد من الجبهة الذين كان من المحتمل أن يعارضوه في المستقبل، وقد عين قسماً منهم كمفتشين في الجيش ثم عينهم كنواب في المجلس لكي يكونوا في بناية المجلس تحت رقابته وقد كان هذا هو السبب الذي دعا إلى تشكيل الحزب التقدمي، وما التفاف الذين كانوا في الصف الأول من الكفاح القومي حول هذا الحزب إلا مثالٌ حي لما نقول.

وقد حقق الحزب التقدمي أكثرية كبيرة في المجلس مثله مثل الجناح الثاني في الأيام الأولى من الكفاح، ذلك لأن هذا الحزب كان يضم أشخاصاً فضلاء ذوي علم وعرفان

قد حنكتهم التجارب، ثم إن الذين أسسوا «الحزب التقدمي» كانوا من الأشخاص المعروفين المحبوبين أمثال رؤوف بك الذي كان مثالاً للشرف والفضيلة.

لم يكن في صف مصطفى كمال أمام هذا الجناح القوي الجديد في المجلس إلا أشخاص سطحيون لا وزن لهم، لذلك فإنه اضطر إلى الاستعانة ببعض الخطط التي لا تزال عالقة بالأذهان لتفريق وتفتيت هذا الجناح فمثلاً إن المنافسة التي حدثت بين رؤوف بك وعصمت باشا والتي جاء ذكر تحليلها في «الخطابة» المشهورة لم تكن إلا من تدبيره. ولو لم تحدث هذه المنافسة فهل كان رؤوف بك يتبع سياسة المماشاة لكل الرغبات الجامحة لمصطفى كمال؟ ولو أن كاظم قره بكر كان قد اشترك في «الهيئة التنفيذية لوزارة الجمهورية» فهل كان يبقى في وضعه الحالي المنكوب؟ ولو أن رفعت باشا كان قد دخل في هيئة «الائتلاف» الذي طالب به صراحة فهل كان في وسع «الحزب التقدمي» أن يتشكل؟... إن مناقشة أجوبة هذه الأسئلة ليس مكانها هنا، ونحن نتركه للزمان والمكان المناسبين لها.

أما ما نريد أن نتناوله هنا فهو: هل كان في الإمكان أن يكون هؤلاء الأشخاص الناضجون آلة لتنفيذ الرغبات الشخصية وواسطة لها؟ وحتى على فرض إمكان هذا فمما لا شك فيه هو أن هؤلاء ومعهم الكثير من العقلاء والمثقفين كانوا لا بد أن يقفوا أمام مصطفى كمال موقف المعارض إن عاجلاً أو آجلاً. ولكن مصطفى كمال كان مؤهلاً أكثر من معارضيه المنتظرين لاكتشاف هذه الحقيقة، لذلك فإن خططه وتكتيكاته الشيطانية أمنت تفتيت وحدة الصف -التي وجدت بعد الانتصار- لصالحه، وهذا كل ما في الأمر، ذلك لأن مصطفى كمال ما كان بحاجة في سبيل تأسيس وترسيخ الاستبداد الذي كان يخطط له إلى قوم شرفاء محترمين ومحبوبين من قِبَل الرأي العام... وكان يعرف هذا حق المعرفة. كان يعلم أنه بحاجة إلى رجال ناشئين أكثر من حاجته إلى رجال ناضجين لذلك فقد حاول أن يخلق في محيط هؤلاء طاعة عمياء له.

وهذا المحيط ممن كان يمكن أن يتألف؟... لا شك أنه كان يحتاج إلى أشخاص انتهازيين حريصين على المال سفهاء وجهلاء وقد كان قسم منهم حوله وفي معيته فعلاً

وكانوا جميعاً يحملون صفة النواب في مجلس الأمة، ولو دُقِّق تاريخ الكفاح القومي لظهر أن الأشخاص الذين وقفوا مع مصطفى كمال في مجلس الأمة وأيدوه ضد الأشخاص الذين كانوا في مقدمة الصفوف في مجلس الأمة لم يكونوا إلا مواطنين من الدرجة الواطئة في المجتمع، وكان هؤلاء الطفيليون يعلمون جيداً بأنه في حالة فشل سيدهم فإنهم سيرجعون إلى المكانة اللائقة لهم في المجتمع!

أما الجماعة الثالثة -والتي بقيت بين الجماعة الأولى والثانية[1] - والمؤلفة من الأشخاص ذوي الغيرة والحمية فإنهم كانوا مضطرين بطبيعة الحال إلى الالتحاق بالمجموعة الأولى، وبسبب ميلهم إلى المجموعة المعارضة فإنهم بقوا خارج الصف، وعندما سقطت المعارضة الرئيسية برزت إلى الوجود فئات ثلاث:

1 - الدكتاتور المستبد وأعضاء حكومته.

2 - الطفيليون: وهم أعضاء المجلس وأذناب الدكتاتور.

3 - أعضاء التنظيم المدعو بحزب الشعب: وهم سلسلة السرقة والنصب وتسلط الانتهازيين.

هذه هي العوامل التي سببت ابتعاد الوحدة الوطنية عن هويتها والتي حققت وخدمت الأهواء السياسية، وكانت هذه العوامل هي الأسباب من وراء انبعاث هذه الطبقة، بل بالأحرى هذه الزمرة من اللصوص، وأن هذه من أكبر خطايا مصطفى كمال ومسؤولياته».

ومن السيد عارف أوروج أيضاً:

«عندما تحقق الانتصار للكفاح القومي ظهر تلقائياً الطريق الذي على تركيا أن تسير فيه:

---

(1) الجماعة الأولى: يقصد المعارضين لمصطفى كمال، أما الجماعة الثانية فهم المؤيدون له - المترجم.

1 – كانت هناك ضرورة إلى ثورة.

2 – ولكن ما الشكل الذي يجب أن تتخذه هذه الثورة؟

كان الخلافة قد هدمت، وفي السنوات السابقة كان بيع الخمور ممنوعاً في البارات ولعب القمار في المقاهي، وكان التعصب يبلغ بمجلس الأمة السابق درجة سوق الأهالي بالعصي إلى الجوامع، ولكن نظام الجمهورية الذي أعقبه رأى فجأة ضرورة الهجوم على المعنويات.

وبعد أن هدمت جميع المؤسسات المعنوية بعد هدم الخلافة، كان من المشكوك فيه تأسيس السلطة الشخصية في ظل الجمهورية، وهذا صحيح، ولم يكن من الممكن البدء بترسيخ وتحكيم السلطة من جبهة أخرى، وقد كان من الضروري أن تسند الأهواء الشخصية بعذر من «الثورة» وأن يسند هذا العذر «بالإجراءات الثورية» ثم أضيف إلى هذا زعم «الانضمام إلى ركب الأمم المتقدمة».

النتيجة: الهدم والحرق والإعدام... وكل هذا تم تحت شعار: أن السلطة للأمة وباسم إرادة الشعب والأمة.

وكما يتبين من هذا فإن الجمهورية في أنقرة تطلق اسم «السلطة للأمة» لهذه الادعاءات والنظريات... ولعمري إنها لشعارات رفيعة!!

ولكن إذا نبشنا هذه الادعاءات ودققنا قليلاً ما تحويها فلن تذهل العين فقط من قبح المنظر بل إن الأنف أيضاً سيختنق من نتن الرائحة وسيحس المواطن برغبة شديدة إلى البصاق.

نعم... لقد كان السلاطين يضعون القوانين، أما الآن فإن أنظمة أكثر جوراً توضع من قِبَلهم هم أنفسهم.

وقد كان السلاطين يعينون الحكام ورؤساء المحاكم، أما الآن فهل يعين هؤلاء بإرادة المواطنين أم بإرادة شخص متفرد بالحكم ولكن تحت ادعاء: إرادة الأمة ؟!»[1].

(1) عارف أوروج.

الفصل السادس

المنجزات الثورية

عملية قتل جذور الأمة التركية

حديث:

قبل أن نتناول موضوع «المنجزات الثورية» -على حد زعمهم- والتي لم تكن إلا عبارة عن لصوصية وأعمال عصابات، فإننا سنتناول وثيقة تكشف -كأشعة إكس- عن خفايا نفسية أتاتورك، وهذه الوثيقة عبارة عن حديث له مع عبدالقادر كمالي الذي كان من النواب الأوائل، ونحن نقتبسها من إحدى المجلات التي نشرتها عام 1950 في اسطنبول:

«نقدم هنا نص ما دارَ بين عبدالقادر كمالي الذي كان رئيساً لحزب الأهالي ومن أوائل المعارضين وبين أول رئيس للجمهورية من محاورة ومن رسالة كتبها له:

هو: لماذا لا تنتسب إلى حزبي؟

أنا: من أجل سببين يا باشا.

هو: ما هما؟

أنا: أولاً أنكم عندما ألفتم الحزب الجمهوري لم أكن موجوداً ضمن النواب الذين دعوتهم، ثانياً: أنت جندي وأنا أخشى أن تكون بلاءً على رأس الأمة بعد خلاص الوطن.

هو: مثلاً كيف؟

أنا: مثل «نابليون» أو «كرومويل».

هو: سوف لن يهون شأني مثل نابليون، وبعد موتي لن أدع أحداً يمس قبري مثل «كرومويل».

أنا: إذن يا باشا! ماذا ستفعل بعد أن يتم خلاص الوطن؟

هو: يا سيد كمالي! أحلف لك بشرفي أنه لا يوجد عندي أمل إلا في تأسيس دولة معاصرة ومدنية بعد خلاص الوطن».

إن ما يعنيه هذا الشخص -الذي يرى نفسه أكبر من نابليون وأكثر ثقة وطمأنينة من «كرومويل»- من المدنية والمعاصرة، ليس إلا عداوة الإسلام ولا شيء غيره.

حزب الشعب:

هذا الحزب كان رمزاً للكفر وللاستبداد -والذي شكّل على ادعاء أنه مركز للوجدان الحر- عمل طيلة 27 عاماً على القضاء على جذور روح الأمة التركية ولم يكن هذا الحزب مؤلفاً إلا من أشباه رجال كانت وظيفتهم تنحصر في السجود لصنم يدعى «أتاتورك». لذلك فإنه لا يستحق أن نتناوله بشكل خاص ومنفصل، إذ يكفي هذا الوصف القصير له.

أما مبادئه !! التي يرمز إليها بأسهم ستة[1] فهي تشبه الوصفات الجاهزة التي تلتقطها طيور الحظ[2]. والمؤلفة كل منها من كلمة واحدة... هي نتيجة النفور من الإيمان

---

(1) شعار هذا الحزب بشكل ستة أسهم، وكل سهم يرمز إلى مبدأ من مبادئه فهو حزب (1) جمهوري (2) قومي (3) شعبي (4) دولي (أي يؤمن بتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية - المترجم) (5) علماني (6) ثوري - المترجم.

(2) طيور لحظ: «لعبة من لعب الحظ تلتقط فيه إحدى الطيور المدربة أوراقاً مطوية مكتوب عليها كلمات الحظ أو النحس» - المترجم.

ونتيجة لحقد الأهواء، بعيدة عن كل نظرة شاملة للحياة وعن كل معاناة فكرية، محرومة من شرف «المبدأ» - حتى ولو كان من النوع الباطل- ومن مستواه.

القبعة:

في الأيام الأولى من حرب الاستقلال كان الشعار الذي اتخذوه لبعث همم الأهالي واستنفارهم خلفهم هو:

- إن الكفار قادمون... سيجبرونكم على لبس القبعة وسيدوسون على القرآن وسيعتدون على أعراض زوجاتكم وأمهاتكم وبناتكم.

والحقيقة أن مصطفى كمال لم يأتِ إلى قيادة الحركة في الأناضول إلا لتنفيذ هذه الشناعات التي لا يفعلها أي عدو بل لا يستطيع أن يفعلها. إذ هو الذي فرض لبس القبعة وداس على القرآن واعتدى على عرض المرأة التركية وبناتها - اللائي كن يدعين بـ «ساكنات الخدر» - كما أشاع فيهن فكرة بذل شرفهن وأعراضهن.

بدأ هذا السلوك بثورة القبعة.

ويشرح رضا نور هذه الناحية وكيف أنه لا بأس أبداً من الناحية الدينية من ليس القبعة وأن قلنسوات كثير من القادة الأتراك مثل «محمد الفاتح» وغيره يمكن اعتبارها قبعات وأنه هو الذي طرح هذه الفكرة قبل مصطفى كمال فإن له نصيباً في هذا الأمر.

«... كان هذا بعد إصدار قانون «إقرار السكون» وكان مصطفى كمال منطلقاً في ملذاته بدون قيد وفي أحد الأيام خرج مصطفى كمال في إحدى جولاته لابساً القبعة... وقد خطر هذا بباله في «قاصطموني»[1].. إذ سنّ قانوناً حرم بموجبه لبس الطربوش. وبدله بالقبعة. ولم ينبس أحد من رجال الدين ببنت شفة أمام هذا القانون وهم الذين كانوا يثورون لأتفه الأسباب، أو لأكثر الأمور ضرورة مع أنها لا علاقة لها بالدين ولا

(1) قاصطموني: إحدى المدن التركية الواقعة في منطقة البحر الأسود يقرب عدد سكانها الآن من (24) ألف نسمة.

ضرر منها، ويملأون الدنيا صراخاً من أن الدين قد ضاع، بل الغريب أنه قبل صدور هذا القانون فإن أول من لبس القبعة كان أحد رجال الدين وكان مفتياً وهو المفتي «حسن فهمي» الملقب بـ «ذو اللحية الحمراء». فعندما كان مصطفى كمال متهيئاً لإحدى جولاته اقترح على هذا الشخص في محطة أنقرة لبس القبعة لأول مرة وأعطاه قبعة فأخذها ولبسها.

وقد سبق أن كتبت بحثاً في التاريخ التركي أوضحت فيه بأن لبس القبعة ليس حراماً وأرفقت بالبحث صوراً للقلنسوات -وهي في الحقيقة قبعات- التي كان يلبسها محمد الفاتح وغيره من السلاطين والقواد. وقد انتشر بحثي هذا قبل محاولة مصطفى كمال بمدة غير قليلة، حتى إنه بعد صدور القانون قال لي مدير المتحف «خليل بك» في أحد الأيام: «لقد سبقته أنت في ذكر هذا في كتابك»... لقد قرأ كتابي ثم حقق الفكرة وكأنها فكرته... نعم لقد كتبت هذا ولكني لم أقل أن يطبق بقوة القانون وبصورة جبرية... إن في يديه قوة وهو قوة القانون وهو يريد أن ينفذ كل شيء بواسطتها، ولكني لا أعتقد بأنه من الممكن حل كل شيء بالقانون»[1].

إذن فإننا إن أحلنا شناعة تقديم الفكرة إلى رضا نور الذي سار مع مصطفى كمال يداً بيد وقلباً بقلب في هذا الخصوص، فإننا نكون قد وقفنا على الحقيقة من كل جوانبها. وإن بَدْءَ مصطفى كمال بهذا العمل بإلباس القبعة -المعروفة لدى رجال الدين كعلامة للكفر- على رأس أحد رجال الدين المزيفين لدليل حي على أنه لم يكن يقدم القبعة لجماهير الشعب على أنها قلنسوة للرأس بل على أنها ضربة موجهة إلى العقيدة الإسلامية.

لنستمع إلى قصة هذه الحادثة من فالح رفقي آتاي:

«... فوجئنا بأن وكالات الأنباء تذيع في 27 أغسطس خطبة أتاتورك في «النادي التركي»... في «إنبولي» وكيف أنه ذكر القبعة باسمها بكل وضوح ودون محاولة المراوغة

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1313-1314.

وذكر اسم آخر لها. كنت أرى في هذا مثالاً آخر على معنى القائد الكبير الحائز على الثقة وعلى الاعتماد، وكيف أنه يستطيع أن يفرض إرادته على أصحاب الأعصاب الضعيفة وكيف أنه يخلق العزم الذي يستطيع أن يكافح به قلة الإمكانيات أو عدمها.

وكان الأصدقاء أنفسهم يقولون:

«... من يستطيع أن يتحدى هذا الأمر سواء ألبس مصطفى كمال القبعة أم لم يلبسها؟».

ورجع مصطفى كمال إلى أنقرة من جولته لابساً القبعة، وعندما استقبلوه في ضاحية المدينة أعجبته قبعة «يونس نادي» حيث استبدلها بقبعته، وكان المرحوم «علي بك» نائب مدينة «أفيون» بين المستقبلين، وعلى رأسه قبعة، وهو الذي كان قد طُرد وحاول حبس مخبر صحيفة «وقت» عندما جاء إلى محكمة الاستقلال لابساً القبعة إثر سماعه بالأنباء الأولى عن لبس القبعة.

وقد سألته بعد مدة طويلة عن السبب الذي دعاه إلى اختيار جو متعصب مثل «قاصطموني» للبس القبعة مع وجود أجواء أخرى متفقة مثل جو مدينة «أزمير» فأجابني:

«كان أهالي مدينة «أزمير» قد رأوني عدة مرات فلو لبست القبعة هناك فإن أنظارهم لم تكن تتوجه إليّ بل إلى قبعتي، أما الذين شاهدوني لأول مرة فإنهم قبلوني مع قبعتي كما أنا».

أما عن حادثة التسمية[1] فقد قال:

«لم أكن نائماً تلك الليلة جيداً، كانت أعصابي متوترة ولم أكن على ما يرام. وعندما ذهبت في «إنبولي» إلى الاجتماع الشعبي ووجدت جمعاً أسود حاشداً ازداد توتر أعصابي

---

(1) أي حادثة التصريح باسم «القبعة» التي كانت شيئاً منكراً بين الأهالي، وقد كان أنصار مصطفى كمال يتوقعون منه أن يكون مرناً وأن يطلق عليها اسماً غير صريح مثل «القلنسوة» أو «غطاء الرأس»... إلخ - المترجم.

وقلت في نفسي: «ما الذي يحكم على هذا الشعب بالتأخر» وقبل البدء بالكلام طلبت ماءً، ارتجفت يدي وبجهد كبير استطعت أن أرفع الكأس إلى شفتي، وقد ولّد هذا رد فعل عنيف لدي، وهكذا خطبت الخطبة التي تعرفونها ولوحت بالقبعة قائلاً لهم:

- إن اسم هذا... قبعة!».

بل حتى إن بعض مثقفي اسطنبول لم يعجبهم هذا القرار من مصطفى كمال خوفاً من انتشار العداوة ضده، ويقال إن «جاويد بك» كان منهم.

وقد سمعت توفيق باشا -أحد رؤساء الوزراء السابقين- وكان حينذاك في التسعين من عمره يقول:

«عجباً... لقد مرَّ هذا وقُبِل بسهولة أكثر من الطربوش، إذ لم يرجم أحد في الشوارع».

ولأضف هنا إحدى ذكرياتي حول اقتراح أحد النواب المتصوفين: إذ جاء هذا إلى رئيس الوزراء قائلاً له: «يا باشا! إن الغازي أمرنا فلبسنا القبعة ولكن ألا يكون من المستحسن أن نضع إشارة الهلال والنجمة هنا؟ (وأشار إلى طرف القبعة)».

إن تناول الطعام غير هضمه، وقد استغرق قبول القبعة والتعود عليها وقتاً أكبر من مجرد لبسها، فأنا أتذكر جيداً أنه حتى نهاية شهر تشرين الأول كان سكان الأزقة غير متعودين إلا على القبعة الاعتيادية، لذلك فإنهم عندما شاهدونا ولأول مرة بالقبعات الاسطوانية فإنهم أخذوا يمشون وراءنا هازئين وسمعنا كلمات: «يا كفار» من وراء النوافذ.

كان التعصب والاستغلال الديني قد تلقى ضربة قوية جداً»[1].

---

(1) جانكايا، ص434-435.

عندما رجع مصطفى كمال إلى أنقرة بعد زيارته لـ «قاصطموني» لابساً القبعة، كان جميع مستقبليه لابسين القبعات وكان بين المستقبلين كذلك رفعت أفندي رئيس الشؤون الدينية... لم يكن لابساً القبعة ولكنه كان حاسر الرأس... أي أنه ترك الطربوش، إنه عندما قال ديكتاتور الكفر «اترك» ترك، ولكنه لم يأخذ بعد عندما قال «خذ». وقد سرّ بهذا مصطفى كمال سروراً كبيراً لذلك فقد أخذه إلى سيارته وأجلسه بجانبه.

يقول «جواد دورسون أوغلو» في جريدة «هالكجي» في 10/ 11/ 1954:

«كان الأفندي (يقصد رئيس الشؤون الدينية) قد أظهر تفهماً كبيراً، فقد نزع عمامته ذات الطربوش وحيّى الغازي حاسر الرأس، وقد سرَّ الغازي لهذه الالتفاتة سروراً كبيراً فأخذه إلى سيارته، ودخل المدينة وعلى رأسه القبعة وبجانبه رفعت أفندي وهو حاسر الرأس.

ليس من السهل مجيء مثل هذا الزعيم الذي يفهم نفسية الجماهير هذا الفهم الجيد».

و«جواد دورسون أوغلو» هذا هو الشخص الذي تنازل لمصطفى كمال عن حقه في التمثيل في مؤتمر أرضروم ثم ترقى إلى منصب المدير العام للدراسات العليا في وزارة المعارف ثم أصبح من كبار موجهي حزب الشعب، وكان معروفاً بعدائه الشديد للدين وهو معروف بجوابه المشهور لطفله -في إحدى السنوات الأخيرة من حياة مصطفى كمال- عندما سأله الطفل مندهشاً وهو يرى في إحدى الأزقة رجل دين على رأسه طربوش ملفوف بعمامة:

- ما هذا يا بابا ؟!

- يا بنيَّ... هذا قسّ الأتراك.

وبينما كان بعض الرجعيين وبعض ناقصي الإيمان ينحنون أمام مصطفى كمال حتى الأرض كانت مدن «ريزا» و«ماراش» و«سيواس» و«أرضروم» تشهد تمردات وكانت الطرادة «حميدية» تتوجه إلى «ريز» لتقصفها -وذلك قبل تشكيل محاكم الاستقلال- وكانت أعواد المشانق تملأ ميادين المدن الأخرى وكأنها المراجيح في أماكن الأعياد... وقد

تناقلت الأفواه الجواب الذي أجابه أحد رجال الدين في «ماراش» عندما دُعي -وهو تحت ظل أعواد المشنقة- أن يصرح بأن القبعة ليست حراماً، إذ قال:

«إن القبعة من علامات الكفر، إن لبسه كفر، وأنا أحمد الله بأنني أموت وأنا لم ألبسها».

ويروي أحد المسنين المنظر كما رآه:

«كنت أمر من الميدان الذي كان يتدلى فيه المشنوقون... لم يكن هناك أحد باستثناء بعض الجندرمة»... بدأت الريح تهب... ولا أستطيع أن أنسى منظر اللحى البيضاء على الوجوه الميتة وهي ترف مع الريح.

ويظهر رضا نور في صفحة (1317) من كتابه بأنه قد غيَّر فجأة اتجاهه وفكره في قضية القبعة -التي كان يؤيدها في السابق- بسبب المضاعفات التي أثارتها، فهو عندما يهاجم رجال الدين يظهر وكأنه أدرك كون القبعة علامة للكفر، لذلك فإنه يعنفهم على قلة غيرتهم الدينية.

«بعد إقرار قضية القبعة صادفت في أحد الأيام «الشيخ رايف» في المجلس فقلت له: «أين أنتم أيها الشيوخ ؟! كنتم سابقاً تقيمون القيامة وتصمون كل شيء بالكفر، كان من الواجب عليكم أن ترفعوا أنتم قبل الجميع راية العصيان. ولكنكم لبستموها بكل بساطة بل لقد ظهر من عندكم من وصف القبعة بأنها أفضل قلنسوة، وقد ظهر بأنكم أكثر الطبقات عفونة في الأمة التركية».

فقال لي: «أنت محق».

ولم يقتصر الأمر على بعض ردود الفعل، فقد أعلن الأهالي العصيان في «سيواس» وفي «أرضروم» وفي أماكن أخرى متعددة، فسارع مصطفى كمال إلى تشكيل «محكمة الاستقلال» تحت رئاسة «گل علي»[1] تجولت في هذه الأماكن حيث شُنق

(1) أي: علي الأصلع - المترجم.

الكثيرون وإن كنت لا أعرف عدد المشنوقين بالضبط. فذعر الأهالي واستسلموا وانتهى كل شيء. وقد تألمت كثيراً لأحد رجال الدين الذي لا أذكر اسمه، فهذا المسكين كان قد نشر رسالة ضد القبعة وذلك قبل صدور قانون القبعة، وقد تم نشر هذه الرسالة بموافقة من وزارة المعارف، وقد ساقوه إلى محكمة الاستقلال في أنقرة حيث قال للمحكمة: «إنني نشرت هذه الرسالة قبل سنة واحدة من صدور هذا القانون وقد وافقت وزارة المعارف رسمياً على النشر» ولكنهم لم يستمعوا له وشنقوه... يا للعجب !! ما دمتم تشنقونه فلم لا تشنقون وزير المعارف الذي أعطاه الموافقة ؟! علما بأن النشر تم قبل صدور قانون القبعة، والقوانين لا تشمل ما قبلها وهذا من أهم الأسس القانونية. وقد حدثت هنا مأساة أخرى، ذلك أن «گل علي» كان رئيس جلادي مصطفى كمال وكان «گيليج علي» معاونه، لم يكن «گل علي» رجلاً سيئاً، كان وطنياً ولكنه كان جاهلاً وقد استخدمه مصطفى كمال في اقتراف هذه الجرائم أفضل استخدام، إذ كان يقول له «اشنق هذا» فيشنقه. أما «گيليج علي» فقد كان شخصاً خبيثاً وملعوناً وكان يهوى حضور عملية شنق هؤلاء المحكومين، إذ كان يجد لذة كبيرة في رؤية نتيجة «شطارته» الدموية... كان من أسافل الناس. وعندما أحيط عنق هذا الشيخ بحبل الإعدام وضع «گيليج علي» قبعة على رأس الشيخ قائلاً له: «البس أيها الخنزير» مع سيل من الشتائم. وقد مات المسكين على هذه الشاكلة وظلت جثته معلقة لعدة ساعات. وما أشد سفاهة «گيليج علي»... إن الإنسان ليستحي ويخجل من القيام بإهانة شخص على وشك الشنق، إن يدي المسكين موثقتان وحبل الإعدام أمام عينيه».

والآن لنأتِ إلى نظرة الدين لقضية القبعة.

قد يتساءل البعض: لماذا لا يكون لبس البنطلون أو القميص الغربيين كفراً بينما يكون لبس القبعة كفراً؟ أليست هي أيضاً عنصراً اعتيادياً من اللباس؟

إن الذين ينظرون إلى القبعة باعتبارها كفراً محقون تمام الحق، ولكن تنقصهم المعرفة الدينية وقابلية الإدراك الإسلامي إذ يقولون إنها كفر وكفى دون أن يوضحوا السبب.

إن القبعة هي العلامة الثالثة للكفر بعد الصليب والزنار، فكما لا يجوز للمسلم أن يعلق صنماً على رقبته أو أن يشد الزنار -الذي يلبسه القسس- على وسطه فكذلك لا يجوز له لبس القبعة، ذلك لأن القبعة ليست لباساً قومياً مثل البنطلون أو السترة ولكنها علامة دينية وضعت من قِبَل المسيحيين أثناء المعارك الإسلامية - المسيحية ثم أصبحت قومية. إن المقصود من القبعة هي القبعة ذات الحافة. ولو كانت القبعة من صنعنا وبشكل لا تمنع السجود لما كان هناك أي بأس. ولكن عندما تكون علامة للكفر وعلامة للتمييز بين المسلمين وغيرهم يكون من الطبيعي أن تدخل بين العناصر المحرمة مثل الصليب والزنار. ويبقى هذا التحريم جارياً بالنسبة للمسلم حتى ولو أصبحت القبعة شيئاً قومياً، حتى ولو انتشرت وعمَّت كل مكان. وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من العالم والمفكر الإسلامي الكبير الإمام النووي.

وبينما ينظر الجهلاء من المتدينين إلى القبعة نظرة تحريم -وهم محقون في هذا- دون أن يعرفوا السبب، فإن أقزام المنطق من اللادينيين يأخذون المسألة على أنها مسألة لباس ويحاولون إغراقها في بحر من أدب السفسطة، وعندما لا يجدون أمامهم من يتقن فن الحوار والجدل فإنهم ينتفشون كالديك.

لو كانت القبعة رمزاً لذهنية معينة -هي رمز للكفر- فإن وضعها على الرأس لا يعني شيئاً، بل المهم -كما يقول أحد الكُتّاب الفرنسيين- هو مزجها في النفس.

ولم يكن مصطفى كمال -وهو يأمر بوضع القبعات على الرؤوس- إلا متناولاً قضية تلقين النفور والعداء للإسلام في الأرواح بهذا الرمز أكثر من رغبته في مزج رمز المدنية الغربية في الأنفس، أي أن هدفه كان في «إبعاد» شيء أكثر من «الإتيان» بشيء، أما الشيء الذي حاول إبعاده من القلوب فهو حب الله ورسوله. وإلا فإن الإيمان في الأساس لا يأتي مع «الطربوش» ولا يذهب مع القبعة. ولكننا قد نعذر إذا نظرنا إلى القبعة كرمز للكفر، ونكون قد أدركنا تكتيك مصطفى كمال في تلقين العداء للإسلام عن طريق القبعة.

إن الذي أتى به مصطفى كمال -على شكل قبعة- لم يكن إلا صليباً من قماش، وهذا الصليب الجديد لم يأت به مصطفى كمال لكونه عنصراً للهندام، بل من أجل تحدي الإسلام.

القانون المدني والعلمانية:

لم يكن ربط التعليم الديني بالإدارة السائبة للمعارف -أي محوه من الوجود- وإغلاق التكايا والزوايا، وفرض القبعة على الرؤوس إلا صدى لشكل إدارة الدولة التي لم تكن لها ولا لانقلاباتها الثورية من غاية إلا محو كل أثر إسلامي من قوانينها وإلا الإتيان بجميع مقاييس الكفر وإضفاء الصفة الشرعية عليها.

وكان هذا يحتاج إلى أمرين:

أولهما: تثبيت عدم علاقة الدولة بالدين، وثانيهما: إبعاد ما يسمى بالقانون المدني -وهو الذي يشكل الحقوق الرئيسية ومقاييسها في المجتمع- عن العلاقات والحقوق الأساسية الإسلامية أي عن «الفقه الإسلامي» وصبّها في قالب غربي... أولهما هو «العلمانية» الشعار المعروف في إدارة الدولة، وثانيهما هو «القانون المدني» المأخوذ من سويسرا.

«لقد تم تحقيق الانتصار النهائي للكفاح في سبيل المدنية (والذي استمر طيلة عصر كامل) في عهد تأسيس الجمهورية، وذلك بفضل إقرار القانون المدني والعلمانية. وقد كان تصديق القانون المدني من قِبَل المجلس الأعلى[1]، وتصفية الدستور (وذلك بإخراج المادة القائلة بأن «دين الدولة هو الدين الإسلامي») منه لصالح العلمانية بمثابة لبس التاج في مراسيم انتصار دعاوينا الثورية. إذ لم يبقَ هناك أي عائق أمام الأمة التركية للتوجه والتطور نحو مجتمعات القرن العشرين، والقضية أصبحت منحصرة في قضية التعليم فقط.

ولقد كان الرجعيون قد نشروا طيلة عصر من الزمن فكرة أن العلمانية هي خروج من الدين ومن القومية وكانت «الكمالية» تضع النهاية لهذه الأسطورة، وكنا نرجع -لأول مرة- إلى قوميتنا التركية.

---

(1) يقصد المجلس النيابي - المترجم.

وكان الاتجاه نحو الغرب تخلصاً من الاستعراب ورجوعاً إلى القومية التركية في الوقت نفسه. إن الدين شيء يتعلق بالضمير، ولقد كان الإسلام في الشعور التركي خميرة قوميته، ولكن الدين كشيء متعلق بالضمير شيء والشريعة التي تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا ضمن شروط القرن السابع شيء آخر»[1].

أما رضا نور فإنه يشرح وجهة نظره في هذا الموضوع في صفحة (1352-1353) من كتابه كما يلي:

«ترجموا القانون المدني السويسري وطبقوه...والآن ظهرت موضة جديدة هي موضة الثورة، ففي كل يوم هناك ثورة، وهو يأمر الجرائد بالتحدث عنها بكل فخر، وقد سرت هذه العدوى من مصطفى كمال إلى وزرائه... ما أشد عدوى مرض الثورة هذه؟!... إن عدوى الكوليرا لا شيء بالنسبة إليها،... ففي أحد الأيام تسمع السيد نجاتي[2] يتكلم عن «ثورة في شؤون العدل» وتتساءل ما هي هذه الثورة... وبعد لأي تعرف أن كل ما في الأمر أنه أصدر أمراً أحمق، أو أنه أصدر قانوناً... ثم تسمع بـ «ثورة في المعارف» !! ثم إنها ليست ثورة واحدة، بل هناك «ثورة المعارف في نيسان» ثم تعقبها «ثورة المعارف في مارس» ... ثورة بعد ثورة!... ففي كل شهر من أشهر السنة هناك ثورة... أي اندلعت عاصفة من الثورات، دارت معها الرؤوس وداخت، علماً بأنهم أفسدوا بهذه الثورات ما كان باقياً في اليد، وقلبوا بها الأمور. ولو أن باحثاً مدققاً قام بتدقيق هذه الأمور وما خسرته الدولة والأمة بجنون الثورات هذه من خسائر مالية وثقافية وعدلية... إلخ، وكتب عن الخسائر الجسيمة التي وقعت لكان كتاباً ممتازاً... إن مثل هذا الكتاب يجب أن يؤلف، إن الأزمة الاقتصادية ليست مصيبة سماوية تهبط علينا من السماء، ولكنها نتيجة لمثل هذه التصرفات.

(1) جانكايا، ص441.

(2) كان وزيراً للعدل في تلك الأيام - المترجم.

وقد قام «محمود أسعد» بترجمة القانون المدني السويسري، وكان «شكري قايا» ضمن هذه الهيئة، وقد حصروا اهتمامهم في الترجمة إلى اللغة التركية فقط... حسناً ولكنهم لعدم استطاعتهم فهم هذه القوانين فهماً جيداً فإنهم قاموا بالترجمة الحرفية لكثير من أقسامها مما أدى إلى الغموض وإلى عدم إمكانية الفهم، هذا علماً بأن عدة شروح قد كتبت في سويسرا لفهم النص الفرنسي لهذا القانون.

ثم إن شكري قايا إذا كان يجهل شيئاً فهو لغته الأم «اللغة التركية»، وذلك لأنه لو كتب سطرين فقط لوجدت عدة أخطاء إملائية، وعدة أخطاء نحوية فيهما. ثم إن هؤلاء اقترفوا خطأً فظيعاً آخر؛ ذلك أنهم لحرصهم على عدم استعمال أية كلمة عربية فإنهم لم يضعوا الاصطلاحات القانونية، بل عبروا عنها بواسطة جمل. علماً بأن هذا الخطأ الجسيم ليس إلا جهلاً فظيعاً، ذلك لأن هذا الموضوع كان موضوعاً علمياً، وهل يخلو العلم من الاصطلاحات؟ إن مصطلحاً واحداً في العلم قد يحتاج شرحه إلى خمس أو عشر من الصفحات، وأن مثل هذا المصطلح الواحد يعني كل هذه الصفحات عند أرباب العلم».

ثم يستمر:

«لقد مرّ القانون من المجلس دون تأمل أو مناقشة وبشكل ارتجالي، وهذا القانون المدني يضم التقاليد المسيحية وأعرافها، ونحن الأتراك مسلمون من قبل عشرة قرون، إن القانون يعني العُرف... ما أتعس التركي وما أقل حظه... يفرضون عليه على الدوام أعرافاً لا تعود إليه، فما أن نتخلص من العُرف العربي حتى ندخل في عُرف أمة أجنبية أخرى، وبينما كنا نشكو من العُرف العربي إذ بنا نسقط في قبضة العُرف المسيحي الذي هو أسوأ من الأول، ذلك لأننا على الأقل مسلمون مثل العرب. ثم إن هذا القانون كان أساسه القانون الروماني لذلك فقد كانت هناك حاجة لبعض الرتوش، أما أخذه كما هو فقد كان خطأً. ولكنهم أخذوه كما هو بل بالغوا في هذا وكانت النتيجة حدوث أمور مضحكة مثلاً قضية «الأخوة في اللبن» أو «أخ اللبن».

فكما يوجد عندنا «الأخ في الرضاعة» فكذلك يوجد هذا عند المسيحيين. و«الإخوة في الرضاعة» لا يتزوجون من بعضهم، فالكنيسة في فرنسا مثلاً لا تسمح بهذا، وكذلك

الأمر في قوانين سويسرا، ولكن مصطفى كمال غضب من هذا فأصبح يستهزئ بمحمود أسعد قائلاً له: «أيها الأخ في اللبن». وكانت هناك بعض الأمور المشابهة لهذا وقد حاول محمود أسعد رفعها ولكنه لم يستطع هذا بصورة مباشرة وواضحة، لذلك فقد سلك طريق الحيلة والمراوغة وذلك بوضع جدول للخطأ والصواب بحجة حدوث أخطاء مطبعية. وقد مرر هذا كذلك من المجلس، وهكذا أصبح هذا الجدول أيضاً ساري المفعول، هذا مع العلم بأن ما ورد في هذا الجدول لم يكن كله أخطاء مطبعية وأدخلوا بذلك بعض التعديلات والإضافات، وبهذه الصورة رفعوا المادة القانونية التي تمنع زواج الإخوة في الرضاعة حيث يستطيع الأتراك من الآن فصاعداً الزواج من إخوتهم في الرضاعة... لقد فقنا حتى المسيحيين».

وبما أن هذا الكتاب ليس كتاباً ذا طابع فلسفي يبحث عن النظم الاجتماعية والإدارية أو يقارن بين المذاهب، إنما تنحصر وظيفته في الوصول إلى الحقيقة وتبيانها تحت ضوء مقاييس العقل والعرفان والإدراك البديهي، لذلك فإننا سنتناول هذه القضية بالدرجة التي تكفي فقط لإيضاح دعوانا، لذلك سنتناول باختصار موضوع العلمانية ومفهومها:

إن المدرسة الفرنسية العلمانية تدعو إلى فصل الدين عن الدولة، أي أنها تدعو الدولة إلى عدم التدخل في الشؤون الدينية، كما تدعو إلى عدم تدخل الدين في أمور الدولة. أما رجال الدين والقسس الذين تسلطوا على الدولة وإدارتها، وعلى المدرسة، وعلى العائلة، وعلى جميع المؤسسات الاجتماعية دون أن تكون لديهم أية أحكام شرعية، فإن العلمانية تدعو إلى إبقائهم في نطاق عملهم وحصرهم في دائرة وظيفتهم فقط دون السماح لهم بتخطيها أو تجاوزها. وهكذا يتبين بأن العلمانية (التي كان منبعها في فرنسا) لم تكن موجهة لهدم أية عقيدة مسيحية ولكنها عملت فقط على إبعاد المسيحية (التي لا تملك أحكاماً دنيوية) عن تسلط غير عادل وبدون مبرر، لذلك فإن العلمانية لا توصف بأنها «غير دينية» أي ضد الدين، بل يمكن التعبير عنها بأنها «لا دينية»، أي لا توجد لها علاقة بالدين. لذا فإن العلمانية يمكن تطبيقها فقط على الأديان التي لا تملك أحكاماً دنيوية. ولما كان الدين الحقيقي يشمل الدنيا والآخرة، ويضم الإنسان والمجتمع بروحه ومادته،

ويحيط بكل شيء فإن العلمانية تجاهه لا توصف إلا بأنها «غير دينية» أي ضد الدين وهادمة للدين، ولذلك فإنه استناداً إلى المفهوم العلمي الخالص فإن العلمانية لا تعني بالنسبة للإسلام إلا هدماً له وتقويضاً لأركانه، وأن من المستحيل إمكان إيجاد الوفاق بين العلماني وبين الإسلام. والحقيقة أنه لم يوجد حتى الآن في تركيا من أدرك أو أشار إلى هذه الناحية الدقيقة من هذه القضية.

لذلك فإنه لما كانت العلمانية في تركيا لا يمكن أن تعني إلا خطة خبيثة وغير جريئة لتعطيل الإسلام فإن الإدارة العلمانية فيها لا تعني حكومة لا علاقة لها بالدين، بل تعني «حكومة المرتدين عن الدين» إذن فهذا هو وصف نوع الحكومة التي شكلها مصطفى كمال على أساس العلمانية، والتي لا تزال حتى الآن سائرة على الأساس نفسه.

أما إذا جئنا لتقييم «القانون المدني» الذي لم يحز مترجموه حتى على ميدالية من «التنك» بينما كان «أحمد جودت باشا» محرر «المجلة»[1] حائزاً على جائزة «لوجيون دنور» الفرنسية، فإن هذا التقييم بسيط ومختصر جداً:

إننا حتى لو أخذنا بقرة من سويسرا وبقرة من الأناضول لرأينا أن هناك فروقاً بينهما من ناحية الخصائص الإقليمية والغذاء والتربية والرعاية، لذلك فإن ما يظهره «النقل» الحرفي والارتجالي لمنظومة القوانين الغربية وإحلالها محل القوانين الإسلامية في المعاملات فيه خروج عن الدين وقتل للشخصية المستقلة وتقليد فردي للعالم الغربي وعبودية له لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح.

---

(1) مجلة الأحكام العدلية، أو (المجلة)، وهي مجموعة لأحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات، وضعت من قِبَل لجنة كان على رأسها (أحمد جودت باشا) بعد 7 سنوات من الدراسة. صدرت عام 1868 واستمرت مطبقة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية -ما عدا مصر- حتى سنة 1926 - المترجم.

وترى من مذكرات «علي گيليج» -الذي كان أحد شقاوات مصطفى كمال- كيف أن كل شيء تم بالخداع وتحت ستار من الشعارات الغامضة المبهمة التي لا يعرف أحد وجهها الحقيقي.

«كانت قضية العلمانية مثارة في إحدى جلسات المجلس الأول، وكان الغازي مصطفى كمال باشا يرأس المجلس في ذلك اليوم، صعد إلى المنصة أحد علماء الدين المعروفين في المجلس وبلهجة استهزاء بدأ يتحدث ويقول:

- أيها الأصدقاء!... إن كلمة «العلمانية» على كل شفة... ولكنني -وأرجو المعذرة- لا أستطيع فهم معنى هذه العلمانية...

ولكن مصطفى كمال باشا الذي كان على منصة الرئاسة لم يتحمل، فقاطعه وهو يضرب بيده على المنضدة قائلاً له:

- إنها تعني أن نكون آدميين يا شيخنا... آدميين.

وهكذا أجاب على سؤال الشيخ»[1].

والقضية ليست منحصرة في سذاجة وغفلة الشيخ الذي سأل عن معنى العلمانية بصفاء نية، ذلك لأن الذي نقل هذا الحوار، وكذلك الذين تبنوا العلمانية لا يعرفون معناها أيضاً ولكنهم يشعرون بأنها ضد الإسلام لذلك فإنهم يفتحون لها صدورهم وقلوبهم.

والمنظر البشع الآخر الذي نريد تسجيله في موضوع «القانون المدني» هو منظر وزير العدل (وهو من واضعي هذا القانون) «محمود أسعد» الذي كتب «المقدمة» وملأها بسيل من الشتم والسب للإسلام... منظره وهو يتكلم عن القرآن من فوق منصة المجلس ويصفه بأنه: «قانون الصحراء».

---

(1) ذكريات علي گيليج، جريدة الجمهورية، 1952.

الأحرف اللاتينية:

لنورد أولاً قصتها:

كانت هذه المسألة قد اختمرت جيداً في رأس مصطفى كمال عام 1928، فكما نجح بجرة قلم في قضية القبعة من حيث فشل غريمه أنور باشا في هذا الخصوص، كذلك فإنه كان عازماً على أخذ الحروف اللاتينية وتبنيها وكجواب ورد على فشل أنور باشا في موضوع الأحرف المتصلة التي حاول ترويجها ولكنه فشل فيها[1].

لنسمع الدفاع عن هذه الدعوى من كاتبه الانتهازي «فالح رفقي»:

«بهذه الأحرف اللاتينية كان صبي القرية يستطيع أن يقرأ بشكل صحيح في ظرف أسبوع ما يعجز عنه خريجو الجامعة من الشباب، وكان يدخل بها عالم الكتابة الغربية ويستفيد من كل تسهيلاتها، والأهم من كل هذا أنها كانت تخلص الذهن التركي من المنابع العربية التي كان قد امتدت حتى جذوره، وتجعله ذهناً قومياً. وقد قمت في أمر الكتابة هذه بجهد كبير سواءً بالكتابة في الجرائد أو في مجالس أتاتورك.

وأخيراً طلب أتاتورك في حزيران سنة 1928 في أنقرة من وزير المعارف المرحوم «نجاتي» تشكيل لجنة لهذا الغرض»[2].

أما قصتها فهي كما يلي:

«قمت بنقل الأحرف التي وضعتها اللجنة إلى أتاتورك الذي كان في اسطنبول حيث قام بتدقيقها طويلاً. وقد كان بعض متحدثيه يصرون على حرف (Q)[3]، حتى إن

---

(1) من المعروف أن أنور باشا كان يلبس غطاء رأس أطلق عليه «الأنورية» نسبةً إليه. وكان يحاول ترويجها بدلاً من الطربوش وقد أصبح هذا الغطاء تقليعة لفترة قليلة. ثم إنه حاول أيضاً الإتيان بنظام جديد من الأحرف ولكنه لم ينجح في مسعاه ولما كان مصطفى يغار منه في كل شيء فإنه أراد أن يثبت بأنه ينجح في الأمور التي فشل فيها غريمه – المترجم.

(2) جانكايا، ص439.

(3) من المعلوم أن اللغة التركية الحالية تخلو من هذا الحرف – المترجم.

مصطفى كمال قرر التساهل في هذا الأمر في فترة معينة، ولكننا نجحنا في صرف نظره عن هذا في اليوم التالي.

سألني أتاتورك:

- ماذا فكرتم بخصوص تطبيق الكتابة الجديدة؟

قلت له:

- هناك اقتراحان، أحدهما للمدى الطويل حيث يحتاج إلى (15) سنة، والآخر للمدى القصير ويحتاج إلى (5) سنوات وأصحاب الاقتراح يرون أن تعلم الحروف القديمة والجديدة معاً وأن يخصص في الجرائد للأحرف الجديدة نصف عمود في أول الأمر ثم تزداد المساحات المخصصة لها بشكل تدريجي، كما أن هناك تدابير تدريجية جرى التفكير حولها بالنسبة للدوائر الرسمية والمدارس العالية. تطلع إلى وجهي وقال:

- إن هذا إما أن ينفذ في ثلاثة أشهر أو لا ينفذ على الإطلاق.

ومع أنني كنت راديكالياً بدرجة كبيرة إلا أنني لم أملك نفسي من التطلع إليه في ذهول. قال لي:

- يا بني! لو بقي هناك نصف عمود في الجرائد بالحرف القديم فإن الجميع سوف يقرأون هذه الكتابة القديمة فقط، ولو حدثت حرب أو وقعت أية أزمة داخلية أو ظهر أي شيء غير طبيعي فإن هذه الكتابة ستترك فوراً كما كان الحال مع كتابة أنور.

في هذه الأثناء تخلصنا من خطر حرف (Q) ذلك لأننا كنا نرى أن حرف الكاف الخفيف يكتب بشكل (Ke) أما حرف الكاف الثقيل أي حرف (ق) فيكتب بشكل (Ka) لذلك لم نأخذ حرف (Q) في الأبجدية، وفي مساء اليوم نفسه الذي أحضرت معي اقتراح الكتابة الجديدة قال «كاظم أوزالب باشا» أثناء العشاء على المائدة:

- كيف أستطيع أنا أن كتب اسمي؟ إن وجود حرف (Q) ضروري. فقال أتاتورك:

- ما أهمية حرف واحد؟ دعنا نقبله.

وبهذا كان يحال بيننا وبين تتريك الكلمة العربية، لم أقل شيئاً على المائدة ولكنني أعدت إثارة الموضوع معه في اليوم التالي. لم يكن أتاتورك يعرف الأحرف الكبيرة (الكابيتال) للكتابة اليدوية لذلك فإنه كان يكتفي بكتابة الحرف بحجم كبير. أخذ الورقة وكتب أول حرف من «كمال» بحجم كبير للحرف (q)، ثم بحرف كبير من (k). لم ينل الحرف الأول إعجابه على الإطلاق وهكذا تخلصنا من حرف (q) ومن حُسْن الحظ أن أتاتورك لم يكن يعرف الشكل الكبير لـ (q) أي (Q) لأنه كان أفخم من (K) بلا شك».

وقد أراد أن يقوم بأول تجربته بين الناس في إحدى الليالي الحارة لأغسطس في كازينو «سراي بورنو»... كان مخموراً جداً... وكانت هناك فرقتان موسيقيتان، كانت إحداهما فرقة تركية والأخرى عربية آتية من مصر، وبعد أن يسلق الفرقة الموسيقية العربية بلسانه الحاد على أساس أنهم بعيدون عن روح الموسيقى التركية يبدأ بمحاولة كتابة بعض الكلمات.

«استرجع مني الأوراق التي كان قد أعطاني إياها، ثم قام وحيى الجماهير وألقى فيهم خطبة قصيرة، ثم أشار إلى دفتر في يده وقال بأنه قد سجل فيه بعض الكلمات وأنه سيعطيه لأحد الحاضرين لكي يقرأها، واستدعى من الزحام من يستطيع قراءة الكتابة التركية فأسرع إليه أحد الشباب ولكنه عندما رأى الأوراق وهي مكتوبة بالأحرف اللاتينية وقف حائراً فقال أتاتورك:

«إن صديقكم هذا وقف حائراً لأنه لا يعرف الكتابة التركية الحقيقية. لذلك فإنني سأعطيها لأحد أصدقائي لكي يقرأها» واستدعاني إليه فقرأت الخطبة.

وكانت الجماهير من ساعة اجتماعها وكأنها تنتظر بشرى من نوع ما وكانت هذه هي البشرى، فهاجت الجماهير من أعماقها وقام أتاتورك فشرب نخب الجماهير وأخذت الجماهير تشرب نخبه، وهكذا تحولت تلك الليلة من شهر أغسطس وكأنها ليلة عيد الحرية.

وفي ساعة متأخرة من الليل توجه إلى المرفأ حيث ركب الزورق البخاري بكل صعوبة ثم توجهنا إلى نادي «بيوك آده»[1]. وبينما كنا نتوجه في الحديقة نحو بناية النادي كانت هناك جماعة من النساء والمتزينات والرجال ذوي الياقات و«الفراك» متوجهين نحونا استدار إليَّ أتاتورك قائلاً:

- أيها الشاب! ما كنا نستطيع أن نفعل هنا ما فعلناه هناك.

لقد كان هذا ديكوراً لعهد التنظيمات. أما أتاتورك -ذو النزعة القومية والمتبني للحضارة الغربية- فإنه لم يستطع التكيف أو الامتزاج أبداً مع هذا الديكور، لأنه لم يكن شخصاً يهمه تلميع السطح، بل كان شخصاً يعمل على التغيير.

ثم خرج أتاتورك لتجواله المشهور لتعويد الأهالي على الكتابة الجديدة، كان يقوم بمهمة المدرس المتجول لتعليم الأبجدية وكان من الطبيعي أن يتعود الذين كانوا يجهلون القراءة والكتابة على هذه الكتابة الجديدة لسهولة تعلمهم لها، وعندما رأى أتاتورك أن وجود بعض الإشارات في الأبجدية يؤدي إلى بعض الصعوبات فإنه قرر إلغاءها.

وكنا ننشر كل يوم في صحف اسطنبول نماذج من الكتابة الجديدة ومع أنه لم تكن هناك معارضة علنية إلا أن المحافظين من رجال العلم والأوساط الأدبية كانوا ضد هذا التغيير الجذري، ولو أردتم الحقيقة فإنه لم يكن في أيديهم أي دليل مقنع، وقد أصبح الذين كانوا يشتكون من فقر المكتبة العثمانية يتساءلون عن مصير النفائس والخزينة الماضية من الكتب. ولا شك أن الذين كانوا يقولون بأن هذه الكتابة الجديدة لا تلائم اللغة العربية كانوا محقين، ولكننا لم نرَ لهم أي دليل له وزن بأنها سوف لا تلائم اللغة التركية. أما كون الكتابة الجديدة تبعد الكلمات الأجنبية الموجودة في اللغة التركية من أصلها الأجنبي وتجعلها قومية فإنه يجب اعتباره دليلاً في صالحها وليس ضدها.

---

(1) بيوك أده: إحدى الجزر المأهولة في اسطنبول والتي يؤمها السواح لجمال منظرها - المترجم.

كانت الصعوبة كلها لجيلنا نحن، فقد ترعرعنا على الكتابة القديمة إذ إن كل كلمة تركية كانت بالنسبة إلينا صورة نقرأها بـ «الرؤية» وليست بتهجئتها، وكنا أمام عبء ثقيل إذ كان علينا أن نخسر هذه الصورة وأن نضع في مكان كل كلمة صورة جديدة. وكان من المحتمل أن لا ننجح في هذا حتى نهاية أعمارنا، كان علينا أن نقرأ وأن نتهيأ، ولكن نسبة الذين كانوا يستطيعون القراءة والكتابة لم تكن تتجاوز 5٪-10٪.

لو أن هذه النسبة كانت أكبر من 5٪ فلا شك أنه كان من المستحيل تغيير الكتابة ومع أن الصربيين «الكرواتيين» كانوا يتكلمون اللغة نفسها إلا أن الصربيين كانوا يكتبونها بالأحرف «الكريلية»[1] وكان «الكرواتيون» يكتبونها بالأحرف اللاتينية. وإذا كانت النية معقودة للقيام بثورة في الكتابة فقد كان هذا وقتها المناسب، وكان على الأقلية المتعلمة (والتي كانت نسبتها 5٪-10٪) أن تتحمل التضحية من أجل الأجيال القادمة. تصوروا معي موظفاً يكتب من اليمين ولم تكن له أية علاقة بالأحرف اللاتينية. وكان عليه أن يتعلم كتابة جديدة، لا شك أن هذا كان شيئاً ثقيلاً لا يأنس إليه، ولقد كانت الكتابة الجديدة أكثر الثورات التي قام بها أتاتورك ثقلاً على النفس، وكان من الضروري لمن تبنى شرف التضحية أن يتحمل المعاناة. وقد أراد أتاتورك وكذلك إينونو أن يكونا قدوة للجميع، فإنهما (بعد أن قبلت الكتابة الجديدة) لم يستعملا الطريقة العربية في الكتابة أبداً، حتى إن إينونو كان يفحص دفاتر الملاحظات لأصدقائه ليرى إن كانوا قد تركوا عاداتهم القديمة في الكتابة أم لا.

وكانت المهمة الأولى هي زيادة عدد الذين يقرأون ويكتبون بالطريقة الجديدة على عدد الذين يقرأون ويكتبون بالطريقة القديمة، أي لقد كان ضرورياً أن يخلق جمهور الكتابة الجديدة وقد ولدت من هذا فكرة (مدارس الأمة)».

---

(1) كريليا: إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي. غالبية سكانها من الروس والباقي من الكريليين والفنلنديين - المترجم.

هذه هي القصة الكاملة وكل الأسباب الموجبة لثورة الأحرف. ونحن سندع لتقدير القارئ كل ما حفلت به هذه الأسطر -التي نقلناها من أحد مدّاحي أتاتورك- من زيف وجهل وتهريج إذ لا نرى ضرورة للوقوف على كل نقطة فيها، ولكننا سنورد هنا تقييمنا الشامل للموضوع:

إن الأحرف التركية القديمة ليست تركية أو فارسية أو حتى عربية إنها أحرف إسلامية من منبع عربي، لذلك فإن إلغائها يعني تمزيق الظرف الذي يحمل الروح الإسلامية واندلاق هذه الروح إلى التراب، لذلك فإن تغيير الأحرف يعتبر أكثر «الثورات» إيغالاً في الفساد وأكثرها جناية.

إضافة إلى هذا فإن الحروف التي طرحت جانباً كانت أجمل وأرقى الأبجديات الموجودة في العالم، وقد قال أستاذ التربية الأمريكي «دُقي» الذي كان يزور اسطنبول أثناء الإقدام على تغيير الأحرف «إنكم بطرحكم هذه الأحرف ستفقدون من ناحية ثقافتكم أكثر مما ستخسره أمريكا لو فقدت جميع معانيها».

أما صعوبة القراءة والكتابة بالأحرف القديمة فليست ذنب أو إثم هذه الأحرف ذاتها ولكنها ذنب إدارة وزارة المعارف السابقة التي لم تستطيع تنظيم وترتيب حتى قاموس يحيط بقواعد الإملاء.

ثم إن الأحرف القديمة المتركبة بشكل صورٍ للمفاهيم، وابتعادها عن سطحية «الفونتيك» أي: (أصول التهجي الصوتي) وبتعبيرها التجريدي تكون عاملاً في تربية الذكاء. بينما نرى أن الأحرف الجديدة ببساطتها الغليظة والخاصة بمستوى عرفاء الشرطة، وبنظامها الخالي من الرشاقة تقف حائلاً أمام تربية الذكاء. وهذا الحال يظهر بجلاء أكثر في الجيل الجديد عنه في الجيل القديم، وقد اتفق عالمياً بصدد الذكاء على قبول «طرز الكلمة» الذي يهتم بصور المفاهيم، ولا يمكن العثور بين لغات العالم بأسره على لغة كاللغة التركية (بالأحرف اللاتينية) مسجونة ضمن الجدران الغليظة للـ «الفونتيك» -التهجي الصوتي-.

وأخيراً فإن تبديل هذه الأحرف التي تشكل أكمل منظمة للحروف والتي تحوز على صفة الـ «ستينوغرافي» (أي صفة الاختزال) بحيث يمكن بواسطتها تسجيل أكثر الأحاديث سرعة... إن تبديل مثل هذه الأحرف المسطورة بأسوئها والتضحية -على هذا الطريق- بأسمى معاني الروح بأوطئها وتقديم الشيء الغريب والأجنبي على أنه هو الأصيل وهو النابع عن الأمة وتصوير الأصيل على أنه هو الأجنبي، ونبذ الماضي بأكمله ونبذ تأريخ الأمة بكامله ومحاولة قلع جذور الأمة وشرايين دمائها وطرحها جانباً إنما هي أكبر خيانة يمكن ارتكابها في حق أمة من الأمم... خيانة لا يمكن أن تستوعبها حتى الأساطير،... وإن مسؤولية الخيانة تقع على عاتق مصطفى كمال[1].

الأمور الأخرى:

إن كانت غايتنا هي الحقيقة ولا شيء غيرها فلا بد لنا أن نقول إن الأمة التركية لم تكن تملك قبل الإسلام هوية تتجاوز هوية القوة والسرعة والتأثير المادي التي يملكها السيل أو النار أو الثلوج المتدحرجة، أما لغتها فضيقة وتخلو من المفاهيم المجردة وأكثر مفرداتها مؤلفة من مقطع واحد قصير توازي وتعكس حياة «البداوة» التي كانت تعيشها، ولكن هذه الأمة التركية وجدت روحها وهويتها في الإسلام حيث التقت بواسطته مع المدنية، وأسست إحدى الإمبراطوريات في الدنيا، وأزالت النقص الموجود في لغتها بالاستفادة من أكبر لغتين للعلم في الشرق وهما اللغة العربية والفارسية مع ملاحظة أنها لم تستطع التخلص من ضغط قواعد هاتين اللغتين الكبيرتين الشرقيتين، ولم تدرك أن الأساس هو أخذ الكلمات بمادتها ثم جعلها ملائمة مع الحنجرة التركية ومع النحو التركي... هذه هي اللغة العثمانية -مع الأخذ بنظر الاعتبار المؤاخذة السابقة والوحيدة عليها- وهي اللغة التركية الحقيقية للعلم وللفكر.

---

(1) إن أهم سبب هو ما أرادوه من إقامة حاجز بين الجيل الجديد والتراث الإسلامي المكتوب بالأحرف العربية، فتكون كل المؤلفات القديمة كأنها غير موجودة، وينقطع تأثيرها التربوي الفكري - المصحح.

أما «المنجزات الثورية» لأتاتورك التي أعقبت «المنجزات» التي ذكرناها فإنها لم تكن سوى ضربات موجهة لهدم الإسلام والروح الإسلامية، وذلك بالإتيان بلغة تشبه لغة الضفادع والتي أصبح الأهالي يطلقون عليها اسم «اللغة المختَرَعة»[1] أو «اللغة المصطنعة»، والظاهر أن تيار هذه اللغة قد نجح في الاستقرار والدوام، وكوَّن بذلك البيئة التي انتجت نسلاً كاملاً ميت الروح لا يحمل في جمجمة رأسه إلا دماغاً بحجم البندقة، أما جهازه الهضمي وجهازه التناسلي فممتازان وكاملان!!

ثم جاءت من بعد هذا نظرية فقدت الآن سرعتها، ولم تكن إلا نتيجة لنوع من الهستيريا والجنون، وهذه النظرية كانت تدعي أن أصل الحضارات بأجمعها نبعت من منبع تركي وأن الزمان والمكان بدأا بالأتراك، وأن كل ما له قيمة يرجع إلى الأتراك فقط وأنه لا توجد حياة أو مجتمع أو أي شيء البتة خارج الأتراك. وفي الحقيقة أن هذه النظرية لم تكن تعطي الأتراك كل شيء، بل كانت تحرمهم من كل شيء، وبدلاً من حبهم والاهتمام بهم كانت تظهرهم بشكل منفر وبشع.

ولنشرح «النظرية الشمسية»[2] للغة Günes Dil Tevrisi وكذلك جنون «النظرية التاريخية» -التي أعقبت مأساة الأحرف - بحادثتين طريفتين قل من يعرفهما في تركيا:

يقول «عبدالحق حامد» (الملقب بالشاعر الأعظم) عن الأحرف اللاتينية:

---

(1) عمل مصطفى كمال وأتباعه على حذف الكلمات العربية التي تزخر بها اللغة التركية، وقد غالوا في هذا إلى درجة كبيرة، وكانوا يتبعون في هذا: 1- أسلوب اشتقاق كلمات تركية جديدة: وقد غالوا في هذا فاخترعوا كلمات غريبة وجديدة وبكثرة. 2- أسلوب البحث عن كلمات تركية من بين اللهجات التركية المختلفة. 3- أسلوب أخذ الكلمات الأجنبية (وخاصة الفرنسية) كما هي. ولا يمكن فهم هذه الناحية جيداً إلا بفهم اللغة التركية والتطورات الكبيرة التي حدثت فيها - المترجم.

(2) تدعي هذه النظرية بأن جميع اللغات مشتقة من اللغة التركية - المترجم.

- لقد أضافوا إلى نهاية اسمي كلمة «إت[1] It» في أواخر حياتي !!

وفي أحد الأيام كان عبدالحق حامد مع أتاتورك على يخته... وكان على مقربة منهما بعض هواة «اختراع» الكلمات الجديدة يحاولون «صنع» و«طبخ» أمثال هذه الكلمات... يقترب أحدهم من أتاتورك:

- لقد وجدنا الكلمة المقابلة لكلمة «الشاعر» يا مولاي.

- أليست هي كلمة «وزان Ozan»؟

- وهذه كلمة أخرى...

- وما هي؟

- «كلجيغر Kulcigir».

وهنا لا يتحمل عبدالحق حامد فيقول: يا باشا إما أن «كلجيغر» ليس معناها «شاعر» أو إنني لست بشاعر.

وأطرف من هذا، الجواب الطريف لأحد الكُتّاب المسلمين حول «النظرية التاريخية» حيث يدور الحوار التالي في أحد مجالس السمر:

- يجب الإيمان بالنظرية التاريخية لأتاتورك.

- ماذا تقول؟ هل يمكن الاعتقاد بنظرية لا يقول بها سوى المجانين؟

- وأنتم... كيف تؤمنون بالحوادث التاريخية في الكتب التي تعتقدون بأنها مقدسة؟

- إنها وحي الله لنبيّه

- حسناً... وما الفرق بين أتاتورك وبين النبي؟

---

(1) من المعلوم أن (حامد) يكتب بالأحرف اللاتينية هكذا (Hamit)، و(it) تعني في اللغة التركية (الكلب) - المترجم.

وهنا لا يتحمل الكاتب المسؤول إذ يقول لفوره:

- سأجيبه أنا... هناك فرق بينهما... وهو أنه كانت هناك سحابة على رأس رسول الله... أما هذا فهو السحابة بذاتها[1].

ثم تأتي بعد ذلك قضية سفور المرأة وتعريها والعداء للحجاب، ثم تغيير أيام العطل والجمع وفرض الأذان باللغة التركية والتمهيد والتخطيط لجعل الترجمة التركية للقرآن لغة العبادة بقوة القانون[2]... إلخ... إلخ.

إن كل هذه الأعمال التي تمت للحكم على الأمة التركية بموت لا بعث بعده... كل هذه الأعمال كانت مستقرة في فكر وفي خطط مصطفى منذ مؤتمر أرضروم 1919.

ها هو «مظهر مفيد كانصو» وقد كان من أقرب الناس إليه يقول في كتابه، (ذكريات من أتاتورك، صفحة 222):

«... كان لا يملك نفسه من الإعجاب وأحياناً من التندر بدفتر الذكريات التي كنت أدون فيها كل الحوادث يوماً بيوم وكان يقول:

- عندما تضعف ذاكرتنا فإن دفتر «مظهر مفيد» سيفيدنا.

وعندما رأى أنني أتيت بالدفتر معي قال لي بعد أن أخذ عدة أنفاس سريعة من سيجارته:

- ولكن يجب أن لا تدع أحداً يطلع على هذه الصفحة من هذا الدفتر، سيبقى حتى النهاية سراً بيني وبين «ثريا» وبينك... هذا هو شرطي.

قلنا له أنا وثريا:

- تستطيع أن تكون مطمئناً من هذه الناحية يا باشا.

---

(1) تعبير (السحابة) في تركيا تفكهاً يطلق على الذين يبلغ بهم السكر أقصى حده - المترجم.

(2) لم يتم هذا بحمد الله - المترجم.

بعد ذلك قال الباشا:

- إذن فسجّل التاريخ أولاً.

سجلت التاريخ: 7-8 تموز 1919 قرب الفجر.

بعد أن رأى أنني سجلت التاريخ على الصفحة قال:

- حسناً... اكتب.

ثم تابع:

- ستكون الجمهورية هي شكل الحكومة بعد الانتصار. وقد سبق لي أن قلت هذا لكم بمناسبة إجابتي على أحد أسئلتكم... هذه واحدة.

ثانياً: سيؤخذ التدبير اللازم بحق السلطان والعائلة المالكة عندما يحين الوقت المناسب.

ثالثاً: سيرفع الستر عن النساء.

رابعاً: سيلغى الطربوش وسنلبس القبعة مثل سائر الأمم المتمدنة.

هنا سقط القلم من يدي بدون إرادة... تطلعت إليه... كان يتطلع إليّ، كانت هذه النظرات المتلاقية تحدث كل منهما الأخرى أحاديث كثيرة.

وكنت كثيراً ما آخذ حريتي في الكلام مع الباشا.

قال لي:

- لماذا توقفت؟

قلت له:

- أرجو أن لا تؤاخذني يا باشا إذا قلت لك بأن لك جانباً خيالياً.

قال لي ضاحكاً:

- سيكون الزمن هو الحكم في هذا... أما أنت فاكتب.

استمررت في الكتابة

- خامساً: ستؤخذ الأحرف اللاتينية.

- يكفي يا باشا... يكفي.

وبشعور من سأم من التحليق بعالم الخيال قلت له:

- لو نجحنا في إعلان الجمهورية فإن البقية سهلة.

أغلقت الدفتر ووضعته تحت إبطي وقلت له بلهجة من لم يثق بما سمع:

- يا باشا... لقد أتى الصباح، فإذا كنت لا تزال تنوي الجلوس فاسمح لي أن أودعك...

ثم انسحبت من عنده... كان الفجر قد لاحَ وقد خرج «ثريا» كذلك معي من الغرفة.

ولكن يجب الاعتراف الآن كيف أن الحوادث قد كذبتني وكيف أن مصطفى كمال أخجلني وأفحمني بجملة واحدة منه.

وكان يقول على مائدة العشاء في «جانكايا»:

- هل ترون صديقنا «مظهر مفيد» هذا... عندما قلت له في «أرضروم» بأن التستر سوف يُلغى وأن القبعة سوف تلبس وأننا سنأخذ الأحرف اللاتينية وعندما طلبت منه أن يسجل هذا في دفتره وضع دفتره تحت إبطه وقال لي بأنني رجل يسبح في الخيال.

ولم يكتف بهذا بل أعطاني في أحد الأيام درساً مهماً... كان عائداً من «قصطموني» بعد إعلانه ثورة القبعة، وكان يمر في طريق عودته في أنقرة من أمام المجلس القديم بسيارته، وكنت واقفاً أمام الباب وأنا لا أصدق ما تشاهده عيناي، فقد كانت على رأسه قبعة، وقبعة على رأس رئيس الشؤون الدينية الذي كان جالساً بجانبه.

... بالنسبة إليه لم يكن شيئاً غير اعتيادي، ولكنه كان قد ألبس القبعة لرئيس الشؤون الدينية الذي كان قد جاء لاستقباله. وبينما كنت أراقب هذا المنظر بذهول أوقف السيارة واستدعاني إليه حيث فاجأني بقوله:

- يا عزيزي السيد «مظهر مفيد»! ما هو رقم الفقرة التي وصلنا إليها؟... هل تلقي نظرة على دفتر ملاحظاتك؟».

ونقرأ من بين الأسطر التي يكتبها «عاصم أُص» صاحب جريدة «الوقت» ورئيس تحريرها في كتابه «مشاهداتي، سماعي، مشاعري» صفحة (96-99) العداوة التي كان يشعر بها مصطفى كمال نحو المدارس الدينية ونحو العرب.

«دخلنا إلى المدرسة، كان مكاناً مربعاً بشكل قشلة عسكرية. كانت جميع غرف المدرسة في الطابق الأرضي، وكانت هذه الغرف الصغيرة المظلمة لا تحتوي كل منها إلا على مدفأة... دخلنا عدة غرف... لم يكن فيها أحد... كان معظم الذين يبيتون في هذه المدرسة من الطلاب الذين أتوا إليها من القرى».

«- ما هو اسم الدرس الذي تقومون بتدريسه يا سيدنا الشيخ؟

- درس اللسان العربي.

- أنت تقوم إذن بتعليم الطلبة اللغة العربية؟ أليس كذلك؟

- نعم.

على أثر هذا الجواب استدعى الغازي أحد الطلاب قائلاً:

- خذ هذه الطباشير، وتعالَ إلى السبورة، واكتب ما سأقوله لك وترجمه إلى العربية.

وكما بقي في ذاكرتي فإن الغازي أعطاه الجملة التالية للكتابة:

«كانت توجد عدة عناصر داخل حدود الإمبراطورية العثمانية السابقة، وكان العنصر العربي أحد هذه العناصر. أما الآن فلا يوجد عنصر عربي داخل حدودنا القومية».

قام الغازي واقفاً، وقمنا نحن كذلك، والتفت إلى الشيخ قائلاً له:

- يا شيخنا ! إن البلد يحارب، وهو يحاول أن ينقذ استقلاله ووجوده، وإن من الحرام في مثل هذا الوقت منع الشباب التركي من الذهاب إلى الجبهة وصرف الوقت لصب اللغة العربية في أذهانهم الفتية في مثل هذه الغرف المظلمة. إن أية لغة لا تُدرس بهذا الشكل، لأن قضية تعلم اللغة هي قضية محيط على الأكثر، إن «آق شهر» مدينة تركية في الأناضول ولا يوجد هنا من يتكلم العربية، كذلك فليس هناك أي داع لتعلمها هنا، ذلك لأن العربية اليوم لم تعد لغة العلم والصناعة...

على أثر ذلك ودعونا وانصرفنا، وعندما خرجنا إلى الخارج قال الغازي:

- والآن دعنا نرى المدارس الحكومية.

وكانت هناك مدرسة باسم «الإعدادية» من مدارس وزارة المعارف، حيث توجهنا إليها.

«يا أستاذ! هلا قمتم بتعريف الاعتدال؟»

بدأ المعلم بالجواب هكذا:

- إن الاعتدال يأتي من العدالة.

ولم يدعه الغازي يكمل كلامه:

- إنني لم أسألك من أين يأتي الاعتدال وإلى أين يذهب... لقد سألتك عن معنى الاعتدال. بقي المعلم متردداً مبهوراً... فغضب الغازي وقال:

- إن العدالة هي أن تُرمى من هذه النافذة... ذلك لأنك أنت نفسك لا تعلم شيئاً. فكيف تستطيع أن تعلم هؤلاء الأطفال.

وهكذا خرجنا من الدرس ودخلنا إلى صف آخر كان هنا أيضاً معلم معمم، وكان كتاب القرآن مفتوحاً أمام كل طالب، أما على الحائط فقد كان يوجد بعض الخرائط.

والظاهر أن المعلم علم بنبأ وصول الغازي إلى المدرسة وبأنه دخل الصفوف الأخرى، لذلك فلكي يستر جهله فإنه أمر بإخفاء الكتب الأخرى وبوضع القرآن فقط أمام التلاميذ، وقد انتبه الغازي فوراً لهذه اللعبة... اقترب من أحد التلاميذ وطوى الكتاب الموضوع أمامه وأخذ ينقر عليه بإصبعه وهو يسأل:

- بني! ما هو درسكم الآن؟

أجابه التلميذ:

- جغرافيا.

على أثر هذا الجواب ازدادت حدة الغازي والتفت إلى المعلم صائحاً:

- يا عديم الحياء! إنك تكون نموذجاً سيئاً للخديعة والشيطنة أمام هؤلاء الصبية... ولكي لا أسألك شيئاً فإنك تأمر التلاميذ بفتح القرآن... أليس كذلك؟

ثم خرجنا من المدرسة وعلامات الغضب بادية على وجهه.

وقد أظهر تدقيقنا القصير مدى الوضع الأليم الذي تقاسي منه المدارس الدينية، ولم تكن مدارس وزارة المعارف التي فتحت بجانب هذه المدارس في حالة جيدة، ذلك لأن روح المدارس الدينية كانت قد دخلت فيها أيضاً».

أما رفع التستر عن النساء فلنقرأ كتاب «إسماعيل حبيب».

«ذكريات من أتاتورك»:

«كان المعلمون قد عقدوا اجتماعاً في أنقرة وقد اشتركت في الاجتماع بضعة معلمات جلسن في مكان آخر من الصالة.

ولم يستسغ نواب المجلس من المعممين اشتراك المعلمات في هذا الاجتماع، فذهبوا إلى الغازي ليشتكوا إليه.

غضب الغازي وقال:

- من هو رئيس جمعية المعلمين؟ اجلبوه لي.

وما أن أتى «مظهر مفيد» بعد عدة دقائق حتى قابله بصوت كالرعد:

- ما هذا الذي عملته في اجتماع المعلمين؟... يا للعيب!

وقف «مظهر مفيد» ذاهلاً، إذ هل كان هذا متوقعاً من الغازي؟ أما المعممون فقد كانوا يبتسمون ببشاشة، وكانوا فرحين وكان صوت الغازي يدوي بالقوة نفسها:

- شيء غير معقول أبداً... غير معقول أبداً.

كان «مظهر مفيد» لا يزال واقفاً لا يدري ماذا يقول، ويحاول أن يجد جواباً:

- والله يا أفندم...

- لا... دع عنك هذا، إنني أعرف كل شيء... لقد دعيت المعلمات كذلك إلى الاجتماع، ولكن لماذا جعلتهن يجلسن في صفوف أخرى؟ ألا تثقون في أنفسكم أم لا تثقون في فضيلة المرأة التركية؟ لا أريد أن أرى بعد الآن مثل هذه التفرقة والتمييز... هل فهمت؟ لا أريد بعد الآن...

كان المعممون المبتسمون كمن أصيبوا بالشلل».

أما تغيير الأذان إلى اللغة التركية فإن منطقه المفلوج يظهر القضية وكأنها قضية لغوية وليست قضية دينية.

«تساءل ما يقرب من مئة من المصلين في جامع «أُلو جامع» في بورصة فيما بينهم، عن السبب الذي يجعل الأذان يُقرأ بالعربية في اسطنبول بينما يُقرأ باللغة التركية في بورصة، ثم قرروا الذهاب إلى مدير الأوقاف للاستفسار منه فيقول لهم مدير الأوقاف بأن يذهبوا للوالي بسؤالهم. وهكذا تتجه الجماعة إلى بناية الوالي ولكنهم يجدون أن الوالي ذهب للغداء فيقررون الانتظار أمام بناية الحكومة، ويجلسون على سلالمها المرمرية.

وسرعان ما يصل الخبر إلى البوليس وإلى الجيش وإلى الجندرمة، حيث تتخذ التدابير كما ترسل برقية إلى أنقرة تقول بأن هناك حركة رجعية في البورصة، وكان أتاتورك

آنذاك متوجهاً إلى «أزمير» بالسيارة عندما وصله الخبر وهو في الطريق، وباعتباره صاحب هذه الثورات التي أنجزها لإيمانه بها، لذلك فإنه أسرع متوجهاً إلى البورصة عندما رأى أن أحد منجزاته في خطر، وبعد أن يدقق الموضوع بنفسه يصرح لمراسل وكالة أنباء الأناضول تصريحاً قصيراً:

- إن هذه المسألة ليست مسألة دينية، بل هي مسألة لغوية».

وتأمل حالته الروحية التي تظهر معها القبعة وكأنها تعوضه عن فقد الموصل وتشكل سلوى لديه.

«وفي موضوع القبعة:

تفضل أتاتورك يوماً بالسؤال عن رأيي في هذا الموضوع وكان المرحوم آنذاك في ضيق شديد لكون قضية الموصل انتهت ضدنا. وقد وجدت الجرأة لأن أقول له:

- إن لبس القبعة بالنسبة لهذه الأمة يفوق اكتساب قضية الموصل.

ابتسم أتاتورك ابتسامة خفيفة وأخذ يخفض حواجبه عدة مرات تأييداً وتلطيفاً لي»[1].

ولكي لا يدع هناك أية نقطة لا يقلد فيها أوروبا فإنه تبنى قضية «اللقب» كذلك.

إليكم قصة «اللقب» وكيف غضب على فوزي باشا، وكيف قبل اتخاذ لقب «أب الأتراك وأب القومية التركية».

«بعد صدور قانون الألقاب أخذت بتلابيبه هواية معينة أو الأصح دفع إلى هذه الهواية من قِبَل رواد مجلسه، فالجميع كانوا يرغبون أن يأخذوا ألقابهم منه شخصياً فكان يسأل جليسه عن ترجمة حاله ويختار حرفاً أو حرفين من الحوادث التي مرت عليه ويخلط بينها ليخرج بلقب له، وهكذا فقد ظهرت أسماء غريبة جداً. أما أنا ففي صباح أحد الأيام

---

(1) ذكريات عن أتاتورك، محمود أسعد بوز كورت.

قررت وأنا أتصفح مجلة الـ (Tarame) أن أختار أحب كلمة أجد فيها لقباً لي، وهكذا فإن لقب (آتاي) كان محصول اختيار ذلك الصباح، وقد عمدت فوراً إلى وضع اللقب على مقالاتي في الجريدة. وقد عاتبني أتاتورك في إحدى الأمسيات قائلاً:

- إنك لم تدع لي اختيار لقب لك.

وقد أجبته بما معناه: إنني أكتب كل يوم ولم أشأ أن أتأخر يوماً واحداً في اتخاذ اللقب، وذلك لأنني أعرف مدى اهتمامك بالموضوع.

وكان هو الذي أطلق على عصمت باشا لقب «إينونو» أما فوزي باشا فإنه أصر على لقب «جاقماق» لكونه تقليداً عائلياً. ولم يعجب أتاتورك بهذا اللقب إطلاقاً، ولكن لم يشأ أن يكسر خاطره وكان يقول:

- شيء عجيب... ألا يخشى أن يستهزؤوا بلقبه قائلين «إنه لا يشعل[1]... جاقماق... جاقماق... إن هذا لقب لا يناسب شخصاً قائداً في الجيش».

أما لقبه هو فقد كان تقريباً هدية من المرحوم «صفوت أريكان»، ذلك لأن صفوت وجد له لقب «تورك آتا» ولكن المجلس بعد مناقشات طويلة توصل إلى لقب أكثر تناغماً وأكثر معنى وهو (أتاتورك)»[2].

ونجد أكثر التفاصيل حول كيفية إعطائه لقب «أتاتورك» في المقالة المنشورة في جريدة «أُلوس ulus» في 26/ 11/ 1949 من قِبَل «بهاء أريكان».

وعندما ينقل «بهاء أريكان» -شقيق وزير المعارف السابق «صفوت أريكان» مؤلف هذا اللقب- حكاية هذا اللقب الذي لم يعطِ مثله طيلة عصور التاريخ لأي بطل أو فاتح، بل لم يرَ أي بطل أو فاتح أخذ مثل هذا اللقب الذي يوحي وكأن الأمة بأجمعها إنما

(1) من المعروف أن جاقماق تعني في التركية عدة معاني منها: الدق ومنها الإشعال، والمعنى الأخير هو المقصود هنا - المترجم.

(2) جانكايا، ص567.

نمت وترعرعت منه، ويكاد يقترب من مفهوم «رب الأتراك»... عندما ينقل هذه الحكاية يضع الحقيقة أمام الأنظار بكل فجاعتها:

«... سمعت بهذه الحادثة لأول مرة في سنة 1935 عندما كنت في ثانوية «گلته سراي Galata Saray» من أستاذي المرحوم «إبراهيم نجمي ديلمن» الذي كان أستاذاً لتاريخ الأدب. فقد قال لي:

«إن أتاتورك أخذ لقبه عندما أعجب بكلمة «أتاتورك» في إحدى الخطب التي كان أخوك قد كتبها». وعلى أثر هذا سألت المرحوم أخي الكبير عن هذه الحادثة، ولكنه - اتباعاً لقاعدة «كتمان السر» الذي ذكرته سابقاً- لم يجبني وبقي صامتاً ولكنه لم ينكر كذلك، وقد أعدت سؤالي هذا له عدة مرات وفي مناسبات مختلفة ولكنني كنت أقابل دائماً بالصمت. وقبل وفاته بسنة أو بسنة ونصف أعدت عليه السؤال نفسه.

كان في إحدى ساعاته التي يصبح فيها منفتح القلب لجليسه، في مثل هذه الساعات كان يصبح رمزاً للحب الخالص، وكانت عيونه تبرق كالنجوم.

قال لي وعيناه تبرقان: «لقد سألت عن هذا كثيراً سأخبرك عنه» ثم جلب من مكتبته مسودة الكليشة التي قدمتها هنا، كانت هذه المسودة موضوعة بعناية داخل ظرف مربوط (بعد وفاته أُخرجت هذه المسودة التي كانت محفوظة بالعناية نفسها من خزانته الخاصة في بنك الزراعة).

قال لي:

في سنة 1934 وقبل أن أتولى وزارة المعارف عينت رئيساً لجمعية التدقيق اللغوي وذلك في مؤتمر اللغة. وبعد المؤتمر بمدة قصيرة كان هناك عيد اللغة في 26 أيلول، وكان عليّ أن أكتب خطبة بهذه المناسبة. في هذه الخطبة كما يظهر من المسودة - كنت أبدأ بهذه الجملة: «مرشدنا الكبير أتاتورك[1] مصطفى كمال» ولم يكن أتاتورك حتى ذلك التاريخ -

(1) Ata Turk مؤلفة من قطعتين Ata بمعنى الأب. و Turk بمعنى الترك، أي أب الأتراك - المترجم.

بالرغم من صدور قانون اللقب- متخذاً لقباً له. وقد أعطيته ورقة الخطبة فما أن رأى كلمة «أتاتورك» حتى وقف عندها واهتم بها وأخذ يكرر هذه الكلمات لعدة مرات ثم قال: «إنه اكتشاف جميل جداً ولكنه يحمل ادعاءً كبيراً» ولكنه بالرغم من قيامه بتصحيح المسودة إلا أنه أبقى كلمة أتاتورك على حالها. وكانت هناك أيضاً في نهاية المسودة كلمة «أب للأتراك Turk Atasi» حيث وجدها تحمل ادعاءً أكبر لذلك فإنه صححها إلى «أتاتورك» ولم يقل شيئاً آخر. وبعد مدة لا بأس بها من إلقاء خطبتي اتخذ الغازي مصطفى كمال «أتاتورك» لقباً له».

ودون أن يخجل فإنه يتخذ كلمة «أتاتورك» لقباً واسماً له بعد أن استعمله أحد عبيده كصفة له ثم يسن قانوناً بهذا الخصوص للإيحاء بأن هذا الاسم أُطلق عليه من قِبَل الأمة، وفي هذا القانون الذي كان عبارة عن 3 فقرات ينبذ اسم «مصطفى» ويحتفظ بـ «كمال» فقط.

نص هذا القانون:

1 - أُعطي لقب «أتاتورك» لرئيس جمهوريتنا الحامل لاسم «كمال».
2 - يعتبر هذا القانون سارياً من تاريخ نشره.
3 - على المجلس الأعلى تنفيذ هذا القانون.

ولا حاجة لنا أن نسهب في سبب نفوره من كلمة «مصطفى» ولا أن نسهب في رغبته القوية لدعوة الناس إلى عبادته فهنا نتركه لكم. وبعد فترة يغير اسمه من «Kemal» إلى «Kamal».

أما الشيء الأخير الذي يمكن قوله بخصوص «المنجزات الثورية» لأتاتورك هو أن الظلم المعنوي والروحي الذي تحمله هذه المنجزات لم يستطع أن يعمله أي ظالم أو كافر في الدنيا حتى ولا نمرود.



الفصل السابع

جانكايا

بؤرة الرذيلة والفضيحة والجناية

لطيفة هانم:

عندما دخل مصطفى كمال إلى أزمير في أعقاب النصر استقبلته فتاة شابة ومن عائلة كريمة على عتبة قصرها. كانت هذه الشابة الصغيرة من عائلة «أشّكزاده» وقد تلقت تربية حديثة إفرنجية ولكنها كانت محافظة على عفتها قد نالت قسطاً لا بأس به من الثقافة والتربية، ولكونها تمثل إحدى العوائل العريقة والكبيرة في أزمير فإنها كانت تقدم قصرها لمن كانت تحسبه بطلاً قومياً، ولا شك أن من وراء هذا التقديم كان يختفي شعور الإعجاب كذلك وشعور بالاستعداد لتقديم النفس كذلك.

وقد تم هذا، إذ تزوج مصطفى كمال لطيفة مستفيداً من شهرته ومن ألقابه الجديدة بعد أن عجز من التزوج بصبيحة ابنة السلطان وحيد الدين.

ومن الأيام الأولى لزواجها تصاب لطيفة بالذهول والدهشة أمام الحياة الخاصة والداخلية لهذا الشخص الذي كان مظهره الخارجي براقاً جداً. إذ رأته شخصاً سكيراً، ذا أخلاق لا تحتمل، لا يعرف طعم الهدوء والسعادة العائلية ورأته شخصاً مصاباً بمختلف العادات والتصرفات السيئة وغير الطبيعية، فهو لا يتأخر عن القيام بأعمال لا يقوم بها

المجانين إذا خطرت بعقله، فمثلاً إن الحادثة التالية التي ترويها لطيفة هانم تظهر كيف أن مصطفى كمال كان أغرب تصرفاً من السلطان المجنون الذي كان يحاول ركوب الزورق وهو على حصانه:

«... كان هذا في أيام زواجنا... كنا في أزمير وكان عليه أن يقضي حياة هادئة وأن يرتاح حسب أوامر الأطباء. وقد استطاع مراعاة هذه النصائح لبضعة أيام فقط. وفي إحدى الليالي التي أرِقَ فيها قال لي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل:

- لطيفة... إنني أرغب الآن في ركوب تراموای.

كان من الممكن شرح استحالة العثور على تراموای في تلك الساعة لأتاتورك، ولكن عدم تنفيذ رغبته كان يمكن أن يحزنه. قلت له:

- ماذا لو استرحت؟... ثم إن الوقت متأخراً جداً.

أجابني:

- إنني أريد ركوب التراموای مستفيداً من تأخر الوقت.

- حسناً... إذن لنؤمن لك ذلك.

وفي الساعة الثانية يتم الاتصال تلفونياً في الحال حيث يهيأ تراموای ذو حصان.

- التراموای جاهز وتحت أمركم.

وبعد أن أخذ مرافقيه معه توجهنا كلنا نحو التراموای... لم يكن هناك أحد غير السائق... اقترب أتاتورك من السائق وسأله:

- هل تسوقُ الحصان بالسوط؟

- طبعاً يا باشا... إذ هل يمكن سوقه بدون سوط؟

- لماذا لا يمكن؟

- نحن لم نرَ هذا.

صعد أتاتورك إلى جانب السائق.

- أعطني مكانك لكي أسوق الحصان بدون سوط.

ترك السائق محله على الفور حيث أخذ أتاتورك الأعنة في يديه وبدأ في سوق أحصنة الترامواي بدون سوط:

- ماذا ترى... هل أستطيع السوق؟

- يا باشا... إنك تسوق أفضل مني.

- إنني مثلك شخص مكلف بالإدارة، وقد قمت بإدارة مئات الآلاف من الناس وجعلتهم يسيرون نحو الطريق المؤدي إلى الموت بكل رحابة صدر ولكن لم أستعمل السوط ضد أي واحد منهم»[1].

هل كان منظر الترامواي الذي استُقدم سائقه، ورُبطت أحصنته في الساعة الثانية من الصباح -أي في الوقت الذي يكون فيه الإنسان والحيوان مستغرقاً في النوم- ومنظره وهو يجوب الشوارع الصامتة لأزمير وخاصة إذا كان سائقه هو رئيس الدولة... هل كان هذا المنظر دليلاً على العبقرية أم على الخبل في نظر الزوجة الشابة؟

ثم نرى الزوجة لطيفة هانم في قصر «جانكايا» الذي كان مباءة للفجور والفضائح والجرائم... مثل هذا البيت -أو بؤرة الفساد- ما كان يحتمل وجود زوجة فيه، لذلك لم يستطع أن يقبل وجود لطيفة هانم فيه إلا لفترة قصيرة حيث لفظها وتقيأها خارجاً كما يطرد الجسم أي شيء غريب وغير قابل للهضم.

---

(1) عالم التاريخ، ص2.

وقد حاولت لطيفة هانم في الأيام الأولى أن تلعب دور الزوجة المسيطرة على بيتها، كما حاولت البحث عن إمكانيات التدخل في جو قصرها وفي محيط زوجها، ولكنها كانت ترجع كل مرة بالخيبة واليأس.

سُكْر وعربدة وفسق وفجور وحاشية من المنافقين لا أول لهم ولا آخر...

... لم تستطيع أن تقف حائلاً أمام أي شيء. وسرعان ما عرفت أنها ليست سوى صورة كُتبت تحتها عبارة «لطيفة هانم زوجة رئيس الجمهورية مصطفى كمال» وأنها إذا كانت ترغب في البقاء في «جانكايا» فإن عليها أن تبقى على هذا الأساس... على أنها صورة فقط، بل إنها حتى ولو رضيت ببقائها كصورة معلقة على الحائط لا تنطق أبداً فإنهم سوف لا يدعونها وشأنها بل سيقذفون بهذه الصورة من النافذة. ولكنها مع ذلك لم تثر أية مشاكل واحتملت. ونظراً لكون بعض من المناظر وحوادث الفجور والفضائح -التي سنقدمها فيما بعد- قد حدثت في الأيام التي كانت زوجة فيها فإن من السهل تصور المناظر القبيحة التي كانت تحدث أمام ناظريها من سُكْر وعربدة وفسق بالنساء والولدان.

ويخبرنا «رضا نور» في كتابه بأن مصطفى كمال كان مصاباً بسيلان مزمن وأن التحاليل المتعددة التي تمت لفحص إدراره (بوله) كانت تثبت وجود الميكروب المسمى بـ (كونوكوك Gonokak) وهكذا فإن أول هدية من مصطفى كمال -الملقب بالغازي - إلى زوجته تكون هي مرض السيلان.

ويعطي «رضا نور» في شرح هذه الحادثة تفاصيل كثيرة مستهجنة إلى درجة أنه مع أن الأسلوب العلمي والضرورة العلمية يقتضيان تقديم كل شيء كما هو، إلا أن شعور الحياء اضطرنا إلى حذف بعض الكلمات.

«كانت لطيفة امرأة ذكية وذات ثقافة عالية وكانت عنيفة عنف الرجال، وقد اهتمت بهذا الرجل وكان هذا واجباً عليها، حتى إنها قالت لي بأنها كان تكتب خطب ورسائل مصطفى كمال وتقوم بإدارة المقابلات التي تتم مع الأجانب وكانت تشكو لنا من مصطفى كمال لانغماسه بين النساء والخمر. وكانت لطيفة صديقة حميمة لزوجتي وقد

اشتكت عندها عدم استطاعة زوجها القيام بوظيفته كرجل، كما أنها كررت هذه الشكوى لـ «غالبة» ثم سمعت ما يؤيد ذلك من فتحي... ثم...ويا للغرابة مرضت لطيفة بداء السيلان.

... إن لطيفة امرأة عفيفة إذن فلا بد أن زوجها عندما كان يحاول أن (...) نَقَلَ إليها مرض السيلان المزمن... ثم دعوا الدكتور كنعان توفيق لمعالجتها. والدكتور كنعان هو صهر «خالد ضياء» الذي هو عم لطيفة. وعندما كنت في موسكو أخبرني «علي فؤاد» كيف أن مصطفى كمال عديم الرجولة، ذلك لأنه يعرفه منذ أن كان طالباً في الكلية الحربية، إذ كان عاجزاً من ذلك الوقت...» [1].

وإذا وضعنا جانباً الأسلوب المستهجن لهذه الأسطر فإن الحقيقة التي تحصل عليها هي حقيقة مدهشة ولكونه يورد هنا حتى اسم الطبيب الذي قام بالعلاج فإنه لا يبقى مجال للشك. أما «غالبة» المذكورة هنا فهي زوجة «فتحي أوكيار».

إذن فإن لطيفة هانم -بالرغم من تلقيها تربية عائلية -لم تكن تتورع عن إذاعة سر عقم زوجها.

كم هي مسكينة لطيفة! هذه الشابة التي كانت بنت عائلة طيبة والتي جاءت لتدفئ قلبها وعذريتها مع هذا الشخص الذي لم يستطع أن يسكن مع أمه ولا مع أخته والذي لم يعرف طعم الهدوء النفسي والدفء العائلي والمحروم من نعمة الأولاد (لأنه كان عقيماً بسبب إصابته بالزهري) والمحكوم عليه بأقسى أنواع الوحدة... جاءت لتجد الدفء عنده فإذا بها تجمد هي نفسها عنده.

والآن ننقل هنا هذه الأسطر المذهلة التي لا يستطيع القلب تحملها من كتاب «رضا نور» (حياتي وذكرياتي، الجزء الرابع، صفحة 1356-1358): والكلمات التي نستحي من نقلها تترك أماكنها منقطة:

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1252-1253.

... وفي أحد الأيام فوجئنا ببلاغ رسمي يقول بأن مصطفى كمال طلّق لطيفة وقد أجرى هذا الطلاق بقرار وزاري... وهذا مخالف للقانون المدني، ذلك لأن الطلاق -حسب هذا القانون -يتم برضاء الطرفين، أو يتم من قِبَل المحكمة بعد اقتناعها بوجود سبب كافٍ. وقد تخطى المجلس الوزاري القانون والمحكمة وأعطى هذا القرار، هاكم مثالاً على مدى رعاية مصطفى كمال للقانون! إنه يضع القانون المدني ثم يكون هو أول من يدوسه ويعلن عنه كذلك، وهذا ما يفعله عصمت أيضاً. وهو لا يتورع في سبيل بقائه في منصبه عن اقتراف الجرائم والمذابح[1]، لذلك فإن هذا لا يعتبر شيئاً بالنسبة إليه. وأن لطيفة لا تزال تعتبر من الناحية القانونية زوجته وإذا مات فيجب أن ترثه.

جاءت لطيفة إلى اسطنبول، وكانت في الفترة الأخيرة منقطعة عن زوجتي أما علاقتها مع «موهبة»[2] فقد كانت جيدة بينما كانت الزيارات منقطعة بين زوجتي وبين موهبة. وما أن جاءت لطيفة إلى اسطنبول حتى أرسلت في طلب زوجتي حيث أخبرتها ببعض الأمور المهمة وأخبرتها عن حادثة الطلاق وقالت لها: «ليحضر الدكتور[3]... فلديَّ حوادث مهمة له».

والظاهر أن إسماعيل -شقيق لطيفة- وزوجته «ملاحت» بنت «ثريا باشا» قد جاءا إلى أنقرة قبل حادثة الطلاق بيومين حيث أصبحوا ضيوفاً في «جانكايا» وكان مصطفى كمال يستخدم عنده في تلك الفترة ابناً لخالد ضياء اسمه «وداد» وذلك بصفة كاتب، وكان وداد هذا شاباً جميلاً أمرداً. وفي إحدى الأمسيات وبعد أن انتشر الظلام خرج إسماعيل وملاحت إلى الشرفة حيث فوجئا بمنظر وداد وهو (...) بمصطفى كمال بجانب إحدى الأشجار !! فأسرعا باستدعاء لطيفة حيث شاهدت هي كذلك المنظر... قامت القيامة بعد ذلك إذ قالت لطيفة لمصطفى كمال: «لقد رأيت كل شيء فيك، وتحملت كل شيء

(1) يقصد مصطفى كمال - المترجم.

(2) السيدة موهبة هي زوجة عصمت إينونو - المترجم.

(3) المقصود هو صاحب المذكرات، الدكتور رضا نور - المترجم.

ولكنني لا أستطيع تحمل هذا!». انسلّ الغازي (!) وذهب إلى بيت عصمت حيث قال هناك: سأطلق هذه المرأة الآن. وفي الصباح الباكر قام عصمت بدعوة مجلس الوزراء للانعقاد حيث قرروا الطلاق. ثم أخذ عصمت لطيفة إلى القطار حيث حاول التسرية عنها ولكن لطيفة صاحت به «اسكت، اسكت!... يا عصمت باشا... يا عصمت باشا، لو أنك تأخرت يوماً واحداً عن التزلف إليه لعمل بك أكثر ما عمل بي، وأنت آلة في يديه على الدوام!» وبعد مدة غير يسيرة قلت لعصمت في أنقرة بأنني رأيت لطيفة، تطلع إليّ ثم قال: لقد كانت هذه مأساة، بينما كان معظم غضب لطيفة منصباً على عصمت وكانت تقول: «إن عصمت هو السبب في كل هذه الأمور».

كان مصطفى كمال في المدة الأخيرة لا يقر له قرار، إذ كان يريد العودة إلى طراز حياته السابقة وكان ضجراً من سيطرة وتحكم لطيفة في موضوع شرابه وفحشه لذلك فإنهما كانا يتشاجران كل يوم، وعندما رأى «صالح»[1] وأعوانه هذا فإنهم أصبحوا جميعاً ضد لطيفة وأعلنوا الحرب عليها.

وحسب ما ترويه لطيفة كانت شقيقتها الصغرى ضيفة عندها في تلك الأثناء وقد حاول مصطفى كمال الاعتداء عليها ولكن البنت تخلصت من يديه بصعوبة وهرعت إلى غرفة شقيقتها... دخل مصطفى كمال إلى الغرفة وفي يده مسدس، احتضنت الأخت الكبيرة شقيقتها وأصبحت ستراً بينهما... سحب مصطفى كمال الزناد ولكن لحُسْن الحظ فإن خادمه «بكراً» -الذي كان ينجز كل أعماله والذي كان عنده منذ فترة طويلة- أسرع إليه وأمسك بيده فطاشت الرصاصات...ويقال إنه أطلق ثلاث طلقات.

وبعد الطلاق أرسل مصطفى كمال إلى لطيفة (50) ألف ليرة ولكنها لم تقبل ولكن والدها «معمر بك» حصل على بعض الامتيازات التي أعطاها له الغازي. وكان مصطفى كمال يستودع لطيفة أوراقه المهمة، وعندما طلقها استرجع منها هذه الأوراق.

---

(1) كان هذا أحد جلاوزة مصطفى كمال في القصر - المترجم.

كانت لطيفة تحقد أكثر شيء على عصمت وكانت تقول: «إنه السبب في هذه المصيبة».

وقد جاء «توفيق» -رئيس الكُتّاب- ومن بعده «محمود سيرتلي» إلى لطيفة حيث أبلغوها رسالة الغازي لها: «عليها أن لا تُحدِّث أحداً بشيء، وإذا بلغني شيء فستكون هذه نهايتها». وقد خافت لطيفة ولزمت الصمت.

إن هذا المنظر الفاضح الذي يقدمه «رضا نور» لا يكاد الإنسان يصدقه حتى ولو رآه بأم عينيه لكونه غريباً لا يقبله العقل، خاصة من ناحية «الإخراج» ويظهر أن الكذب يشوبه.

ولكن حتى إن قبلنا أن الكذب يشوب هذه القصة فإن درجة الصدق فيها حتى لو بلغت واحداً من الألف فإن النتيجة تبقى نفسها وهي أن لطيفة هانم لم تلفظ خارج قصر جانكايا إلا لسبب عصيانها على الفسق والفجور الموجود فيه.

والغريب أن حضرة الغازي هذا يشرح سبب زواجه كما يلي:

«كان الغازي عندما يشرح سبب زواجه يقول:

- لم أكن أريد أن أتزوج من أجل الزواج فقط، إذ كان عليّ أن أكون مثلاً يُحتذى لنوع من الحياة الجديدة في وطننا، وإلا فهل كان على المرأة أن تبقى بهذا الشكل الغريب المنفر؟»[1].

هل أعجبكم هذا؟ هل أعجبكم هذا النموذج من الأسوة الحسنة للعائلة التركية الجديدة؟

ولتعلم هذه المرأة[2] التي لا تزال حية والتي لزمت الصمت المطبق -نتيجة للضربة المعنوية الكبيرة التي أصابتها والتي أذهلتها عن نفسها- بأنها مطالبة أمام الله وأمام التاريخ بالكلام.

(1) ذكريات عن أتاتورك، إسماعيل حبيب سووك، ص276.

(2) يقصد (لطيفة هانم) التي لا تزال على قيد الحياة - المترجم.

وفي الكتاب الجديد الذي أصدره «فخر الدين آلتاي باشا» باسم «10 سنوات من الحرب وما بعدها». يقول في صفحة (403) بأن أتاتورك بعد أن طلق لطيفة اتخذ طوراً معيناً أمام بعض مراجعاتها له وتحدث عن هذا الموضوع حديثاً خاصاً. ولو كان هذا صدقاً وحقيقة فإن التنازل بمد يد السؤال وإحناء الرأس له بعد هذه الصورة من الفراق لا يشرف هذه المرأة.

«... حدثني عن زوجته المطلقة وكان قد أمر «محمود بك» بإيفاء ديون والد زوجته السابقة «معمر بك» في أزمير، كما أخبرني بأن «لطيفة هانم» أرسلت بواسطة «رضا نور» بعض مطالبها، إذ كانت ترجو أن تحصل على وظيفة كتابية في إحدى السفارات أو على وظيفة مدرسة في إحدى المدارس، وتقول بأنها تخشى النزول إلى الشارع خوفاً من التعرض للإهانة وقد كبُر عليها إعراض بعض معارفها عنها، لذلك فإنها ترى بأنها إن حصلت على وظيفة فستجد الفرصة لقضاء وقتها. وكان أتاتورك يحدثني بهذا بكل هدوء وبكل حياء ولكنه لم يفصح عن نيته».

ومن بين ضحايا مصطفى كمال في جميع الميادين فإن «لطيفة أشاكلي كيل»[1] تمثل أكثر ضحاياه مدعاة للشفقة والرثاء في ميدان المرأة.

ولو أن أحد الأشقياء خطفها وصعد بها إلى أحد الجبال لتبقى هناك حتى موتها لما كان حالها أسوأ من كونها زوجة مصطفى كمال.

ونحن نلمح بين سطور ذكرياتها التي بدأت بنشرها في جريدة «الحرية» في حزيران عام 1973 معلومات قيِّمة عن الحياة الخاصة لمصطفى كمال بالرغم من خفوت صوتها مراعاة للظروف الراهنة المعلومة[2] فمثلاً:

(1) أشاكلي كيل: لقب عائلة لطيفة هانم.

(2) هناك قانون يحمي مصطفى كمال من أي هجوم أو نقد. أي أن أي شخص يتجرأ لنقده كلاماً أو كتابةً فإنه يكون عرضة للعقوبة والسجن - المترجم.

«... ولكنهم بالرغم من أنهم كانوا يشربون قليلاً فإنهم كانوا يسقون زوجي الخمر دون توقف وكم من مساء راقبت مائدة الشرب من النافذة. وبينما كان يكتفي «گيليج علي» و «نوري جونكر» و«رجب زهدي» بقدح واحد فقط حتى الصباح فإن زوجي كان يُفرغ في جوفه عدة قنانٍ من الخمر. وفي الأيام التي لم يكن يشرب كان يقوم من النوم في الصباح متألقاً وكأنه سيف مشهر على الأعداء. ثم كانت هناك الأمسيات التي يشرب فيها... نعم إنه كان ينهض من الفراش دون تدلل ولكنه كان يجر قدميه وكأنه يحتذي أحذية من الرصاص. ولو أنهم كانوا يشفقون على الدولة وعلى الأمة -ولا أقول عليَّ- لما كانوا يحرضون مصطفى كمال على الإفراط في الشرب وهم الذين كانوا يقولون له دائماً: «لا يتم أي شيء بدونك» ولما أهدروا وقته هذا الإهدار»[1].

والشيء الوحيد الذي نحب أن نضيفه إلى هذه الأسطر هو بيان المحاولة الحزينة لـ «لطيفة هانم» لنقل الذنب من صاحبه الأصلي وإلصاقه بالآخرين.

إن هذه المرأة التي هي الآن على شفا القبر تعلم أشياء كثيرة ولكنها تبدو فزعة إلى درجة كبيرة بحيث يصعب جداً جعلها تصرح بأي شيء طالما هي على قيد الحياة ولكننا قد نجد أنها تركت شيئاً ما بين مخلفاتها بعد موتها.

مائدة الوليمة:

إن فالح رفقي الذي كان بطل العالم في الانتهازية والرياء والذي لو قال له أتاتورك مشيراً إلى منارة: «هذه بئر» لأجابه: «نعم... صحيح إنها بئر حُفرت من أسفل إلى أعلى»... هذا الانتهازي يصور مائدة وليمة سيده في بداية كتاب «مذكرات أتاتورك» كما يلي:

«كانت مائدة العشاء لمصطفى كمال -منذ أن كان گول آغاسي[2] في سالانيك - اجتماعاً سياسياً ولم تكن مائدة شرب ولهو فقط. ولم أقضِ أنا في أية مدرسة ساعات عمل

---

(1) جريدة الحرية، 8 تموز 1973.

(2) گول آغاسي: رتبة عسكرية عثمانية بين الرائد والمقدم - المترجم.

جدية كما قضيتها في اجتماعات العشاء في جانكايا. أما اللهو في مثل هذه الاجتماعات فلم تكن إلا بمثابة فرصة الراحة الموجودة في المدارس».

وبعد صفحة واحدة يصف كيف أن سيده لم يكن يهتم عند ذكر البيت أو القصر إلا بالغرفة التي توضع فيها مائدة الشرب.

«عند تهيئة الخرائط لبيته طلب أن يخصص أفضل مكان في الطابق الأول لغرفة الطعام».

وتأمل زيف «الديما غوجيه» فعلى عكس ادعاء هذا الانتهازي فإن الفكر والسياسة لم يكونا على مائدته سوى «مازة»[1] وسواء اعتبرت أنه كان يشرب العرق من أجل «مازة» أو أنه كان يأكل «المازة» من أجل العرق فإن النتيجة واحدة وهي أنها كانت موضعاً لغياب وإبطال عقل وشعور الإنسان.

ولو كانت الغاية هي الفكر والسياسة فما الداعي إلى وجوب كونها فقط على مائدة الشراب؟ هذا مع أن الفكر والسياسة يستوجبان الابتعاد عن الخمر. ثم ما هو نوع الفكر أو السياسة التي تتولد من الخمر على هذه المائدة؟ ليس مثل هذا الفكر والسياسة نابعين من الخمر ومتفرعين منه كما تتفرع الأغصان من جذع الشجرة؟ وألا يشترك الغصن مع الجذع في الجريمة بكل تناسق؟

ولم تصدر «المنجرات»! المعلومة وما بعدها والتي كانت بلاءً على رأس هذه البلاد إلا من مجالس الخمر هذه.

ولنضع هنا أمام الأنظار -بقدر علمنا وبقدر ما قرأنا من النصوص حول هذا الموضوع- ما كانت تجري على مائدة الخمر هذه من أمور سافلة فنبدأ بكتاب (ذكريات عن أتاتورك، صفحة 49) حيث نشاهد كيف يفسر الشراب لوالي أنقرة السيد «نوزاد»:

(1) المازة: أي ما يؤكل من المأكولات الخفيفة عند شرب الخمر - المترجم.

«... كان السيد «نوزاد» يتحمل الشراب وكان مسروراً جداً من المديح الذي كان يوجهه إليه الغازي.

- الظاهر أن الوالي شخص ناضج... إن الشراب إما أن يُشرب حق الشرب أو لا يُشرب على الإطلاق، والذين لا تتحمل رؤوسهم الخمر عليهم أن يبتعدوا عنه.

ثم التفت حالاً إلى الوالي السيد نوزاد طارحاً عليه هذا السؤال:

- هل يجب تنفيذ الأوامر حالاً سواء أصدرت في حالة سُكْر أو في حالة طبيعية؟

- يا باشا... إن أوامركم تنفذ دون قيد أو شرط.

- ولماذا يكون هذا؟

- ذلك لأنكم تمثلون الأمة كما أنكم رئيس الدولة والآمر المطلق فيها يا باشا.

- كلا!... إن كل أوامري تنفذ لأنه لا تصدر مني أوامر لا يمكن تنفيذها».

وفي صفحة (57) من الكتاب نفسه يسجل هذا الحوار مع امرأة تسمى «مدام هونزز» حيث يشي هذا الحوار بحالة السُّكْر الشديد التي كان فيها:

«قال:

- يا مدام! إذا وجد رجل بجانب امرأة فإن أصوب تصرف هو أن تعطي القيادة للرجل.

كان هذا تصرف أطفال!... ومع هذا فإنني قلت بجرأة كبيرة:

- اسمح لي يا باشا أن أقول العكس تماماً... ماذا لو تركتني أقودك لمرة واحدة فقط. لم يغضب، على العكس من ذلك بدأ بالضحك:

- إذا حاولت امرأة أن تقود شخصاً يقود بلداً فإن ذلك البلد سوف ينهار... تعالي ولنجلس معاً في مكاننا. أمسك بيدي حيث أجلسني بجانبه».

إن هذه الحادثة القصيرة تظهر كيف أن أتاتورك كان عاجزاً عن الوقوف وعلى قيادة المرأة في الرقص وتظهر كيف ينتقل من الخمر إلى الفكر ومن الفكر إلى الخمر.

وهو على مائدة الشرب هذه لا يعرف زماناً ولا مكاناً ويتصرف على أساس أنه لم يأت للدنيا شخص يفوقه ولسوف لن يأتي كذلك. فعندما يشبهه السفير الفرنسي «كوت شامبرون» بالإسكندر الكبير[1].

- يجيبه بأن الإسكندر الكبير أهمل وطنه. أما الذين يصفونه بأنه مثل «نابليون» و«بسمارك»[2] فإنه يجيبهم بأن نابليون -الذي كان من ألمع العسكريين في العالم- لم يكن سوى مغامر يركض وراء التاج. أما «بسمارك» فلم يكن إلا شخصاً خادماً للملوك. وفي الصفحة نفسها من الكتاب نفسه نراه يقول لأجنبي يدعى «كلاديس بيكر»:

- «لا يوجد أبداً أي شيء أرغب فيه لا أستطيع إنجازه».

هذا هو الطريق من الفكر إلى الخمر ومن الخمر إلى الفكر.

في الكتاب نفسه (صفحة 82، 85) هناك ذكريتان: «حاول فالح رفقي آتاي» أن يرفعه بهما إلى السماء دون أن يدري أنه يخسف به إلى باطن الأرض.

الحادثة الأولى تظهر كيف أنه كان يفخر بذنبه بدلاً من الخجل منه والأخرى تعطي مثالاً جيداً على ريائه ونفاقه:

الأولى:

«في إحدى زيارات أتاتورك لأزمير هيئت وليمة كبيرة في بيته المطل على «الكورنيش» وبعد أن تم حضور المدعوين لاحظ الوالي بأن الجمهور الذي تجمع في الشارع يتطلع إلى داخل غرفة الوليمة فأمر بإسدال الستائر ولكن أتاتورك قال:

---

(1) ذكريات عن أتاتورك، ص60.

(2) المصدر السابق، ص64.

- أيها الوالي! ماذا يعتقد هؤلاء الناس أننا فاعلون هنا؟

إنهم لا يشكون بأننا نتناول الشراب، ولكنهم الآن سيظنون بأننا جلبنا نساءً للرقص فوق هذه المنضدة لذلك ولكي يروا بأننا لا نفعل شيئاً أكثر من تناول الخمر فأرى أن تأمر بفتح الستائر.

كان يشمئز دائماً من الوقوع في الرياء وإخفاء ما كان يفعله.

وفي إحدى المرات وبعد ليلة صاخبة جداً من اللهو ذهبت إلى بيته في «جانكايا» وقلت له:

- لم يكتب عن حياتك حتى الآن باللغات الأجنبية سوى الكُتّاب الأجانب. نحن بجانبكم ونعرفكم أفضل منهم فلو سمحتم لي مع «يعقوب قدري» بكتابة كتاب عن حياتكم ومنجزاتكم.

وضع جانباً عصا البلياردو وتطلع إليّ قائلاً:

- وهل تكتب في الكتاب ما رأيته في الليلة الماضية؟

قلت له:

- وما الداعي إلى الدخول حتى في هذه التفاصيل الخصوصية يا سيدي العزيز.

- ولكن إن لم تسجل هذه الأمور فإنني لن أكون مفهوماً».

وفي أحد الأيام يرفع كأسه في محل عام حيث يخاطب الجماهير قائلاً:

- إن هذا كان يشربه السلاطين والخلفاء ولكنهم كانوا يخفون ذلك عن الجماهير. أما الآن فإنني أشربه علناً.

وهناك منظر آخر يُظهر النظرة التي كان ينظر بها إلى الحاشية التي كان يحيط نفسه بها. ويعطي نموذجاً للنفاق والرياء.

في إحدى الأمسيات أشار إلى أحد المدعوين في وليمته قائلاً للمرأة التي كانت في رفقته:

- إنك لا تعلمين مقدار حقارة هذا الشخص. إننا نضع كل أنواع الزبالة في صندوق القمامة، ولكننا عندما نقوم بتفريغ هذا الصندوق يبقى على الدوام بعض الزبالة الملتصقة في القعر. وهذه البقايا تبقى ملتصقة بالقعر مهما حاولت التفريغ، وهذا الشخص مثل هذه البقايا.

فقالت المرأة بدهشة: ولكن لماذا إذن تدعوه إلى مائدتك يا باشا؟

- آ... هذا شيء لا تستطيعين فهمه يا بنيتي.

ولا يمكن لأي مثال أن يصف حاله على المائدة مثلما تصفه المقالة التي نشرها «حسن جميل جاميل» -وهو من الوزراء السابقين- في جريدة «دنيا» بتاريخ 30/ 8/ 1952. في هذه المقالة يوجد حوار طويل بين مصطفى كمال وبين الرسام «إبراهيم جالّي» -الذي كان سكيراً بدرجة مصطفى كمال، وهذا الحوار الذي يشبه حوار «القراقوز» يشي بحالة سكرهما الشديد حيث تلتوي ألسنتهما وتلتوي أفواههما. أحدهما يعتبر نفسه عبداً والآخر يعتبر نفسه إلهاً.

«جالّي: يا رئيسنا العظيم! لقد دعوتني إلى مجلسكم وقلتم لي بأن أتكلم... كم أنت عظيم لأنك تدعوننا إلى الكلام ثم تستمع إلينا.

الغازي: نعم... لقد تكلمت وقد استمعت إليك ومثلما هذا من حقك فإن من حقي ومن صلاحيتي أن أتكلم إليك وإلى الأمة كلها.

جالّي: إن امتلاك شخص مثلك حظ جميل، ولقد كان هذا الحظ من نصيب الأمة التركية.

الغازي: إن من الجميل أن أبناء القومية نفسها أن يوجدوا معاً وأن يتحابوا وأن يتبعوا الإحساس السامي النابع من شعور الوحدة. ولو استطعت أنت باعتبارك منتسباً إلى الفنون الجميلة تسجيل هذا لأسديت إلى الأمة جميعاً بل إلى البشرية خدمة كبيرة.

جالّي: يا رئيس الجمهورية الكبير...

الغازي: كلا!... إنني لا أتكلم معك هذا المساء بصفة رئيس جهورية ولكن بصفة مواطن. وإذا كنت تحبني لأنني رئيس جمهورية فلا قيمة لهذا الحب، لأنه يوجد في هذا البلد على الدوام رؤساء الجمهورية. إني عندما أرفع الكلفة معك وعندما أتكلم معك كمواطن أفكر في صفة المواطنة فقط، وإلا فإنه لا يكون هنا تناسب.

جالّي: لقد قمتم بإنقاذ هذه القومية والله... كلا... ليس والله.. ولكن أحلف بالياسمين ذي الرائحة الزكية.

الغازي: دع هذا الموضوع بهذا المقدار... لا يوجد الآن الغازي مصطفى كمال، إذ لا أستطيع التحدث معك إلا تحت شروط متساوية. وهذا ما يجب أن تعلموه عندما تتكلمون معي.

جالّي: أيها الباشا الكبير.

الغازي: كلا... لا يوجد باشا.... لقد أصبح صفراً.

جالّي: أيها الباشا الكبير... عندما قمت بوضع هذا الشكل... القوم...

الغازي: جميل... انتهى. هل ستتحدث أنت فقط؟ إن الإنسان غريب. فالفنانون يحسبون أنهم وحدهم المنفعلون، وعندما يكونون في مكان فإنهم ينسون أن غيرهم كذلك منفعلون، بل منفعلون أكثر لذلك فإنهم لا يدعون لغيرهم فرصة الكلام.

وفي هذه الأثناء قام حسن جاويد بك بإلقاء خطبة قصيرة ورجا إبراهيم جالي أن يرسم هذا المنظر القومي والتاريخي في لوحة.

الغازي: إنني رئيس دولة، أصحب معي رجال الدين ونواب الأمة. وأنا الآن بجانبك في ظروف متساوية، لذلك فإن التقاط هذا التجلي الجميل يقع على عاتق الفن.

جالّي: لقد اعتمدت عليك الأمة التركية... اعتمدت الأمة التركية على مصطفى كمال.

الغازي: إنك تتحدث شعراً... إن هذا العرق يعطي النشوة للإنسان ولكنه لا يعطي لهم الفن، وأنت تجد النشوة فيه ولكنك لن تستطيع أن تجد الفن فيه.

جالّي: أيها الباشا الكبير. إن لي لوحة موجودة في قصر «فندقلي»

الغازي: وما أهمية قصر «فندقلي» وأنا في الحقيقة لا أحب القصور، وعندما أذهب إلى اسطنبول بصفة رئيس دولة أضطر إلى البقاء في المكان البارد الذي يسمونه «قصر دولمه باغجه». إنني لا أجد الراحة فيه، بل أجد الراحة في البقاء في البيت».

إن جو مائدة الشراب هذه تجده نفسه في كل مكان إذ يحيط بحياته كله: تجده في جانكايا وفي دولمه باغجه. في اليخت وفي القطار، في السهل وفي الجبل، في الريف وفي حمامات الاستشفاء بل حتى في جبهة القتال، في الخيمة وفي المكتبة. لذلك ننهي موضوع مائدة الشراب هنا لننتقل إلى المواضيع الأخرى.

الفحش:

في الأيام الأولى لوجوده في أنقرة بدأ حياة الفحش في مدرسة الزراعة التي كان مسكناً له ومقر عمل ثم استمر في هذه الفحش عندما انتقل إلى «بافيون» المحطة ثم تابع هذا الطراز من الحياة في جانكايا حيث وصل فيه إلى الحضيض.

اقترف في الأيام الأولى جريمة شنعاء قد تفوق جريمة من يزني بأمه أو بابنته والذي يقدم للجمهور على صفحات الجرائد بحروف كبيرة كمثال للوضاعة والحقارة. ذلك لأن مصطفى كمال يأتي في أحد الأيام وبعد منتصف الليل إلى إحدى مدارس البنات المسماة بـ «دار المعلمات» ويأخذ بالقوة إحدى البنات اللواتي سبق وأن (وضع عينه عليها). أليس قيامه بهذا وهو رئيس دولة، أي مكلف بكل المقاييس المعنوية والمادية بحماية هذه العذراء التي تعتبر كبنت له، جريمة تفوق جريمة الأب الزاني ببنته؟!

«في اليوم الثاني لوصولي إلى أنقرة جاءتني «شاهناده هانم» مديرة دار المعلمات حيث أخبرتني بتفاصيل حادثة شنيعة وقعت عندما كنت في روسيا. قالت:

«في إحدى الليالي وبعد منتصف الليل جاء مصطفى كمال مع ياوره صالح إلى باب المدرسة بسيارته وأخذوا إحدى البنات وذهبوا بها. وفي اليوم الثاني راجعت السيد «حميد صبحي» وزير المعارف وشكوت إليه الأمر فقال إنه يعتبر بمثابة أب لهؤلاء البنات. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل، يجوز أنه أحب البنت فأخذها.

فذهلت من كلامه وتذكرتك وقلت في نفسي: لو كان موجوداً هنا لأقام الدنيا وأقعدها».

استفسرت الأمر من النواب فعلمت أن هذه الحادثة أثارت ضجة في المجلس وأن قسماً من النواب قرروا طلب التوضيحات حولها فخاف «مصطفى كمال» وقام بتزويج هذه البنت بأحد مرافقيه من الضباط بعد أن تمتع بها عدة أيام، وقد رُقِّيَ هذا الضابط بعد مدة.

هذه الحادثة كانت حادثة قبيحة جداً وخالية من الشرف، فهذا الشخص الذي جاء إلى رأس الدولة والأمة على أساس أنه يعمل لإنقاذ حياة وشرف هذه الأمة، يذهب إلى المدرسة ويأخذ جبراً بنات الأمة البريئات ليفسق بهن، إنه يخطف البنات مثل قطاع الطرق»[1].

وهو يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدي بكل معارفه وإمكانياته سمساراً لشهواته. والتفصيلات التي يعطيها «رضا نور» تفوح برائحة الصدق. ذلك لأنه يعترف بها بعيبه كذلك.

«جاءني توفيق رشدي في أحد الأيام وكانت القلنسوة البلشفية ذات القسم العلوي المعمول من القطيفة الحمراء على رأسه كالعادة. شكوت إليه حاجتي إلى النساء فقال لي: «هذا من أسهل الأمور». وفعلاً جاء إليّ في المساء ومعه امرأتان. أكلنا وشربنا ثم نمنا مع المرأتين... يحيى توفيق رشدي! إنه دائماً هكذا يقدم خدماته وهو من عدة سنوات يقدم

(1) حياتي وذكرياتي، الجزء الثالث، ص821.

خدماته لمصطفى كمال وقد جعل بيته في أنقرة «ماخوراً» له. وقد أصبح الآن وزيراً للخارجية يشار إليه بالبنان»[1].

أما «صالحة» زوجة «روشان أشرف أناي» -المؤلف على حد زعمه- والذي لازمه منذ البداية فهي من عشيقاته الدائمات.

كانت صالحة هذه امرأة جركسية، وفي السنة الأولى من وجوده في أنقرة قدَّمها زوجها إلى مصطفى كمال. وفي أحد الأيام أطلق عليها «صالح» -ياور مصطفى كمال- رصاصة، فأصاب قدمها. انتشر الخبر ولكن لم يعرف أحد السبب وقد كان من عادة مصطفى كمال أن يحتفظ بالمرأة لمدة 10-15 يوماً ثم يلفظها. وقد لفظت هذه المرأة كذلك. وبعد لوزان ذهبت المرأة وحدها إلى «نيس» وفيها بعد أخبرني حماي كيف أن صالحة أتت إلى «نيس» وكيف أن المسكينة بقيت بدون مال وكيف أنه أشفق عليها وأخذها معه في سيارته للفسحة. فقلت له:

«آه يا باشا! إنك زير نساء مشهور، ولك في هذا المجال تجربة كبيرة، ولكن هل بقي من لم يضاجع هذه المرأة؟ لقد تأخرت في هذا كثيراً ولم تصادفها إلا عندما أصبحت وحيدة». ولكنه سرعان ما قطع الحديث[2].

وقراءة الأسطر التالية تكفي لشرح ماهية هذه المرأة وماهية زوجها وكذلك المستوى السافل لحاشية مصطفى كمال.

«... كان «روشان» قد جلب معه زوجته كذلك، وكانت هذه المرأة كل يوم مع رجل آخر... فرنسيين... إلخ، وترقص في أحضان رجال من مختلف المِلل. روشان مخمور في الفندق وزوجته مع رجل آخر إما في الفندق أو في النزهة. الكل يرى هذا الوضع. وانتشرت أخبار تصرفاتها بين وفدنا ولكن «روشان» غير مبالٍ بشيء. وفي أحد الأيام كان

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص763.

(2) المصدر السابق، ص1002.

يتحدث مع أحد الفرنسيين في صالة الفندق، وكنت جالساً على مائدة قريبة منهما فبدأ يمدح زوجته لهذا الفرنسي وبدأ بالقول بأن زوجته صديقة حميمة لمصطفى كمال، أما أنا فقد ذهلت. ولكن حدث شيء أفجع من هذا. ففي أحد الأيام كنت وعصمت جالسين في صالة الفندق مع بضعة من مشاوري عصمت. دخل «روشان» وجلس... كان مخموراً وبدأ أيضاً بالحديث عن زوجته قائلاً: «لقد ضجرت صالحة هنا، وقد علمت أن المسيو (....) يريد الذهاب إلى باريس، فقلت في نفسي: لتذهب صالحة معه في باريس لأنها لم ترَ باريس بعد وقد أرسلتها مع المسيو حيث سيبقيان هناك عشرة أيام»... نظر بعضنا إلى بعض بدهشة... كان هذا قواداً... وكان يقول هذا بدون أي خجل، كان هذا المسيو أحد الكُتّاب في الوفد الفرنسي»[1].

أما «فكرية» فقد كانت من جنس «صالحة» عشيقة دائمة لمصطفى كمال وأقدم منها بكثير ولكن عندما رأى مصطفى أنها ليست من النوع الذي يمكن لفظها بسهولة قتلها.

«... انتشر نبأ مفاده أن «فكرية هانم» انتحرت... ما السبب؟ يقال إنها ذهبت إلى جانكايا ولكن لم يُسمح لها بالدخول لذلك فقد انتحرت من حزنها. وعندما تزوج الغازي أعطى لعشيقته هذه مبلغاً من المال وأرسلها إلى أوروبا. وبعد أن ساحت هذه المرأة في أوروبا قفلت راجعة. ولكن لطيفة لا تتحمل أبداً هذه المرأة، وهذا شيء طبيعي.

كانت لنا جارة في محلة «البكيجي» التي كنا نسكنها وهي من أهالي أنقرة الأصليين، وكانت صديقة حميمة لزوجتي وكانوا يملكون بستاناً قريباً من جانكايا، وقد حكت هذه المرأة:

«دوّى صوت طلقة، فأسرعنا إلى النافذة وسمعنا امرأة تصيح: لقد ضربوني بالرصاص... النجدة... ألا يوجد من ينقذ؟ ولكن بعد فترة انقطع صوتها».

(1) حياتي وذكرياتي، ص1002.

إذن فإن فكرية لم تنتحر، بل قُتلت بالرصاص، وهذا العمل تم إما بأمر من مصطفى كمال أو بأمر من «لطيفة»، وهذا هو الشيء المنطقي ولكن لا أظن أن لطيفة تتجرأ على اقتراف مثل هذه الجريمة. وعلى أي حال فإنها دخلت إلى قائمة ضحايا مصطفى كمال بعد أن قضت كل هذه المدة عشيقة له. والغريب أنه لا المحكمة ولا أي شخص حقق في هذا الأمر حيث مرّ كأنه لم يحدث. ولم يبدأ جهاز العدل في التحقيق مع سائق العربة الذي أوصلها للقصر أو مع الجيران»[1].

والآن سيظهر على المسرح من تبقّى حتى أواخر عمر أتاتورك عشيقة له. وهذه المرأة التي تحمل الآن لقب «الدكتورة» و«البروفسورة» والتي لا ندري مع من تعيش هذه العجوز بالنقود التي ورثتها عن أتاتورك. هذه المرأة وقعت في يد صائدها في سن مبكرة، ولكن لم تمضِ فترة طويلة حتى استطاعت من النجاح في صيد صائدها ولما كانت هذه المرأة قد استطاعت الاحتفاظ برغبة أتاتورك بين راحتيها طيلة 13-14 عاماً دون انقطاع وبشكل ملازم له فلا شك أنها كانت تملك في هذا الأمر قابلية خارقة لأنها نجحت في شيء لم ينجح فيه أحد قبلها. ما سر هذه القابلية؟

من الناحية المادية لا شك أنها عبقرية امرأة شهوى في تكملة الرجولة الناقصة للباشا وفي إزالة العجز عنه.

أما من الناحية النفسية -فمثلها مثل الناحية المادية- فلا شك أنها كانت متعلقة بسيدها تمام التعلق وخاضعة له تمام الخضوع، تنفذ له كل رغباته غير الطبيعية. بل تكون عوناً له كذلك. وكانت تقوم له بدور المساعدة وبدور الباحثة في مجال شهوته. والخلاصة: القيام بالتكيف والانطباق الكلي مع كل رغبات أتاتورك ومجاراته وتقليبه بين أناملها.

وهكذا فإن هذه «الاستراتيجية» و«التكتيك» التي اتبعتها «آفة» -وكأنها ضابط ركن متمرس- في جو من الخضوع كانت كافية للإحاطة بأتاتورك والسيطرة عليه

(1) المصدر السابق، ص1291.

فاستحقت بذلك رتبة العشيقة الدائمة - ثم انفتح الطريق أمامها للحصول على نياشين درجة الدكتوراه والبروفسورة.

يبدأ «رضا نور» بقصة «آفة» هانم هكذا:

«كان مصطفى كمال قد ذهب إلى «قونية» وهناك زار إحدى المدارس حيث أعجبته إحدى المعلمات فأخذها وجلبها معه، وقد قضى معها بعض الأيام من اللهو ثم أرسلها إلى أوروبا للدراسة. أي أنه يتصدق على عاهراته من مال الأمة.

ثم ذهب إلى أزمير حيث أعجبته هناك الطالبة «آفة»[1] البنت الصغيرة لأحد الموظفين في دائرة الغابات. أخذها وجلبها معه ليفسق بها، ثم أرسلها هي الأخرى إلى سويسرا للدراسة. وكان قد أرسل من قبل عشيقته «فكرية» كذلك. هذه هي عادته على الدوام. كان والد هذه الفتاة في «سينوب» سابقاً حيث ذهب من هناك إلى أزمير... كانوا يعرفون هذا في سينوب وقد وصفوا شكل الفتاة... إذن فإنه ما أن يرى بنتاً ويعجب بها فإنه يخطفها كما يخطف الأشقياء النساء ويصعدون بهن إلى الجبال... ثم إنه يقوم بهذا الخطف من المدارس.

إذن فإنه رجع إلى سابق عهده قبل الزواج وبمقياس أكبر... والآن فإن «آفة» بجانبه وهي تحتل المرتبة الأولى عنده وهي عنده بصفة معلمة و«مؤرخة!» [2].

عندما كتب رضا نور هذه الأسطر كنت «آفة» لا تزال في أيامها الأولى بجانب أتاتورك لذلك فإنه لا يعرف كيف أن هذه المرأة الفنانة استطاعت أن تقود هذا الوحش بأسلوب الخضوع والعبودية له.

وينتقل «رضا نور» بعد موضوع «آفة هانم» إلى شرح حياة المومأ إليه من ناحية الفحش العام.

---

(1) حياتي وذكرياتي، ص1359.

(2) ذلك لأنها تخصصت في دراسة التاريخ في الخارج ثم رجعت إلى بلدها - المترجم.

ولم يقتصر الأمر على هذا... فمن كل الجهات أصبحوا يقدمون له النساء... فهناك محامي اسمه «لطفي» وله زوجة بلغارية جميلة جداً قدمها له حيث أخذ بعض الامتيازات في مشروع «بارون»... والآن هناك سيل من النساء ينهمر على جانكايا... وقد أصبح من الصعب تعداد عدد القوادين. ومع الأسف فقد كان هناك بعض الناس الشرفاء الذين اشتركوا في هذا.

وفي أحد الأيام خابر نائب «كوتاهيا» «نوري» من قصر جانكايا إلى مجلس الأمة، وكان على الطرف الآخر، نائب سيواس السيد «راسم». وقد قصَّ علينا السيد راسم فيما بعد القصة.

فقال إن «نوري» قال له: «أين الدكتور عمر شوقي؟ إنه كان قد وعد بجلب بنت «مفيد بك» إلى الباشا. وقد أرسلنا السيارة ونحن في الانتظار». وقد صحب الدكتور «عمر شوقي» البنت وقدَّمها فعلاً في اليوم نفسه إلى مصطفى كمال. وقد اشمأز كل من سمع بهذا من النواب، وأصبح هذا موضوعاً للحديث مدة عدة أسابيع، والحمد لله فإن هناك شرفاء كثيرين في المجلس. وقد قطع الجميع السلام عن «عمر شوقي»، وقطعت أنا كذلك السلام عنه، مع أن هذا الشخص كان انتهازياً فقط ولكنه كان شريفاً، وقد كان خادماً مخلصاً كالكلب للاتحاديين، إذن فقد كنا مخطئين عندما حسبناه شخصاً شريفاً، فالانتهازي لا بد أن يكون غير شريف، وأنا أعتبر الآن هذه القاعدة دستوراً... كان هذا الشخص أحمق ولكنه أصبح دكتوراً وميرالاياً Miralay ونائباً... وقد أصبح الآن مقاطَعاً من الجميع، عند ذلك أحس بالأمر فشكى إلى أحدهم قائلاً: «ماذا أفعل يا أخي ؟! لقد أخطأت مرة واحدة فجلبت امرأة للغازي، لقد قاطعني الجميع». ولم يفلح هذا الشخص بعد ذلك إذ أصبح غير قادر على حضور المجلس، والغريب أن مصطفى كمال لم يجعله نائباً في المجلس الثالث، وكان آنذاك في ضيق مالي شديد وقد رجا بعضهم من مصطفى كمال مساعدته ولكنه رفض وأصبح يشتمه. لا أدري ما السبب؟ علماً بأن الرجل قام بالقوادة له كذلك. مع أن القوادة كانت أروج حرفة.

... وأخيراً لم يتحمل عمر شوقي فمات وذهب لحال سبيله إذ عرف في النهاية وخامة فعلته فلم يتحمل قلبه.

وفي أحد الأيام انتشر خبر مفاده أن «خليل باشا» -الذي كان عماً لأنور باشا- قد استقدم زوجته من اسطنبول وقدّمها إلى مصطفى كمال قائلاً لزوجته «قبِّلي الغازي وكأنه أخوك» فقال مصطفى كمال: «ولماذا مثل الأخ؟... قبِّلي كالعادة».

وبقيت المرأة عدة ليالٍ في جانكايا، بينما قضى خليل تلك الأيام في بيت «علي سلطانوف» الذي كان يحاول آنذاك الحصول على امتياز للبترول في أنقرة، ثم رجعت المرأة بعد ذلك إلى اسطنبول، ويقال إنها كانت جميلة، وكان «خليل» يرغب آنذاك في الحصول على امتياز للبترول وكان بجانب ممثل الرأسماليين «علي أشرف سلطانوف» الذي كان من أهالي «باكو». وقد سمعت فيما بعد تفاصيل هذا الأمر في باريس من «سلطانوف» هذا فقد قال لي: «كان خليل باشا قواداً ممتازاً فقد كنت بجانبه عندما استدعى زوجته برقياً ثم قدمها بيده إلى الغازي». وقد أعطى الغازي لخليل 3000 ليرة كمصاريف جيب.

«ولم يقتصر سوق النساء على هذين النوعين أي على خطف البنات من المدارس وتقديم هذا وذاك النساء إليه من أجل الحصول على امتيازات أو على المناصب أو على الهبة السلطانية، فإضافة إلى هذين النوعين فإن مصطفى كمال كان يأخذ زوجة أو بنت أو أخت هذا أو ذاك جبراً».

ولم تمضِ فترة طويلة حتى انتشر بين الناس أنباء حادثة أخرى وهي أن مصطفى كمال دعا نائب رئيس الأركان «كاظم أورباي باشا» مع زوجته في إحدى الليالي إلى جانكايا حيث سقاه الشراب حتى أسكره، وعندما ثمل المسكين وأصبح نصف نائم أرسله إلى بيته بالسيارة ثم تسلى مع المرأة وفي الصباح أرسلها هي كذلك.

«وكان لا يخفي هذه الأمور بل يقولها لكل من يلقاه، كما كان يتبادل هذه الأحاديث مع حاشيته وما تمضي ساعات حتى تكون أنقرة كلها قد سمعت بالخبر، وقد أخبرني مرة كيف أنه ضاجع أخت «سعيد الجركسي».

ثم إن ساكني[1] جانكايا كانوا يضاجعون هؤلاء النساء، وكان هذا نوعاً من التهام لحم الصيد الذي يقع. لقد أصبح «جانكايا» محلاً للدعارة لا مثيل له.

لقد تألمت كثيراً لحال «كاظم» واحترق قلبي من أجله، فهو شخص محبوب وشريف وذو أخلاق ممتازة وعسكري قدير وقد لعب دوراً مهماً في كسر شوكة الأرمن في «قارص» وكان هناك رئيس أركان حرب «قره بكر».

إن هذه الأمور لا يمكن أن تعد أو تحصى، فهي مثل قصص ألف ليلة وليلة وقصص معبد فينوس إذ نجد هنا كل أنواع الفحش، فحفلات إطفاء الأنوار وغيرها كلها تحدث... إن كتابة كل التفاصيل شيء يطول كما أنها مستهجنة.

وبجانب مرور الفنانات على مسرح الفحش في جانكايا وتعريهن، فقد كانت هناك ما بين 20-30 من النساء والفتيات الشابات المختارات بشكل خاص وهو يدعي أن قسماً منهن ما هن إلا «بناته بالتبني». وهناك واحدة منهن مشهورة جداً وكانت قد درست الرقص في ألمانيا، وكانوا يدعون أنها لا تقوم إلا بتدريب مصطفى كمال وأعوانه على الرقص وقد أرسلها كذلك إلى أوروبا فيما بعد وعند عودتها أهملها. فهذا الرجل بعد أن يلهو بالمرأة يرسلها إلى أوروبا. لا أدري حتى الآن سر هذا التصرف.

ثم ما لبث أن ظهرت موضة جديدة... موضة البالو والرقص وذلك على أساس أننا أصبحنا مدنيين وعصريين... هذا هو ادعاؤهم، إذ لا بد من حجة تبرر انغماسهم في شهواتهم. أصبحت أنقرة مسرحاً «للبالوات» الباذخة وكانت الفضائح الكبيرة وحتى المشاجرات تحدث فيها، إذ يأتي إليها مصطفى كمال مخموراً ويبدأ بالتحرش بالنساء. ففي إحدى المرات عندما كان يراقص بنت سفير فرنسا أمسك بنهدها فأسرعت البنت مع والدها وتركا الحفلة، وفي إحدى المرات رقص مصطفى كمال مع ضابط أمرد بدلاً من رقصه مع امرأة، ثم قام بتقبيله وهنا قالت بعض النساء للغازي: «لا يجوز هذا ونحن هنا»

(1) المقصود هنا حاشية مصطفى كمال من مرافقين وكتاب وموظفين... إلخ - المترجم.

وقد سرّ لهذا القول. وفي إحدى المرات عندما رفض أحدهم وهو السيد «مبارك» أن يدع ابنته تراقصهم قام صالح وأعوانه بضربه ضرباً مبرحاً إلى درجة أنه حُمل إلى المستشفى بعربة الإسعاف.

ولا تحدث هذه الأمور أبداً في البالوات في أوروبا ولكن هؤلاء قلبوا البالوات إلى أماكن يصول ويجول فيها الأشقياء، هذا هو مستواهم ومستوى مجالسهم وحكومتهم.

وقد بالغ مصطفى كمال في فضائحه هذه، إذ إنه قام في إحدى الحفلات وعلى مرأى من الجميع بتقبيل زوجة عصمت باشا، وعندما قال له من حوله: «ما كان لك أن تفعل هذا» قال لهم: «لماذا لم تخبروني؟»... كان هذا عذره... وكان عصمت هناك أيضاً ولكنه لم ينبس ببنت شفة، ولو كان رجلاً شريفاً لما تردد في إطلاق النار على مصطفى كمال. وقد سمعنا التفاصيل الأخرى لهذه لحادثة من «مهرة» هانم زوجة السيد «حسين» الذي كان في «روبرت كوليج»[1] وكما ذكرت سابقاً فإن «موهبة» امرأة شريفة ومتدينة، فبالرغم أن زوجها يفتقر إلى الشرف فهي شريفة، وقد ذهبت فوراً إلى بيتها وهي تبكي. وكانت «مهرة» ضيفة عندها، وقد حدثتها بالأمر وهي تبكي وما لبث عصمت أن دخل عليها حتى قال لزوجته: «لماذا تبكين؟ لم يحدث شيء ذو بال... ثم إنه بمقام أخيك» يا للعجب!!... هذا يليق بعصمت، إذ إنه يتحمل ويقبل بكل شيء من أجل البقاء فقط في منصبه. وهو فعلاً باقٍ في منصبه إذن فمن يدري أية أمور أخلاقية وإدارية وملية يتساهل فيها ويقبلها»[2].

إن هذه المقتبسات الطويلة التي أخذناها من رضا نور تبين كيف أن أعراض زوجات أو بنات أو أخوات الوزراء أو قواد الجيش أو النواب أو رجال الأعمال... الطالبات أو المعلمات كانت يُضحى بها دون اعتراض على مذبح شهواته. أما اسم هذا المذبح الذي أحال مجتمعاً بأسره إلى منتسبي محل دعارة... اسم هذا المذبح هو «جانكايا».

(1) روبرت كوليج: معهد أنشأه الأمريكيون في اسطنبول - المترجم.

(2) حياتي وذكرياتي.

وإن من أفجع المعلومات التي يقدمها «رضا نور» هو أنه لم يعد يهتم بالضوابط الدبلوماسية وأنه لم يعد يعير أية أهمية للفضائح التي يسببها أمام الأجانب لذلك فإنه يقوم بالاعتداء على بنت سفير فرنسا. أما الدليل القطعي والبرهان الأكيد الذي يؤكد وقوع هذه الحادثة فهي المذكرات التي نشرها مؤخراً «فخر الدين آلتاي باشا» أحد قواد مصطفى كمال -والذي لا يزال على قيد الحياة بعمر يتجاوز التسعين عاماً- والتي أراد فيها إظهار مصطفى كمال كبطل قومي.

في هذه المذكرات التي تحمل اسم «عشر سنوات من الحرب وما بعدها» يقوم هذا الباشا -مثله مثل غيره من المداحين- بإظهار حقيقة مصطفى كمال بشكل قد لا يستطيع تحقيقه ألد أعدائه. وهذا الباشا الذي استضافه مصطفى كمال (11) يوماً في جانكايا والذي لم يهمل تسجيل حتى قائمة بأسماء الأطعمة المقدمة على مائدة مصطفى كمال في مذكراته لا يستطيع إخفاء الفضيحة مع أنه حاول سترها.

«افتتح أتاتورك الرقص بالرقص مع بنت سفير فرنسا إذ لم تكن زوجة السفير موجودة. كان جمال البنت قد أخذ بألباب الجميع، وامتلأ مكان الرقص بالراقصين على الفور، وطلب مني أتاتورك الرقص مع إحدى بناته[1]، وبعد الرقص قدمت الفنانة رفعت ثريا بعض الرقصات بجسمها العاري.

«كان منشرح الصدر جداً وكان يتجول هنا وهناك حيث يتلاطف مع الجميع، وكان أحياناً يجلس ليشاهد العرض، أما سفير فرنسا فإنه كان قد أخذ ابنته وانسلّ من الحفلة دون أن يظهر نفسه لأحد... واقترب الصباح وأخذ المدعوون يتركون الحفلة واحداً إثر واحد» وعندما بلغت الساعة الرابعة صباحاً قال لي: لنذهب الآن. خرجنا معاً وفي السيارة أخذني إلى جانبه وعندما تحركت السيارة وضع رأسه على صدري وغفا. كان

(1) لم يخلف أتاتورك أية ذرية، والبنات المذكورات هنا هن (بناته بالتبني) وقد سبق ذكر القصد الحقيقي من هذا التبني! فهو لم يتبنَّ في حياته سوى البنات الجميلات!! إذ لم يتبنَّ طفلاً أو شاباً والغاية واضحة هنا ولا تحتاج إلى تعليق - المترجم.

شعره الذهبي المتناثر على صدري يثير أقوى المشاعر في قلبي. كنت أقبّل هذا الشعر وأشمه. ولأول مرة كنت أرى أتاتورك مخموراً إلى هذه الدرجة وهذا كان نتيجة لتأثير الضباط[1]، وعندما بدأ الظلام ينحسر من جهة الشرق كنا قد وصلنا إلى باب القصر وما أن وقفت السيارة حتى فتح عينيه متسائلاً: هل وصلنا؟ ونزل من السيارة وتمنى لي ليلة سعيدة ثم دلف إلى الداخل. أما أنا فقد توجهت إلى غرفتي حيث استغرقت في نوم لذيذ وهكذا انطوت تلك الليلة الجميلة بين صفحات التاريخ»[2].

«جاء رئيس الوزراء فأجلسه على يساره حيث قال له بأنه وفق إلى تصفية آثار حادثة سفير فرنسا في حفلة ليلة العيد حيث أخبر السفير بشكل مناسب بأن المعاملة التي تعرضت لها بنت السفير لم تكن بغاية سيئة وإنما كان يقصد منها الإعجاب.

تناولنا الطعام بعد أن تناولنا قليلاً من الشراب وفي الساعة الحادية عشرة تفرقنا بعد أن أخذت إجازة إلى«قونية» يوم الاثنين»[3].

وفي مذكرات «فخر الدين آلتاي باشا» نرى أن العاهرات موجودات حتى في أكثر الاجتماعات جدية وأهمية.

«في هذا المساء كان يوجد على مائدة أتاتورك «عصمت» و«توفيق رشدي» -وهو من الوزراء- و«محمد أسعد» و«علي جناني» و«جميل بك» ومن النواب «محمود » و «يحيى كمال» و«روشان أشرف» و«فالح رفقي» و«يعقوب قدري» و«سراج أوغلو شكري بك» ومفتش الجيش «علي باشا» والدكتور «راسم فريد» والفنانة «رفعت ثريا هانم». غُنِّيت الأغاني وقُرئت الأشعار وجرت أحاديث أدبية.

(1) الظاهر أنه كان يتبارى مع الضباط حول شرب الخمر - المترجم.

(2) عشر سنوات من الحرب وما بعدها، ص412-413.

(3) المصدر السابق، ص415.

وبعد فترة جرت مناقشة حادة بين «محمود» و«روشان أشرف» وتبودلت بينهما كلمات غير مستحبة وقد استطاع أتاتورك أن يدير الوضع جيداً حيث قص بعض ذكرياته القديمة التي أضحكت الجميع. ثم أصدر أمره بإعادة «سعادة هانم» إلى مدرستها في قونية»[1].

وإذا أحببتم أن تعرفوا ماهية هذه الفنانة المسماة «رفعت ثريا هانم» فاقرأوا هذه الأسطر:

«وجدت أتاتورك على المائدة وكان إينونو يجلس قبالته وعلى يمينه كانت تجلس «سعادة هانم» مديرة مدرسة المعلمات في قونية، أما على يساره فقد كانت تجلس سيدة عُرف فيما بعد أنها تدعى «رفعت ثريا». أما على يمين إينونو فقد كانت تجلس «آفت هانم» وعلى يساره السيدة (س)، أما الضيوف الآخرون فقد كانوا هم «شكري قايا»، «روشان أشرف»، «علي جناني»، «راسم فريد» و«توفيق بك».

كان الغازي يتكلم عن الفن وكان الجميع يستمعون له. ثم قام من مكانه حيث أمر بعزف موسيقى «فالس» ودعا «رفعت ثريا هانم» إلى الرقص، كانت هذه هي الفنانة التي جاء ذكرها في ليلة البارحة، وبعد الرقص جلس حيث تناولنا الشراب لبعض الوقت ثم قامت الفنانة وخلعت ملابسها خلف حاجز للملابس ثم خرجت وهي بشكل عارٍ تقريباً إذ لم يكن عليها سوى مايوه صغير من الحرير الأصفر الفاتح وقميص شفاف من «التول» وبدأت برقصات خلاعية وبرقصات هندية، إذ إنها كانت قد أمضت 9 سنوات في ألمانيا حيث تعلمت هناك هذه الفنون، كانت في الثلاثين من عمرها ممتلئة الجسم وكانت هناك بقع داكنة على فخذيها قد تكون نتيجة استعمالها المورفين.

كان الوقت يمر بكل نشوة إذ كنا نتناول الطعام ونشرب المشروبات ونتحدث ونصفق، وأحياناً نقوم جميعاً للرقص، وقد رقص أتاتورك مع «آفت هانم» وكانت هذه

---

(1) المصدر نفسه، ص416.

الشابة الظريفة بملابسها الوردية «الديكولتيه» وقوامها الجميل الممشوق محط جميع الأنظار»[1].

ثم ما هو رأيكم إذا علمتم بأنه في قصر رئيس الدولة كانوا يلبسون الجرسونات الرجال ملابس النساء ويرقصونهم؟

«كان الجرسون صائب شاباً جميلاً وقد حضر وعليه ملابس نسائية جميلة وأدى بعض الرقصات. على أساس أنه الشكل «المودرن» للرقصات الشعبية الذي كان يؤديه الرجال بملابس النساء وقد نالَ التقدير الكبير»[2].

وأمام منظر الرقص هذا الذي يبعث على الاشمئزاز والذي تفوح منه رائحة «الغلمنة» والشذوذ التي جرت أمام أنظار النساء فقد كان لا بد من القيام بأخذ خاطر «آفت» التي كانت منزوية في إحدى الأركان تراقب ما يجري بكل حزن.

«اقترب أتاتورك - الذي كان طيلة الوقت يتجول على قدميه- من آفت هانم التي كانت جالسة على «كنبة» وجلس بجانبها ودعاني أيضاً إلى جانبه وبدأ بحديث ملخصه ما يلي:

إن بنيتي «آفت» تحبني كثيراً وتهوى القراءة كثيراً وهي تحزن لبعض تصرفاتي وهي محقة في هذا. وأنا أيضاً أحبها كثيراً وسأوفر لها أرقى تعليم وسأعلمها اللغات الأجنبية لأنني أقدر قابليتها تمام التقدير وستكون في المستقبل سيدة يشار إليها بالبنان. إن الشباب بالنسبة لي جواهر ثمينة. وإنني أرغب في إمتاع ضيوفي أكثر من إمتاع نفسي»[3].

ويذكر «رضا نور» في صفحة (1380) من كتابه بأن «حميد الله صبحي» وزير المعارف فاجأ زوجته مع مصطفى كمال وأنه اضطر لذلك إلى تقديم استقالته وأن نوبات هستيرية أصبحت تنتابه بعد ذلك.

(1) عشر سنوات من الحرب وما بعدها، ص409-410.

(2) المصدر السابق، ص398-399.

(3) المصدر السابق، ص398-399.

أما «بناته بالتبني» ! من أمثال صبيحة ونبيلة وغيرهن فلم يكن إلا من الصنف المعلوم!

وحول هذا التبني يتناقلون نكتة جميلة:

بينما كان أحد الأشقياء يمر من ميدان «ألوس ulus» في أنقرة إذ مرت من جانبه امرأة من نوع نساء مصطفى كمال فبدأ بالتحرش بها والتلفظ بكلمات نابية، عند ذلك تلتفت إليه المرأة وتقول له بغضب:

- ألا تخجل من نفسك؟ ألا تملك حياءً أو أدباً أو خلقاً؟

فيجيبها الشقي ضاحكاً:

- معذرة أيتها الشابة الصغيرة... كنت أريد فقط أن أعرض عليك أن تكوني ابنتي بالتبني!

إن موضوع فحشه لا يمكن أن ينتهي سرده، ذلك لأنه كان شاملاً لكل صفحة من صفحات حياته ولكن هناك تصريح واحد له يُظهر كيف كان ينظر إلى الأمة التركية التي مدحها كل ذلك المدح - وكيف أنه أخرج نفسه منها وفصلها عنها !

- إنني أستغرب من مثل هذه الأمة... ذلك لأنهم يقدمون لي زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم حتى قبل أن أطلب إليهم ذلك.

وقد قال هذا الكلام بهذا النص لـ «رجب بكر»[1] وقد انتقل إلينا هذا الكلام من صديق سمعه من رجب بكر.

السرقة:

إن من الغريب حقاً أننا نجد بأن الحقائق شيء بينما الأغلفة التي تغلف بها شيء آخر بالمرة. ولو كانت للحقائق التي قبرت في التراب ولم تعطَ لها حقها خاصية الانفلاق

(1) رجب بكر (1888-1950): من رجال السياسة السابقة، شغل منصب رئاسة الوزارة في عهد عصمت إينونو - المترجم.

والانفجار كالذرة -هي في الحقيقة تملك هذه الخاصية بمرور الزمن- لكان أكبر انفجار وانفلاق يحدث في موضوع أتاتورك، لإظهار الحقيقة ضد كل الأكاذيب التي قيلت حوله.

ثم ألم يحدث الشيء نفسه -ولكن بطريقة عكسية- مع السلطان عبدالحميد الثاني؟ إذ أشاعوا عنه كل رذيلة بينما طمسوا فضائله في التراب، بينما روَّجت لمصطفى كمال فضائل مخترعة وأخفيت وسترت كل فضائحه.

مثال صغير:

إن أتاتورك الذي أشاعوا عنه أنه كان شجاعاً جريئاً مثل عنترة بن شداد لم يكن في الحقيقة إلا جباناً بشكل قلَّ نظيره، وسرد حادثتين يكفي في هذا المجال:

لنقرأ الأسطر التالية من «رضا نور»[1]:

«... في أثناء هذه المحادثات جلب نظري شيء آخر أيضاً، كانت مدرسة الزراعة على إحدى القمم ولم تكن الرياح الشديدة قليلة في أنقرة، إذ كانت الرياح تبدأ بالهبوب الشديد عصر كل يوم تقريباً وتثير الغبار في الجو، وهذا ناتج عن قلة الأشجار في هذه المنطقة. كان هناك باب يندفع بقوة الريح ويصفق مُحدِثاً صوتاً وضجة. وكان مصطفى كمال يهب من مكانه بقلق قائلاً: «أليس هذا صوت رشاشة؟» ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط، بل عدة مرات. كنا نقول له: هذا صوت الباب المندفع بسبب الريح، ولكنه لا يصدق فيقوم وينظر من النافذة ثم يرسل من يحقق السبب... آ... إذن فهذا الرجل جبان ثم إنه عسكري ومع ذلك فإنه لا يميز صوت انصفاق الباب من صوت الرشاشة.

وأخيراً حاول في أحد الأيام الهروب بعد أن جمع ملابسه ولكن «جلال عارف» وآخرين وقفوا أمامه ومنعوه. هذا علماً بأن حراساً له كانوا موجودين على الدوام في خيمة في الحديقة الخلفية للمدرسة».

---

(1) حياتي وذكرياتي، الجزء الثالث، ص618.

ثم إن هناك حادثة غريبة يمكن أن تسجل بين قصص المناقب وقد حكاها المارشال «فوزي جاقماق» لبعض خلصائه:

ففي أحد الأيام وبينما كانوا جلوساً في مجلس الأمة الأعلى ظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار وكأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرعة في ناحية السهل، وعندما رأى مصطفى كمال هذا المنظر تهيأ للهرب قائلاً: «هذه جيوش الخليفة آتية...» ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم، فأرسل رجل على الفور خلف بطلنا مقلد عنترة بن شداد لتأمين رجوعه.

ولكن موضوعنا الآن هو في بيان كيف أن مصطفى كمال سارق يستحق أن يتبوأ أرفع مكان في تاريخ السرقات وأخذ الرشاوي... وكل هذا تحت قناع من دعوى التضحية والفداء.

قبل كل شيء نحب أن نسجل هنا حادثة مذهلة لا يعرفها إلا القليل وحتى هذا القليل لا يعرف المعنى الحقيقي لهذه الحادثة التي تصل حد الخيانة.

ذلك هو قيامه ببيع «أذربيجان» إلى البلاشفة مقابل المال وذلك عندما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركيا، وبعد أن دخل البلاشفة بهذه الحيلة إلى أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشاً إلى تركيا.

«كان أهالي أذربيجان يشتكون من أمرٍ مُرِّ الشكوى وعندما كانوا يتكلمون عن هذا الموضوع كانوا يكادون أن يبكوا وكان كل من التقى بهم يقول لي: إنكم أنتم الذين أوجدتمونا ثم كنتم أنتم الذين قضيتم علينا» ثم يوضحون الأمر قائلين:

- في السابق جاءنا الجيش التركي وأعطانا الاستقلال ثم جاءنا خليل باشا قائلاً لنا: إن تركيا ترغب منكم بالسماح للجيش الروسي بالعبور من أراضيكم لتقديم المساعدة إلى تركيا، وقد خدعنا بهذا القول، وأُدخل الروس إلينا دون أن نبدي أية مقاومة، مع أننا

كنا نملك جيشاً وكنا على استعداد للدفاع، ولكنه لم يدعنا ندافع وهكذا دخلنا مرة أخرى تحت السيطرة الروسية)[1].

أما خليل باشا الذي كان واسطة لهذه الخيانة الرهيبة فهو عم أنور باشا المعروف وكان أصغر منه سناً وهو الشخص نفسه الذي قدَّم زوجته إلى مصطفى كمال في أنقرة وقد قام بهذه الخيانة تنفيذاً لأوامر مصطفى كمال.

«كان ذلك بعد معاهدة لوزان وكنت مسافراً من أنقرة إلى اسطنبول. جاء خليل أيضاً وطلب مني مكاناً في القسم المخصص للنواب في القطار. قلت له: تفضل. لم يكن هناك أحد غيره، فتمدد كل واحد على «كنبة»، بدأنا نتجاذب أطراف الحديث، وأخيراً طرقت هذا الموضوع وقلت له: «إن أهل أذربيجان يصبون عليك لعناتهم» فقال: «ولكني لم أفعل هذا من تلقاء نفسي، فقد أمرني بهذا مصطفى كمال، وقد قمت بتنفيذه»... ففغرت فمي من الدهشة.

إذن فقد كان الشخص الذي كانت له علاقة بالموضوع يعترف بذلك بنفسه. قلت له: هذا غير صحيح. قال: «بل هو صحيح» قلت له: ولكن كيف تستطيع الإثبات؟ فأجاب: إنني محتفظ بجميع البرقيات»[2].

إن هذا التصرف هو من أكبر الخيانات حتى وإن افترضنا أنه تم بدون رشوة، ولكن عندما تضيف إليه أنه تم مقابل منفعة مادية فلا تدري أي وصف تطلق عليه.

وقد يقال: «إن المساعدة المالية التي أتت من البلاشفة إنما كانت من أجل الكفاح الوطني ولم يكن لشخص مصطفى كمال» وللرد على هذا الاعتراض نقول: إن جيب مصطفى كمال كان هو المكان الطبيعي للذهب الأصفر الرنان الذي قُدِّم من قِبَل البلاشفة

(1) حياتي وذكرياتي، ص750-751.

(2) المصدر السابق، ص752.

في وقت لم تكن هناك حكومة ولم يكن قد تأسس أي نظام مالي وكان كل شيء يمر من يد مصطفى كمال الذي عرفنا طبيعة سلوكه.

والسبب الذي دعانا إلى وضع هذه الحادثة -التي تتجاوز وضاعة السرقة الاعتيادية- إلى مجال الخيانة على رأس الموضوع فهو لبيان أن لصوصية مصطفى كمال تبدت أيضاً في مجال بيع الوطن وبيان تميزه عن السرقات الاعتيادية. ثم إن حادثة السرقة التي سنشرحها بعد قليل ستلقي ضوءاً على نوعية سرقاته وكذلك على المصير الذي لقيه الذهب المقدَّم من قِبَل البلاشفة في جيبه بحيث لا يبقى هناك أي مجال للشك.

قام مصطفى كمال بالاستيلاء على المبالغ التي أرسلها الهنود المسلمون إلى تركيا من أجل «مساعدة القضية الإسلامية» وأنشأ بنك العمل IS BANKASI بجزء من هذا المبلغ وسجل السندات والأسهم باسمه.

«أرسل لنا الهنود مبالغ كبيرة تقرب من نصف مليون ليرة إنكليزية. ماذا يستطيع أن يقول مصطفى كمال حول هذا المبلغ الذي سرقه والذي هو تحت يده الآن، ولم يقم بصرفه أبداً على الأمة»[1].

وبعد أن يذكر «رضا نور» بأن مجموع المبالغ أصبح مليون جنيه إسترليني بعد ورود المساعدات المالية من البلدان الإسلامية الأخرى يقول بأن هذه المبالغ كلها سالت إلى جيب مصطفى كمال... يقول هذا دون أن يملك أدلة الإثبات كما نملكها نحن.

الإثبات عندنا نحن.

دفعت المساعدة المالية المرسلة من المسلمين الهنود بواسطة البنك العثماني -شعبة مرسين إلى مصطفى كمال. وبعد أن تسلمه بفترة وجيزة قام بإنشاء بنك العمل «إيش بنكاس» IS BANKASI.

(1) المصدر السابق، ص587، الجزء الثالث.

وقام هذا البنك على رأسمال اسمي قدره مليون ليرة تركية بينما كان الرأسمال الموجود فعلاً فيه هو (250) ألف ليرة بدأ به فعاليته، وهذا المبلغ دُفع من قِبَل مصطفى كمال. وهذه الحقيقة معروفة من قِبَل العالم أجمع، بل هي حقيقة لا يرون بأساً في الإعلان عنها (انظر مثلاً كتاب (جانكايا) ص457).

وبما أن هناك فرقاً في قيمة النقود منذ ذلك حتى الآن بما لا يقل عن 60-70 ضعفاً، أي أن ذلك المبلغ يعادل الآن ما لا يقل عن (15) مليون ليرة فنحن نتساءل من أين كل هذا المبلغ الكبير في جيب مصطفى كمال خاصة في ذلك العهد الذي كان راتب النائب وراتب الوزير يتراوح بين 100-200 ليرة.

وإليكم وثيقة أخرى:

في سنة 1950 وقبل صدور «قانون أتاتورك»[1] نشرت مجلة «بيوك دغو» في اسطنبول مقالة صغيرة ندرجها هنا:

«إن رفعت باشا كان من القادة الظافرين في حرب الاستقلال الملّي وكان أول من دخل اسطنبول كشخصية تحمل رمز الانتصار في هذه الحرب وقد جرى الحوار التالي بينه وبين رئيس تحرير مجلتنا الذي التقى به في الباخرة العاملة على خط «قادي كوي Kadi Koy» يوم الأحد الماضي.

رئيس التحرير: يا باشا! ماذا كان مصير الإعانة المشهورة التي أرسلها المسلمون الهنود في بداية حركة حرب الاستقلال.

رفعت باشا: لقد تأسس بنك العمل «إيش بنكاسي Is Bankasi» بهذا المبلغ.

(1) كما ذكرنا سابقاً فقد صدر قانون يحمي أتاتورك من كل نقد ويعاقب من يقوم به وسمي هذا القانون بـ(قانون أتاتورك) - المترجم.

رئيس التحرير: هل معنى هذا أن المبلغ انتقل إلى الدولة وأن البنك أُسِّس من قِبَل الدولة ولحسابها؟

رفعت باشا: طبعاً لا. لأن البنك لم يكن بالفعل مؤسسة رسمية. ولا شك أن هذا المبلغ قدم رأسمالاً للبنك كاستثمار شخصي.

رئيس التحرير: هل تتفضلون بتقديم إيضاحات أكثر.

رفعت باشا: كنت أول من كُلِّف بهذه المهمة، وكالعادة فإنهم صرفوا كلمات براقة فقالوا: إن شهداءنا كثيرون، وقد تركوا أيتاماً كثيرين لا صاحب لهم ولا سند، فلو أسسنا بنكاً لمساعدتهم. وقد اقترحوا عليّ أن أقوم بوضع خطة وأسس لمثل هذا البنك فقلت لهم بأنني لا يمكنني القيام بمثل هذا العمل وأن المال المرسَل من قِبَل المسلمين الهنود يجب أن ينتقل إلى خزينة الدولة مباشرة وأنني غير مقتنع ولا يمكن أن أقتنع بمثل هذه المداورات واللف والدوران. ثم إنك تعرف كيف تم تأسيس البنك، ومن قِبَل من تم هذا التأسيس. وهكذا فقد كانت هذه المئة الألف من الليرات الإنكليزية الذهبية (أي 5 ملايين ليرة في الوقت الحاضر) هي نواة الثروة للشخص الذي قال بأنه: «سيرجع إلى صفوف الشعب بعد تحقيق الانتصار ليعيش كفرد بسيط بينهم» ثم استطاع بهذا البنك وتحت الحماية الرسمية من الحصول على الملايين كما استطاع هذا البنك من توزيع أرباح كبيرة على أصحاب أسهمه». ولا يوجد في الدنيا برهان ودلالة أقوى من بديهية أن رأسمال بنك العمل «إيش بنكاي» دُفع من قِبَل مصطفى كمال كمبلغ شخصي وذلك من الإعانة التي أرسلها المسلمون الهنود.

هذا مع العلم أن الأسطر التالية من «رضا نور» (الجزء الثالث، ص904) تثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن مصطفى كمال استولى على هذه المساعدة الهندية.

«... أخذ الجناح الثاني يلوك هذه الحادثة، كما حاولوا أن يبحثوها في المجلس النيابي خاف مصطفى كمال وغضب في الوقت نفسه وقال في مجلس الوزراء: إن هذا المبلغ يعود إليَّ، لأن الهنود أرسلوه إليَّ».

وبعد أن تمت سرقة المبالغ -التي استحقت ببيع الوطن وتحت قناع إنقاذ هذا الوطن[1]- من قِبَل مصطفى كمال... بعد هذه السرقة لم تكن الأعوام الخمسة عشر التي قضاها مصطفى كمال كرئيس للجمهورية إلا سلسلة من أحطّ أنواع الغصب والسرقة والرشوة واستغلال النفوذ.

إن «مزرعة الغازي» الموجودة في أنقرة والتي يُقدَّر ثمنها بمئات الملايين من الليرات -أو بمليار ليرة- لم تكن في الحقيقة إلا نتيجة اغتصاب فظيع واستيلاء على أراضي الفلاحين.

وبوجود السرقات ذات المستويات العالية فإننا نجد أنفسنا في غنى عن إعطاء التفصيلات للسرقات من هذه المستويات الهابطة.

إن الجزء الثالث والرابع من كتاب رضا نور مملوءان بالسرقات وعمليات الغصب الدنيئة. فقصة «مزرعة أتاتورك» أو باسمها الآخر «مزرعة الغازي» موجودة عند رضا نور.

وقصة بيعه لبعض أراضيه بألف ضعف لبعض الوزارات (الجزء الثالث، ص1283).

وقصة الأراضي التي أخذها من شخص أرمني بـ 4000 ليرة ثم باعها إلى الأوقاف بـ 80000 ليرة (الجزء الرابع، ص1374).

وقصة الـ 100 ألف ليرة إنكليزية التي أخذها من خديوي مصر بحجة أنها قرض ثم استولى عليها ولم يدفعها (الجزء الرابع، ص1850).

وقصة اغتصاب منجم الفحم رقم (63) في «زونكولدان Zanguldak» (الجزء الثالث، ص654).

(1) يشير المؤلف إلى أذربيجان - المترجم.

وقصة البناية التي بناها ليكون مقراً لحزبه استطاع أن يجعل كلفتها لا شيء تقريباً... هذه البناية باعها فيما بعد على أن تكون كبناء للمجلس النيابي بمبلغ 250 ألف ليرة (الجزء الرابع، ص1282).

وقصة مذكراته التي نشرها في إحدى الجرائد التي كان هو مؤسسها والتي زعم فيها أن الألمان حاولوا رشوته في أثناء الحرب العالمية الأولى وأنه رفض أخذ هذه الرشوة، وكيف أنه اضطر إلى قطع هذه المذكرات بعد الهجوم الذي بدأته الجهات الرسمية والصحف الألمانية في ألمانيا (الجزء الرابع، ص1375).

وما أكثر هذه السرقات الدنيئة التي قدمنا فقط بعض النماذج لها.

ثم وبالإضافة إلى هذه إذا أدرجنا القصور والمزارع التي كانت كل مدينة وكل قرية تُجبر بأوامر من جانكايا على إهدائها له هنا وهناك أدركتكم مدى لصوصيته وتنوع هذه اللصوصية.

ما الداعي للإطالة وللكلام الكثير... إنه سارق للوطن كله.

الجريمة:

بعد جرائم قتل علي شكري و«طوبال عثمان» وغيرهما في «جانكايا» بؤرة الجريمة فإن لمصطفى كمال جريمتين كبيرتين في الخارج(1) على مستوى سطح الوطن:

الأولى هي المذبحة التي تمت ضد المعارضين وضد الاتحاديين(2). بحجة محاولة اغتياله في أزمير.

والثانية الاستفادة من حادثة «كوبيلاي» - وقد تكون هذه الحادثة مرتبة من قِبَله - للقيام بمذبحة ضد الشيوخ ورجال الدين... أي حادثة محاولة الاغتيال في أزمير وحادثة «مَنَمَنْ».

---

(1) أي خارج قصره (جانكايا) - المترجم.

(2) أي ضد أنصار حزب الاتحاد والترقي - المترجم.

ولما كان اهتمامنا غير منصب على الناحية القصصية من هذه الحوادث فإننا سنوجز الحديث عنها وسنهتم بإبراز المعاني فقط:

لم يكن هناك من الذين أُلقي القبض عليهم من المشتركين بشكل مباشر في هذه الحادثة سوى البطل ضياء خورشيد النائب المعارض في المجلس النيابي الأول وبعض من أعوانه غير المشهورين، ولم يكن هناك عدا هؤلاء من له علاقة مباشرة مع هذه المحاولة ولكن الذي حدث أنهم ألقوا القبض على جميع زعماء «الحزب الجمهوري التقدمي» وعلى جميع زعماء الاتحاد والترقي. فمن الزمرة الأولى كان يوجد كاظم قره بكر، علي فؤاد باشا، جعفر طيار باشا، مرسينلي جمال باشا، ورفعت باشا. ومن الزمرة الثانية وزير مالية الاتحاديين جاويد، وزير المعارف شكري، والدكتور ناظم الذي كان من زعمائهم... بالإضافة إلى «صاري أنه»، رشدي باشا (من النواب)، خالص توركوت، عابدين والعسكري القديم عارف الملقَّب بـ «آبيجي».

أما المطلوبون فقد كان من بينهم الوزير الاتحادي «قره كمال» وزير الإعاشة والوالي السابق «عبدالقادر».. أما «قره كمال» فقد انتحر بأن أطلق على صدغه رصاصة في بيت الدجاج الموجود في حديقة البيت الذي داهموه فيه وأما «عبدالقادر» فقد أُلقي القبض عليه في حدود «تراقيا» وجُلب إلى أنقرة حيث أُعدم.

وعدا هؤلاء المشهورين الذين ذكرناهم فقد كانت هناك شخصيات أخرى كثيرة: «قره واصف» حسين جاهد بالجين.. إلخ، كلهم موجودون في هذه المحاولة أو يراد إدخالهم فيها. ومع أن حسين جاهد كان في المنفى إلا أنه يُستقدم من منفاه ويحشر بين المتهمين في التآمر. وهذا يظهر بوضوح أن الغاية لم تكن منحصرة في عملية تطهير المتآمرين بل كانت الغاية هي القيام بعملية تطهير وتصفية لكل جهة معارضة أو يمكن أن تكون في المستقبل معارضة وقلعها من جذورها.

ثم نرى محكمة الاستقلال المعروفة في أنقرة وفي أزمير وقرارات الإعدام التي لا تعد ولا تحصى.

أما الباشوات العسكريون فإنهم يتخلصون من الإعدام بسبب المعارضة الشديدة التي يبديها «إينونو» والمارشال «فوزي جاقماق» وبسبب المظاهرة التي يستقبلون بها في المحكمة من قِبَل الضباط الذين حضروا للسماع في المحكمة.

ولم يكن هناك في المحكمة شيء اسمه العدل فإن الحكام لم يكونوا سوى خدام ينتظرون الأمر من مصطفى كمال وتنحصر وظيفتهم في تنفيذ أوامره بالإعدام وكأنهم يقتلون ذباباً أزعجت سيدهم... أي أن كل شيء كان متوقفاً على أمر يُصدر من بين شفتي مصطفى كمال.

تأملوا إحدى مشاهدات «فخر الدين آلتاي» الذي يعتبر من أشد أنصار مصطفى كمال (عشر سنوات من الحرب وما بعدها، ص421).

«التفت إليّ مخاطباً:

– الظاهر أن علي بك[1] سيشنق الباشوات كذلك.

ونظر إليّ كمن يسألني رأيي. كانت هذه الكلمات مفاجأة لي فتوقفت برهة لأجد كلاماً. كان رئيس الوزراء قد أحنى رأسه يحدق في الأرض كأنما لا يريد أن يؤثر بنظراته. جمعت أطراف شجاعتي وقلت:

– يا حضرة الباشا، لا شك أنكم تفكرون في كل شيء وتعالجون كل شيء أفضل مني وعندما تقومون بتوجيه هذا السؤال إلى خادمكم فإنني أحس منه بأنكم قد اتخذتم قراركم العطوف».

وقد فهم صاحب ذلك الذكاء الكبير بأنني أريد أن أقول بأنكم لو كنتم اتخذتم قراركم بإعدام الباشوات لما سألتم عن رأيي، فقال مبتسماً:

– حسناً ولكن هل نستطيع الاطمئنان إلى ما بعد هذا؟

(1) هو رئيس محكمة الاستقلال – المترجم.

عند ذلك رفع إينونو رأسه وأجابه فيما معناه:

- تستطيع أن تطمئن يا حضرة الباشا كل الاطمئنان، وطالما أنتم موجودون فإن حكومتكم ستكون قوية على الدوام. إن الأمة كلها تحبكم حب العبادة، أما الذين قاموا بحركة الجحود هذه فإنهم ليسوا إلا عبارة عن بضعة منحرفين، فإذا بقيت العقوبة في هذه الحدود أيضاً فإن عدالتكم هذه ستربط الأمة بك مرة أخرى.

فقال أتاتورك:

- حسناً... سنرى، وسألتقي مع علي بك مرة أخرى.

ثم قام واقفاً وافترقنا.

وبينما كان الجميع يرون عدم شنق الباشوات كان مصطفى كمال يرغب في شنقهم خوفاً من المستقبل، ولكنه كان متردداً دائماً أمام المقاومة التي كان يراها داخل الجيش وداخل الحكومة. وهؤلاء الباشوات كانوا هم الذين ربحوا حرب الاستقلال.

أُنقذ الباشوات ولكن الكثرة الكاثرة من المدنيين حتى المشهورين منهم شُنقوا، إذ لم يكن هناك ضباط يتظاهرون من أجلهم ولم يكن هناك من يشفع لهم، وقد تُركوا ضحية لوحوش نيرون القرن العشرين.

مات جاويد وزير المالية السابق بثبات وهو يقرأ آية تبين ما سيفعله الله بالظالمين.

تصور شدة كفر مصطفى كمال إذ إنه جعل حتى من هو ماسوني ومن هو «دونمة»[1] شهيداً. أما وزير المعارف شكري فإنه عندما انقطع به حبل المشنقة لم يملك نفسه من القول وهو في آخر لحظاته:

---

(1) دونمة: طائفة يهودية تظاهرت بالإسلام. ظهرت للوجود في القرن السابع عشر وكان رئيسها هو الحاخام اليهودي (شيتاي سبي) الذي ادعى أنه هو المسيح المنتظر مما أدى إلى حدوث فتنة في البلد ولكي يتخلص من حكم الإعدام -نتيجة للشكاوي التي قُدِّمت من قِبَل اليهود- فإنه وجماعته ادعوا بأنهم قد اعتنقوا الإسلام، وقد نفي إلى ألبانيا ومات هناك سنة 1675. وقد انقسم أتباعه =

- إن حبالكم رديئة مثل كل أعمالكم.

أما ضياء خورشيد الذي كان شخصاً عميق الإيمان والذي كانت عداوته لمصطفى كمال نابعة من إيمانه فإنه ذهب شهيداً حقيقياً من بين جميع الضحايا، وقد مات بشجاعة وجلادة تليق بإنسان شهيد وبعد أن أوصى:

- ليجعل لي أخي الكبير قبراً يليق بشرفي.

أعلن تمسكه بدعواه وتحقيره للكفر ونطق بالشهادتين ثم قال للجلاد:

- هيا... تستطيع الآن تنفيذ مهمتك.

وقبل تنفيذ الحكم طلب مصطفى كمال إحضار ضياء خورشيد حيث قال للرجل المؤمن ذي اليدين المغلولتين:

- كيف استطعت أن تحاول قتلي؟ ألم تشفق عليّ؟

فيجيب ضياء خورشيد بأن إيمانه هو الذي أملى عليه هذا فيقول مصطفى كمال:

- حسناً... ماذا ستفعل إذا أطلقت سراحك؟

وكان يتوقع منه أن يقول له: سأقوم على خدمتكم بإخلاص، ولكنه يتلقى الجواب الآتي:

- سأحاول قتلك مرة أخرى.

سلام على الشهيد الكبير الذي مات تحت يد عدو الله.

= بعد موته إلى ثلاث فِرَق متنازعة. وهم يخفون هويتهم الحقيقية عن أطفالهم حتى بلوغهم سن الزواج. وقد سكنوا في سلانيك وحواليها. ولكنهم انتشروا في أرجاء مختلفة من تركيا بعد حرب البلقان والحرب الأولى. انظر دائرة معارف الحياة المختصرة التركية، ص322 - المترجم.

أما رؤوف فإنه نجا لكونه غير موجود في تركيا، وأما جنبلاط فقد كان في مصر وعاد إلى تركيا دون أن يكون على علم بشيء فأُلقي القبض عليه حيث وجد نفسه فجأة تحت أعواد المشنقة.

نستطيع تشبيه حادثة محاولة الاغتيال في أزمير بالقيام بذبح قطيع كامل من الأكباش بحجة أن أحد الكباش قام بالتهديد بقرنه، بل القيام بذبح كل الحيوانات ذات القرون.

أما إذا أتينا إلى حادثة «مَنَمَنْ» MENEMEN التي تفوح من كل جانب فيها رائحة الترتيب و«التوضيب» فهي عبارة عن أن رجلاً مجنوناً مدمناً على المخدرات يجمع حوله بضعة من الغوغاء ويذهب إلى «منمن» حيث يحاول أخذ «السنجاق» من الجامع ويعلن عن نفسه بأنه هو المهدي المنتظر، ويدعو الأهالي إلى الانضواء تحت رايته ضد الحكومة وعندما يحاول ضابط الاحتياط «كوبيلاي» منعه يقوم بقتله. إن هذه الحادثة التي بدأت بهذا الشكل والتي انتهت بسحق كل طريقة صوفية -والطريقة النقشبندية خاصة- وكل شيخ وكل مريد وكل منتسبي الطرق الصوفية وأهلها هيأت لمصطفى كمال أفضل جو لإظهار عدائه للإسلام إلى درجة أنه فكر بتحويل جميع الجوامع إلى بيوت للشعب.

وفي مذكرات أحد عبيد مصطفى كمال وهو فخر الدين آلتاي باشا -الذي كان يسجل كل ما يلفظ به الصنم الذي كانوا يعبدونه- نقرأ من كلام مصطفى كمال ما يدل أبلغ دلالة كيف أنه يخطط -بالاستفادة من هذه الفرصة- لمحو الإسلام.

(عشر سنوات من الحرب وما بعدها، ص424-425).

«وفي وقت الظهر اشترك في الاجتماع رئيس الوزراء إينونو ورئيس المجلس الجنرال كاظم أوزالب ووزير الداخلية شكري قيا ووزير الدفاع زكائي حيث بحثت حادثة «منمن» ولما كان الحديث الذي يجري يعتبر بمثابة تعليمات لي فإنني سجلته. واليوم أقدمه كما هو باعتباره وثيقة تاريخية.

حضرة الغازي: إن منبع السياسة عام... يجب ألا يكون التطبيق الرئيسي هكذا. أما الأماكن المكتظة والتي لم تعاقب فيجب تشتيتهم، ويجب تنفيذ العقاب في المحكومين تباعاً

وأن لا يتأخر التنفيذ حتى نهاية كل الأحكام. أما أهالي «منمن» الذين يُعتبَرون بأجمعهم متهمين لكونهم بقوا متفرجين فيجب أن يُهجَّروا من هناك».

وبعد هذا السلوك الظالم بتهجير أهالي بلدة بكاملها -أي جزء من الوطن- بحجة أنهم بقوا متفرجين.... لنواصل القراءة:

«لقد قامت جرائد أمثال «صون بوصتة Son Posta» و«يارن Yarn» بتشجيع جميع العناصر المناهضة للحكومة وقامت بتسميم الرأي العام في محاولة لإسقاط الحكومة الحالية وقد روجوا فكرة أن الحكومة ليست شيئا يستدعي الخشية، لذلك يجب سوق رؤساء تحرير هذه الجرائد إلى ديوان الحرب لكونهم أحد العوامل التي زادت من جسارتهم. ولا شك أن قسماً من أنصار «ترقي بروار»... (أي الحزب التقدمي) متورطون في هذا. أما فتحي بك فلا. وأما كاظم قره بكر فإنه بدأ بكتابة مقالاته في جريدة «حر آدام»[1] دون أن يضع إمضاءه عليها.

وهذه ليست إلا محاولة لإسقاط الحكومة، إنه لم يستطع الإصدار حتى الآن، فإصداره الآن يسبب زيادة جرأة الرأي العام. لذلك يجب الاتصال مع هؤلاء الصحفيين ويجب استجوابهم في ديوان الحرب حتى وإن لم يعمل شيء ضدهم، إن والد «علي سيدي» من شيوخ النقشبندية وهو أيضاً مرتبط بالطريقة كما أن عثمان شوكت باشا من مريدي النقشبندية وهؤلاء يأملون نشر النقشبندية، إن المريدين مكلفون بإطاعة الشيخ دون قيد أو شرط وهذا مما يزيد الأمر سوءاً، لذلك فلا يمكن أن يبقى هذا الرجل حتى الآن في هذا المنصب، ويجب سؤاله في ديوان الحرب: من هو شيخك؟ كم مريداً تخرج على يديك؟ من هم مريدوك بين الضباط؟ ويجب أن يعامل السيد «علي سيدي» بالمعاملة نفسها. يجب سحق هذه الطريقة. هناك من يقول بأن عدد المريدين كبير جداً. ولا أعتقد أن جميعهم مرعبون ولكن المعتقدين منهم مضرون ويمكن أن يعملوا أي شيء».

---

(1) معناه (الرجل الحر) - المترجم.

ثم يتناول هذا الظالم ادعاءً يشير إلى الوجه الحقيقي للأمر.

«الغازي: إن رئيس بلدية «منمن» هو في الوقت نفسه رئيس النادي التركي وهناك جملة في خطبته هي: إن هذه الحادثة هي حادثة مرتبة لتلطيخ سمعة الحزب الجمهوري الحر».

وكما سيتضح فيما بعد فإن «الحزب الجمهوري» لم يكن إلا لعبة من ترتيبه ولكن عندما انقلب الأمر من الهزل إلى الجد أصبح من الضروري تصفيته.

«الغازي: إن تصفية انتساب النساء إلى هذا التنظيم مهمة أيضاً. ليس من الصواب التسامح معهن. وعلى جميع القواد أن يعرفوا بوجوب القضاء على هذه الطريقة ويجب البحث عن ارتباطات سياسية فيها.

كاظم باشا: إن هذه الطريقة هي أفعى خبيثة يجب القضاء عليها.

الغازي: لا يجب إبقاء أي قطب أو قطب الأقطاب في أي مكان.

شكري قايا: هناك ترويج لحديث يقول ما معناه بأن الله قد يحفظ الإسلام بواسطة الكافرين. وهذا يعني الإيحاء بأنه لا بأس إن أتى الإنكليز.

عصمت باشا: يجب تعديل «التشكيلات الأساسية» بحيث يعطي حق الإعدام للقائد الأعلى في الحرب. بينما حق الإعدام محصور الآن في المجلس.

السيد زكائي: إن مثل هذا القانون ضد «التشكيلات الأساسية» ولكن المجلس أصدره وهو القانون رقم 595.

عصمت باشا: إنه ضد «التشكيلات الأساسية»...، لم تبحث عقوبة الإعدام ولذلك لا يمكن تنفيذها.

الغازي: ليصدق المجلس على عقوبة الإعدام.

(وقد اتخذ فعلاً هذا القرار).

كان الغازي يرغب رغبة شديدة في تهجير أهالي «منمن» وأهالي القرى الأخرى المعلومة بشكل تام. كان عصمت باشا يعارض هذا ويعدد محاذيره، وكان كاظم باشا وشكري قايا بجانب عصمت.... ولكن الغازي كان مُصرّاً».

ثم إليكم بعض الفقرات التي أملاها مصطفى كمال:

(المصدر السابق، ص438-439):

4- يجب تنفيذ عقوبات الإعدام تباعاً ودون انتظار (على المجلس أن يصادق عليها).

5- يجب إصدار قانون خاص لإعلان «منمن» والقرى الأخرى ذات العلاقة مناطق غير مسكونة وإعلانها مسؤولة في هذه الحادثة.

10- إصدار قانون يقضي بعقوبة قاسية للأشخاص الذين ثبت أنهم مريدون أو شيوخ.

11- يجب البحث عن مدى تأثير الجرائد التالية «صون بوصته»، ويني حصار «ياره»، و«گور أوغلو»، و«حرآدام» ومعاملتها تبعاً لذلك، كما أن قيام كاظم قره بكر في كتابة المقالات في جريدة «حرآدام» شيء يلفت النظر.

أي ظالم لا يمتلئ رحمة وشفقة أمام مناظر الجريمة التي كان يرسم لوحاتها قصر جانكايا حيث إن تصديق الإعدام يؤخذ من يد المجلس لكي ينفذ في الدقيقة نفسها كما أن أهالي منطقة بكاملها يُجبَرون على ترك أوطانهم بل يقترح حرق قرية «منمن».

هذا بينما كان أذنابه من الشعراء يقول في وصف جانكايا:

لا عنكبوت ، ولا سحر

لتبقَ الكعبة لدى العرب

لأن «جانكايا» يكفينا

وكما استمر جانكايا في الاغتصاب والسرقة والرشوة فإنه استمر في ارتكاب الجرائم العديدة التي قد يطول شرحها.

الفضائح:

كان لـ «جانكايا» -الذي كان بنفسه من أوله وآخره مسرحاً للفضائح- بعض الفضائح السياسية التي أذهلت العالم الخارجي، منها لعبة «الحزب الحر» وكذلك بعض الفضائح التي كانت تحدث في الحفلات الراقصة وفي بعض السفارات.

يستقدم صديقه القديم فتحي بك -الذي شغل عنده منصب رئيس الوزراء لبعض الوقت- الذي كان سفيراً في باريس... يستقدمه ويكلفه بتأليف حزب معارض مزيف باسم «الحزب الحر» ولم يكن فتحي بك إلا تابعاً مخلصاً ينتظر الإشارة من سيده، الذي أصدر أوامره بأن فلاناً يجب أن ينتقل إلى هذا الحزب وأن فلاناً سيبقى في حزب الشعب أي فاصلاً صفوف الحزب الجمهوري إلى صفين وقد نقل إلى الصف الآخر جميع من كان يستثقله ويبغضه وجميع من كان يفكر في إبعاده وهكذا -أي بعد أن أسس هذا الحزب- فإنه سيصبح فوق جميع الأحزاب ومهما كان الحزب الفلاني معارضاً للحزب الفلاني فإنهم سيشتركون في حمل نفس الإخلاص له.

ولكن هذا لا يحدث، ففي زيارة فتحي بك إلى أزمير تقوم الدنيا وتقعد. ويخرج الناس كالسيل العارم ليحتضنوا المعارض المزيف فتحي بك... تمزق صور مصطفى كمال وترمى في الأزقة وفي الشوارع، فالجماهير أخذت الأمر مأخذ الجد ووجدت الفرصة سانحة لتصرخ ببغضها لمصطفى كمال.

كانت نتيجة غير متوقعة ولم تخطر على بال أحد.

فخطة السيطرة على كل شيء خلف ستار من الادعاء بأن «السلطة كلها للأمة» لم تتكرر هنا ولم تعطِ النتيجة نفسها عند القيام بلعب حرية المعارضة (على أساس أن الديمقراطية تستوحيها) بل على العكس فإنها أصبحت تنذر بسرعة سقوط الأقنعة عن الوجوه.

ولكن ضربة واحدة على رأس الحزب وعلى رؤوس المغضوب عليهم -والذين انتقلوا إلى الحزب بموجب الأوامر- كافية لتصفية كل شيء...

لقد كانت تجربة «الحزب الحر» فضيحة من الفضائح.

أما في السفارات وفي الحفلات الرسمية فإنه لا يترك فضيحة سياسية لا يرتكبها. فمثلاً يذهب إلى السفارة الروسية حيث يرفض هناك الشراب الذي يقدمونه له قائلاً: إنني تركي أشرب العرق، وقد أحضرت معي العرق، ثم يتحدى بعد ذلك العالم ويبدأ بنقد الروس بل بتهديدهم دون أن يخشى أن يقال له: كيف تستطيع أن تتكلم بهذا الأسلوب وذهب الروس لا يزال في جيبك.

ولا حاجة إلى الإشارة إلى المصادر في هذا المضمار، إذ إن هذه الأمور مذكورة ولكن على شكل مديح في كتب مدّاحيه، كما أن صفحات كاملة من كتاب رضا نور تسجلها.

استمعوا إليه وهو يشرح بنفسه لملك إنكلترا «إدوارد» ولحبيبته «مدام سيمبسون» بكل فخر واعتزاز ما فعله بسفير مصر ثم بالقائم بالأعمال المصرية في إحدى الحفلات الرسمية، (جريدة الجمهورية 10/ 12/ 1938، صالح بوزوك).

«- لم ألغ في تركيا الحجاب فقط، بل ألغيت الطربوش كذلك. لم أكن أستطيع تحمل منظر الطربوش أبداً، لأن الطربوش كان بالنسبة لي رمزاً لتأخرنا ولتعصبنا السابق.

وفي إحدى المرات كنت في حفلة رسمية في «أنقرة بالاص» مع السفراء الأجانب، وكان سفير مصر قد جلس على المائدة بطربوشه على عادة بلاده. كان اللون الأحمر لهذا الطربوش يثيرني فرجوته أن يخلع الطربوش، على الأقل أثناء تناول الطعام، ولكن السفير اعترض على هذا بشدة، وعلى أثر هذا أصدرت أمراً لأحد الجرسونات بخلع الطربوش بالقوة. ولم يظهر السفير احتجاجه بالكف عن زيارتنا فحسب، بل إنه ترك البلاد. ثم جاء بدلاً منه القائم بالأعمال المصرية وكان أيضاً يلبس طربوشاً أحمر كأي مصري، ولكن انظر للصدفة فإنه لم يكن يدعى لكل مكان، وعندما يأتي كان ينزوي في أحد الأركان خلف

السفراء ذوي القامات الفارعة أو المتوسطة وكان رئيس التشريفات يعطي عناية فائقة لهذا الخصوص ولكن حدث خطأ ما في الترتيب عند استقبال شاه إيران فوجدت القائم بالأعمال المصرية فجأة أمامي مع طربوشه، وما أن شاهدت الطربوش حتى بدأت بالاتجاه نحوه... تجمد الجميع حولي وأخذ الاضطراب والقلق مأخذه من رئيس التشريفات إذ ذهب الجميع بأنني سأضيف فضيحة أخرى إلى الفضيحة السابقة، وأنني سأقوم برمي طربوش القائم بالأعمال المصرية على الأرض».

هتفت مسز سامبسون بانفعال:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- واتجهت نحو المصري بتمهل لكي أتذوق الانفعال المنتشر حولي حتى النهاية.

قلت للدبلوماسي المصري الذي كان لا يدري ماذا يفعل من خوفه:

- ما هذا؟ وأشرت إلى طربوشه ذي اللون الأحمر الفاقع.

- إنه طربوش يا سيدي.

- صحيح؟ هل هو طربوش؟ ما شاء الله! كم هو يليق بك! لا تخلعه... لا تخلعه.

وبينما كانت مسز سامبسون تقول:

- رائع جداً.

كان الملك يقهقه عالياً.

أي أنه فرح ومسرور وكأنه يريد أن يقول لملك إنكلترا وهو يحدثه بهذا الحديث:

- هل أنتم راضون ومسرورون بالأعمال التي قمت بها منذ أن ألغيت الخلافة بالاتفاق معكم؟

ثم إنه يعترف نفسه بأنه ما قام به كان فضيحة. ثم تأملوا -من زاوية الفضيحة فقط- هذه الأقوال التي قالها للمدعي العام بهاء أربكان بصوت عالٍ وبين الناس جميعاً في

إحدى الأمسيات في مطعم أنقرة المشهور «كاربيج Karpig» (ذكريات عن أتاتورك، ص310).

«ذهبت إلى مطعم «كاربيج» على الفور. كان رجال الدولة المعروفون جالسين حول المنضدة الكبيرة. أشار إليّ أتاتورك أن أجلس في أحد المقاعد. جلست، كان الهدوء يسود الجو ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، كانت ملامح أتاتورك متقلصة وقاسية.

خاطبني قائلاً:

- ماذا ستكون نتيجة دعوى علي صائب؟

قمت واقفاً وقلت بأنه من المفروض انتظار قرار المحكمة.

وقبل أن أنهي كلامي كان صوت أتاتورك الذي يشبه صوت الرعد يملأ المكان كله:

أية أهمية لقرار المحكمة؟ أية أهمية للحاكم؟ أية أهمية لك أنت؟

سأغلق المحكمة. وسأفصل الحكام وسأفصلك أنت».

إن مثل هذا الكلام لم يتفوه به في التاريخ أي دكتاتور، ولا حتى فرعون.

وانظروا إلى ما قاله للسفير الفرنسي في الحفلة الرسمية.

(ذكريات عن أتاتورك، ص152).

«يا صاحب الفخامة! يا صاحب الفخامة!

إن من الأفضل لكم صرف اهتمامكم لإصلاح جيشكم والتخلي عن مهزلة خط ماجينو».

هذه الدرجة من قلة الحياء والسفاهة غير مشاهدة عند أحد.



الفصل الثامن

دولمه باغجه

المستقر الأخير للصنم

القصر:

لم يستطع زيارة اسطنبول لمدة طويلة، حذر وخاف منها حتى إنه عندما خرج للسياحة في البحر الأسود خرج إليها بسفينة حربية ودون أن يمر من اسطنبول. وأخيراً دخلها بعد 4 سنوات من إعلان الجمهورية وبعد 8 سنوات من خروجه منها.

استقبل استقبالاً حافلاً، فقد انقلبت مرمرة والبسفور إلى ساحة عيد وكأن مياه مرمرة والبسفور قد ردمت وملئت رملاً. وقد بذلوا عناية خاصة لجعل هذا الاستقبال أضعاف الاستقبال الذي استقبل به رفعت بشا -الذي أصبح الآن عدوه اللدود- بعد الانتصار مباشرة... ولكن هيهات... فإن الاستقبال الذي استقبل به رفعت باشا كان طبيعياً وخارجاً من أعماق النفس وبعيداً عن الترتيب الرسمي، بينما كان هذا الاستقبال متصنعاً وخالياً من الصدق ومرتباً من قِبَل الحكومة بالإضافة إلى أن جموعاً غفيرة جاءت لمجرد الفضول مثلما حدث بعد ذلك في جنازته.

جاء وتوجه مباشرة إلى قصر «دولمه باغجه» الذي كان يهيأ منذ عدة أشهر لاستقباله... لم يعد هناك بعد في هذا القصر وحيد الدين ولا كانت هناك صبيحة بنت

السلطان التي طلبها سابقاً... وكانت شارة رئاسة الجمهورية تتموج فوق سطح القصر المغطى بالرصاص.

وأنت يا قصر دولمه باغجه الكبير!... أنت لست إلا أثراً من آثار عهد التردي والسقوط الذي فتحه قصر «المجيدية» الذي كان نموذجاً وأثراً من آثار الفن المعماري اللقيط «باروك»[1] و«روكوكو»[2] - الواقع بالقرب من الجناح البغدادي درة قصر «طوب قابي» الذي يعتبر مثالاً للأصالة وللشخصية المتميزة.

... أنت لست إلا أثراً لحركة التقليد الأعمى للغرب التي بدأها صاحب التنظيمات «مصطفى رشيد باشا» والتي انتهت إلى مصطفى آخر في نهاية المطاف.

إن هذا القصر الذي بني -مع بضعة قصور أخرى متشابهة- ببعض مبالغ الديون العثمانية التي بلغت 300 مليون ليرة ذهبية ليس إلا تمثالاً لكارثة حركة التقليد القردي للتيار الغربي من دون فهم أو مراجعة أو تساؤل عن مدى الملاءمة الروحية والهضم العلمي... وهو الآن يفتح أبوابه للشخص الذي داس على الشرق كله وسلَّمه للغرب... ومع أن مصطفى كمال قضى عمره كله يدعي الثورية فإنه لم يكن صادقاً في هذا الادعاء، فلو كان مخلصاً لدعواه لأدرك كل هذه المعاني ولما استقر في قصر يرمز إلى تردي وتفسخ السلطنة التي قام بهدمها، إذ مَنْ مِن زعماء الثورة الفرنسية الكبرى رضي لنفسه بالاستقرار في قصر «فرساي» أو في «توفيلاي»؟

(1) باروك: في العمارة والزخرفة طراز يتسم بالفخامة والبذخ، ساد مجال الفن في أوروبا من منتصف القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر. تعتبر بناية اللوفر وفارسيلي في فرنسا من أبرز الأمثلة على هذا الأسلوب من فن العمارة - المترجم.

(2) روكوكو: أسلوب في العمارة والزخرفة ساد أوروبا بعد أسلوب الباروك، وقد بدأ في فرنسا في القرن الثامن عشر وامتد تأثيره إلى الموبليات كذلك. فمثلاً إن باب قصر دولمه باغجه مزخرف بأسلوب روكوكو - المترجم.

الزيـارات:

بينما كانت حياة الفحش والفجور قد بلغت الحضيض في جانكايا، فإنه أصبح الآن يستطيع استقبال الملوك والأباطرة من الشرق ومن الغرب في قصر «دولمه باغجه» بكل أبهة وعظمة. ومن بين هؤلاء الذين استقبلهم كانت زيارة شاهنشاه إيران الشاه رضا بهلوي وزيارة إمبراطور إنكلترا «إدوارد الثاني» أكثر الزيارات كشفاً عن نفسية وسلوك مصطفى كمال.

وقد كان فخر الدين آلتاي باشا (الذي أعطانا كثيراً من المناظر المذهلة عن حياة مصطفى كمال وهو يحسب أنه يمدحه) كان هذا الباشا هو مرافق الشاه.

في صفحة (463) من كتابه المعلوم يشرح الباشا كيف أن أتاتورك بدأ بالإيحاء إلى الشاه وتلقينه ونصحه بفصل الدين عن الدولة وبرفع التفرقة المذهبية يبن البلدين وبالاتجاه نحو الغرب وبرفع الستر عن المرأة وبسحق الرجعية، ويشرح كيف أن الشاه خضع لهذه التلقينات، ثم ينتقل إلى وصف مصائد الفحش التي نصبوها للشاه. وفي صفحة (464) نقرأ كيف أنهم ذهبوا مع أتاتورك إلى بلاج «سعاديه» حيث رأوا هناك النساء التركيات بالمايوه وأن الشاه ذهل أمام هذا الانقلاب والتطور.

«وأثناء تجوالنا مع أتاتورك في اسطنبول ذهبنا معاً إلى بلاج «سعاديه» كان هذا البلاج قد أنشئ جديداً. وكان مكاناً وجميلاً. وهناك على ساحل البحر كانت امرأة شابة وجميلة واقفة وهي لابسة مايوهاً، وعندما اقتربنا منها قفزت إلى البحر بقفزة جميلة وبدأت بالسباحة».

والخطة كاملة، ففي قصر «بيلر بيي» ستفتح الستارة للشاه عن جو لبيت من بيوت الدعارة.

(المصدر السابق، ص464-465).

«انتقلنا إلى قصر «بيلر بيي». كان رئيس الوزراء ورئيس المجلس النيابي موجوداً أيضاً وفي باب القصر كانت في استقبالنا خمس عشرة من النساء اللابسات أجمل الملابس.

كانت هذه النساء نجوم الرقص والغناء في اسطنبول وكانت على رأسهن المرأة الجميلة (ج) التي رأيناها في البلاج. ركعن جميعهن على ركبهن تحية للشاه حيث قدمن إليه وقد تلاطف معهن ضاحكاً.

كان في القصر حوض جميل من المرمر يترقرق فيه الماء وخلفه أوركسترا وبوفيه ممتاز... طفنا بالقصر بشكل مختصر، كان الطابق العلوي تحت التعمير والإصلاح ولوجود احتمال قضاء الشاهنشاه هذه الليلة هنا فإن غرف النوم الاحتياطية كانت قد هُيِّئت له.

على حافة الحوض وضعت منضدة وبضعة كراسٍ بترتيب معين بحيث أن البوفيه والأوركسترا لا تستطيعان مشاهدة هذا الموضع وقد قُدِّمت الأطعمة والمشروبات فاختار الشاه قدحاً من الشراب وضعه أمامه. وفي هذه الأثناء كانت الفنانات يقدمن الأغاني والرقصات الجميلة، وكان الشاه يرتشف من حين لآخر جرعة من قدحه لكي لا يفسد حرارة الجو... وكانت الرقصات بمرور الوقت تزداد جرأة وعرياً. وكان الشاه يشاهدها مبتسماً، ولكنه لم يخل بجديته على الإطلاق. قفزت إلى الحوض فتاتان شابتان وبدأتا بتقديم ألعاب ورقصات في الماء. وفي هذه الأثناء تقدمت الفنانة الشابة (ش) ووقفت أمام الشاه على حافة الحوض عارية وقد عقدت يداها أمامها وأحنت رأسها... ربت الشاه على رأسها قائلاً:

- إنك تملكين مهارة فائقة... وأنت شابة وجميلة... ليحرسك الله. ولكن هيّا يا بنيتي إلى الداخل والبسي شيئاً إذ إنني أخشى أن تصابي بالبرد.

كان وضع الشاهنشاه في تلك الليلة ووقاره وعدم قيامه بأي تصرف غير وقور وعدم قيامه بإفساد مرح ذلك المجلس كان شيئاً ملفتاً للنظر. وقبيل منتصف الليل أبدى رغبته بالرجوع إلى «دولمه باغجه» قمنا جميعاً وركبنا الزورق المجهز بمحرك وتوجهنا إلى القصر. وهكذا لم نستطع أن نضيف إلى ألف ليلة وليلة، ليلة أخرى مع الأسف».

مع الأسف فإن الباشا الكبير لم يستطع القيام بوظيفته أيضاً كسمسار للشهوة حق القيام ولم يستطع أن يضع العاهرات بين أحضان الشاه.

أما زيارة ملك إنكلترا الذي كان يصطحب حبيبته المشهورة «مدام سمبسون» فلكونها زيارة غير رسمية فإن الملك لم يكن ضيفاً رسمياً على مصطفى كمال، ولنفس هذا السبب فإن اتصاله معه كان محدوداً ولذلك فإنه لم يشاهد من فنونه وقابلياته عدا ما ذكرناه في بحث «الفضائح» من ادعاء للثورية والتجديد ومن تجريح للعادات السابقة.

ولكنه أسكر في قصر دولمه باغجه إلى حد أن صاحب التاج هذا أظهر من الخفة وعدم الوقار ما لا يليق إلا بأطفال الشوارع وذلك كقيامه بالتزحلق على محجرات سلالم القصر.

أما مدام سمبسون فقد هتفت مرة:

- ما أبدع الجو السائد في قصركم هذا؟

ويصف فخر الدين آلتاي باشا (الذي كان مرافقاً للملك منذ قدومه إلى «چنه قلعه») وصول الملك كما يلي:

«كان قارب الملك يقترب. يمد أتاتورك -الواقف على حافة البحر- يده إلى يد الملك الممدودة من القارب، وفي مكان التقاء البحر بالبر التقت هاتان اليدان الكبيرتان في مصافحة قوية وكأن قلبي الأمتين الكبيرتين التقتا متناسية آلام الماضي ومحاولة إحياء المحبة بينهما. ولما كان الملك يحمل اسماً مختلفاً «الدوق دي لانكستر» فإن مراسيم الاستقبال كانت تتم على هذا الأساس. صعدنا إلى السفارة الإنكليزية بعد ذلك حيث انتهت مهمتي.

وعند انتهاء الزيارة ورجوعه يركب القطار الخاص لأتاتورك حيث يرمي بصره بذهول إلى هذا الوطن التركي اللاهث وراء الغرب والذي فقد مظهره وقيافته وكتابته ولغته ودينه بشكل لا يمكن أن يشاهده حتى في البلدان الإسلامية الواقعة تحت استعماره».

صور ووقائع:

بدأت الأخبار تتسرب وتنتشر في كل مكان عن صور الحياة الفاضحة التي تعجز القواميس عن وصفها والتي يحياها مصطفى كمال سواءً في «دولمه باغجه» أو في قصر «فلوريه» أو في نادي «اليخت» في جزيرة «بيوك آده» أو في فندق «بارك».

- وسنتناول أولاً حادثة وزير المعارف الدكتور رشيد غالب فهذا الشخص كان أول وآخر من تجرأ على رفع رأسه أمام أتاتورك في عهد أصبح فيه صنماً يعبد.

لنسمع أولاً قصته من «حسن جميل جامبل» (رشيد غالب: أحمد شوكت المن من صفحة 238 إلى 241).

«كان الدكتور رشيد غالب ذا طبيعة انفعالية غير اعتيادية. فعيونه تبرق وجسده كان بحساسية البطارية الكهربائية المستعدة للتفريغ لدى أقل لمس. لم يكن يستطيع ضبط انفعالاته، وأخيراً فتح الموضوع عن بيوت الشعب (كان آنذاك في الهيئة العامة للحزب وكان مسؤولاً عن بيوت الشعب)... كان يشكو من أن وزير المعارف أسعد بك لم يأذن للمعلمات ولبنات الثانوية اللواتي اخترن لتمثيل الأدوار النسائية في شعبة التمثيل لهذه البيوت (وذلك برضائهن) بأداء الأدوار التمثيلية.

كان رشيد غالب يمثل المستقبل... وكان أسعد بك يمثل الماضي... وكانت شكواه ناتجة من تصادم الجديد مع القديم.

ألم يكن المسرح منذ اليونان القديم منبعاً للفن والحكمة وأكاديمية للحرية ومؤسسة للتربية القومية والإنسانية لأمم الحضارة وللإنسانية معاً؟ وألم تؤسس فروع التمثيل في «بيوت الشعب» من أجل هذه الغاية؟ وكيف يمكن إبقاء المرأة خارج هذه الحركة الثقافية؟

كانت مثل هذه الأفكار مسيطرة على رشيد غالب، وهذه في الحقيقة كانت أفكار أتاتورك نفسه وكان رشيد غالب يمشي على طريقه وعلى العهد الجديد الذي فتحه ولعلمه بهذا وبثقة أتاتورك فيه كان يتكلم بحرية وبجرأة ولا ينجح في ضبط انفعال الشباب في نفسه... وتدريجياً بدأ صوته يرتفع ونبراته تحتد وتقسو. فقال له أتاتورك بكل هدوء واعتدال محاولاً تهدئته:

- لا تقلق، فسيكون كل شيء على ما يرام.

ولكن هذا الوعد لم يكفه بل على العكس اشتد اهتياجه وبصوت كالقنبلة انفجر قائلاً:

- إن الذنب كله ذنبك.. فقد نصبت جاهلاً على رؤوسنا بحجة أنه أستاذك.

كان أتاتورك يحب رشيد غالب حباً جماً، لأنه رأى فيه الذكاء ودوام العمل والحركة والحيوية ورأى ثوريته وتعلقه به وحبه للوطن وكان قد تعود على إخلاصه... ولحبه الشديد له كان يتحمل بعض دلاله، فتحمل دلال من يحبهم كان إحدى حاجات قلب أتاتورك. ولكن هذا الاتهام القاسي نال من قلبه. قال له: «إنني أدعوك مرة أخرى إلى التحلي بالصبر وبالهدوء... إن رغباتك ستحقق» ولكن الدكتور رشيد غالب كان منفعلاً إلى درجة لم يكن يستطيع معها من السيطرة على نفسه أو على أقواله، إذ استمر على توجيه سيل متتابع من سهام الشكوى والنقد إلى رأي أتاتورك. وكان جو من التراجيديا يسود المائدة والجالسين حولها. إذ لم يكن هناك من يستطيع التقاط نفسه... كان أتاتورك متألماً ولكنه لم يفقد وقاره أو هدوء أعصابه، وكأسد يداعب شبله الذي يحاول أن يعضه قال بأسلوب هادئ ومتسامح: «إذا داومت على هذا الكلام بهذا الأسلوب فإنني أكون معذوراً في عدم استطاعتي التحدث معك»... فقد رشيد غالب نفسه تماماً لأنه كان رجل انفعال... ضرب المائدة بقبضته وصرخ بشدة:

- هل تريد أن تطردني؟ إن هذا المكان ملك الشعب، ولو جاء الله نفسه (أستغفر الله: ناقل الكفر ليس بكافر) لما استطاع طردي من هنا.

كانت هذه ذروة التراجيديا وأكثر اللحظات حراجة... عجباً ماذا كان أتاتورك فاعلاً؟ هذا الفاتح العظيم الذي جعل بحار «جنه قلعه» مقبرة للإنكليز والذي رمى اليونانيين إلى البحر... الذي مزق معاهدة «سيفر» التي كانت رمزاً للعبودية، والذي هزم الإمبريالية الأوروبية في لوزان بعد ثلاثة عصور من التردي والانقراض... الذي كسر قيود عدة أعصر في داخل الوطن صانعاً من شعب أسير أمة مستقلة... كان هذا الفاتح العظيم أمام تحدي شخص رباه بنفسه وأحبه ووثق به وها هو الآن يطعن في غروره ولو بدون قصد... ماذا سيعمل الآن؟ ماذا يعمل الدكتاتوريون في مثل هذه الظروف عادة؟

يا للحيرة... دفع كرسيه إلى الوراء وقام كأسد مجروح قائلاً:

- إذن فإنني أنا الذي أترك هذا المكان. ثم ترك المأدبة وانسحب إلى غرفة النوم المجاورة.

كان هذا الانصراف يرسم لوحة الإنسان العظيم للقائد المظفر في حرب «دوملي بنار».

كان الدكتور رشيد غالب يعاني الآن من أزمات عصبية... كان يتكلم ويبكي.... كان متألماً جداً... لم يكن يريد هذه النتيجة... ولكن القضاء كان قد وقع... أخذ الأصدقاء يربتون على كتفه ويتوسلون إليه... ثم أخذوه وأرسلوه إلى بيته في (أرنكوي Erenkoy).

بعد مدة عيَّن أتاتورك الدكتور رشيد غالب وزيراً للمعارف، وكان هذا التعيين هو جواب أتاتورك لما حدث في تلك المأدبة، وفي الوقت نفسه كان رشيد غالب أهلاً لهذا، إذ كان من المفروض أن تلغى دار الفنون السابقة وأن تؤسس جامعة حديثة... كان هذا ثورة كبيرة، كما كان من المفروض إقصاء المعلمين القدماء وإبدالهم بشبان حديثين واستقدام أخصائيين ألمان، وكان من الواجب أيضاً جعل الجامعة جامعة حديثة ومعاصرة.... كانت هذه الأمور الدقيقة تحتاج إلى يد قوية كيد الدكتور رشيد غالب.

وبعد أن ترك الدكتور رشيد غالب وزارة المعارف بقي لمدة طويلة لا يتكلم مع أتاتورك. وفي إحدى الأمسيات قال أتاتورك فجأة «ماذا يعمل الدكتور الآن؟ لندعُه» وقد حدست الآنسة «آفت» -التي كانت تحرص على سيادة جو طيب من العلاقات بين أتاتورك وبين أصدقائه- بأن أتاتورك يخفي مفاجأة لذلك فقد قالت:

- يا باشا... إن الوقت متأخر الآن فالساعة الآن هي الثانية بعد منتصف الليل... نستطيع أن ندعوه في أمسية أخرى.

ولكن أتاتورك لم يغير رأيه. وعندما جاء الدكتور قام أتاتورك بسرور ونشوة قائلاً:

- تعال يا دكتور... لقد اشتقت إليك كثيراً.

ثم احتضن الدكتور وقبّله، ثم جلس الدكتور في المكان الذي أفسح له على المأدبة ثم شرب الجميع نخبه، وبعد مدة دخل جنديان إلى الغرفة وقد أعطاهما أتاتورك الأمر الآتي:

- احملا هذا السيد على أكتافكما وائتياني به. شبك الجنديان أذرعهما ببعضهما وأجلسا الدكتور عليهما ثم أتيا به إلى أتاتورك، قام أتاتورك مرة أخرى واحتضن الدكتور وقبّله ثم قال للجنديين:

- أعيدوه لمكانه.

ثم قال:

- يا دكتور... نحن هكذا نستطيع أن نرفع وأن نخفض.

هل كان هذا درساً أم عتاباً أم مقلباً أم مزاحاً؟... لا شك أنه كان شيئاً خاصاً بأتاتورك الذي كان يريد أن يظهر بأنه لا يستطيع إغفال أمر رشيد غالب الذي أحبه ولا يستطيع تناسيه... ثم استمرت المأدبة في جو من الحبور والانشراح».

إن هذه الأسطر التي سجلها أحد المرائين من عبيد أتاتورك يحمل إفشاءً كبيراً بالرغم من تهربه من إعطاء الحقيقة بكاملها وتفسير معناه بالتمام.

أولاً: إن الحقيقة هي كما يلي:

في إحدى الأمسيات يذهب أتاتورك بصحبة الدكتور رشيد غالب وأعوانه إلى أحد المطاعم -التي تقدم المشروبات كذلك- والتي تقوم بإدارتها إحدى الروسيات من البيض[1] في شارع «بك أوغلو» وبعد أن دارت الرؤوس التفت أتاتورك إلى المرأة -صاحبة المطعم- التي كانت تدور حول المائدة بخفة لتلبي الطلبات وتقوم بالخدمة بنفسها وسألها عن أمور المطعم وكيف تسير فأخذت المرأة المحنكة -التي كانت تتصيد مثل هذه الفرصة- تشرح كيف أن الأمور تسير بشكل سيء وأنها لا تملك من الزبائن سوى عدد قليل من موظفي السفارات الأجنبية، وأنها لا تدير مثل هذا المطعم الراقي إلا لشرف

(1) في أعقاب الثورة البلشفية حدثت حرب أهلية بين البلاشفة وجيشهم الأحمر مع معارضيهم الذين ألفوا (الجيش الأبيض) والظاهر أن هذه المرأة الروسية كانت من الفريق المعارض وأنها هربت من بلدها بعد نجاح الثورة البلشفية - المترجم.

إدارة وحكم أتاتورك وإلا فإن من المفروض عليها أن تكون قد أغلقت المطعم منذ وقت بعيد وأنها لذلك تطلب المساعدة... يرفع أتاتورك المخمور غطاء المائدة قليلاً ويمزق من الورق الذي تحت الغطاء قطعة صغيرة، وعلى تلك القطعة الورقية الممزقة الأطراف يكتب بضعة كلمات إلى بنك العمل «إيش بنكاس» يأمر بدفع مبلغ ضخم إلى المدام ثم يناول الورقة المرأة الروسية، وبينما كانت المرأة تخر راكعة على ركبتيها بحركة تعظيم كالتي تعمل عادة أمام القياصرة كان رشيد غالب يضرب على المائدة بيده بوجه عابس متألم... يلتفت أتاتورك إلى رشيد غالب الذي كان مخموراً مثله.

- ما الأمر؟ هل تضايقت نفسك؟

- سيدي... إنني في غاية الأسف.

- والسبب؟

- ذلك لأن رئيس دولة مثلك يقوم بمثل هذا العمل المتسم بالخفة وعدم الوقار.

يسود الذهول والوجل جميع من على المائدة... فشخص مثل رشيد غالب الذي كان من بين الحكام القتلة لمحاكم الاستقلال والذي خدم رغبات أتاتورك بكل صدق والذي يعتبر من الأشخاص الذين تربّوا على يد أتاتورك... مثل هذا الشخص كيف يتسطيع فجأة أن يسلك هذا المسلك. هل أصابه مس من الجنون؟ أم أدار الخمر رأسه؟

يستمر أتاتورك:

- وأين الخفة في هذا العمل؟

يجيبه رشيد غالب:

- إن توجيه الخطاب إلى أحد البنوك بإعطاء مبلغ كبير على ورقة تغليف ممزقة لا شكل لها متقطعة من تحت غطاء المائدة ثم التوقيع بإمضاء «أتاتورك» على هذه الورقة أليس عملاً يتسم بالخفة وعدم الوقار؟

يحمرّ وجه أتاتورك بينما تصفر وجوه الآخرين:

- إنني أدفع هذا من مالي الخاص.

- كلا... إن ذلك المال ليس مالك.

- مال من إذن؟

- إنه مال الأمة. ثم إنك لست مطلق التصرف حتى في المال الذي تحتجزه باسمك لتنفق منه حسب ما تشاء، فالمفروض أن تقيم من نفسك على نفسك رقيباً.

- اخرس!

ثم يخرجون معاً ويذهبون إلى قصر «دولمه باغجه»... أتاتورك لا يستطيع الوقوف إلا بصعوبة نتيجة سكره الشديد... رشيد غالب أيضاً يتمايل من السكر... وفي القصر يبدأ ذلك الفصل من الحوار الذي تجرأ على شرحه السيد «جامبل» بشكل نصف مستور ونصف علني ولكن دون أن يأخذ الجزء الأول من الحادثة... وفي هذا الفصل يُطرد رشيد غالب من القصر فيقول:

- لا تستطيع أن تطردني من هنا فإن هذا القصر كذلك هو مال الأمة ثم يتلفظ أيضاً بهذه الجملة من الكفر «لو جاء الله...» ومن الواضح أنهما كانا يحملان النفسية نفسها والروح نفسها.

إن الدليل على أن الحادثة بدأت كما سجلنا نحن وأنها انفجرت في القصر تمام الانفجار... الدليل على هذا هو رئيس الانتهازيين فالح رفقي وتأويله البعيد للحادثة (جانكايا، صفحة 508).

«هناك حادثة تعود للمرحوم رشيد غالب كثيراً ما أخطأوا في كتابتها. إذ إنه قام - لكونه مخموراً- بمناقشة فيها بعض المبالغة لقضية «البقشيش» الذي أعطاه أتاتورك لصاحبة مطعم أجنبية.

قال له أتاتورك:

- الظاهر أنك لست على ما يرام فلو تستريح بعض الشيء.

فأجابه:

- إن هذه المأدبة للأمة، وأنا جالس على مأدبة الأمة.

فقال أتاتورك وهو محافظ على رباطة جأشه:

- إن السيد محق... إذن فنحن الذين سنترك المأدبة.

وقد قام الجميع معاً وانسحبوا.

وبعد عدة أيام كان رشيد غالب موجوداً أيضاً بين المدعوين وبعد أن مرت فترة طويلة قال أتاتورك:

- أريد اثنين من الحرس.

وعندما دخل الحرس. أشار إلى رشيد غالب قائلاً:

- أخرجوا هذا السيد خارجاً.

احتضنه الحراس وأخرجوه... كان رشيد غالب خجلاً من الغلطة التي ارتكبها سابقاً. ثم رجع إلى المائدة وهو يحس بالحرج والخجل فقد كان واضحاً قصد أتاتورك.

وبعد تلك الساعة تحدث أتاتورك معه أكثر من باقي المدعوين وبكل بشر».

كم هو شيء يدعو للرثاء حال هذا الانتهازي الذي يسجل القسم الأول من الحادثة ولكنه يبتلع القسم الأخير بقصد التخفيف عما كتب حول هذه الحادثة.

أما القسم الأخير فقد كان كما يلي:

إن الصنم حقد بسبب هذه الإهانة التي وجهت له إلى درجة أنه لم يشأ أن يرمي رشيد غالب من مكانه الموجود فيه بل من مكان أعلى، لذلك فإنه يقوم بتعيينه وزيراً

للمعارف، وبعد أن يحقق على يديه أقصى الإصلاحات الجامعية يمسكه من أذنه ويضربه بالأرض ثم يستدعيه إلى مجلسه ويرفعه إلى أعلى بواسطة حرسين ثم ينزله إلى الأرض قائلاً:

- نحن هكذا... نرفع هكذا... ونخفض هكذا.

ومن الممكن أنه انسحب في قصره «دولمه باغجه» من المائدة إلى غرفة النوم لخوفه من تجرؤ رشيد غالب على ضربه لأنه كان أجبن شخص. ولكنه يرتب فيما بعد للدكتور الجسور رشيد غالب مقلباً وينتقم منه. ويتحطم الدكتور نفسياً إلى درجة أنه لا يستطيع مقاومة مرض ذات الرئة الذي يصاب به نتيجة حادثة في البحر ويموت.

إن السبب الذي دعانا إلى سرد حادثة رشيد غالب بكل هذه التفاصيل يعود إلى كونها أهم حادثة في فترة حياة أتاتورك في قصر دولمه باغجه من ناحية كونها تكشف نفسية أتاتورك بأجلى معانيها وأدقها. إذ نرى عدم شعوره بالمسؤولية وعدم اتزانه وعدم وجود شعور الكرامة عنده وجبنه وميله إلى الانتقام من الشخص الضعيف أمامه. وقد تلقى رشيد غالب على أثر تعيينه وزيراً للمعارف ثم إجباره من بعد ذلك على الاستقالة برقيات عديدة تدرك معظمها سبب هذه الاستقالة وتومئ من طرف خفي إلى أن مقاومته لأتاتورك هي السبب ولذلك فهي تصفه بالبطولة. فمثلاً هاكم عدة أسطر ذات مغزى من برقية الدكتور لطفي قيروار الذي كان والياً على «مانيسه Manisan» أولاً ثم والياً على اسطنبول ثم وزيراً للصحة.

(رشيد غالب، أحمد شوكت المن، ص167).

«... وإذا أتينا إلى قضية الاستقالة فهناك عدة روايات، وليس من الممكن هنا معرفة الحقيقة... وأنا أعتقد بأن تصرفاتكم المثالية هي السبب في استقالتكم فإذا كان هذا هو السبب -ولا أشك في هذا- فإنني أهنئك. فإن من الأفضل لشخص أن يكون شخصاً مفكراً ومثالياً من أن يكون وزيراً يعمل كل شيء ويوافق على كل شيء من أجل الحفاظ على منصبه فالمثاليون يعرفون كيف يضحون دون الاهتمام بمنافعهم الشخصية وبهذا يثبتون وجودهم. ولذلك فإنك اليوم دون شك شخصية أكبر من السابق».

وفي الكتاب نفسه نجد برقية أسف أخرى تحمل إمضاء «الدكتور بهجت أُز» والغالب أن الأماكن المنقطة الموجودة هنا هي كلمات حذفت من قِبَل المؤلف لكونها هجوماً على أتاتورك:

«... وسبب آخر يزيد من أسفي وهو أنني لا أرى أية مقالة تنشر في الصحف عنك تناسب شهرتك ومرتبتك. آه من هؤلاء المرائين والنصابين عندما كنت في الوزارة ما كان أكثر مدّاحيك، وما كان أكثر المعجبين بك !! إن هؤلاء الذين لا يملكون أية كرامة قد اختفوا واحداً إثر واحد أما التصريح الذي صرحت به أثناء استقالتك حول ما كنت تزمع القيام به من إصلاحات في وكالة أنباء الأناضول فقد ترك تأثيراً جيداً ولا أدري أي وزير للمعارف فكر بالأعمال الممتازة التي قمت بها.

وأنا أعتقد بأن القوة السوداء هي أيضاً السبب في استقالتك والعناد الكبير المعتاد لمدعي الأستاذية...

... إن الأيام سوف تُظهر مدى الحاجة إليك، فكن مطمئناً من هذه الناحية، ولنرَ ماذا ستتمخض عنه الأيام».

وهكذا يظهر أن النفور من أتاتورك بدأ يظهر ويتجمع حتى في القلوب التي جعلت منه صنماً وكلما ارتفع نقاب الرياء ظهر هذا النفور جلياً.

وقد استعمل بنك العمل «إيش بنكاس» كما يستعمل المقامر احتياطه من النقود. ونستطيع من قراءة الأسطر التالية من مجلة «بيوك دوغو» الصادرة سنة 1950 في اسطنبول من معرفة الجهات التي أصبحت ترتع من هذا البنك بالإضافة إلى حادثة المرأة الروسية:

«لقد أصبح حساب أول رئيس للجمهورية مخصصاً لأهوائه ولأهواء زمرة حاشيته الراكضين وراء منافعهم. ففي صباح ليلة لهو في دولمه باغجه بدأ صاحب أكبر جريدة في تركيا وهي جريدة «الجمهورية» بالرجاء والتوسل وذكر بأنه لم يدفع ولا

يستطيع أن يدفع قيمة مكائن الطباعة التي جلبها من أوروبا... وهكذا وبقرار فوري يصدر الأمر إلى بنك العمل بتأدية هذا المبلغ وتسجيله ضمن ديون البنك وبالطريقة نفسها التي تم بها إصدار الأمر -وإعطاء بضعة آلاف من الليرات إلى امرأة روسية تقوم بتشغيل مطعم وبار في شارع «بك أوغلو» -كما صدر الأمر إلى عصمت إينونو- بعدأن أقيل من منصب رئيس الوزراء - بأنه يستطيع سحب (1000 ليرة) تركية من بنك العمل، وقد قبل عصمت إينونو هذا المبلغ دون حياء، أي كان ضمن من رتع من هذا البنك، والله يعلم الباقين».

وفي إطار صفحة حياته في «دولمه باغجه» يتجاوز كل الحدود المادية والمعنوية مستمراً في تقديم نفسه كصنم معبود وكمتجبر ينتقد كل علم وكل إنسان وكل اعتقاد بشري وكل شيء ويضرب به الأرض جاعلاً كل شيء تابعاً لأهوائه، ويبدو وكأنه يعاني من أزمة «المفاهيم المجردة»... إذ يذهب إلى المدرسة ويسأل مدرس الفيزياء: ما هو الفيزياء؟ فيقوم بالتعريف ولكن لا يعجبه بل يقوم هو بالتعريف. ويسأل الأدباء الذين كان يدعوهم لمائدته: «ما هو الأدب؟» فيقومون بتقديم الإيضاحات ولكنه يجيبهم: «ليس أي إيضاح من هذه الإيضاحات أدباً» ثم ودون أن يخجل يدع إحدى بناته بالتبني (!) الموجودات على المائدة تقوم بتعريف الأدب ويصدر حكمه:

- هذا هو الأدب.

ويسأل مفتش المعارف «حسن علي يوجل» ثم الوزير الدائم للمعارف في عهد عصمت إينونو:

- لقد درست الفلسفة أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي.

- ما الفرق بين الصفر واللانهاية؟

- هو الفرق الموجود بيني وبينك يا سيدي.

وهذا الجواب يكفي لانتخاب -أو بالحقيقة تعيين- «حسن علي» نائباً في المجلس. لنشاهد هذا المنظر من صفحة (124) في كتاب «ذكريات من أتاتورك».

«- يا سيد «حسن علي» لا شك أنكم قرأتم الفلسفة، ولا شك أنكم تعرفون معنى «الصفر». فهل تقومون بتعريف «الصفر» لنا.

كان السيد حسن علي مسروراً لكونه سئل عن موضوع هو مختص فيه... فإذا أضفت إلى هذا بأن السؤال كان متعلقاً بموضوع «الصفر» الذي كان يعرفه حق المعرفة فإن سروره كان مضاعفاً.

- يا سيدي! إن الصفر هو بين الحياة والعدم وبين الوجود والعدم و...

- فهمت... ولكن إذا كانت الحياة أبدية أليس العدم أيضاً أبدياً؟

- لا شك في هذا يا سيدي فأبدية الحياة...

- كلا... إنني أسألك عن الصفر. هل الصفر يعني العدم؟ فهل هناك فرق بين الصفر وبين اللاوجود؟

- سيدي، إن أحدهما أي الصفر هو لا وجود شيء معاش في الحياة بينهما...

- كيف تتصور الحياة؟

- سيدي إن الصفر يعني العدم.

- جميل!... إذن كيف يمكن لهذا الشيء المعدوم أن يرفع قيمة الرقم بعشرة أمثاله إذا وضع أمامه؟ كيف يحدث هذا؟

كان السيد حسن علي على وشك أن يُغلب أمام هذه الأسئلة وكان المستمعون يراقبون هذا الصراع الممتع بلذة، وكان من الواضح أن أتاتورك يحاول بهذه الأسئلة إحراج السيد حسن علي وجرِّه إلى الهزيمة ثم توبيخه وزجره، والغاية من كل هذا هو إزالة الجو الثقيل والمرهق الذي تولد نتيجة تناول المسائل الجدية منذ أكثر من ساعتين.

كان السيد «حسن علي» يجد الباب مسدوداً أمامه أينما حاول الاتجاه وأخيراً أدرك أن عليه أن يستعمل ذكاءه أكثر من استعماله لعلمه فقال:

- يا سيدي... إنني دائماً وراءك وعلى يسارك، فالصفر هو خادمكم أنا الموجود على يساركم».

وفي أزمة المفاهيم المجردة التي كان يحس بها، لم يكن يعترف بأي صاحب صلاحية واختصاص في أي أمر مادي أو معنوي بل كان يحاول أن يصنع بنفسه كل شيء حتى قوانين الطبيعة، ولعل حادثة المؤرخ أحمد رفيق أوضح دليل على هذا:

بعد أن يشرب ويشرب في «دولمه باغجه» ويسكر يأمر بجلب «موتور» بحري حيث يذهب مع بناته المعنويات: «أي بناته بالتبني حسب ادعائه !!» إلى نادي «اليخت» في جزيرة «بيوك آده» وعندما يرى المؤرخ أحمد رفيق جالساً هناك يستدعيه إليه... يأتي إليه رجل العلم دون أن يعلم ماذا سيحل به ولكنه يأتي وهو يتوجس خيفة ويجلس أمامه وهو نصف منحنٍ... يسأله:

- ما هو التاريخ؟

ولكي لا يقدم تعريفاً سطحياً يقوم رجل العلم باستعراض عدة تعاريف لكبار المؤرخين العالميين.

يصرح الصنم:

- هذه التعاريف كلها لا توضح التاريخ... إن التاريخ ليس أي تعريف من هذه التعاريف.

ينزوي «أحمد رفيق» في مكانه من الخوف... وعندما يرى أتاتورك حاله هذا يرى أن الفرصة سانحة أمامه لإشباع طبيعته في تذليل الضعفاء. فيقول له:

- اصعد على هذه المنضدة واصرخ «إنني حمار».

يصعد البروفيسور والمؤرخ الكبير «أحمد رفيق» على المنضدة ويصرخ:

- إنني حمار.

وعقب هذا يأتي تعريف التاريخ من قِبَل أتاتورك.

- التاريخ هو ترجمة لحاله وأحوال البشر.

وأمام هذا التعريف السطحي المبتذل يطلب أحد أذنابه الانتهازيين من الجالسين على المائدة وهو «يونس نادي» إذناً بالكلام... يضع إصبعه على صدغه يهتف بصوت عالٍ:

- فكروا أيها السادة... فكروا إننا أمام أي تعريف عبقري!... التاريخ ليس إلا ترجمة لأحوال البشر وكذلك هو ترجمة حاله أيضاً.

وبعد هذه الحادثة التي لا يمكن أن نجد لها مثيلاً في تاريخ أية أمة والتي لا يستطيع وصف دناءتها أي قلم نرى أن أتاتورك عندما يقوم بزيارة ثانية إلى نادي اليخت يقوم بتصرف ربما كان أسوأ من سابقه وذلك بإغداق مدح كله رياء بحق «أحمد رفيق». ونحن نقتبس وصف هذه الحادثة الثانية من «مدحت كونتاي» كإثبات للحادثة الأولى.

(مجلة آيده بر، عدد 5).

«... وبعد مدة ظهر المؤرخ «أحمد رفيق» واقفاً أمام أتاتورك وكأن الأرض انشقت به، كان لابساً «السموكن» ولكنه لم يكن حليقاً. فلا شك أن «أحمد رفيق» الذي كان يسكن جزيرة «بيوك آده» قد أيقظ من نومه وأخبر بأن الغازي قد أتى، لذلك فإنه أسرع بلبس «السموكن» ولم يجد وقتاً للحلاقة فحضر بلحية لها عمر عدة أيام.

عندما رأيت «أحمد رفيق» أمام الغازي تجمدت في مكاني، ذلك لأنه حدث فصل حاد بينهما قبل عدة أسابيع وكنت أخشى أن يتكرر الآن هذا الفصل، ولكن العكس هو الذي حصل إذ قال الغازي لأحمد رفيق:

- تفضل أيها السيد...

وأجلسه أمامه وبجانب «نوري جونكر».

كان الغازي و«نوري جونكر» يتمازحان ويتلاطفان بشكل حاد إلى درجة أن هذه الملاطفة كانت تبدو لمن لا يعرف وكأنها شيء جدي؟... وكانت مثل هذه الملاطفات، الذي كان من المفروض أن تنتهي بقطع العلاقة بينهما بشكل أبدي، تنتهي بضحكات طويلة تحسب كأنها أبدية.

وفي هذا المساء أيضاً أشار نوري جونكر إلى أحمد رفيق قائلاً للغازي:

- يا باشا! انظر إلى اللحية الموجودة على ذقنه... إنها بطول شبر.

لم يجبه الغازي بل التفت إلى السيد أحمد رفيق قائلاً:

- لا تهتم لكلام «جونكر» أيها السيد... إنه لا يرى المكتبة الموجودة على رأس الإنسان ولكنه يرى اللحية على ذقنه.

كانت الكلمات القاسية التي كان الغازي قد قالها لأحمد رفيق قبل أسابيع قد انمحت في لحظة واحدة. كان الغازي كبيراً أيضاً وجميلاً أيضاً. ولكن كثير من الناس كانوا صغاراً وكانوا قبيحين ذلك لأن المنظر السيئ الذي جرى بين الغازي وبين أحمد رفيق قبل عدة أسابيع تناقله الناس بسرعة البرق لأنه كان ضد أحمد رفيق، بينما لم يقم أي شخص بنقل هذا المدح من الغازي لأحمد رفيق الذي كان يعتبر ترضية له. أليس من المؤسف أن أكون أنا الشخص الوحيد الذي يقوم بسرد هذه الحادثة؟».

والشيء المؤسف حقاً أن رجل العلم الذي أمروه أن يصرخ من فوق المنضدة: «إنني حمار»... الشيء المؤسف أنه لم يستطع أن يقول: «إنني لا أعتقد بأنني حمار أو أن مجلسكم ترتاده الحمير، ولذلك فصيانة لكم فإنني لا أستطيع تنفيذ أمركم».

وفي سنوات حياته في «دولمه باغجه» لما كان الشغل الشاغل لأتاتورك هو القيام بمذبحة اللغة والتاريخ فإنه كان يحس بغيرة قاتلة من المؤرخ أحمد رفيق.

في صفحة (133) من كتاب «ذكريات عن أتاتورك» نجد هذه السطور:

«كان أحدهم يهز سريري في منتصف الليل... فتحت عيني فوجدت أخي الكبير «أدهم» على رأسي:

- قم بسرعة.

- ماذا هناك؟

- سأصحبك إلى أتاتورك.

خيِّل إليّ أنني أرى حلماً.

- أتاتورك؟ ... أنت تضحك علي ولا شك... إذ هل يمكن رؤية أتاتورك بالعين.

كنت حينذاك في السادسة من عمري حتى إنني لم أكن أذهب إلى المدرسة بعد. وكنت أسأل أمي في بعض الأحيان:

- أمي! ... هل أتاتورك هو الله؟

- لا يا بني... أتاتورك ليس هو الله.

- إذن ما هو؟

- إنه رجل عظيم.

- وهل الرجال العظماء يأكلون ويشربون مثلنا؟ وهل يتكلمون مثلنا؟

وعندما قال لي أخي الكبير في منتصف الليل «سأصحبك إلى أتاتورك» تداعت إلى ذهني الأسئلة التي كنت أسألها لأمي ولذلك فإنني لم أصدق.

- وهل نستطيع أن نرى أتاتورك بعيوننا؟».

هذا هو الانطباع الذي تركوه في القلوب والأرواح الغضة.

وينقل السيد بهجت كال جاغلار[1] -الذي يدعي الشعر والذي هو من مدّاحي أتاتورك- في مجلة «يوجل Yocel» عدد تشرين الثاني لسنة 1939 الكلمات التالية عن سيده:

«... بالنسبة لي فلو أنني لم أعرف تاريخنا بشكل أفضل ولو لم أعرف مشاكلكم بشكل أفضل ولو لم أكن أفضل جندي وأحسن خطيب ولو لم أكن أشجعكم جميعاً لما استطعت أن أكون رأساً لهذه الأمة».

وبعد قليل، وتحت تأثير السُّكْر الذي يقلب القلوب يقول:

«... إن ما قلته قبل قليل كذب وغير صحيح... لست أنا كل شيء... إنني لا شيء... ولو لم تثق بي الأمة هذه الثقة لما كنت شيئاً».

لا اعتراض عندنا على صدق الجملة الأخيرة.

والأسطر التالية التي أخذناها أيضاً من مقالة السيد «مدحت جمال كونتاي» التي نشرها في مجلة «آيده بر Aydabir» تقدم لنا صورة عن الصباح الباكر لليلة حمراء في «دولمه باغجه» والتي تعتبر أفظع لوحة بين جميع لوحات الفضائح المعنوية والجرائم التي سجلناها حتى الآن:

«... وعندما بدأت الشمس بالشروق حدثت حادثة فريدة جداً... كانت أشعة الشمس المشرقة وصورة البحر تنسل إلى داخل صالون «المعايدة» من خلال المشبك الحديدي لأبواب الصالون الضخمة... في إطار هذا المنظر صعدت نبيلة هانم -إحدى البنات المعنويات للغازي- على مائدة الغازي على أثر إشارة منه، وبقوامها المتناسق والموزون جداً وبرأسها الجميل الذي كان يزينه شعرها الجميل المتموج بدأت بقراءة أذان الفجر...

---

(1) هذا الشخص من أكثر مداحي أتاتورك إفراطاً في المدح، حى إنه يرفع أتاتورك في بعض أشعاره إلى مرتبة الألوهية - المترجم.

وبعد لحظة انتبهت... كانت هناك قطرات دموع تمتزج مع قطرات صوت نبيلة هانم... كان الغازي مصطفى كمال يبكي».

على مائدة الخمر يقوم بتكليف امرأة ذات هوية معروفة بقراءة الأذان ثم يقوم -وهو المحروم من خشية الله- بالبكاء ... هذه الحالة الروحية الغريبة جداً بل المريضة ما سببها؟ هل سببها أنه أحس من بعيد بحسرة ممزوجة بالاحتقار إلى الدين الذي قام بسحقه؟ أم أنه وهذا هو الأرجح -وهو الذي قضى عمره في محاولة فرض عبادته على الناس- كان يحسد الله؟ كلا... إن هذه الدرجة من الفظاعة لا يتحملها الخيال.

ثم انظروا إلى مسلكه وتصرفه أمام الأذان الحقيقي:

كان في فندق «بارك» وكان المؤذن يقرأ الأذان في المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة.

يلتفت أتاتورك لمن حوله قائلاً:

- من قال بأننا مشهورون؟ وما شهرتنا نحن؟ انظروا إلى هذا الرجل[1] كيف أنه وضع اسماً وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر في كل لحظة وفي جميع أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار... ليهدموا هذه المنارة.

هذه هي قصة المنارة التي بقيت مهدمة لمدة طويلة وهذه القصة معروفة لدى الجميع اعتباراً من جرسونات الفندق القدامى إلى الآخرين[2].

ولعل من الأصوب وصف أتاتورك بأنه كان عدواً للرسول قبل أن يكون عدواً لله، هذه العداوة -التي تؤدي بطبيعة الحال إلى عداوة الله- هي أفظع من عداوة الله.

لذلك فإن من لضروري فهم مصطفى كمال في ضمن هذا الإطار - ضمن إطار عداوته الشديدة للرسول.

(1) يقصد سيدنا محمد ﷺ - المترجم.

(2) سمعت هذه القصة نفسها في سنة 1957 عندما صلّيت في هذا الجامع الصغير - المترجم.

وتظهر هذه العداوة أيضاً في المناقشة التي جرت بينه وبين «حمد الله صبحي تانري أور» حول لقبه (ذكريات عن أتاتورك، ص228).

«كان لعائلتنا اسم قديم هو «كوجاممي Koca mami» فقال لي بأن «ممي Meami» «ممش Memis» و«ممو Memo» من مصدر عربي ومن كلمة «محمد» وأضاف:

- سأعطيك أنا اسماً تركياً نقياً: -إن ترجمة حمدالله هو «تانري أور».

وقد كتب أتاتورك هذا الاسم بيده على ورقة ووضعها في صحن فضي كان فوق المائدة قائلاً:

- احتفظ بالاثنين معاً تذكاراً مني».

شراب... شراب... شراب

إن مناظر سكره في المآدب لا تُعد ولا تُحصى وأقداحه التي كانت تُملأ ثم تُفرغ أيضاً لا تُعد ولا تُحصى والأسطر التالية من فالح رفقي تبين نظرة أتاتورك إلى المسكرات (جانكايا، ص518).

«... وبهذه المناسبة أحب أن أكرر إحدى ذكرياتي، فإن المرحوم «أحمد راسم» كان قد نقل هذه القصة:

في إحدى اجتماعات جمعية الهلال الأخضر[1] سأل المحاضر:

- أيها المستمعون الأفاضل ! لو وضع دلو من الماء ودلو من العرق أمام حمار فمن أي الدلوين سيشرب؟

أجاب أحدهم فوراً:

- يشرب الماء طبعاً.

(1) جمعية الهلال الأخضر تقوم كما هو معروف بمحاربة المسكرات - المترجم.

- ولماذا؟

والظاهر أن أحد أهل اللهو كان موجوداً هناك حيث قام هو بالجواب الثاني:

- لأنه حمار.

وقد أعجب أتاتورك بهذه النكتة كثيراً وكان يكررها على الدوام.

وفي إحدى الأمسيات كنا نجلس في المزرعة أمام البناية الصغيرة القديمة، وكان هناك صبي لعامل يقف على بُعد ويراقبنا فقال له أتاتورك:

- تعالى هنا يا بني.

اقترب الصبي من المائدة فسأله أتاتورك:

- لو وضع أمام حمار دلوان في أحدهما ماء وفي الآخر عرق فمن أيهما يشرب؟

ففاجأنا الصبي بقوله وهو ينظر إلى الأقداح الموجودة أمامنا:

- من العرق يا سيدي.

فضحك أتاتورك وقال:

- من الأفضل أن لا نسأله عن السبب».

إن مناظر الفضائح والدناءة التي كانت تملأ قصر دولمه باغجه لا يمكن الانتهاء من عدِّها ومن ذكرها وبعد هذا المقدار الذي شاهدنا لا تبقى عند الإنسان طاقة لمشاهدة غيرها.

شهادة:

قام أحد الضباط المتقاعدين -يبلغ عمره الآن (75-85) سنة- والذي رافق مصطفى كمال في حرب «جنه قلعه» ثم في جبهة فلسطين وأخيراً في حركة الاستقلال في الأناضول... قام هذا الضابط بإيداع كاتب هذه الأسطر أوراقاً مهمة.

هذا الضابط المتقاعد الذي تعقب جميع الأعمال العسكرية والسياسية لمصطفى كمال منذ حرب «جنه قلعه» والذي شاهد جميع الجوانب النفسية والأخلاقية له لم يتحمل في النهاية تحت ضغط ضميره إلا إيداع مشاهداته لدينا بشكل ملف ضخم قائلاً:

«إني على حافة القبر... لذلك فإني أرى نفسي مكلفاً قبل أن أسلِّم روحي أن أؤدي دَيْن الله الموجود في عنقي بتسليم ما أعرفه إلى يد أمينة... إنني أعطي ملاحظاتي هذه لتستعملها حسب ما تريد ولكن أريد شيئاً واحداً فقط وهو أن تقوم بالمحافظة على سلامتي ما دمت على قيد الحياة وبالمحافظة على أمن وسلامة أبنائي... أعني أن لا تعلن اسمي!».

من هذه الملاحظات اخترنا 33 قطعة تستحق الوقوف عندها ونحن ننشرها كما هي على شكل أخذ صور «فوتوكوبي» بخط يد الضابط، ونحن مضطرون لكي نجنب هذا الشخص المحترم أي تضييق أو تعقيب أن نخفي اسمه وعنوانه.

هناك نوع من الظلم هنا في تركيا لا يمكن مشاهدته في أي مكان في الدنيا ذلك لأن أي تركي لا يستطيع أن يتناول موضوع أتاتورك. لأن تناوله بأي نقد مهما كان صغيراً ممنوع بقوة القانون وهو لا يجد الحماية إلا بواسطة القانون. إن أي تركي لا يستطيع هذا إلا إذا قرر ترك وطنه أو قرر الانتحار. بينما أصبح الآن يسود في تركيا جو بحيث إننا إذا استثنينا بضع المئات من الآلاف من مدعي التقدمية -من الذين انقطعت صلاتهم بجذورهم وبماضيهم- من (38) مليون تركي لما وجدت هناك شخصاً واحداً يلتزمه، بينما تجد الملايين تلعنه كل لحظة أكثر من لعنها الشيطان نفسه.

وهذا الوضع الذي يعتبر سرد الوقائع الحقيقية حول أتاتورك ونقده خيانة كبيرة، بحيث تضطر الإنسان إلى ترك وطنه يوضح كيف أن أتاتورك لا يزال حتى الآن مستمراً في ظلمه وفي جرائمه في تركيا، وأمام هذا الوضع الذي يحرم التركي المسلم من وطنه ومن دياره فإن عذرنا واضح إذا أخفينا اسم هذا الضابط المتقاعد.

ولكن ما العمل؟ ... إذ لا يزال 38 مليوناً محكومين وأسرى بيد بضع مئات من الآلاف.

وعندما نعطي هذا الإيضاح الذي نراه ضرورياً من ناحية استنادنا على الأدلة الواضحة وعلى البراهين الثابتة ثبوت البراهين الرياضية، نحب أن نقول إن المعلومات التي يسجلها هذا الضابط المتقاعد بخط يده والتي يضعها أمام الأنظار تعتبر وثائق مهمة لكونها بعيدة عن أي غرض أو حقد شخصي ولكونها مكتوبة بأسلوب مخلص وغير مصطنع، وهي تؤيد كتابنا هذا من أوله لآخره.

ونحن نعطي هذه الوثائق كما هي حتى بأخطائها اللغوية.

1- يشرح أولاً حاله:

الوثيقة رقم (1):

«بن خاندان و یا قینارینه منسوب دکلم، سرایده ده بولنمادم و سرایده یتیشمه‌دم.
فقیر بر عائله چوجغیم، هیچ بر صورتله سرای خدمتنده بولنمادم. ملت و مملکتیمه و
پادشاهمه و عثمانلی خاندانه و بو مملکتک خلقنه و قهرمان اولادلرینه احتراص اوغرنده یاپمه
اولدیغی حدودسز فنالقلری، حادثه‌لرک ایچنده بدایتدن بری کوردیکم و بیلدیکم ایچون بو آزونتودن
کندمی طوتامایارق حیاتمه ده مال اولسه، یازمقدن کندمی منع ایده‌مه‌دم. آنجق اوغلوم و طورونلرمک
حیاتنی شمدی‌یه قدر تهلکه‌یه آتمق ایسته‌مه‌مشدم.

«لست منتسباً إلى العائلة السلطانية من قريب ولا من بعيد. ولم أنشأ في القصر ولم أكن فيه، فأنا من عائلة فقيرة. ولم أكن في خدمة القصر بأي شكل من الأشكال.

ولما كنت منذ البداية ضمن الأحداث أشاهدها وأعرف مقدار السوء والأذى اللانهائي الذي ألحقه بأمتي وببلادي وبسلطاني وبالعائلة السلطانية وبشعب بلادي وبأبنائها الأبطال كل هذا من أجل شهوته للحكم فإنني لم أستطع نتيجة الحزن الذي يحز في نفسي من منع نفسي من الكتابة حتى ولو كانت حياتي ثمناً لها، غير أنني لم أكن أريد حتى الآن أن ألقي إلى الخطر حياة ولديّ الاثنين وحياة أحفادي».

2- أما الوضع العائلي لمصطفى كمال فإنه يشرحه مستشهداً بشهادة «جعفر طيار باشا» وأحد الموظفين:

وثيقة رقم (2):

بگا جعفر طيار پاشا، مصطفى كمال
مصطفى كمال پاشانك باباسنك كم اولديغنى وخصوصى حالنى صوردم.
پاشا ازلدن بويله در، يعنى عياشدر، سفيهدر، ديمشدى. باباسى كيمدر ديديگم زمان، مختلف
شى سويلرلر، ديمشدى، باباسنك كم اولديغنى تثبيت ايتمه‌مشدى ماناسترده شمشى پاشايى وورانه جناق قلعه‌لى
طوبجى ملازمى جمالى حادثه‌ى متعاقب ماناسترده اوزنده صاقلايان ذات (سيفى بك) سيفى در
بويوك جمال پاشانك فدائيسى، صادقه آدامى اتحادجى تك أل استانبول باش مديرلگى مسكرات
معاملات شعبه‌سى آمرى ايكن، كنديسندن مصطفى كمال پاشانك اوگرنمك استه‌دم. بگا ديديكى، بر
عربلى جاوديشلر بر چينگانه قيزندن، باخود قاريسنده حاصل اولمه بر عائلة دندر.

«سألت: من هو والد مصطفى كمال باشا؟ وسألت عن وضعه الشخصي فقال لي «جعفر طيار باشا»: إن مصطفى كمال باشا هكذا من الأزل، أي أنه سكير وسفيه». قلت: ولكن من والده؟ فقال: إن هناك روايات عديدة حوله وأنه لم نستطع التحقق من والده.

إن السيد سيفي هو الذي قام بإخفاء ضابط المدفعية جمال (كان من أهالي جنه قلعه) الذي قام بقتل «شمسي باشا» في مدينة «مناسطر» بالرصاص، وكان سيفي هذا أحد فدائيي جمال باشا الكبير ورجله المخلص ومن رجال الاتحاد والترقي. وعندما كان آمراً في شعبة معاملات المسكرات في المديرية الرئيسية لانحصار التبغ أردت معرفة والد مصطفى كمال باشا منه فقال لي: «إنه وُلد من بنت أو امرأة غجرية ووالده جاويش حربي».

3- ويفضح كذب ادعاء مصطفى كمال من أنه استولى على «بتلس» و«موش».

وثيقة رقم (3):

بعد اول زمان برنجى قول اوردونك أمرنده وظيفه گوريوردم. جناق قلعه جبهه سنده...
مصطفى كمال پاشا بتليسى، موشى دوشماندن استرداد ايتدم ديور. حالبوكه بولشويكلك
ظهوريله روسلر ايكنجى و اوچنجى اوردو جبهه لرنده سرعتله چكيليور، طوپراقلرمز اوزرنده
... بر ... قاليورلردى. بونلرده روسلره بزمانه دن بالگز ... كيديور. كز
ديه آتشه ايديورلردى

«كنت أنا حينذاك أؤدي الخدمة في الفرقة الأولى في جبهة «جنه قلعه» يقول مصطفى كمال باشا بأنه استرد «بتلس Bitlis» و«موش Mus» من الأعداء هذا مع العلم بأن الروس بدأوا بالانسحاب السريع من جبهات الجيش الثاني والثالث وذلك لظهور البلشفية عندهم. ولم يبقَ فوق أراضينا سوى وحدات الجيش الأرمني، وكانت هذه الوحدات تطلق النيران على الروس احتجاجاً على تركهم لهم وحدهم وانسحابهم».

4- وعن حياة الفحش التي كان يحياها أتاتورك في ديار بكر يستشهد ببعض الأسماء.

وثيقة رقم (4):

دیاربکر حماملرینك قپاتیلدیغنی قاچ کیشی بیلیر ؟ بونی دیاربکرلی لوقنطه‌جی
فؤاد تفصیلاتیله بیلیر. غازوز فابریقاسی ایشله تن فؤاد بك ...

«كم شخصاً يعرف أن حمامات ديار بكر قد أُغلقت؟ تفصيلات هذه الحادثة يعرفها السيد فؤاد صاحب معمل «الكازوز»[1] والذي هو من أهالي ديار بكر ويملك مطعماً أيضاً».

5- وعن سُكْره المعروف في الجيش وفي العالم كله.

وثيقة رقم (5):

اونك أزلدن بری عیاشلغنی، سجلنك بوزوقلغنی بیلمه یه بوقدر

«لا يوجد أحد لا يعرف دوام سكره وسجله السيئ».

6- ودون أن يدري فهو يعطينا الدليل على قيامه ببيع الوطن إلى الإنكليز.

---

(1) أحد المشروبات الغازية ككوكا وبيبسي كولا..

وثيقة رقم (6):

فلسطين جبهه سنده كى سلاح آرقداشلرم، اينكليز سواريلرينك مصطفى كمالك قوماندا
ايتديكى اوردونك جبهه سنى ياره رق درت اوردونك كريسنه دوشديكنى، عقل وخياله صيغمايان
بو فلاكتك باش كوستردىكنى مصطفى كمالك [illegible] قورتارمق ايچون آطنه و قونيه يه
قاجديغنى سويلرلردى.

«كان رفقائي في السلاح في جبهة فلسطين يذكرون أن الخيّالة الإنكليز قاموا باختراق جبهة الجيش الذي كان تحت إمرة مصطفى كمال وأنهم بذلك وصلوا إلى مؤخرة أربعة جيوش حيث تمت الكارثة التي لا يتحملها العقل ولا الخيال، وأن مصطفى كمال انسحب إلى «أدنة» و«قونية» لكي ينقذ نفسه بينما بقي «علي فؤاد باشا» في «دومدار»».

7- والموضوع نفسه أيضاً.

وثيقة رقم (7):

اينكليزلر مصطفى كمالك امر وقوماندا ايتديكى اوردونك جبهه سنى سوارى بلوكلريله يارارق
درت اوردونك كريسنه دوشمشلر وبو اوردولر قطعه لريله افراديله، ضابطانيله، لوازمسيله وبوتون
اسلحه لريله دشمانك الينه كچمشدر. دردنجى اوردو قوماندانى كوچك جمال پاشا بو بوزغونده مصطفى
كمال پاشايى دواملى صورتده صوچلى كوره رك اتهام ايتمشدر. بر اوردو جبهه سنى بر سوارى
قوتيله يارلاماز. بر سوارى قوتى كندى باشنه بوتون اوردولرى اسير آلاماز. آنجق بوزولان
اوردولرك بلوكلرينى تعقيب ايده بيلير.

«اخترق الإنكليز جبهة الجيش الذي كان تحت إمرة وقيادة مصطفى كمال بواسطة وحداتهم من الخيّالة حيث وصلوا إلى مؤخرة أربعة جيوش، وقد وقعت هذه الجيوش في يد الأعداء بكل قطعاتهم وأفرادهم وضباطهم ولوازمهم وجميع أسلحتهم وكان قائد الجيش الرابع «كوجك جمال باشا» يرى على الدوام أن مصطفى كمال هو المسؤول عن هذه الهزيمة، وليس بإمكان وحدة من الخيالة أن تخترق جبهة جيش. كما أنه ليس بإمكان قوة من الخيالة أن تقوم وحدها بأسر جميع الجيوش. إنما تستطيع فقط مطاردة وحدات الجيش المنهزم».

8- الإشارة إلى جو العلاقة الموجودة بينه وبين الإنكليز عند انتقاله إلى الأناضول.

وثيقة رقم (8):

« رأفت پاشانك اولمەدن اول جمهوريته بر بياناتى وار: مصطفى كمال پاشا اينكليزلرك
مساعدەسيله آناطولييه كيتدى. بن [illegible] ١٨ سوارى ايله كتدم. واپوره بينوب كيتدم. صامسونده
[illegible] قوماندانلغنى درعهده ايتدم. ديمشدى: مصطفى كمال پاشا استانبولدن آيريلركن
اوچ كيشيلك بر اينكليز هيئت عسكريه‌سى كنديسنى تشييع ايتمشدى.
جولاق صلاح الدين پاشا ايله مجلسده بو موضوعده سرت طارتيشمالر كچمشدى. بر قونيالىدن
ايشتدم: مصطفى كمال پاشايى صامسونه، استانبولدەكى اشغال قوتلرى باش قوماندانى "هارينغتون"
كوندرمش...»

«هناك تصريح لرفعت باشا إلى جريدة «الجمهورية» قبل وفاته يقول فيه: «إن مصطفى كمال باشا» ذهب إلى الأناضول بإذن من الإنكليز. بينما ذهبت أنا إليه بركوبي الباخرة مع (18) فارساً حيث قمت بإدارة فرقة الجيش في «سامسون». وقد قام وفد إنكليزي مؤلف من ثلاثة أشخاص بتشييع «مصطفى كمال باشا» عند مغادرته اسطنبول. وقد حدثت مشادات عنيفة في المجلس مع «جولاق صلاح الدين باشا» حول هذا الموضوع. وقد سمعت من أحد أهالي قونية بأن «هارنجتون» القائد العام لجيش الاحتلال الإنكليزي في اسطنبول هو الذي أرسل مصطفى كمال إلى سامسون».

9- من الذي قام بتأسيس حركة المقاومة الملية والبدء بها؟

وثيقة رقم (9):

حالبوكى ملى مجادلەنك ايلك قوريجيلرندن شرقده قارەبكر ايسه غربده جعفر طيار ايدى. وهر ايكيسى
بو موضوعده برلكده آڭلاشمشلردى. فقط آناطولييه خصوصى آداملر معرفتيله [illegible] ضابطانه، سر
[illegible]
[illegible]
[illegible]

«بينما كان أول مؤسسي حركة الكفاح الملي هو «قره بكر» في الشرق وفي الغرب «جعفر طيار» وكانا قد تفاهما حول هذه الناحية. ولكن إرسال رجال من أناضول إلى

ضباط «تكير دانح» حاثِّين إياهم على عدم القيام بالدفاع هناك تسبَّب في ترك الضباط للفرقة وحتى «جعفر طيار باشا» لم ينتبه لهذا الخصوص، وقد أوضح لي فيما بعد هذا الأمر السيد «شوكت» أحد ضباط الجندرمة الذي تعرفت به فيما بعد».

10 - مجلس الأمة الأعلى ومصطفى كمال.

وثيقة رقم (10):

مصطفى كمال پاشايى بو مجلس هيچ بر وقت مراقبه آلتنده طوتاماميشدر. آنجق مصطفى كمال پاشا بو مجلسى كندى هدفنه و ايستديكى استقامته كوتورمكه عزم ايتمشدى. [illegible] بو مجلسده بولنان مخالف ومعارضلرى بلا تردد ايمحا ايده بيلمكه و چوقلرينى ده سيندرمكه موفق اولمشدر. چونكه آنقره ده كى حكومت مشروع بر حكومت دكل عادتا بر چته لر حكومتى اولاراق تشكل ايتمشدى.

مصطفى كمالك بو مجلسده كى قونوشمالرنده «بويوك مجلسكز» ديه هيئتى پوهپوهلاماسى اونلره شانتاژ ياپماسى، كندى غايه سنه اونلرى چاليشديرمق هدفنه معطوفدى. بو هيئتده صبرى توكنن ويا ايچى ياننلرك قونوشمالرينى ياريده كسيوردى. بول بول تهديد صاوورابيليردى مجلس اعضالرينك پشلرينه خفيه لر ده طاقمشدى. بونى كنديلرى ده بيليورلردى.

«لم يستطع هذا المجلس أن يضع مصطفى كمال باشا تحت مراقبته ولكن مصطفى كمال باشا كان قد عقد العزم على توجيه المجلس الجهة التي يرغب بها ونحو هدفه، وقد استطاع أن يقضي على معارضيه ومخالفيه في المجلس بدون تردد كما استطاع ترويض أكثرهم، ذلك لأن حكومة أنقرة لم تكن حكومة شرعية، بل تشكلت وكأنها حكومة عصابات.

كان مصطفى كمال يخاطب المجلس دائماً بقوله: «مجلسكم العظيم» وذلك من أجل نفخ أوداج الأعضاء والقيام بابتزازهم وسَوْقِهم للعمل في سبيل هدفه، أما الأعضاء الذين فرغ صبرهم والذين اكتوت قلوبهم فإنه كان يقاطعهم ولا يدعهم يكملون حديثهم ثم يقوم بإرسال سيل من التهديدات إليهم. كما أنه كان يرسل المخبرين وراء أعضاء المجلس وكان هؤلاء الأعضاء على علم بهذا».

11 - المعارضة الأولى في المجلس والحالة النفسية لمصطفى كمال.

وثيقة رقم (11):

مجلسده ایلك مخالفتك دوغماسنه سبب اوله مصطفی كمالك مالیه وكیلی سراج
اوغلی شكری‌یه امر ویره‌رك بر بچوق میلیون لیرایی گویا اسلحه مبایعه‌سی نامی آلتنده آوروپایه
گوندرمسی اولمشیدر. مجلس كیمدن اذن [illegible] آلارق بو پارایی گوندردیگنی دییه سراج
اوغلنی صیقشدیردیغی زمان، پاشا امر ویردی دیمشدر. داها بدایتده بر چته رئیسی كبی
لایسئل حركت اتمكده ایدی. حالبوكه فعلا هیچ بر چته‌نك امر و قوماندانلغنی درعهده
اتمامش و مخاطره‌لی یرلرده بولنمامش، مدافعه‌یه گیریشمه‌مش، آنجق انقره‌ده، زراعت
مكتبنده‌كی اقامتگاهنده مدافعه و قورقودن آلنده مجلسه گیدوب گلمش [illegible] استاسیون
گوشكنده و چانقایا گوشكنده طرزده قورقو ایچنده ایسته‌دیگی یاشادی آما قورقو ایلیكلرینه
قدر ایشلمش ایدی. [illegible] كی فدائیلری و پولیسلرك اورتاسنده دولاشیردی.

«إن الشيء الذي سبب أول معارضة في المجلس هو قيام مصطفى كمال بإرسال «شكري سراج أوغلو» وزير المالية إلى أوروبا مع 1,5 مليون ليرة، بحجة شراء أسلحة. وعندما قام المجلس باستجواب سراج أوغلو والضغط عليه حول من الذي أعطاه صلاحية إرسال هذا المبلغ قال: لقد أمرني الباشا. لقد كان من البداية يتصرف وكأنه رئيس عصابة لا يُسأل عما يفعل، مع أنه لم يقم بإدارة أية عصابة[1] محارِبة ولم يوجد في أي مكان خطر ولم يقم بعمليات دفاعية بل بقي في مقر عمله في مدرسة الزراعة في أنقرة يذهب ويأتي إلى المجلس تحت الحراسة.

ثم استمر في طراز الحياة التي أرادها ضمن محيط من الخوف في بناية المحطة ثم في قصر «جانكايا» لقد كان الخوف يسري حتى في عظامه، إذ كان يتجول وهو في وسط العديد من رجاله الفدائيين ومن رجال الشرطة السريين».

(1) يقصد العصابات الفدائية التي تشكلت لمحاربة الأعداء - المترجم.

12 - وحول رجاله الفدائيين:

وثيقة رقم (12):

بو بيوك ملت مجلسی ایچنده بایلاره بروپاغاندا، غیر مشروع صنفلره اولانه اعضالر
بيله مخالفدی . آنجق مصطفى كمالك اطرافنده طوپلامشه بر قاچ فدائيسى و دالقاووغى
مستثنا... هر وسيله بله مجلسه طبانجه لی، سلاحلی كيره ن و اعضالر آراسنه صوقولوب
اوطورانه بو فدائيلر، اوقاوه براشارت و ديره نمه حالنده همان سلاحلرينه الليرينى آتارلر،
مجلسده كيلری تهديد ايدرلردی . دنيا قومیته جيلر بيله مجلسلرنده بيله كورولمه دك بر حالی،
بو مجلسده اعضالر بول بول مشاهده ايتمشلردر .

«إذا استثنينا بضعة من رجاله الفدائيين وبضعة من الانتهازيين الملتفين حول مصطفى كمال فقد كان الجميع حتى الأشخاص غير الرسميين معارضين للدعايات التي كانت تتم داخل مجلس الأمة الأعلى. وكان هؤلاء الفدائيون يدخلون المجلس بكل الوسائل وهم يحملون المسدسات والأسلحة ويجلسون بين الأعضاء. وكانت أيديهم تمتد إلى أسلحتهم عند أقل إشارة أو ظهور مقاومة وتصلب مهددين بذلك أعضاء المجلس، وهذا الحال الذي لا يشاهد حتى في مجالس العصابات كان يشاهده أعضاء المجلس على الدوام».

13 - الوضع الذي أدى حتى إلى عصيانات داخلية.

وثيقة رقم (13):

بوطوپلولعه ايچنده غروبلرك اكثريسى مصطفى كمالك دوراينسه وطوتومنه معارضهر
ايديلر. پاشانك بر ديكتاتور اولمه، دولتى آله كچيرمك و برچيفتلك كبى اداره يه يلتنمك
هوسنه دوشديكنی، هركور ديكى ايشده، فعاسنه بو ذهنيتك حاكم اولديغو بيلك اعلان
فرعه ايتمشلردى. بوطوپلولعك ايچندن دائما پاشايه قارشى اعتراض سسلرينك
يوكسلمى، مجلس خارجنه ده بوسسلرك عكس ايتمى، يرير مملكت داخلنده
عصيانلرك دوغماسنه ومجلس ايچنده ده خاطرنا صابيلر برقوتلى مخالفت
غروبنك وجود بولماسنه سبب اولمشدر .

«لقد كانت أكثرية الأجنحة الموجودة في المجلس معارضة لتصرف وموقف مصطفى كمال. إذ أدركوا جميعاً بأن الباشا يرغب أن يكون ديكتاتوراً وأن يمسك بزمام أمور الدولة وأن يديرها مثلما تدار مزرعة وأنه يقوم بفرض رأيه على كل عمل يقوم به. إن ارتفاع الأصوات المعارضة ضد الباشا في المجلس وانعكاس أصدائها في الخارج كان سبباً في ظهور عصيانات (تمردات) داخلية في كثير من الأماكن وفي ظهور جماعة معارضة قوية في المجلس».

14 – حول العصابات الفدائية التي كانت أول من قامت بحركة الدفاع.

وثيقة رقم (14):

حتى دولتى ايلك خطوه ده قوران و قورتاران ده بو چته لر .... بونلر اولماسايدى اوردوده تشكل ايده مزدى يونانليلر چوق دها أول آنقره يى اشغاله فرصت بوله بيليرلردى.

«... لقد كانت هذه العصابات هي التي قامت بالخطوة الأولى في تكوين الدولة وفي إنقاذها... ولو لم تكن هذه العصابات موجودة لما تكوَّن الجيش ولوجد اليونانيون فرصة الاستيلاء على أنقرة قبل وقت طويل».

15 – كيف قام بخداع الجركسيين العصاة والمعارضين؟

وثيقة رقم (15):

ايسته سه لردى، بدايته ده چركسلر ده مصطفى كمال پاشايى تصفيه ايده بيلرلردى. فقط صورت حقده كورونمه سنى و زماندن استفاده ايتمه سنى بيلدى. كوراولاسى ايتكلرلرى ناظمزه. بو بيلديكى كتردى! بورساده چركس بكر سامى، اسكيشهرده على فؤاد، آنقره ده ژاندارمه عموم قوماندانى ميرآلاى چركس بهاء، آنقره آلاى قوماندانى چركس رمزى، چركس ادهم و قرده شلرى، كسكينلى رضا بك، يوزغادده چاپان اوغوللرى و بك چوقلرى ايسته سه لردى مصطفى كمالى تصفيه ايده بيلرلردى. آلاويره دالاويره ايله باسه قوماندانلق الله كچيردكدن صوكره بونلرى قايديرماشدر. فدائيلرى وسطه سيله، قارشى كلنلرى تهديد ايتمشدر. ويوقه ايتديرمشدر. عثمانلى اوردوسنده بو قدر ظالم و حريص بر عسكر كورولممشدر.

«في البداية لو أراد الجركس لاستطاعوا القضاء على مصطفى كمال، ولكنه استطاع أن يبدو معقولاً واستطاع بذلك كسب الوقت... آه من الإنكليز! لقد جلبوا على رأسنا هذا البلاء.

في «بورصة» كان هناك «بكر سامي الجركسي» وفي «إسكى شهر» «علي فؤاد» وفي أنقرة العميد «بهاء الجركسي» القائد العام للجندرمة و«رمزي الجركسي» قائد الفوج و«جركسي أدهم» وإخوانه و«كسكنلي رضا بك» وفي «يوزكات» كان يوجد آل «جوبان أوغلو» وكثير غيرهم... فلو أراد هؤلاء لاستطاعوا القضاء على مصطفى كمال باشا ولكنه بعد أن حصل على منصب القائد العام بالحيل والطرق الملتوية لم يدع هذا المنصب يخرج أبداً من بين يديه. وقد قام بواسطة رجاله الفدائيين من تهديد معارضيه والقضاء عليهم. ولم يظهر في الجيش العثماني عسكري ظالم وحريص على المنصب إلى هذه الدرجة مثله».

16 - أسلوبه مع منافسيه.

وثيقة رقم (16):

شهزاده بی استانبوله چویرمسلردی آنادولیده‌کی مجلسك باشنه کچیر، اوراسنی تمیزلر، مشروع مقام
کثیره بیلیردی. شمدیلك حمزه اشتیاج بوصه، دیه‌رلرینه قارشیلوه، اورددوده بر نفر کبی چالیشایم،
دیدیکی حالده قبول ایدلمه‌یرك کری چویریلمه‌سی، مصطفی کمالك مقصدینی آپ آشکار. اورمقابه قویمشدی
جلال الدین عارفی ده بو مقصدله مجلسك باشندن تصحیم ایتمه‌سی، کندیسی اولك برینه کچیرمه‌سی،
آنادولیده بولنان پاشالری بر بهانه ایله صاغ صول، حدود خارجنه چیقارماسی، کندینی هم
مجلس رئیسی وهم ده باش قوماندان یاپدرماسی، ارج ایده ده‌کیشه‌مك بر باش قوماندانلغی
صوگنه قدر کندی عهده‌سنده طوتماسی، قارد بکرك قول اوردوسیله شرقده بیتیشمرك یونانلیلری
بوسکورتمگه موفق اولمدکی محتمل ظفرنده علی احسان پاشانك آفیونده برنجی اوردویی تنسیق
و اصلاح ایده‌رك تعرضه حاضر برحاله کیتروب تعرض تکلفنده بولنماسندن قوشقویه دوشن مصطفی کمال،
استشاره عسکریه یاپالم دیه علی احسان پاشایی چاغروب اقامته مأمور ایتدیرمه‌سی، پاشایه
اهلی یه ودیوانی حربه سوق ایتدیرمه‌کی کبی آلچقلقلر....

«لو لم يقوموا بإرجاع ولي العهد في «إنبولي» لأصبح رئيساً للمجلس في الأناضول ولاستطاع أن يضع كل شيء في نصابه وأن يقوم بالتطهير هناك... عندما قيل له: نحن لا نحتاج إليك حالياً. أجابهم: إذن دعوني أعمل كجندي بسيط، ولكنهم لم يقبلوا وأرجعوه، وقد أظهر هذا نية مصطفى كمال بكل وضوح، كما أن قيامه بتصفية «جلال الدين عارف» من رئاسة المجلس وإحلال نفسه محله وبعثرة الباشوات[1] الموجودين في الأناضول ذات اليمين وذات الشمال أو إخراجهم خارج الحدود، والجمع بين رئاسة المجلس والقيادة العامة للجيش والاحتفاظ بمنصب القائد العام بعهدته حتى النهاية بينما كان من المفروض تبديله كل ثلاثة أشهر، وخوفه من النصر المحتمل عند «قره بكر» بفرقته الآتية من الشرق وقيامه بإجبار اليونانيين على التقهقر... كل هذه الأمور توضح كل شيء.

ثم هناك أعمال دنيئة له مثل خوفه من اقتراح «علي إحسان باشا» -الذي كان قد تقدم باقتراح البدء بالهجوم بعد أن قام بإصلاح الجيش الأول في «أفيون» وجعله مهيأً للهجوم- واستدعائه إلى «قونية» بحجة القيام معاً بالمشاورات العسكرية ثم وضعه في الإقامة الجبرية... وكذلك قيامه بإحالته على التقاعد وسَوْقِه إلى المحكمة العسكرية».

17 – وحول الأشخاص والوسائل التي كان يستند عليها.

وثيقة رقم (17):

وقتيله آنقره زراعت مكتبنده اقامت ايدن مصطفى كمال پاشانك محافظلرنده اسماعيل حقي اسمنده
بر ملازمك ادارەسنده بر پياده طاقمي موجود ايكن قيصه زمانده بو طاقمي بر آلاي قدرويه چيقارمشدر و آيريجه ده
بر ژندارما طابوري رفاقتنه آلمشدر، بو طابورك باشنه قيليج علي بك، يكي صالح قيليج اسمنده كنج و يارلي بر
ضابطي يوزباشيلغه ترفيع ايتديرەرك كتيرمشدر. داها صوكرا قارا دگزدن كلن طوپال عثمانك چتەسي ده
بر آلاي حالنه صوقارق و طوپاله ميليس قايماقاملغي رتبەسني ويرەرك اوني ده معيتنه محافظ آلمشدر
معاشلريني ژندارما عموم قوماندانلغي قادروسندن و اكمال افرادي نامي آلتنده چيقارتديغي تخصيصاتله
بسلەمشدر. بوندن باشقه بر پوليس قوەسي ده تشكيل ايتديرەرك محافظلرينه علاوه ايتمشدر. كنديسنه
عاكف فايدان كبي روم ايلي اشقيالري عونەسي، محافظلري ده سسه رضا، جواد عباس، صالح بوزاوه،
رجب زهدي، اسكوبلي عثمان طوفاني... صريشين يارلي ملازم مظفر برنجي ياور...
بونلردن برنجي آدامي، آرنكويلي قاتل و سابقەلي شعبان...

---

(1) يقصد الضباط من رتبة لواء فما فوق – المترجم.

«عندما كان مصطفى كامل باشا مقيماً في مدرسة الزراعة في أنقرة كان هناك فصيل من المشاة لحراسته تحت إدارة ملازم اسمه «إسماعيل حقي» ولكن هذا الفصيل سرعان ما زيد إلى سرية كما أضاف إليها فصيلاً من الجندرمة وجعل على رأسه ضابطاً وسيماً اسمه «صالح كليج» -وهو ابن أخ علي كليج- ورفعه إلى رتبة رائد، ثم استقدم من جوار البحر الأسود عصابة «توبال عثمان» حيث جعلها في شكل سرية كمن أعطى إلى «توبال عثمان» رتبة قائمقام مدني حيث ألحقه في معيَّته كحارس له وكانت رواتبهم تُعطى من القيادة العامة للجندرمة من التخصيصات التي أوجدها تحت اسم «تخصيصات الأفراد الاحتياطيين». بالإضافة إلى هذا شكَّل مفرزة من الشرطة وألحقها أيضاً بوظيفة حراسته. وكان مثال «عاكف قبطان» -الذي كان من مجرمي «روملي»- من أعوانه وكان من حراسه أيضاً «حسن رضا» و«جواد عباس» و«صالح بوزوك» و«رجب زهدي» و«إسكبلي عثمان طوفان»... كما كان الملازم الأشقر الوسيم «مظفر» ياوره الأول... كما كان «أرنكويلي شعبان» الذي كان قاتلاً وصاحب سوابق الرجل الأول فيهم».

18 - الموضوع نفسه أيضاً.

وثيقة رقم (18):

جواد عباس ، قليج علي ، رجب زهدي ، صالح بوزاوق ، عثمان طوفان و ذا حانجه لرى اونلك فدائيلري ايدى . آنقره پوليسنده چاليشانلر (ع.پ.) آدلى عسكرى پوليس تشكيلاتنده چاليشانلرده بر برلريله ياريش ايدرجه سنه عادتا جسده باصاروه موقع تأمينه يه لته نبورلردعا بوخفيه لردن همان اكثريت چكينوردى .

«كان جواد عباس و«كليج علي» و«رجب زهدي» و«صالح بوزوك» و«عثمان طوفان» وغيرهم وغيرهم من بين فدائييه».

19 - هو وجعفر طيار باشا المؤمن:

وثيقة رقم (19):

مصطفى كمال پاشا، جعفر طيارك معنويانه، خلافت وسلطنته باغليلغنى فرق ايتمشدى. (اكيلمز) صوى آديني آلان جعفر طيار حقيقةً سفالت ايچنده ده نه جبلك قدر يوقسوزلوغه كچيرديسه ده
فقط اونلره بويون اكمه دى.

«كان مصطفى كمال باشا قد لاحظ مدى تمسك «جعفر طيار» بالمعنويات وبالخلافة والسلطنة. إن جعفر طيار الذي اتخذ لقب «إكيلمز»[1] قاسى فقراً مدقعاً ولكنه لم ينحنِ لهم».

20- من ضحاياه: الشخص المؤمن المثالي والطاهر نائب ترابزون «على شكري».

وثيقة رقم (20):

على شكرى بى مجلسده فرياد ايديكى ايچون طوپال عثمانه بوغديرمشلر، جسديني برچوال
ايچنه صوقارق آنقره نك كورونمز ماغارالرندن بريسنك ايچنه آتديرمشلر... بو ترتيبى قيليچ
على دينيلن خبيث تلفونله چانقايادن اداره ايتمشدر.

«لقد قام بإصدار الأمر إلى «توبال عثمان» بخنق «علي شكري» لكونه يصرح بالمعارضة في المجلس، وقد وضعوا جسده في «شوال» وألقوه في إحدى المغارات النائية في أنقرة وقد أدار هذه الجريمة تلفونياً من «جانكايا» الشخص الخبيث المدعو علي كليج».

21- المحاولة الفاشلة في إصدار قانون لتنحية مصطفى كمال:

وثقة رقم (21):

بو مجلسك ايچنده صحيح ايدين، مرسيلى كيبولن عثمان پاشالر، قارا واصف، و آرقداشلرى بر قانون
تكليفنده بولنمشلردى. مملكت ايچنده بش سنه اوطورمايان و بيلمم نه قدر ويركى ويرمهمش
بولونانلرك مجلسه اعضا صفتيله قبول ايدلمهمه لرى شرطى قوشولمشدى. غايه مصطفى كمالى ابدى

---

(1) إكيلمز: معناه الشخص الصلب الذي لا ينحني امام أحد - المترجم.

«من بين أعضاء المجلس قام «صلاح الدين باشا» و«مرسيلي كوجوك جمال باشا» و«قره واصف» وأصدقاؤهم بتقديم اقتراح قانون يقضي بعدم قبول أي شخص في عضوية المجلس إن لم يكن قد قضى (5) سنوات في داخل البلد والذي لم يدفع مقداراً معيناً من الضرائب... كان مصطفى كمال هو الهدف».

22- الوجه الحقيقي لمحاكم الاستقلال.

وثيقة رقم (22):

مصطفى كمال مجلسه هيچ صورمادن، قرار وموافقت استحصال ايتمه دن كندى سيديگى
آرقداشلرندن اوچير بشر كيشيلك برر هيئت تشكيل ايدرك وحدودسز بر صلاحيت ويرهرك
ايستديگى ولايتلره كوندرمسى، امر ومحافظلرينه برر ژاندارما مفرزه سى تخصيص ايتديرمشدر.
بو محاكم هر قوتك اوستنده در، هر كيتديكى يرده خلقك اوزرينه عادتا بر قورقو، بر
كابوس كبى چوكمشدر. هيچ كيمسه يه صورمادن بر دوزينه انسانى بر كيجه ده اعدام ايده بيلير وايتمشدر ده.
قرارلرينك استئنافى، تمييزى يوقدر. ايستديگى آنده ولايتك واليسنى دخى توقيف ايدهرك وتحت
محاكمه يه آلابيلير. هيچ كيمسه دن امر آلمايه احتياجى يوقدر.

«قام مصطفى كمال بتأليف هيئات متعددة. كل هيئة تتألف من (3-5) أعضاء من رجاله الصادقين دون أن يسأل رأي المجلس ودون أن يأخذ موافقته وأرسلها مع صلاحيات لا حدود لها إلى مختلف المدن التي عيَّنها هو مع تخصيص مفرزة من الجندرمة للقيام بحراستها وتنفيذ أوامرها. كانت هذه المحاكم فوق كل سلطة، وكانت كابوساً ثقيلاً ووسيلة خوف وفزع على الناس أينما ذهبوا أو حلوا فقط كانت تستطيع -وقد فعلت هذا فعلاً- أن تقوم بإعدام عدد كبير من الناس في ليلة واحدة دون أخذ موافقة من أي أحد، ولم يكن هناك استئناف أو تمييز لقراراتها. وكانت تستطيع متى أرادت أن تقبض حتى على الوالي وأن تجره إلى المحكمة ولم تكن لها حاجة إلى أخذ أوامر من أي شخص».

23- القواد المجهولون الذي صنعوا انتصاره.

وثيقة رقم (23):

علی احسان پاشانك آفیون جبهه‌سندن حیله ایله آلینارق قونیاده اقامته مأمور ایدلمه‌سی
رأفت پاشایی أوزمشدر. پاشا بو حرکتده‌کی أوز مقصدینی درحال قاوراماسی کندیسنه تکلیف ایدیلن
برنجی اوردو قوماندانلغی ده بو سبیله قبولدن استنکاف ایتمشدر. کندیسندن قالان اوردویی
ناچار نور الدین پاشا درعهده ایلمشدر. پاشه قوماندانلغی محاربه‌سی علی احسان
پاشانك حقیدر. آفیون ده اوردویی تنسیق ایدن، تعرضه حاضرلایان علی احسان پاشا،
پاره‌سانی طوپلایان مصطفی کمال اولمشدر.

«أسف «رفعت باشا» لحادثة استقدام «علي إحسان باشا» من جبهة «أفيون» بواسطة حيلة ثم القيام بفرض الإقامة الجبرية عليه في «قونية» وقد فهم الباشا على الفور الغاية الحقيقية لهذا لعمل، لذلك فإنه استنكف عن قبول تسلم قيادة الجيش الأول الذي كُلِّف به. وقد اضطر «نور الدين باشا» اضطراراً إلى قيادة هذا الجيش الذي بقي دون قائد. وقد كان حرب «القيادة العامة»[1] من حق «علي إحسان باشا» لأنه هو الذي قام بتنظيم الجيش وتهيئته للهجوم في «أفيون» بينما استولى مصطفى كمال على كل نتائج هذه الحرب».

24- الارتباط السري بالدبلوماسية السرية للإنكليز.

وثيقة رقم (24):

عصمت پاشایی لوزانه گوندررکن وحودانیا متارکه‌سی مذاکره‌یه مأمور ایدرکن
مجلسه هیچ صورمامشدر. مجلسی هیچه صایمشدر. حالبوکه بو متارکه ولوزانده‌کی
مذاکره‌لری وقوفله اداره ایده بیله‌جك، مجلسده مسلك باقیمندن ده کفایتلی وقابلیتلی،
سیویل وعسکر اولانلر واردی. آما اونلری گوندرمك مصطفی کمالك ایشنه گلمزدی.
چونکه مدانیاده هارینغتون واردی. اونلرك همتیله آناطولی‌یه گوندرلمشدی. اونی ممنون ایتمه‌سی
هر باقیمدن لازمدی. روس پولیتقه‌سندن انگلیز پولیتقه‌سنه آتلامه زمانی گلیوردی. لوزانده
انگلیز پولیتقه‌سنه اگیلمه‌جکدی

---

(1) يقصد حرب (صقاريا) حيث أعطي مصطفى كمال منصب القائد العام للقوات المسلحة لإدارتها - المترجم.

«عندما أرسل عصمت إلى لوزان وعندما خوّله لمحادثات هدنة «مودانيه» لم يسأل المجلس إطلاقاً ولم يعره أدنى اهتمام. بينما كان هناك الكثيرون في المجلس من مدنيين وعسكريين يستطيعون إدارة مباحثات الهدنة ومباحثات «لوزان» بكفاءة وقابلية من ناحية مهنتهم. ولكن إرسال هؤلاء لم يكن يلائم هدف مصطفى كمال ذلك لأن «هارينجتون» كان موجوداً في «مودانيه» وكان هو قد أُرسل إلى الأناضول بسعي منه، لذلك فقد كان من الضروري إرضاؤه وكان زمن القفز من سياسة التقارب الروسي إلى سياسة التقارب الإنكليزي قد حان وقته. وفي لوزان كان عليه أن ينحني للسياسة الإنكليزية».

25- أسلوب معاملته لأصدقائه القدامى.

وثيقة رقم (25):

استانبول مركز قوماندانى جواد بك آنقره يه كلمشدى . مالى دوروم چوق بوزوقدى . بزم طابورك
تا بلدوتنده، صارى قيشله يه كله رك يمك يردى. آرقاداشلره مسافر قيد ايديلردى . بو ذاتى بو يره، صرف
اتحادجى اولديغى ايچون و دها زياده مصطفى كمال بو ذاتك وجودندن اوركديكى ايچون بر وسيله ايله
استقلال محكمه سنه سوق ايتديرره حبسه آتديرمشدى.

«كان السيد «جواد» -قائد المنطقة في اسطنبول- قد حضر إلى أنقرة وكان وضعه المالي سيئاً جداً. وكان يأتي إلى معسكر «صاري قشله» لكي يتناول الطعام على مائدة طابورنا وكان يسجل ضيفاً على الأصدقاء وقد ساقه مصطفى كمال إلى المحكمة ثم رمى به في السجن دون أي سبب سوى أنه كان من الاتحاديين ولكون مصطفى كمال يخشى من وجوده».

26- كونه دنيئاً إلى درجة أنه يستولي على مساعدات العالم الإسلامي مع أنه ضده فيسجل بذلك لصوصيته على المستوى العالمي.

وثيقة رقم (26):

هندستانده، عالم اسلامده كوندريلن معاونت پاره سى. آلوب ايش بانقاسنى قوريه...

@iAbubader

«أسس بنك العمل «إيش بنكاس» بالمبالغ النقدية التي أرسلها مسلمو الهند والعالم الإسلامي والتي استولى هو عليها».

27- كونه عبداً للسياسة الإنكليزية.

وثيقة رقم (27):

[illegible] اولى قبول [illegible] ١- موصلى ترك ... ٢- اطه لرى
يونانيلره ترك ... مصر وقبرس اوزرنده كى حقوقدن فراغت ... ٣- يونانيلردن
تضمينات فراغتى ... ٤- استانبولى بين الملل منطقه حالنه كتيرمك (باشقه بر تعبيرله بين المللشديرلمسى) ...
٥- بوغازلرى تحكيم ايتمه مك وعسكر بولنديرمامق و اوتوز كيلومتره كنيشلكنده قارا دكز
بوغازندن جناق قلعه بوغازينه قدر اولان منطقه نى عسكردن تجريد ايتمك و صوكره لرده
استانبولده يونانيلرك قالماسنه و ثروتلرينه صاحب اولماسنه مساعده ايتمك (بو
ماده نك ده ايلك قسمى صوكره دن [illegible] دها بيوك عوضلر قارشيلغنده دكيشديرلدى.
٦- روسلردن [illegible] انكلتره دوستلغنى [illegible] ٧- خلافتى الغا ...
٨- لائيكلكى تأسيس ودها نه لر و نه لر ...

«نفذ كل ما طلبه منه الإنكليز:

1- ترك الموصل. 2- ترك الجزر لليونانيين والتنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص. 3- التنازل عن طلب التعويضات من اليونانيين. 4- جعل اسطنبول منطقة تحت الإشراف الدولي (أي تدويلها)[1]. 5- عدم تحصين المضايق أو وضع جند حولها وتجريد المنطقة الممتدة من مضيق البحر الأسود حتى مضيق «جنه قلعه» وبعرض 3 كلم من الجنود والسماح ببقاء اليونانيين في اسطنبول واحتفاظهم بثرواتهم[2]. 6- لأجل الاحتفاظ بالصداقة الإنكليزية يجب الابتعاد عن الروس. 7- إلغاء الخلافة. 8- إعلان العلمانية... وغيرها وغيرها».

(1) اقترب من هذا الاقتراح في البداية - المؤلف.

(2) تغيير القسم الأول من هذه المادة أيضاً وبمقابل تنازلات أكبر - المؤلف.

28- قيامه بإعلان الجمهورية إرضاءً لنفسه فقط.

وثيقة رقم (28):

اردوده ضابطلردن هیچ بریلنك آغزندن بز جمهوریت ایستیورز دیدیکنی ایشتمه‌دیکم کبی مجلسلرك همان اکثریتی ده بو مسموم پروپاغندلره علیهنده ایدی. اساساً آناطولی‌یه کچن ضابطلرك هپسی دیپلومالرینی آلیرکن قرآنه، شرفلرینه، دینه، دولته، ملته، اردویه، وطنه، خلافته وسلطنته اهانت ایتمیه‌جکلرینه ناموس عسکریلری اوزرینه سوز ویرمش و الله اوزرینه یمین ایتمشلردی. جمهوریتك اعلاننده بو ضابطلرك رأیلری آلنمادیغی کبی ملتك ده آرزوسی هیچه صاییلمشدر.

«لم أسمع من أي ضابط داخل الجيش بأنه يريد الجمهورية. كما أن الأكثرية في المجلس كانت ضد هذه الدعاية السلبية. والحقيقة أن جميع الضباط الذين أتوا إلى الأناضول كانوا قد أقسموا -عند تسلمهم شهادة التخرج- بشرفهم العسكري وبالله على أن لا يخونوا الدين والدولة أو الأمة أو الجيش أو الوطن أو الخلافة والسلطنة لا في الأرض ولا في البحر. وعندما أُعلنت الجمهورية لم يؤخذ رأي هؤلاء الضباط كما لم يلتفت إلى رغبة الأمة».

29- كونه ماسونياً بالرغم من أنه أغلق المحافل الماسونية.

وثيقة رقم (29):

مصطفی کمال ماصوندر، اوت، فالح رفقی حقیقتی سویلمشدر. اگر مصطفی کمال ماصون اولماسیدی اونك دورنده بویله کیزلی بر جمعیته انتساب ایتمك کیملك حدیدی. حقوقی دولت وحکومت امورنده وظیفه‌لری ویکسك موقع وصلاحیتلی کیمسه‌لر ماصونلغه هوس ایده‌بیلرلرمیدی. ! دها کل سویلیلر - اوروده وثقنلرلرها منسوب بعضی صوبالرده هیچ حکیمدن ماصون لوجالرینه قید اونمشلردر. اونلك بالاخره بو دورنگی قاپاتماسی نومارادر.

«إن مصطفى كمال ماسوني، أجل لم يقل «فالح رفقي»[1] سوى الحقيقة. ولو لم يكن مصطفى كمال ماسونياً فمن كان يتطاول إلى الانتساب إلى مثل هذه الجمعية السرية في عهده؟ وهل كان باستطاعة الكثير من الذين يشغلون وظائف رفيعة ويحملون صلاحيات واسعة في الدولة والحكومة من تبني الماسونية؟ ليس المدنيين فقط بل إن كثيراً من منتسبي الجيش والجندرمة وبعضاً من الضباط كانوا قد سجلوا أنفسهم في المحافل الماسونية دون خوف. أما كونه قد سدّ هذه المحافل فيما بعد فليس إلا ذراً للرماد في العيون».

30 - سبب إغلاق المحافل الماسونية لم يكن فكرياً بل كان نفسياً، وهذا هو السبب في إغلاق المنتديات التركية أيضاً.

وثيقة رقم (30):

مصطفى كمال پاشانڭ ماصون اوجاقلرينى قاپاتماسى سببى شويله در: پاشايه ماصون لوجالرى شرفله
مشرق اعظملغى ديرمه مشلردر. بوندن مغبر اولاره وأساساً دولت وألكه‌سى ايچنده هيچ بر
كيمسه‌يى وحتى تاريخڭ بويوك وزيرلرينى وحكمدارلرينى بيله كنديندن پك آشاغى كورن، برخيلى
دالقاووغى سايه‌سنده ملت پاراسيله معده‌سى طولى بوكروهلك ساده‌جه قورتارىجى بويوك
داهى، بويوك قوماندان، وآتاتورك عنوانيله كنديسنى كوكلره چيقارمالرنده، بزى سن ياراتدڭ
ديركبى حضرت الله مخصوص قدرتى بيله اونلڭ نفسنده طوپلايوب كوسترمكه چاليشانلرده
غرور، قابلمسه وشيمارقجه شيمارمسه مصطفى كمالڭ ياڭكز ماصون لوجالرينى دگل، تورك
اوجاقلرينى ده قپاتماسنڭ سببى، حمدالله صبحى نڭ تدريجاً بر وارلوه حالنه گلمسى
هيكه م سندنور.

«إن سبب قيام مصطفى كمال باشا بإغلاق المحافل الماسونية هو أن هذه المحافل لم تعطِ للباشا درجة المشرق الأعظم وقد حقد عليهم لهذا السبب. وهو الشخص الذي كان يرى كل شخص في الدولة وفي البلد بل حتى كبار الوزراء والحكام العثمانيين في التاريخ

---

(1) المعروف أن (فالح رفقي أتاي) مؤلف كتاب (جانكايا) ذكر في إحدى مقالاته بأن مصطفى كمال كان ماسونياً - المترجم.

أقل منه بكثير، بسبب العدد الكبير من المنافقين والمتزلفين الذين كانوا يحيطون به من الذين أُتخمت بطونهم من مال الأمة والذين كانوا يخاطبونه بقولهم له: أنت منقذنا!... أيها العبقري الكبير... أيها القائم العظيم... يا أتاتورك (أي أب الأتراك) وبهذا رفعوه إلى السماء حتى إنهم كانوا يخاطبونه بكلمات لا يُخاطَب بها سوى الله سبحانه وتعالى. أمثال: أنت خلقتنا، محاولين أن يوهموه بأنه يحمل قدرة إلهية، وهذا أدى إلى زيادة غروره، وزيادة صلفه وعنجهيته.

ولم يقم مصطفى كمال بإغلاق المحافل الماسونية بل قام بإغلاق المنتديات التركية والسبب يعود إلى عدم استطاعته منع نفسه من الشعور بالغيرة من «حمد الله صبحي» الذي بدأ يصبح تدريجياً شخصية مرموقة وقوية».

31- سبب عداوته للمنتديات التركية.

وثيقة رقم (31):

تورك اوجاقلرنده اعضا قيدى ايچون شجره آرايورلردى. بو ايسه اونك هيچ ايشنه كلمز ايدى.
نهايت آنقره ده اوقاف اوتلنده ويريلن بر ضيافتده حمد الله صبحي نك قاريسنه تجاوز ايده رك
اوندن انتقام آلمشدى.

«كانت المنتديات التركية تشترط عند تسجيل العضو الاطلاع على شجرة عائلته، ولم يكن هذا يلائمه، وأخيراً استطاع أن ينتقم من «حمد الله صبحي» عندما اعتدى على زوجته في إحدى الولائم التي رُتِّبت في فندق الأوقاف في أنقرة».

32- استعماله لأخته في سمسرة النساء في حياته الحافلة بالفحش، وما فعله بطالبة اسمها «سعادت».

(يلاحظ هنا المطابقة التامة بين هذا الاسم وبين رمز (س) الذي استعمله فخر الدين باشا في مذكراته).

وثيقة رقم (32):

مقبوله (سن ژورژ) ليسه‌سنده اوقويان سعادت اسمنده بر قيزى آلاروق آنقره‌يه كوتوروب
مصطفى كمالك قوينه صوقمشدر. وبوكا مقابل بو قيزك باباسنه بانقالتيده نارگيلجيان
اجزاخانه‌سى سوقاغنده اموال متروكه‌دن بر او هديه ايدلمشدر. و آيريجه ده غلطه
كوپريسنده لوتاريه بيلتلرى صاتمق ايچون بر باراقه ده يينه بو قيزك
باباسنه ويرمشلردر. بو قيزى بانقالتيده طانيمايان شوفور قالمامشدى. قيزك النده
مصطفى كمالك امضاسى بر قارتى واردى. سن كيم آليرسه اوكا مهم بر وظيفه ويره‌جكم
ديه وعد ايتمشدى. قيز همپ بونى سويلردى صوكرادن بر اوپراتوره قيزلق عملياتى يابديرمه
اولمشدى. فقط قوجاسى ايشى فرق ايدرك اونى بوشامشدى.

«اصطحبت «مقبولة»[1] معها إلى أنقرة بنتاً باسم سعادت كانت تدرس في ثانوية «سانت جورج» حيث وضعتها في أحضان مصطفى كمال وقد أهدوا مقابل هذا إلى والد هذه البنت بيتاً من حصة الأموال المتروكة في زقاق صيدلية «ناركيلجيان» في «بانكالتي». كما أعطي والد هذه البنت كشكاً على جسر «كلطة» لبيع أوراق اليانصيب ولم يبقَ في منطقة «بانكالتي» سائق لم يعرف هذه البنت. وكانت للبنت بطاقة عليها إمضاء مصطفى كمال. وكان قد وعدها بأنه سيعطي وظيفة مهمة لمن يتزوجها. وكانت البنت تكرر هذا على الدوام وأخيراً عمل لها أحد الجراحين غشاء بكارة فتزوجت ولكن زوجها سرعان ما اكتشف الأمر فطلقها».

33 – موضوع فحشه أيضاً.

(1) مقبولة: هي أخت مصطفى كمال – المترجم.

وثيقة رقم (33):

مصطفى كمال وشركاسنك زيان ايتدكلرى بو قيز كبى نه قيزلر واوغلانلر واردر. عورتلريله
رلكده قاريلريني بوشامشلر ايشى سفاهته دوكمشلردر. ازميره كيدن كل جمال واپورنده
بيك چوق قيزلق قانلى بزلر تواليتلرده بولنمشلردى. بو حادثه اوزون اوزون سويلندى
دوردن. (دام دو سيون) مكتبندن قيزلرى آلوب اوطوموبيل ايچنده سرايه كوتوردكلرينى
بن كوزمله كوردم وبو قاريده اسمى كچن سعادت ده بزه كلدى كيدن طانيشدم واوندن ده
[illegible] اوكرندم

«إن مصطفى كمال وأعوانه (الذين أفسدوا حياة الكثير من البنات من أمثال هذه البنت وحياة الكثير من الصبيان) قاموا بتطليق زوجاتهم وتحولوا إلى حياة الفحش والرذيلة.

وفي باخرة «كول جمال» التي كانت متوجهة إلى أزمير وجد الكثير من الخِرَق الدامية للبنات مرمية في دورات المياه. وقد بقيت هذه الحادثة لمدة طويلة حديث المجالس. وقد رأيت بعيني كيف كانوا يأخذون البنات من مدرسة «دام دو سيو Dad duSiyon» بالسيارة ويذهبون بهن إلى القصر وقد أصبحت البنت «سعادت» التي مرَّ ذكرها تأتي إلينا وقد عرفتها وعرفت منها كل شيء».

إن هناك مقاطع من الشهادة التي يقدمها لنا هذا الضابط المتقاعد بهذا الأسلوب البسيط النقي والخالي من التصنع قد تبقى شيئاً ضعيفاً أمام البناء الفكري المستند على الوثائق التي قدمناها ولكنها مع هذا تحمل أهمية كبيرة لكونها تسجيلاً لما شاهده وسمعه وعرفه عسكري مشارك في حركة الكفاح الملي.

لا تجد ولا فرداً واحداً، لا بين أفراد الجيش ولا بين الجماهير من يلتزم بمصطفى كمال ويقف في صفِّه من كل قلبه وبصدق.

ما أعجب هذا الشخص الفذّ إن النفور الذي نحس تجاهه فرداً فرداً نراه ينقلب في إطار المجتمع العام إلى احترام !!!

نعم رجل فذ! ...

والشيء غير الاعتيادي في هذا الشخص هو أنه لا يمكن أن نجد في العالم كله شخصاً آخر استطاع أن يجمع في نفسه هذه الأنواع من الدنايا !!



الفصل التاسع

التابوت الرصاصي

والأعلام ذات الصلبان المنكسة تحت الأرض

التمثال:

أصبح تمثاله يملأ كل مكان... ليست المدن الكبيرة والمتوسطة فقط، بل حتى المدن الصغيرة والنواحي بل حتى القرى لا بد أن يكون فيها تمثال واحد على الأقل... تماثيل أكثرها من الجص وبعضها من النحاس تراها منتشرة اعتباراً من مركز البوليس الموجود على ذروة جبل حتى غرفة رئيس الوزراء وتراها في ميدان القرية الفقيرة المعدمة... إنها تمثل سخرية بشعة أمام الوضع المزري للقروي التركي... أما في المدن الكبيرة أمثال أنقرة واسطنبول فحدِّث ولا حرج.

وحتى إذا لم نأخذ بنظر الاعتبار الثروة القومية التي سرقتها هذه التماثيل -التي كان يتم صنعها في أوروبا- إلى الخارج فإن المعنى الموجود هنا يلفت النظر، إذ تصوروا معنى الإفلاس المفزع عندما لا يكون هناك مفر من اللوذ بالأوروبي عندما يراد التعبير -بشكل تمثال جصي أو برونزي- عن ما يدعي أنه بطل لحركة قومية... إن هذا كمن يقول للأوروبي: تعالَ واصنع أنت ثورتي وأمِّن مستقبلي...

وبينما لا توجد في أية ناحية من أنحاء العالم عادة وضع التمثال لشخص لا يزال على قيد الحياة فإننا نرى أن أتاتورك يقوم بإصدار أوامره بوضع تماثيله حتى في أصغر قرية دون أن يهتم بأي معنى من المعاني التي ذكرناها.

وعندما قيل له بأن التمثال الموجود في ساحة التقسيم[1]... يشبه المقصلة أجاب:

- ولكن رأس من يقطع؟ أرأسي أم رأس أعداء التماثيل؟

ومن الطبيعي أن أحداً لم يستطع أن يجيبه قائلاً:

- كلا يا سيدي! بل رأس الأمة التركية.

ويشرح رضا نور في صفحة (1349) من الجزء الرابع لكتابه «موضة» التمثال كما يلي:

«... ظهرت موضة التماثيل، إذ بدأ مصطفى كمال بنصب تمثاله في كل مكان. وبدأت البلدات جميعها بعمل تمثال له ونصبه، وقد تم جمع إعانات كبيرة لهذا الغرض وذهبت الملايين إلى أوروبا لأن التماثيل كانت تُصنع في أوروبا. وأين كان هؤلاء الرجال الذين يلهجون الآن بالاقتصاد القومي - آنذاك؟ إذ قاموا في كثير من الأحيان بإسرافات لا داعي لها، كانت الأزمة الاقتصادية هي العاقبة الطبيعية، وهم الآن يتلوون منها ويحاولون اتخاذ التدابير... ولكن بعد فوات الأوان.

ومع الأسف فإن التي تقاسي منها هي الأمة والدولة. ثم إن هناك ناحية أخلاقية في هذا الموضوع. إذ لا يقوم أي شخص بنصب تمثاله بنفسه... هناك الكثير من الأبطال والقواد والشعراء المجيدين ورجال الدولة الكبار من الأتراك، فلو كانت الغاية هي إدخال عادة نصب التماثيل إلى البلد فلينصبوا تماثيل هؤلاء. ولكن الذي حدث هو العكس فإنه قام بنصب تماثيله بكثرة إلى درجة أنه لو فكر أحد بإقامة تمثال لهؤلاء فإنه سيرى بأنه لم يبقَ مكان لهم تقريباً... إذ إن أفضل الميادين والشوارع قد مُلئت.

(1) ساحة التقسيم إحدى الساحات المشهورة في اسطنبول حيث يوجد في وسطها تمثال أتاتورك - المترجم.

... كان عليه على الأقل نصب تمثال باسم الآلاف من أبناء الأمة الذين استشهدوا في هذه الحرب القومية. والغريب أن الوفود الأجنبية التي تزور اسطنبول تفتش عن نصب للجندي المجهول فلا تجده».

إن هذه نظرة سطحية ضد دكتاتور يقوم بنصب تمثاله بنفسه وهذه النظرة لا تنفذ إلى أعماق المسألة.

فبالإضافة إلى أن هذه التماثيل التي قام مصطفى كمال بنصبها تفضح أنانيته وعبادته لنفسه فإنها تمثل في الوقت نفسه عداوة للشريعة الإسلامية لكونها ضد الفكر والذوق الإسلامي، ولكنه يقوم بتحدي العقيدة الإسلامية السامية التي تنزه الله سبحانه وتعالى فينصب صنمه ويعلن عن نفسه على الملأ وكأنه يقول:

- إنني أنا ربكم الأعلى.

واقرأوا هذه الأسطر من مجلة «بيوك دونمو» في سنة 1950 والتي سبق الإشارة إليها:

«كان «صلاح جمجوز» -وهو من مشاهير الاتحاد والترقي- هو الذي سعى لترقية مصطفى كمال إلى رتبة الباشا «أي اللواء» أثناء الحرب العالمية الأولى. وعندما قدم الاقتراح إلى أنور باشا قال: «إنني أعرفه جيداً، إذا رقَّيته إلى رتبة الباشوية فسيطلب أن يكون مشيراً وإذا رقّيته إلى رتبة مشير فإنه يرغب أن يكون سلطاناً. وإذا أصبح سلطاناً (فإنه سيدعي الربوبية)» ومع ذلك فإن أنور باشا رقَّاه إلى رتبة الباشا...

ودارت الأيام فإذا بـ «صلاح جمجوز» يقوم بنفسه بسرد هذه القصة على رئيس الجمهورية «مصطفى كمال» أثناء إحدى الولائم وذلك قبل موته بسنوات، وتلقى هذه القصة منه قبولاً جيداً ويعقب عليها قائلاً:

- ولكن ألم أنجز وأصل إلى كل ما قالوه؟».

لا يمكن العثور على مثال آخر يعكس أعماق هذا الشخص مثل هذه الأسطر المذهلة أعلاه. فهو يرى نفسه إلهاً ويرى أنه حقق هذا، وهذه الدرجة من الشناعة لم تشاهد

لا عند نمرود ولا عند أبي جهل أو أبي لهب. فهو يدعي أنه وصل إلى كل ما قاله أنور باشا أي يريد أن يقول:

«ألم أصل إلى رتبة المشير؟ ثم ألم أصل إلى مقام السلاطين؟»

ثم يريد أن يقول -حاشا لله-: ثم ألم أعلن ألوهيتي؟

المذهب الجديد:

هناك شعبة منحرفة من إحدى الفِرَق الضالة ترى أن الله الذي يؤمنون به كان -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- أحمق ومنحرفاً إلى درجة أنه بقي أمام الأمر الواقع نتيجة غلطة ارتكبها أحد الملائكة. فعلى زعمهم أن جبريل بدلاً من أن يبلِّغ الوحي إلى علي ﷺ فإنه بلّغه إلى محمد ﷺ وأن فخر العالمين لم يصبح رسولاً إلا بهذه الطريقة.

أمام هذا الادعاء التافه الذي يجعل العقل يخجل من العقل، لا يملك الإنسان أمام هذه الدرجة من الإدراك السقيم سوى البصق عليه ولكنه يُعذَر عندما يرى أنه لا يليق حتى بشرف البصق.

ومن بين الذين أرادوا تفسير الله على هواهم بل استخدامه على هواهم نرى مصطفى كمال الذي كانت له محاولة غير كاملة أو بالأصح تصور وتخطيط لمحاولة...

سيأخذ من الإسلام اسمه فقط وسيقطع صلته بالدنيا ويحبسه في الوجدان وسيعلن أنه دين تركي، بل سيدعي بأن الرسول الكريم كان تركياً وسيأخذ من القرآن من الموضع الذي يرغبه وبالقدر الذي يرغبه ويحوله إلى اللغة التركية مطلقاً عليه اسم «القرآن بالتركية» وسيضيف إلى كل هذا شكلاً غنائياً راقصاً من أشكال العبادة... أي أنه سوف لن يؤسس مذهباً آخر... بل ديناً آخر.

لنرَ بداية هذا الجنون الذي وقع فيه في أواخر حياته من كتاب «ذكريات مجهولة عن أتاتورك» من الحادثة التي يرويها «رشيد غالب»:

«كان أتاتورك قد حضر إلى «أيا صوفيا»، مع «رشيد غالب» وبعض من الذوات الآخرين. وبعد أن زار كل موضع وتجول في مقصورة السلطان استوضح عن صيانة الجامع ثم طلب من مدير المتحف بعض المعلومات عن تاريخه ثم استمر في تجوله، وقد تمت هذه الزيارة تحت شروط اعتيادية إلى درجة أنها لم تجلب انتباه الجرائد.

وعند العودة إلى القصر استدعى إليه «رشيد غالب» فقط وحادثه وقد استمتعت من رشيد غالب فيما بعد إلى هذه المحادثة التي جرت بينهما، وها أنا أنقلها هنا عن لسان رشيد غالب:

- سألني عن رأيي حول أيا صوفيا، فحسبت أنه يريد مني أن أحدثه عن القيمة التاريخية والمعمارية لهذا البناء فقلت له بأنني لا أملك معلومات كثيرة حولها.

- كلا يا رشيد غالب.... ما هو رأيك في أيا صوفيا كجامع؟

فلم أفهم قصده، بدأ بسرد بعض الأفكار قائلاً:

- إن هذا المعبد كان مسرحاً طوال التاريخ لكثير من المناقشات العقائدية ففي العهد البيزنطي أجرى كثير من علماء الدين مناقشات تاريخية هناك أمام الأباطرة أنفسهم. وهناك بصق الرهبان العِظام والرهبان المجاهدون على وجه الطغاة أمام الشعب. وهناك أعلن الفاتح فتحه لاسطنبول وصلّى أولى صلاته في اسطنبول. إن أيا صوفيا معبد معروف عالمياً.

وعندما وصل أتاتورك في حديثه معي إلى هذا الحد قال لي:

- أليس هو مكاناً ممتازاً لمناقشة أفكارك حول الإسلام؟

فكرت لحظة وتصورت نفسي فوق المنبر بجبة خضراء... وأقول الحق؛ فقد شعرت بفقدان جسارتي.

قال لي الغازي وكأنه فهم ما كنت أفكر فيه:

- لنجمع علماء الدين في اسطنبول ولنعلن على الشعب أيضاً لكي يأتي الجميع ونضع الميكروفونات في الجامع لكي يسمع من لم يستطع الدخول إلى الداخل، وقم أنت بمناقشة أفكارك مع العلماء وليكن الشعب هو الحكم.

فكرت.... ما كنت أتردد في التضحية بنفسي في سبيل هذا النضال الفكري ولكني -وأقول الحق- كنت أعرف بأن العمل ليس شيئاً سهلاً، فمن الممكن أن يعترض على هذا الكثيرون كما أن من الممكن أن يقوم بعض الرجعيين ببعض الحوادث ولم أكن آسفاً على التضحية بنفسي ولكني كنت أخشى أن تضيع أفكاري.

شرحت كل ما كنت أفكر فيه للغازي وقلت له بأنني واثق من أفكاري ولكني أخشى أن ينقلب الأمر من نقاش فكري إلى مزاح بالأيدي وأن هذه الحالة قد تؤدي إلى تشويه فكرتنا.

كانت الخطة الموضوعة كما يلي:

1- إثبات أن الإسلام دين تركي.

2- توضيح أن الدين علاقة قلبية بين العبد وبين الله.

3- إن على العبد عندما يناجي ربه في صلاته أن يناجيه من قلبه ولغة القلب هي لغة الأم. والإنسان يعبر عن أجل أحاسيسه بلغته الأصلية «لغة الأم» ولذلك يجب أن تكون لغة الأم هي لغة العبادة والدعاء.... يجب أن يتم مناقشة هذا الرأي والدفاع عنه.

4- وبعد أن يحصل الاتفاق على هذا الرأي يجب توزيع الأعمال بخصوص تتريك الأدعية (أي تحويلها إلى اللغة التركية)».

وبينما كان هذا البلاء على وشك أن يطل على رأس الأمة التركية نرى أنه لا يجد الجسارة الكافية للمضي في هذا الأمر إذ يتبع نصيحة المحيطين به: «دعنا لا نفعل هذا. إذ لا نستطيع معرفة ردود الفعل. والأفضل أن لا نوقظ الرجعية» ويفضل الاستمرار في

إعلان العداوة لله بدلاً من إظهار الله في الشكل الذي يرغب فيه وعلى هواه. وبرواية عشيقته الدائمة «آفت» يقول:

- إنني لا أرغب أن أكون «لوثراً» آخر.

أي أنه بدلاً من أن يكون مغيِّراً لدين -لحساب الكفر- والذي يعتبر حتماً هذا التغيير تنازلاً لحساب الدين الإسلامي... بدلاً من هذا فإنه يفضل الاستمرار في محاولة إماتة الدين الإسلامي من جذوره ووضع نفسه موضع الإله.

أما المسلمون الذين كانوا يطوون آلامهم وجروحهم في قلوبهم فقد تخلصوا من هذه النكبة والبلاء التي ما كانت هناك نكبة و بلاء وراءها.

ثم الحادثة المشهورة:

من على مائدة الخمر يصدر أمراً مختصراً بتحويل أيا صوفيا من جامع إلى متحف!

إن تحويل أيا صوفيا -الذي يعتبر رمز انتصار الإسلام على الصليب- إلى متحف إنما هو أكبر تنازل مقدَّم إلى العالم المسيحي بأجمعه بعد خيانة إلغاء الخلافة التي قُدِّمت هدية إلى الإنكليز- وهو تجريد للأتراك من صفة الفتح الإسلامي وإنكار وإبطال له. وهو أسوأ من القيام بغلق جميع الجوامع في تركيا.

إن هذا التنازل المقدَّم إلى العالم المسيحي والذي يسلب الإسلام كل صفة من صفاته الاندفاع والحملة... هذا التنازل لا يزال قائماً حتى الآن.

سنة 1936:

يرجع الانتهازي الأول «فالح رفقي آتاي» من سياحته في أوروبا.

(جانكايا، ص584):

«قمت وذهبت، كان جالساً مع عصمت إينونو في القسم المفتوح من الجزء المطل من القصر على البحر، وكما حدست فقد كان كلاهما عصبيين، عرفت السبب فيما بعد،

فقد كانت هناك مناقشة في أوساط أنقرة حول حجم النقد. كان إينونو يحذر دائماً من اللعب بالنقد التركي وكان يقاوم نصائح بعض الخبراء الماليين والمؤدية إلى التضخم... كانت هذه هي المسألة نفسها أيضاً.

وعندما رآني قال:

- لقد كنت غائباً منذ أشهر... تعالَ وحدثنا عما رأيت.

وجرَّنا الحديث من موضوع إلى موضوع. وبعد وقت غير قصير بدأ الموجودون في قائمة المدعوين بالحضور، وبعد أن زاد عدد الحاضرين قال:

- لننتقل إلى صالون الطعام.

ولم يكن يشرب قليلاً، وكنا بعد في الجرعة الثانية أو الثالثة عندما تجدد موضوع -شرحوه لي فيما بعد- حادثة نزاع غير سار على الإطلاق حدثت قبل ثلاثة أيام بين اثنين من أصدقائه.

التفت إليّ أتاتورك بعد برهة قائلاً:

- لقد كنت أنت أيضاً هنا في ذلك المساء... ما هو انطباعك؟

شعرت وكأن الدم تجمد في عروقي.... كان أتاتورك مريضاً، وكانت ذاكرته القوية -التي كانت من أقوى ملكاته- قد تهادت وتداعت، وعندما قمت بتذكيره بأنني إنما رجعت هذا اليوم فقط، مرّ بيده على جبهته وفكر لحظة ثم قال:

- نعم... صحيح.

كما أن قوته الجسمية كانت تسير نحو الضعف. لم نكن نستطيع مقاومة أي تعب مثل أتاتورك. وما كان أحد منا يستطيع الاستمرار في العمل مثله أو السهر مثله...

كان يلعب البلياردو قبل تناول الطعام وكان هذا نوعاً من الرياضة له، وكنا نشاهد لعبه في الصالة... كان يلعب جيداً وكان عصمت إينونو على رأس منافسيه، كما كان هناك

العديدون ممن يلعبون معه أمثال «كاظم أوزالب»، «صفوت أريطان»، «نوري جونكر». وكانت هذه الرياضة تدوم أحياناً أكثر من ساعة. وعند الرجوع إلى أنقرة في تلك السنة كان لا يهمل الدخول إلى غرفة البلياردو عندما ينزل من الطابق العلوي حيث يأخذ عصا البلياردو ويبدأ بضرب الكرات، ولكنه بعد ضربة أو ضربتين كان يترك اللعب ويقول بصوت تشعر منه أن أعصابه ثائرة:

- لننتقل إلى المائدة.

وبدأنا نلاحظ أن أعصابه أصبحت تثور بسرعة، وكما قرأنا فيما بعد في مذكرات أطبائه فقد كانت هذه نذير الشؤم لوفاته المبكر».

سنة 1937:

الكاتب الانتهازي نفسه والكتاب نفسه (ص487-488):

«بعد سنة 1937 خاصة أصبحنا نشاهد فقدانه لتوازن أعصابه. أصبح حساساً جداً وكنا نحس بأنه يضبط بكل صعوبة أعصابه التي أصبحت في حاجة دائمة إلى التفريغ. وكنا نتصرف بحذر كبير عندما كانت مدة الوليمة تطول. كنت قد تركت السيجارة ولكني كنت أتسلى أحياناً بتدخين الغليون. وفي إحدى الليالي التي استمرت فيها البحوث اللغوية إلى ساعة متأخرة تركت مكاني بهدوء وذهبت إلى غرفة المرافقين. كنت أريد أن أدخن غليوناً، وقبل أن أُخرج كيس التبغ من جيبي جاءني جرسون قائلاً:

«حضرة الباشا يريدك» وقبل أن ينصرف هرول إليّ ثانٍ. ثم ثالث... رجعت حالاً إلى الغرفة... كان مصفرّ الوجه وكان من الظاهر أنه تكلم بكلمات غاضبة فقد قامت أعصابه عندما رأى مقعدي شاغراً، إذ أصبح يتوهم أن الناس بدأوا يتهربون منه، لذلك لم يعد يتحمل أية حركة تتسم باللامبالاة.

سألني:

- أين كنت؟

- ذهبت إلى غرفة رئيس المرافقين لهنيهة.

- أية أمور كنت تتباحث مع رئيس المرافقين في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

- كلا يا سيدي... لم أذهب للمباحثة... إنني تركت السيجارة منذ سنة، ولكنني لم أستطع ترك «النيكوتين» إذ أدخن الغليون من حين لآخر. ولما كان من غير اللائق تدخين الغليون أمام العظماء فقد خرجت للخارج.

- حسناً... تفضل واجلس.

لم نكن نعرف أن السبب في كل هذا كان مرضاً لا علاج له ينخر في كبده، وقد بدأ أول مظاهره في ضعف ذاكرته ثم جاء دور نزيف الدم المتتابع من أنفه. والحقيقة أنني حتى الآن لا أستطيع فهم كيف أن الأطباء الموجودين حواليه لم ينتبهوا إلى أعراض الانهيار العام هذه وكيف أنهم كانوا يربطون كل هذه الأعراض بأسباب بسيطة ويمرون بها مرَّ الكرام. فكلما نزف أنفه قالوا: سنهتم به وسيتوقف بعد قليل. ثم بدأ الحك عنده. كان أتاتورك بتعبير العثماني القديم «أفندياً مؤدباً» فكان إذا اضطر للخروج من المجلس لقضاء حاجة يقول لأحد جلسائه:

- أعتقد أنك كنت ترغب في أن تسر لي كلاماً.

وبهذه الحجة يخرجان معاً من الغرفة، ثم يقول له:

- انتظر قليلاً.

ويذهب هو إلى دورة المياه ثم يرجعان معاً.

لم يكن أتاتورك يتحمل هذا الحك الذي كان يضطر معه إلى الانحناء وحك فخذيه وأصبح يقول:

- إن في هذا البيت حشرات حمراء صغيرة لا تُرى بالعين. وباستثنائه هو فلم يكن أي أحد منا يشعر في هذا البيت بأي انزعاج ولكن كان هناك من يدعي أنه يشعر بشعور الشك[1] نفسه وذلك تسرية له.

(1) أي الشك في وجود الحشرات - المترجم.

حتى إنه أمر في إحدى رحلاته بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فعالية».

والذي عُمل مع قصة هذه الحشرة الحمراء لم يُعمل مثله في عهد أكثر السلاطين جنوناً وخبلاً... تأمل:

«الرجل الأوحد، شوكت ثريا، ص549»:

«كتب مدير القلم الخاص إلى وزارة الصحة يخبره:

«لما كانت هناك غارة من النمل على القصر وكان جسد أتاتورك الغض يُلسع من قِبَل هذه الحشرات حتى ظهرت الحكة على وجهه».

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلي:

«نعم صحيح أنه وجد نمل في بعض أرجاء القصر، حتى إن المختصين أثبتوا بأنه من نوع النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا». ولكن لم يخطر على بال أحد احتمال أن هناك سبباً آخر وراء الحكة التي ظهرت عند أتاتورك، لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية.

هذا بينما كان مفعول مرض الكبد يسري بدون توقف. وبينما خرج المتخصصون والطاقم الذي حضر من مدمرة «ياووز» إلى تصيد النمل في القصر كان أتاتورك قد ترك أنقرة. وعندما رجع إلى أنقرة يذكر مستشار وزارة الصحة أنه رآه: «مريضاً ومنهكاً» أما نزيفه وحكته فقد زادا عن السابق».

تخيلوا أنتم مدى هزلية الموقف ومدى كونه مضحكاً عندما تتصورون خروج طاقم مدمرة «ياووز» لصيد النمل في قصر جانكايا وكأنهم طاقم إطفائية الحريق خرجوا لمكافحة أحد الحرائق!!

ثم ما هو الداعي إلى استدعاء طاقم من المدمرة «ياووز» الموجودة في ميناء «أزميت» بدلاً من القيام بهذا الطلب من حامية أنقرة؟... أم أنه يوجد في مدمرة «ياووز» طواقم

متخصصة في صيد النمل؟ وهل بوسع المرء إلا أن يطلق اسم الجنون على هذا العمل وإلا القيام بالترحم على سميه «دلي مصطفى»[1].

مع شعوره بالحك فإن أنفه كان ينزف... وانظروا إلى حكمة الله فإنه بالرغم من كونه محاطاً بالأطباء والأخصائيين وأساتذة الطب فإنه كان محروماً من العناية الطبية التي يلقاها أي قروي بسيط، فلم يكن هناك من يدقق الأمر أو يتصور احتمال كونه مريضاً. ولم يكن يحمل أي واحد منهم أقل شبهة أو قلق من هذه الناحية.

في هذه الأثناء تلتهب مسألة أنطاكيا والتي تنتهي بانضمامها إلى تركيا بعد أن كادت أن تُعلن استقلالها.

سنة 1938:

وكما قلنا سابقاً فإن العناية الطبية التي باستطاعة أفقر أفّاق شوارع أن يجدها في أية مستشفى حكومية والتشخيص الصحيح لمرضه لم يجدها أتاتورك بالرغم من كل الإمكانيات التي كان يملكها، ولم يكن هذا إلا حكمة ومشيئة إلهية، وأخيراً وفي سنة 1938 يتعرف على مرضه الذي كان يحمله منذ سنة 1936.

(الرجل الأوحد، ص552-553):

«في كانون الثاني عام 1938 ذهب أتاتورك إلى «يلوه» على أمل الاستفادة من المياه المعدنية هناك. كان مدير مؤسسة المياه المعدنية هو السيد «نهاد رشاد بلگر» الذي كان شخصية جذابة منذ حركة «تركيا الفتاة». وفي اليوم الثاني من وصوله إلى «يلوه» حدَّثه أتاتورك عما يشتكي، فرجاه الدكتور السماح له بفحصه. وبعد أن أتم الفحص عرف العلة الحقيقية وراء قصة النمل الأحمر والحك.

كان مريضاً بالكبد «سيروز».

---

(1) أي مصطفى المجنون - المترجم.

ولكن لم يكن من السهل إخبار هذا لأتاتورك، إذ كان من الضروري عدم ترك ملاحقة المرض أولاً والأخذ بنظر الاعتبار الحالة النفسية للمريض ثانياً، وقد جرى بين الطبيب ومريضه الحوار التالي:

- هل وجدت سبب الحك يا دكتور؟

- نعم يا سيدي... إن هذا الحك له علاقة بالطعام وخاصة بالشراب.

- هل أنت متأكد من هذا؟

- يا سيدي إن قناعتي قطعية إلى درجة أنه لا يوجد حتى ظل من الشك حول صحة تشخيصي. إن كبدكم قد تضخم وتصلب بعض الشيء، وهذا المرض في الكبد هو السبب في الحكة.

وقد قال الدكتور «نهاد رشاد» لـ «روشان أشرف» الذي كتب ونشر تصريحاته في هذا الموضوع:

أحسست أن كلامي وقع على أتاتورك وقع المفاجأة ذلك لأن أحداً لم يحدِّثه حتى ذلك الحين عن مرضه بالكبد، ولكنه لم يُظهر أية دهشة بل استمع إلى كلامي بكل هدوء ثم سأل:

- والآن ما العمل ؟

وعندما وضع التشخيص الطبي أصاب القلق من كانوا على الدوام يحيطون بأتاتورك فقاموا -دون أن يخبروا الدكتور نهاد رشاد- باستدعاء الدكتور البروفيسور «نشأت عمر أردالب» الذي كان الطبيب الدائم لأتاتورك في أنقرة. وقد قام البروفيسور أيضاً بفحص المريض... نعم... إن التشخيص صحيح، ولكن كان هناك مع الأسف تأخر في الكفاح ضد المرض يبلغ سنة واحدة على أقل تقدير. وكان الدكتور «نشأت عمر» بجانب أتاتورك على الدوام طيلة تلك السنة.

وبقية الحكاية كانت صراعاً حزيناً بين إرادته التي كان يثق بها وبين قوانين الطبيعة الظالمة. أحياناً كان كمن يسلِّم نفسه إلى أيدي الأطباء.

ولكن أتاتورك لم يعد ذلك الأتاتورك السابق.

(كانت شفتاه تتحركان بصعوبة، وكان الشوق قد ذبل في حديقته، أما ابتسامته الحلوة الدافئة التي كانت تنطلق من بين شفتيه الرقيقتين الجميلتين فقد تبخرت كما يتبخر العطر).

في الأيام الأولى أظهر العلاج بعض التأثير. كان يحتاج إلى راحة مطلقة وكان عليه أن يرتاح. ولكن هذا لم يحدث. فعندما أحس ببعض الراحة في نفسه ذهب إلى «بورصة»، وفي بورصة بدا وكأنه كان يتحدى قوانين الطبيعة، وكأنه كان يريد أن يُظهر أنه لم يُهزم. وأن يقنع نفسه بأنه لم يُهزم، وفي صالون فندق «جلك بالاس» كان كالعادة على رأس مائدة مزدحمة وعامرة جداً. ومن هناك ذهب إلى الحفلة الرسمية الراقصة المقامة في مصنع (مارينوس)».

هذه الحفلة الرسمية الراقصة كانت آخر حفلة يحضرها كما يسجلها المؤلف الذي وضع عنوان «الرجل الأوحد» دون أن يدري الصفة التي كان أوحداً[1] فيها.

في هذه الحفلة رقص رقصات شعبية ورقص رقصات غربية وعندما خرج فجراً أصبح يتمشى ووراءه أركان الحكومة كلها وكذلك سيارته ثم يلتفت فجأة متسائلاً:

- أعتقد أننا نملك سيارة... أين هي؟

يركب السيارة حيث يقول بأنه يشعر ببرد، ويصاب بذات الرئة ولكنه يُشفى منها ولكن داء الكبد «سيروس» لا يلبث أن يظهر بكل بشاعته.

(1) إن المؤلف يريد أن يقول بأن مثل هذا الرجل الذي لا يستمع إلى نصائح أطبائه في مرضه الخطير لا بد أن يكون (الأحمق الأوحد) - المترجم.

وأما التساؤل الذي يطرحه فالح رفقي آتاي بعد عدة سنوات: «لا أستطيع أن أفهم كيف لم يستطيعوا وضع التشخيص الصحيح في وقت مبكر مع وجود كل هؤلاء الأطباء حواليه في كل ثانية».

... أما هذا التساؤل لو أجبناه:

- هذه حكمة الله وتقديره، فإننا لن نستطيع إقناعه.

إنه يستطيع فقط أن يقول وكأنه أحد نائمي روما القديمة في مراسيم الجنازات - وهو يتصنع البكاء: «لقد فقدت القومية التركية منقذها وفقدت الإنسانية أعظم أبنائها».

سافارونه:

عندما وجد أن الوسائط البحرية الموروثة عن السلاطين عتيقة وليس في وضع صالح، لذلك، وبتعبير «فالح رفقي» فإن الحكومة تقوم بشراء يخت له. ونستطيع أن نتخيل الجرح الذي فتحته هذه اليُخت في الخزانة عندما نعرف أن الذين قبضوا العمولة فقط كونوا ثروات ضخمة.

أما هو فقد كان قد رجع من أنقرة -التي سيرجع إليها بتابوته الرصاصي- وانسحب إلى يخته.

(جانكايا، ص490):

«كان أتاتورك يحب البحر جداً وبعد أن مرَّ بعدة حوادث خطرة في اليخت الموجود من العهد السابق والذي كان عتيقاً متداعياً قامت الحكومة بشراء يخت «سافارونه» له. كان مشتاقاً جداً في ذلك الصيف إلى القيام بنزهات في تلك اليخت، ولكنه عندما وقع في الفراش قال:

- لقد انتظرت هذه اليخت كما ينتظر الطفل لعبته، ولكن من كان يتوقع أنها تصبح مستشفى «لي».

وفي أحد الأيام أشار إلى الأوعية المحتوية على قطع الثلج والموضوعة في غرفته من أجل تبريدها قائلاً:

- إن أمعائي أيضاً تطفو الآن بين المياه... هل يمكن لإنسان هذا وضعه أن يعيش؟!! ثم استغرق في حزنه».

وفي كتاب «عشر سنوات من الحرب وما بعدها»، (ص497-498):

«بعد عودتي من وارشو وجدت أتاتورك مريضاً متمدداً على كرسيه الهزاز على ظهر اليخت «سافارونه» التي كانت راسية أمام قصر «دولمه ياغجه». أجلسني إلى جانبه؛ عندما قلت له أثناء الكلام بأن هواء البحر سيكون مفيداً. قال لي ضاحكاً:

- إن الأصدقاء تلفظوا اسم اليخت هكذا «ساور أونو»[1].

كان كمن يستهزئ بهذا التعبير... كان وضعه سيئاً جداً. ولكون الكلام الكثير معه غير مناسب فإنني استأذنت منه وفارقته، وكان هذا آخر لقاء مع أتاتورك الذي حاربنا جنباً إلى جنب والذي تصادقنا معه لعدة سنوات.

وكلما مرّ يوم كنا نسمع أبناء سيئة عن تدهور صحته، كان كل واحد يريد البحث عن علاج وعن حل ولكنه لا يجده... وأخيراً وفي يوم من الأيام كان العلم المنكس فوق قصر «دولمه باغجه» ينبئ بأن القدر قد أتمّ نسج خيوط شباكه، ومن ذا الذي استطاع الخلاص من القضاء المحتوم؟».

ومن الدكتور نهاد رشاد:

«كنت أمامه في غرفة نومه في اليخت، عندما دخلت الغرفة كان واقفاً أمام المرآة الكبيرة يتفحص جسده بدقة، وقد لاحظت على الفور انتفاخ بطنه وكِبَره وعندما قمت بالفحص وجدت أن تجويف بطنه قد امتلأ بالماء... أسيتا... أسيتا.

---

(1) ساور أونو معناه بالتركية (ادفعه) بمعنى أن اليخت سيدفع المرض - المترجم.

وكان هناك انتفاخ في القدمين أيضاً.

قال لي:

- يا دكتور... إنهم يقولون لي على الدوام بأنني أسمن، ولكنني أحس بأن هذه السمنة غير طبيعية، فهناك شيء آخر في الموضوع... هذا مرض... يا دكتور... يا دكتور لقد رأيت عندما دخلت بأنني كنت أمام المرآة».

وعندما أركبه الموت إلى يخت الآخرة كان قد أنزل وزنه إلى وزن الهيكل العظمي[1]، أما الآن فإنه يبدو وكأنه يغذيه.

لم يتيسر له المجال لكي يلعب كثيراً بلعبته فقد تمدد على فراش الموت في إحدى الغرف المطلة على «اسكودار»[2] في قصر دولمه باغجه.

فراش الموت:

يشرح السيد «حسن رضا سوياك» -الذي كان رئيس كُتّابه- في عدد 10/ 11/ 1945 في جريدة «الوطن» وضعه فيقول:

«كان صباحاً دافئاً جميلاً لأحد أيام الخريف في 4 أيلول سنة 1938... البحر هادئ وقصر «طوب قابي» وحديقته يبدوان أمامنا. وكأن الحزن لفَّهما أكثر فأكثر.

أدخل إلى غرفة أتاتورك... أرى الرجل العظيم نائماً على ظهره ورأسه مرتفع قليلاً... شمس باهتة تملأ أرجاء الصالة... وجهه أبيض بياض العاج. ويوماً بعد يوم كلما ضعف وجهه واستطال كبرت عيناه... عيناه الجميلتان الزرقاوان زرقة السماء.

أشار إليّ بالجلوس على طرف سريره قرب قدمه... جلست فكرر عليَّ السؤال المعتاد:

(1) كان وزنه عندما مات 48 كغم فقط - المترجم.

(2) يقصد بيخته (سافارونه).

- ما هي الأخبار؟

كانت الغيوم ملبدة آنذاك في سماء السياسة الأوروبية. وكان اجتماع ميونيخ المشهور منعقداً أو على وشك الانعقاد.

لم يكن أتاتورك قلقاً بالرغم من وجود القلق العام وبالرغم من وجود بعض العلامات الخطرة وذلك لاعتقاده بأن الألمان لم يكملوا استعدادهم بعد وأن الإيطاليين لم يستعدوا على الإطلاق وكان يقول إن الوضع سيعلق بخيط رفيع وأننا يجب أن ننتظر الحرب في سنة 1929 أو في السنوات التي تليها.

لخصت له قضايا الساعة وقد استمع إلى هذه الأخبار التي كانت تؤيد وجهة نظره بكل اهتمام. وكان يلقي من حين لآخر بعض الأسئلة القصيرة ويدلي أحياناً بوجهة نظره ومع ذلك فقد كان يبدو سارحاً في التفكير ومنفعلاً.

بعد أن أنهيت كلامي مدّ يده إليّ، إذ كنا نقوم بمساعدته في جميع حركاته لأن الطبيب كان قد أوصاه بالراحة المطلقة وبعدم صرف أي مجهود إلا في الضرورة القصوى.

أمسكت بيده... اعتدل ثم جلس القرفصاء على فراشه ثم رمى ببصره بضع دقائق إلى البحر وإلى الساحل المقابل... كان من الواضح أنه يحاول التغلب على انفعاله... وعندما حوَّل بصره إليّ لاحظت أن رموشه الطويلة مبتلة».

ويقول فالح رفقي آتاي:

«كان يقابل زائري قصر دولمه باغجه، ولكن قواه كانت تتداعى تدريجياً وكانت المياه المتجمعة في بطنه تزعجه كثيراً وعندما كانت هذه المياه تُسحب بواسطة الإبر كان يقول:

- أووه... كم ارتحت.

ولكن المياه كانت تتجمع من جديد، وبعد أن قضى 16 يوماً تحت آلام مبرحة استدعى الأطباء آمراً إياهم:

- اسحبوا المياه حالاً.

وعند سحب المياه كان يتشكى ويقول:

- اسحبوها كلها... لا تدعوا شيئاً منها.

وقضى الليلة في آلام مبرحة، وفي الصباح قال لطبيبه:

- لقد كنت في الليلة الماضية شخصاً آخر، كنت قد تغيرت، ما كان أفظع ذلك؟... عجيب... لقد كنت مريضاً تمام المرض الليلة البارحة».

ويقول شوكت ثريا:

«بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة من المرض، من هذه المرحلة كان البروفيسور «نشأت عمر» والدكتور «نهاد رشاد» ثم هيئة من الأطباء الاستشاريين التي عيّنتها الحكومة يحيطون به ليلاً ونهاراً ويقدمون التقارير بصورة منتظمة للحكومة، وأخيراً يرى الدكتور «فسانجه» ضرورة تنوير الحكومة بالوضع وقد قام بإخبار وزير الداخلية «شكري قايا» «أن على الحكومة أن تكون متهيئة وأن تضع جميع الاحتمالات بنظر الاعتبار».

وفي هذه الأثناء استدعي طبيبان اختصاصيان أحدهما من ألمانيا والآخر من النمسا ولكنهما لم يستطيعا اتخاذ أية تدابير جديدة، كانت مياه بطنه تزداد، وفي 15 أيلول كتب المريض وصيته».

ونتيجة للتغيير الذي أجراه سابقاً على القانون المدني فإنه لا يترك شيئاً لوريثته القانونية «مقبولة هانم»، إذ يدع مزارعه لوزارة الزراعة ويترك أملاكه لحزب الشعب ويعطي جميع نقوده وأسهمه إلى المجمع التركي للغة والتاريخ. كما يوصي بـ(1000) ليرة شهرياً لأخته و800 ليرة شهرياً لـ«آفت» و600 ليرة شهرية لصبيحة ومقادير معينة أيضاً لباقي «بناته المعنويات !!» طيلة حياتهن. هذا علماً بأن قيمة الليرة آنذاك كانت تعادل مئة ضعف الليرة الحالية على الأقل.

كان قد طرد عصمت إينونو وأتى بـ «جلال باير» لكون عصمت قد قال له مرة: «هل سنأخذ أوامركم من على مائدة العرق» ولكنه مع هذا لم ينسَ ألعوبته الدائمة عصمت بالرغم من هذه الجرأة غير المتوقعة التي بدرت منه إذ أوصى له من حسابه من بنك العمل «إيش بنقاسي» بـ 1000 ليرة لكي يصرف على تعليم أولاده، ولم يكن يخطر على باله قط بأن عصمت سيخلفه.

يرقد متمدداً في فراشه وعيناه تحدقان في سقف القصر المملوء بالنقوش، بطنه منتفخ كالطبل بنوع من غذاء الموت، وقد فارقته القوة إلى درجة أنه لا يستطيع أن يرفع إصبعه، وعند رأسه «آفت» يبنون الأحلام:

(من كتاب شوكت ثريا آيدمير)

«- لنذهب يا «آفت»... لنذهب إلى حافة غابة... ولندع كل شيء... هناك في بيت صغير... بيت له موقد... إن في بلادنا غابات جميلة... قولي أنت هل تعرفين غابة؟

- يا باشا، إني أعرف غابة «سونديكان»... يا لها من غابة جميلة... عندما كنت طفلة صغيرة كان والدي...

كان والد «آفت إينان» شخصاً متمرساً في شؤون الغابة ويعمل فيها، وتقع غابة «سونديكان» قرب «ميهالجك»، وعندما كانت «عفت» طفلة صغيرة كان والدها موظفاً في غابة «ميهالجك» وعندما ذهبت إلى والدها مرّا من غابة «سونديكان» وقد عَلِقت هذه الغابة -التي لا تتعدى الآن فضلة من فضلات الغابة- في ذاكرة طفولتها كغابة لا أول لها ولا آخر... كالبحر الواسع اللانهائي... وكانت هذه الغابة لا تزال تشغل في ذاكرتها الانطباع السابق نفسه من السعة والعظمة... ويستمع أتاتورك متنهداً إلى أقوال «آفت» وعيونه مثبتة ونصف مغمضة -على اللوحة الموجودة على الحائط- أجل... أجل... لنذهب فوراً إلى الغابات... ولكن بعد أن أشفى أنا.

ولكنه لا يستطيع أن ينتظر الشفاء، ومن جانب آخر فالأفضل أن يُرسل إلى غابة «سونديكان» من يبحث عن مكان مناسب... وهكذا تصدر الأوامر حالاً ويخرج بعض الموظفين من أجل ذلك البيت الجبلي الأبيض البسيط الذي سيُبنى قريباً.

ولكن هل هذا هو كل ما في الأمر؟ إن من المحتمل أن نجد حالياً محلاً في ضواحي اسطنبول قبل الذهاب إلى «سونديكان». يتكلم في هذا مع الأطباء، فيوصيه الأطباء بمنطقة «آلماداغ» وتهرع هيئة مع والي اسطنبول إلى «آلماداغ» حيث يجدون هناك قصراً قديماً وخِرَباً بعض الشيء كان للسلطان عبدالعزيز، ولكن المكان جميل، ومن الممكن إصلاح القصر حالاً. وعندما يرجع مكتشفو «آلماداغ» إلى أتاتورك يستمع إلى وصف مشاهداتهم بكل اهتمام.

وعلى خارطة «آلماداغ» يشرحون له كل شيء ويستفهم هو منهم عن كل شيء لأنه يرغب في معرفة المكان جيداً... أجل إن المكان جميل، إذن فلماذا لا يذهب إلى «آلماداغ» قبل استقراره في «سونديكان»؟

ونعتقد أننا لا نجانب الصواب عندما نصف هذه الأحلام والخيالات بأنها سكرة الموت.

وقبل موته بـ(11) يوماً تأتي الذكرى الخامسة عشرة لإعلان الجمهورية... عيد... مظاهر الفرح والاحتفال في البر والبحر، وتمر مجموعة من الشباب أمام قصر دولمه باغجه بالباخرة هاتفة بحياة الشخص الغارق في القبر حتى فكيه.

تفتح الستائر المخملية السميكة. ويُجلَس على كرسي أمام النافذة الكبيرة وكأنه جسد السلطان الميت الذي أجلسوه على عرشه في غسق الليل لكي يوهموا الانكشاريين بأن السلطان على قيد الحياة.

تعالت أصوات التصفيق من الباخرة، ثم ينطلق أحد الأناشيد الوطنية...
ذروة الجبل لفتها الغيوم.
والنهر الفضي يسيل دون توقف.
يغلبه البكاء... إذن فهناك دموع جوفاء... وهناك دموع لا تعني شيئاً.

ثم يستقبل صديق دراسته في الكلية الحربية «علي فؤاد باشا» الذي قضى كل عمره في الإساءة إليه، والذي كالَ له التهم والذم في كتابه «الخطابة» ثم ساقه إلى محكمة الاستقلال بسبب حادثة محاولة الاغتيال، وفكّر حتى في إعدامه».

يقول شوكت ثريا:

«.. واستمر علي فؤاد باشا في كلامه قائلاً:

- كان وجهه مصفراً في هذه الأثناء، وكان يتنفس بصعوبة.

ويقوم علي فؤاد باشا بإعطائه جرعة من الماء على الفور، ثم يحاول تقوية روحه المعنوية فأخذ يذكره بالأمراض التي ألّمت به في الحروب السابقة ويقول له بأن الحرب الجديدة ما أن تُعلَن حتى يكون هو قد استرد عافيته بالتأكيد، ويذكِّره بأن الرجال الذين أتى بهم إلى الحكم سيكونون في مستوى المسؤولية بلا شك، ولكن النهاية المؤلمة كانت واضحة:

- لا تحاول التسرية عني دون مبرر... يجب رؤية الحقائق كما هي.

وقبل أن يفارقه علي فؤاد باشا يقول له بأن جميع أصدقائه القدامى والذين اشتركوا معه في النضال القومي مستعدون في كل وقت للانضواء تحت إمرته... تسرح عينا أتاتورك ويشير إلى فؤاد باشا بالاقتراب منه حيث يقبِّله من وجنتيه، ثم يشير إليه بالاقتراب منه ثانية، ينحني عليه فؤاد ويقبِّل أتاتورك من وجنتيه... ثم يخيم سكون عميق ويغمض أتاتورك عينيه بهدوء ويذهب في سرحان عميق.

كان هذا آخر لقاء لأقدم صديق له، وبالنسبة لعلي فؤاد باشا، فإن أتاتورك يحس بغربة وعزلة روحية.

حتى هذا المنظر من العجز أمام الموت لا يستطيع أن يعطيه مسحة الصدق وبدلاً من إنارة مشاعر الرقة فإنه يثير فقط مشاعر الذهول.

وفي يوم 9 من شهر تشرين الثاني الذي كان يصادف يوم الأربعاء دخل مرة ثانية إلى حالة الإغماء.

كانوا قد قاموا -بناءً على طلبه- بسحب الماء من بطنه قبل 8 ساعات من هذا الإغماء. وعندما أبدوا بعض التردد من سحب الماء بهذه الفترات القصيرة لخشيتهم من

تعجيله لحالة الإغماء بالرغم من إعطائه بعض الراحة للمريض هتف بالبقية الباقية من صوته المبحوح: إنني آمركم... اسحبوا الماء.

ما أكثر المعاني التي يحملها هذا الأمر الأخير.

فهو أمر الذي يبحث دون جدوى عن حل لإعادته إلى الحياة فكأنه يقول:

- إنني آمركم... أوقفوا الزمن...

وعندما يدخل في حالة الإغماء الثانية التي لا يستيقظ منها يكون آخر كلامه:

- كم الساعة؟

كانت الساعة تشير إلى ما قبل الحساب الإلهي بيوم واحد.

وفي الساعة التاسعة وخمس دقائق من يوم الخميس 10 تشرين الثاني (أكتوبر) يرحل عن هذا العالم... يرحل بعدما ذاب وذُوِّب وأصبح جلداً على عظم... يرحل كما ينساب آخر قطرة من الماء من خلال قمع.

وبالرغم من رغبته الشديدة في العودة إلى أنقرة فإنه حكم عليه بالبقاء على فراش الموت في قصر السلاطين الخلفاء الذي اغتصبه... بقي يذوب ويصغر يتفتت بين إصبعين من أصابع القدرة حتى يتحول إلى فضلة يابسة امتصّ ماؤها، ولم يبقَ سوى وضعها في التربة... ولكن التربة سترفضها ولا تقبلها، إذ ستقول لأتاتورك «انتظر يوم القيامة تحت ثقل 40 طناً من الصخر وادخل صندوقاً رصاصياً».

أثناء حالات إغمائه كانوا قد أخرجوا طاقم أسنانه ذا القاعدة الذهبية لذلك فإنه عندما كان يسلِّم روحه كان فمه -لعدم وجود الأسنان- قد اتسع حتى كاد أن يصل إلى حاجبيه وكأنه يبتلع رأسه هو... الرأس الذي ابتلع جميع مقدسات الأمة التركية كان الآن وكأنه يبتلع من قِبَل فمه هو.

وبينما كانت بناته بالتبني يولولن ويذرفن دموعهن التي لا تنضب يُسمع صوت طلقة نارية من إحدى دورات المياه -التي هي بسعة صالون ومغطاة بالرخام- للقصر...

إذ حاول أحد مقربيه الانتحار، ولكنها محاولة غير جادة ولا تتعدى المظهر إذ لا يصاب إلا بخدوش بسيطة لا تتجاوز خدوش شوكة».

منصة الجنازة:

قاموا أولاً بتحنيطه ثم وضعوه في تابوت رصاصي -على عادة المسيحيين- يزن نصف طن وذلك بدلاً من تابوت المسلم المعمول من الألواح النقية للشجر التي تفوح منها رائحة الطيب.

ولكون الفريق الأول «فخر الدين آلتاي» قائداً للجيش الأول الذي كان مركزه في اسطنبول فإنه يعين قائداً لمراسيم الجنازة:

(عشر سنوات من الحرب وما بعدها، ص501-502):

«كان من المقرر حسب البرنامج أن تؤخذ الجنازة من اسطنبول إلى أنقرة فقمت بسؤال أنقرة:

- هل ستُصلَّى صلاة الجنازة في اسطنبول أم في أنقرة؟

ولما لم أتلقَّ أي جواب حتى المساء قمت بالسؤال مرة أخرى، قيل لي:

- سيصل رئيس الوزراء السيد جلال باير وكذلك السكرتير العام السيد حسن رضا غداً صباحاً إلى اسطنبول حيث تستطيعون المباحثة آنذاك.

دهشت لهذا الجواب، إذ لم يكن هناك شيء يستلزم المباحثة.

وصلوا في اليوم الثاني، والتقيت مع «تويد مير»[1] في القصر فقالوا: إن الحكومة لكونها علمانية تخشى من وقوع بعض الحوادث الدينية أثناء صلاة الجنازة سواء كانت من اسطنبول أم من أنقرة، لذلك فهل من الضروري القيام بهذه الصلاة؟

---

(1) الظاهر أن هذا هو لقب السيد حسن رضا - المترجم.

قلت لهم:

- لا أعتقد أن شيئاً سيحدث، ويجب القيام بالصلاة، إن هذه الصلاة فريضة دينية وقد أصبحت عادةً وعُرفاً، وإذا لم تتم هذه الصلاة فإن هذه الأمة ستُخرجه من القبر بعد خمسين سنة أو بعد مائة سنة وستصلي عليه. لذلك فإني أرجو أن تقبل استقالتي من هذا الواجب إذا رأيتم أن لا تتم هذه الصلاة.

وقد وقف «تويدمير» أيضاً إلى جانبي.

ثم قالوا:

- حسناً ستتم هذه الصلاة... ولكن هل من الضروري أن تتم في جامع ؟؟

قلت:

- كلا... إن من الممكن القيام بالصلاة في أي مكان... هنا في داخل القصر أو في خارجه... ثم نأخذ الجنازة وتذهبون بها.

وبعد أن تمت الموافقة على هذا الوجه قال السيد «جلال» منهياً الاجتماع:

- لنستدعِ مدير الأوقاف «شرف الدين أفندي» لكي يقوم هو بهذه الصلاة.

وفي صباح اليوم التالي شكلت بضعة صفوف من المصلين في القصر حيث أمّ «شرف الدين أفندي» صلاة الجنازة، ثم حُمل التابوت على الأكتاف ووضع على عربة مدفع».

نرى أن هذه الجنازة -التي لا يجوز من الناحية الدينية الصلاة عليها- قد تمت الصلاة عليها بسبب إصرار شخص عسكري قد بقي في روحه أثر من آثار الإسلام، مع أن رئيس الوزراء البعيد عن الدين مثل سيده كان يعترض في البداية ثم اضطر إلى الموافقة أخيراً... أما الإمام الذي قام بهذه الصلاة فإنه كان شخصاً مناسباً لهذا الميت...

إن هذا الإمام -المسمى شرف الدين بالت كايا- الذي أصبح رئيساً للشؤون الدينية في عهد «إينونو» حاول إقناع «إينونو» بالقيام بكفرٍ لم يستطع أتاتورك نفسه القيام

به وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغة للعبادة وفرض قراءتها في الجوامع بقوة القانون... وكما يكون بعضهم ملكياً أكثر من الملك فإن هذا الشخص كان عدواً للدين أكثر من أعداء الدين أنفسهم.

ومن الطبيعي أن لا يكون هناك إمام يلائم ويناسب مثل هذا الميت النائم في هذا الصندوق الرصاصي أكثر من هذا الشخص.

وضعوا هذا التابوت الرصاصي في صالون المعايدة في القصر فوق ما يشبه المنصة، ثم عرضوه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها، وذلك على الطريقة المسيحية في عرض الموتى.

المشاعل تضيء حواليه من الجهات الأربعة والجنرالات يتناوبون في الوقوف بسيوفهم المشهرة في وضع التحية.

وهنا يحدث كل ما يحدث... فإن هذا المرتد الملقب بـ «الغازي» والذي قام بتسميم الأمة التركية حياً أظهر وهو ميت -وذلك كهدية أخيرة منه- الثمن الباهظ له ونوع الإيحاء والأسلوب الذي خلفه من ورائه:

إذ مات نتيجة الازدحام الشديد لجموع الناس والطلبة 14 شخصاً ذهبوا فوراً إلى جانب أتاتورك كما جُرح المئات من الأفراد وفقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع أشخاص عديمي الحياء... ويمكن استخلاص هذه الحادثة بكل سهولة بالرجوع إلى الجرائد الصادرة في تلك الأيام.

عندما كان حياً كان قاتلاً... أما وهو ميت فتأمل ما قدر على إنجازه.

ولا تنسوا أن هؤلاء الذين مارسوا هذه المراسيم أمام تابوته الرصاصي من هتك الأعراض وقتل الأنفس لم يكونوا سوى الجيل الذي ربّاه في ظرف 15 سنة.

الصليب المنكس:

ويسيل في شوارع اسطنبول سيل من الدموع... فعندما يخرج التابوت الرصاصي يوم السبت 19 تشرين الثاني أمام صف كبير من الجنود على عربة مدفع ملفوفاً بالعلم

التركي متوجهاً باستقامة إلى «سراي بورتو» يبكي الجميع صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً وينشج بعضهم وهو يعض على منديله أو يلطم خديه.

ما هذا الحال؟

وما تفسيره؟

التفسير بسيط جداً

إن الذين لم يحسوا نحوه بعاطفة ألم تعادل عاطفة ألمهم نحو قطة ماتت في بيوتهم والذين لم يشعروا بعاطفة أسى لفقده تعادل عاطفة أساهم لتهشم فنجان في دواليبهم....

مثل هؤلاء الناس عندما رأوا مراسيم تشييع كبيرة على مقاييس الدولة يحف بها الجنود ببنادقهم وبآلاتهم الموسيقية وما ولَّدته هذه المراسيم من ردود فعل انفعالية جعلتهم يبكون لمعنى لم يحسوا به ولشيء لم يفهموه... كانوا يبكون لأكبر أكذوبة. وهذا البكاء الذي ما كان أي فرد يقوم به وحده أصبح يسري -بفضل قانون اجتماعي معروف- من فرد إلى فرد كلما نظر أحدهم إلى الآخر.

شوكت ثريا:«تمت صلاة الجنازة خلف الجنازة في البهو الكبير للقصر في الساعة 8:10 من صباح السبت المصادف 19 تشرين الثاني. وفي الساعة 8:14 خرج التابوت من القصر محمولاً على الأكتاف حيث وُضع على عربة المدفع الذي كان موجوداً في نهاية الدرج الرخامي للقصر. وكانت قد تشكلت هيئة رسمية (للتشييع). خرج الموكب من باب حديقة قصر «دولمه باغجه»... الطرق والمرتفعات والنوافذ والأسطح مزدحمة بالناس ازدحاماً شديداً. وبعد ساعتين من رحلة الحزن بين أصوات البكاء والعويل والتشييع وصل موكب التشييع إلى «سراي بورتو» في حديقة قصر «طوب قابي» وليس من الممكن وصف الرحلة طيلة هذا الطريق.

ينقل التابوت من «سراي بورتو» إلى حاملة الطوربيد «ظفر» ومنها إلى المدمرة «ياووز»... كانت الساعة قد بلغت 13:40 وفي الساعة 13:41 انطلق صوت 101

طلقة مدفع أنّ معه الساحلان اللذان كانا يَعجّان بالناس. وبعد أن تحركت مدمرة «ياووز» بدأ موكب البواخر للدولة الأجنبية بالتحرك.

وتقوم «أزميت» بإيفاء مراسيم الوداع للجنازة. ثم تبدأ الرحلة إلى أنقرة... وفي محطة أنقرة -التي كانت تستقبل أتاتورك على الدوام بالتصفيق ومظاهر الشوق- كانت أنغام الموسيقى الحزينة تملأ المكان. وكانت منصة جنازة قد هُيِّئت أمام مجلس الأمة الأعلى. وبعد أن وضعت الجنازة على هذه المنصة بدأ سيل من الناس بالمرور أمامها ليلاً ونهاراً.

بعد أن انتهت الترتيبات النهائية لمراسيم الدفن اتخذ ممثلو الدول الأجنبية وقطعات الاحتفال العسكرية للجيوش الأجنبية وأفراد الحكومة والهيئات الشعبية وأهالي أنقرة أماكنهم المحددة. وفي الساعة 10:45 أخذ التابوت من فوق المنصة ووضع على عربة مدفع حيث توجه من أمام مجلس الأمة الأعلى وبطريق المحطة إلى متحف «أتَنو غرافية» وهذا الطريق بين شارع مجلس الأمة وبين المحطة وشارع «الدفاع عن الحقوق» كان الطريق نفسه الذي استُقبل فيه أتاتورك يوم 27/ 12/ 19 عند وصوله إلى أنقرة بالطبل والزمر وبالرقصات الشعبية الحماسية من قِبَل المشاة والفرسان وأفراد المقاومة الشعبية عندما كان مجرد شخص اسمه مصطفى كمال».

وبعد فترة قصيرة نجد أن الممثلين من جميع أنحاء العالم تقريباً يقفون وراء التابوت الرصاصي سواءً من دول العالم الغربي الذي قام بالاستعمار المادي والمعنوي للبلدان الشرقية أم من ممثلي جيوش البلدان الشرقية الذين لم يكونوا سوى نماذج صغيرة من أتاتورك من ناحية ادعاء البطولة الزائفة ومن ناحية التقليد الفردي الأعمى للغرب... البزات العسكرية الملونة والأعلام من كل لون تملأ المكان... وبين هذه الأعلام نجد أن أعلام الأمم الشرقية تمر وكأنها خرفان تساق إلى مكان الذبح بينما نرى الأعلام الغربية تمر بغبطة الجلادين منتشية بمشاهدتها لانتصارها.

أجل انتصارها... لقد كان هذا بالنسبة إليها نصراً، وكان مفتاح النصر بيد العَلَم الإنكليزي.

كانت إنكلترا قد أرسلت إلى جنازة أتاتورك سرية من جنود الحرس بملابسهم الزاهية وعلى رأسهم المارشال «بورتفود» كان قد حارب سابقاً في «جنه قلعه».

وهذا التصرف الصادر من إنكلترا -التي كانت مثالاً للغرور- يحمل معنى واسعاً سعة بحار إمبراطورياتها:

كان العلم الإنكليزي المنكّس أمام التابوت الرصاصي يريد أن يقول:

أيها الميت المقدس! إن السبب الذي دعاني إلى إبداء مثل هذا الاحترام الذي لم أبده لأي ميت غيرك هو ما قدمته من خدمات إلى العَلَم الإنكليزي. إذ إننا فشلنا في جميع محاولات الانتقام الذي حاولنا أخذه من الإسلام بواسطة الحروب الصليبية في العصور القديمة ثم بواسطة التعرض والهجوم على حدود الإمبراطورية ثم بواسطة عملائنا في الداخل... ولكنك نجحت أنت في هذا. وقد وجدت أنت العلاج الذي يجعل مئات الملايين من المسلمين الذين هم تحت راية سلطتي ينامون وعيونهم مفتوحة نوماً لا يستيقظون بعده مع إعطائهم وهماً بأنهم قد انتبهوا وفتحوا أعينهم، لذلك فإن الوطن الإنكليزي من أقصاه إلى أقصاه يشعر بالامتنان نحوك.

إن هذا المعنى الذي نطرحه من خيالنا على لسان العَلَم الإنكليزي... هذا المعنى نفسه وارد وبأسلوب واضح في كتاب «الأتراك» من صفحة 34 إلى صفحة 45 من منشورات «مليت» لمؤلفه «ديفيد هوتمان».

«لقد مرت تركيا خلال ما يقرب من مئتي عام من المراحل المختلفة، لتبني الحضارة الغربية، ولكن -كما قلت سابقاً- فمصطفى كمال الذي عاش قبل أربعين سنة كان أكبر من تبنى هذه الحضارة، لقد كان هدف أتاتورك وهدف المحيطين به هو جعل الأتراك قطعة من الحضارة الغربية وجزءاً من أوروبا. ولقد أدركوا بشكل جيد أن أكبر عائق بين تركيا وأوروبا هو الدين ومهما كتب المؤرخون فإن الأكثرية الساحقة من الشعب كانت تنظر إلى أوروبا باعتبارها عالماً للمسيحيين، أو كمركز للمسيحية في الماضي، وتنظر إلى العالم الإسلامي كشيء منفصل عن عالم الغرب وعن أوروبا.

لذلك فإن جميع «الانقلابات» والإنجازات الثورية التي حققها أتاتورك في الفترة ما بين (1920-1930) كان تتعلق بالدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة -وقد خطا أتاتورك خطوات واسعة جداً في سبيل إبعاد تركيا عن الإسلام. وعن القواعد الإسلامية. فقد ألغى مؤسسة الخلافة ورفع التدريس الديني في المدارس وسدّ التكايا التي كانت تحتل مكاناً بارزاً في حياة الأتراك في العهد العثماني.

كما منع الطربوش وأتى بالقبعة. وقد كان هذا في الحقيقة ثورة ضد الإسلام، ذلك لأن المسلم كان يستطيع السجود وعلى رأسه الطربوش، بينما كانت القبعة تعتبر لبساً مسيحياً.

ولكن أتاتورك لم يكتفِ بهذا أيضاً، إذ قام بمنع الأحروف العربية التي كان الأتراك يكتبون بها لغتهم منذ ما يقرب من ألف عام، وأتى بالأحرف اللاتينية بدلاً منها. وبجانب كون الأحرف العربية صعبة فإنها كانت ذات علاقة قريبة بالدين. فالأحرف العربية لم تكن تشكل فقط شكل الكتابة من القرآن، بل كانت طريقة كتابة الأدب الديني بأجمعه وجميع الكتابات المقدسة الموجودة في الجوامع، والحقيقة أن الأحرف العربية التي تمتاز بالجمال أصبحت تؤدي دوراً جمالياً في الفن الإسلامي بعد أن حرم الإسلام التماثيل والصور.

في معظم البلدان الإسلامية نرى وكأن لوحات الكتابة العربية تحمل قدرة سحرية، أما الأحرف اللاتينية فإن المسلم يحس بتجاهها وكأنه أمام مسيحي وجهاً لوجه، ولفهم الحساسية الموجودة ضد الأحرف اللاتينية في تركيا يكفي إلقاء نظرة على نسبة الذين لا يعرفون القراءة والكتابة والتي تبلغ الأربعين في المائة بالرغم من مرور أربعين سنة على حدوث انقلاب الحرف هناك.

ولكي يكمل أتاتورك عملية قطع جميع الروابط مع الدين الإسلامي. فإنه شجع من كل قلبه فنون التصوير والتحف، كما أنه بدأ بتنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية وبدأ باستعمال الكلمات التي كان الأتراك يستعملونها قبل اعتناقهم الإسلام. وقد أدى هذا الإصلاح إلى تغيير كبير جداً في اللغة التركية بحيث إن الفرق بين اللغة

التركية التي كانت مستعملة في سنة 1920 عن اللغة التركية المستعملة اليوم يفوق الفرق بين اللغة الإنكليزية المعاصرة وبين اللغة الإنكليزية قبل 600 سنة.

وفي الحقيقة فإنه بسبب التغيير الذي أصاب اللغة التركية فإن الشعب كان يجد صعوبة في فهم الخطب التي كان يلقيها أتاتورك في سنواته الأولى.

ولم يكتف أتاتورك بهذا أيضاً فقد ألغى الشريعة ووضع مكانه القوانين الغربية.

إن قبر أتاتورك بالنسبة لأنصاره من الكماليين يعتبر شبيهاً بـ «مكة» إنه مكة العلمانية.

وقبل مدة قصيرة جرى بيني وبين أحد الدبلوماسيين الأتراك المعروفين حديث ذو دلالة، فقد قال الدبلوماسي التركي بأنه عندما صرح في إحدى المؤتمرات الصحفية هناك بأنه مسلم فإن كلامه قوبل بدهشة بالغة بل بعدم التصديق، ومن المحتمل أنهم تعجبوا كثيراً إذ هل يعقل أن مثل هذا الشخص ذي المؤهلات العامة يحمل معتقدات دينية؟ ويجوز أيضاً أنه لم يخطر ببالهم بأن من الممكن أن يكون التركي مسلماً.

إن معظم المثقفين الأتراك الذين نشؤوا في ظل علمانية أتاتورك التي دامت أربعين سنة بعيدون عن الدين على الأقل من ناحية المظهر، وعند مثل هؤلاء لا نجد أي عائق ديني بينهم وبين أوروبا، ويمكن القول بأن تركيا لم تكن قريبة من أوروبا مثل هذا القرب في أي وقت آخر.

إن الكلمات التي سجلها زعيم الثورة الجنرال «كورسيل» في دفتر الشرف «أيها الأب العظيم! اسمح لنا بالسير في طريقك بشكل مناسب». كانت تحمل نغمة ومعنى الدعاء، وكانت هذه الكلمات تعبيراً عن نوع العلاقة الموجودة بين الأتراك وبين أتاتورك.

إن لكل أمة عظماءها، ولكنني لا أظن أن هناك حباً يماثل الحب الموجود لأتاتورك في تركيا الحديثة، فهو «الزعيم الأبدي» وعندما يتحدث عنه في تركيا يُرمز له بالحرف الكبير (هو) فكأن أتاتورك قد أُلِّه. وأطفال الأتراك يربون على أساس أن يكونوا أناساً لا يترددون من التضحية بأنفسهم في سبيله.

وفي الساعة التاسعة وخمسة دقائق من يوم ذكرى وفاته -حيث سلَّم نفسه الأخير- تقف كل أنواع الحركة مدة دقيقتين في جميع أرجاء المملكة حيث يقف الجميع وقفة الاحترام، وتصدر الجرائد بالعناوين السوداء دليلاً على المأتم، وتصدر المئات من المقالات التي تعكس جميع جوانب حياة الرجل العظيم، وتُقرأ معظم هذه المقالات مثل المقالات التي تمدح الإله...

إن الكمالية تشبه ديناً توحيدياً. وأتاتورك مثله مثل الله واحد إذ لا يمكن تشبيه أحد به (إن أحسن سيرة كُتبت في تركيا حول أتاتورك يحمل عنوان «الرجل الأوحد» وكأن أحداً غيره لم يوجد) وحتى بعد مرور 34 عاماً على وفاته فلا يزال معجبوه يتكلمون عن قدرة عينيه الزرقاوتين الحديديتين، وعن نظراته الثاقبة وعن طاقته الهائلة وعن عزمه الذي لا يهتز. إن أتاتورك كان فعلاً شخصاً غير اعتيادي. ولا يزال معجبوه وهم في غمرة أسى الحوادث التي مرت بعد وفاته وكأنهم ينتظرون مجيئه إلى الدنيا مرة ثانية.

إن المبدأ الرئيسي في الثورة التركية هو العلمانية في حقيقة الأمر. وقبل فهم معنى هذه الكلمة (أي العلمانية) فلا يمكن فهم تركيا الحديثة. إن العلمانية في الغرب تعني فصل الكنيسة عن سلطة الدولة، ولكن العلمانية في بلد مسلم تحمل مفهوماً أكثر حدة ذلك لأن الإسلام ممتزج بالدولة بشكل قوي، فالشريعة تحكم حياة الأفراد في كل نواحيها، ولم يستطع أي بلد إسلامي اختيار طريق العلمانية سوى تركيا، ولذلك فإن تركيا أحدثت بموقفها هذا هزة شديدة في العالم الإسلامي».

إن هذه اللوحة المرسومة من قِبَل معادٍ للإسلام وثيقة خطيرة تبين لأنصار الحق والحقيقة ماهية مصطفى كمال والهدف الذي يسعى لتحقيقه، فهذا الشخص الأوروبي يفشي بهذه الأسطر سرَّه.

وفي 24 تشرين الأول 1922 يكتب الكاتب المشهور «هيمنغواي» في مقالة له في جريدة The Toronto Daily Star بعنوان «رسائل من اسطنبول المحتلة ومن الحرب العالمية الأولى» منشورات «مليت» (صفحة 25):

«حتى ما قبل بضعة أشهر كان العالم الإسلامي ينظر إلى مصطفى كمال باعتباره صلاح الدين الأيوبي الثاني. وكان يأمل منه أن يوجه الإسلام في حرب ضد المسيحيين ويكون رائداً أمام جميع البلدان الشرقية في حرب مقدسة. ولكن العالم الشرقي بدأ الآن يفقد تدريجياً ثقته به، وقد قال لي المسلمون الذين تحدثت معهم: لقد خاننا مصطفى كمال. ولم يعد أحد يتكلم عن الحرب المقدسة. إن هذا القائد المظفر مصطفى كمال أصبح بهذا الوضع عندما ظهر بهويته المدنية وذلك أنه يأخذ المكاسب المادية المقدمة إليه ويقدم التنازلات التي يعتبرها دعاة الإسلام إهانة لهم. وعندما يحصل على مكاسب يحاول فرزها وإخفاءها وبعد أن يتأكد منها يحاول وضع الخطط للحصول على المزيد منها».

إن رجل الغرب هذا يعترف هنا بصراحة بأن مصطفى كمال كان تحت الإمرة المادية والمعنوية للجيوش الصليبية.



كلمة أخيرة

إن هذا الرجل الذي كان ابناً غير شرعي... وبعيداً من أن يكون تركياً...

هذا الرجل الذي لم يكن له مثيل في عبادته لنفسه وفي شهوته للحكم.

هذا الرجل الذي لم يكن له أية يد في تحقيق أي هدف قوي أو في أي انتصار...

هذا الرجل الذي لم يحمل أية فكرة ولا أية إيديولوجية.

هذا الرجل الذي كان مستغلاً ونصاباً وسارقاً -بالمفهوم المعنوي وبالمفهوم المادي- وقاتلاً وجباناً وغارقاً في الفحش...

ثم لو جمعنا كل هذه الأمور لما بلغت شناعتها جزءاً من المليون من شناعة بيعه لمقدسات هذه الأمة.

هذا الرجل الذي كان عدواً لله في أفظع صور العداوة... في صورة عداوته للرسول الحبيب وفي صورة هدمه للإسلام.

لمثل هذا الرجل أي تعريف يستطيع أن يحيط به؟

إن رئيس الوزراء[1] الأخير -والذي مشى خلف التابوت الرصاصي- قال مرة: «إن حبه عبادة».

---

(1) المقصود هو عصمت إينونو. إذ إن المؤلف عندما ألّف هذا الكتاب كان إينونو رئيساً للوزراء - المترجم.

بينما نقول نحن إن العكس هو الصحيح.

نقول: «إن بغضه عبادة، وإن أي فرد لا يحمل في قلبه بغضاً له لا يحمل إيماناً في قلبه». أي أن بغضه دخل ضمن أصول الإيمان إن هذا الرجل الذي قال مرة: «سنخنق الأعداء في حريم الوطن» والذي باع حرمة الوطن ومقدساته للصليبيين... هذا الرجل إن لم ينقل تابوته الرصاصي في طائرة ويُقذف منه فلا خلاص لتركيا ولا خلاص للعالم الإسلامي الذي يحاول تقليد تركيا.



بعض مشاهير الأشخاص
الذين وردت أسماؤهم في الكتاب



مصطفى كمال أتاتورك



صورة أتاتورك أيام حكمه وعليها كلمات إهداء منه إلى رؤوف أورباي



أتاتورك مع زوجته لطيفة هانم



عصمت إينونو باشا



السلطان وحيد الدين



البطل رؤوف أورباي قائد البارجة حميدية



القائد الفذ نور الدين باشا



المارشال فوزي جقماق باشا



جعفر الطيار باشا



الدكتور رضا نور، صاحب المذكرات المشهورة



كاظم قرة بكر باشا



علي فؤاد باشا



جويد بك وزير مالية الاتحاديين الذي أعدمه أتاتورك



يونس نادي بك



الشقي طوبال عثمان آغا



يوسف كمال بك



خالدة أديب



الحاخام نعوم، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة الإسلامية العثمانية

@iAbubader

فهرس

THE IDOL MAN OF TURKY

الرجل الصنم

مصطفى كمال أتاتورك

حياة رجل ودولة

إن هذا الكتاب سيكون بالتأكيد مفاجأة كبيرة بالنسبة للكثيرين...

ذلك لأنه يقدم لهم شيئاً لا يتوقعونه...

شيئاً مخالفاً لكل ما قرأوه أو سمعوه فترسخ في أذهانهم كحقيقة لا يشكون في صحتها...

إن المرء لا يملك إلا أن يتذكر الحكمة القائلة من أن الناس مستعدون لتصديق كذبة سمعوها ألف مرة أكثر من استعدادهم لتصديق حقيقة لم يسمعوها إلا مرة واحدة.

ولكنه بالرغم من هذا فإن الحق يستطيع أن يشق طريقه بين ركام الأضاليل، ويستطيع أن يعلو ويظهر.

يستطيع الحق أن يفوز في كل صراع يدور مع الباطل... ولكن بشرط واحد...

بشرط أن يتوفر هناك صراع شريف، ويتوفر هناك الجو الذي يستطيع فيه الحق أن يقول كلمته.

إن الطريقة الموضوعية للحقيقة في إظهار وإيضاح وتفسير الحوادث بحياد، وقطعية المختبر بالاستناد إلى موازين العقل والحس السليم المشترك بين البشر خارج نطاق جميع أشكال المعتقدات وإلى ما توفره هذه الموازين من أحكام وتقييمات.



الأهلية
الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2013
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962